

ديوان

محمد إقبال
زبد فیکو

إعداد
سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني

خالد ابن كثير
(دمشق - بيروت)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دِيَوَان

مجلد اول
دوبلہ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثالثة

1428 هـ - 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 24×17

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجبالي

ص.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



الدِّيَّوَانُ السَّادِسُ

ضَرْبُ الْكَلِيمِ
ضَرْبُ كَلِيمٍ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور عبد الوهَّاب عزام

هذا الديوان الثالث^(١) لمحمد إقبال باللغة الأردوية ، نُشر عام ١٩٣٦ م ، ولم ينشر في حياته ديوانٌ بعده ، يشتمل هذا الديوان على آراء ونظرات في الناس جماعات ووحداً وفي الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة ، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ، ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر .

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صورها خياله ، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً ، ويجاوز ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل في الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام في هذا الديوان (ضرب الكلیم) شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، لكنه في جملة أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

والديوان في جملة ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقا وغناء ، كما قال إقبال :

كفاحٌ شديد ، وضربٌ شديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سمّاه إقبال « ضرب الكلیم » ، رمزاً إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

فلعل القارئ يقدّر حقائقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته .

(١) وهو الثالث بالأردوية ، وأما بترتيب الدواوين بالفارسية والأردوية فهو السادس .

محتوى الديوان

قسّم الشاعر هذا الديوان على ستة أقسام ، وقدم قبلها مقطعتين وقصيدة :
القطعة الأولى أبيات قدم بها الديوان إلى أمير ولاية بهوفال حميد الله خان ،
والثانية يُخاطب فيها القراء ، والقصيدة سماها تمهيداً .

وهذه أقسام الديوان الستة :

القسم الأول : الإسلام والمسلمون .

القسم الثاني : التعليم والتربية .

القسم الثالث : المرأة .

القسم الرابع : آداب الفنون الجميلة .

القسم الخامس : سياسات المشرق والمغرب .

القسم السادس : أفكار محراب حبل الأفغاني .

وهذه الأقسام مؤلفة من قطع صغيرة بين بيتين وعشرة ، لا تتجاوز العشرة
إلا قليلاً .

والقسم الأخير منظومة واحدة مقسمة عشرين قسماً تختلف أقسامها أوزاناً
ووفافي ، ولكن الشاعر جعلها منظومة واحدة وربط بين أقسامها بأعداد متوالية .

وقد نقل هذا الديوان من الأردوية إلى العربي شعراً الأستاذ الدكتور
عبد الوهاب عزام ، وكتب الأستاذ غلام أحمد برويز لهذا الديوان كلمات قيمة
يعرّف فيها هذا الديوان ، يقول فيها :

« هذا الديوان الذي نقدم إلى القراء ترجمته ، سماه العلامة إقبال « ضرب
كليم » ووصفه بأنه (إيذان العصر الحاضر بالحرب) وأرى أنّ هذا الوصف
لا يخصّ ضرب الكليم ، بل يشمل جانباً كبيراً من رسالة إقبال العظيمة ، فنحن
إذا قسمنا رسالة إقبال انقسمت إلى قسمين خطيرين :

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيف المسلمين . فقد علموا أن سرَّ القوة والسطوة في هذه الأمة المجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس . فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ، ويربكوها في حباله « الإسلام غير القرآني » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغرُّ هذا السراب ماءً . لقد أدخلوا في الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشريعة اليهود المعنّية بالصور والأشكال ، كذلك عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلت من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومةً من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، وبشير الحياة للإسلام القرآني .

والقسم الثاني من رسالة إقبال احتجاجٌ دائم على هذه الفتن التي تموج بها الحضارة الغربية ، والتي يذهب موجهها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغناء . وضرب الكليم هو إيذان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذا يشتدُّ إقبال في معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

إنَّ من يتدبر القرآن يتجلَّى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيَّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد ، وحدَّ حدوداً ، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعدِّ هذه الحدود وهذه المقاصد ، والحدود لا تتبدل ، فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أنَّ للحياة مظاهر مختلفة متغيِّرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير ، وهذا ينبوع أصل هذه الحقائق التي ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدي حتماً إلى هذه النتائج .

(أ) كلُّ إنسانٍ مودعٌ في فطرته إمكانات الحياة ، وغاية الحياة نموُّ هذه الممكّنات وتجلّيها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلألأت تجلّت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعي الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحادٌ في أخوةٍ شاملةٍ عامّة ، لا تحدها الأوطان ، والأقوام ، واللغات .

(ج) ثم فلاح النوع الإنسانيّ في أن يمضي في الحياة على شريعةٍ واحدة ، يتلقى بالوحي ، وهو اليوم محفوظ بين دفتي القرآن تحت هذه السماء .

في الإسلام نظامٌ للمعايش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضي الإنسان به على سنن التقدّم والترقي ؛ حتى يبلغ في مراحل الكمال سدره المنتهى .

واليك خصائص هذا النظام :

(أ) في هذا النظام يستطيع كلُّ فردٍ في الجماعة أن يمثل في نفسه الصفات الإلهية التي يسمّيها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهي ينبوع القيم الدائمة في الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتتجلّى في الإنسان بصيرة يصعّبُ بها حكمه ، ويستقيم رأيه ، فيعلم أيّ هذه الصفات الإلهية تقابل أيّ الحوادث الخارجية التي تنتابه .

(د) ثم يبدو في الجماعة - التي تؤلفها أفرادٌ من هذا القبيل - قدرةٌ على تسخير عالم الطبيعة ، وصلاحيّةٌ للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة

وائتلافها تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كلُّ واحدٍ في هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راجٍ أجراً ، ولا عوضاً . فتيسر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلل لهم الوسائل والأسباب أبداً .

هذه خلاصة المدنية القرآنية في كلماتٍ قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهي تناقض هذه الأصول كلَّ المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : إنَّ الحياة تنشأ من اجتماع العناصر ، المادية اتفاقاً ، وتفنى بتفرُّق هذه العناصر . والدنيا هي دنيا هذه العناصر المادية التي يتغيَّر فيها كلُّ شيء ، فليس فيها قيم دائمة ، وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان في هذا هلاك آحادٍ ، أو جماعاتٍ أخرى) . والشَّرُّ ما يضرُّ واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوحدان والجماعات في الحياة أن تجرَّ إلى أنفسها منفعةً . وعمل العقل والعلم أن يهيئ الأسباب والوسائل أو الحيل والمكائيد لتحصيل هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) في الأفراد : أن في كلِّ ستَّة من تلك الأفراد فرداً يختلُّ عقله ، فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دَلَّ إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة في الجماعات : أن أمم العالم في شغلٍ بالقتل ، وسفك الدماء ، والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل ، والسفك ، والتدمير .

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة وال عمران عند الأمم الغربية ، فتجلت له هذه الحقيقة : إنَّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في الشُّب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالاً إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥ م :
« ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العرشُ على غصنٍ رطبٍ ضعيفٍ مضطرب » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذّر الناس عامّةً والأمم الإسلامية خاصّةً من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .

وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية^(١) ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجهٍ عام ، وهي : أنَّ شعر إقبال حافل بكلماتٍ معينة ، عربيةً وفارسيةً ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذ لا يتأتى لأحدٍ أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملماً بحدود تلك المصطلحات الخاصّة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ونظر ، سوز وساز ، أو درويش وقلندر ومردخُر « وأخرى غيرها . ومع أنّ كلّ واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذي حوله يدور شعره كله ، ألا وهو « خودي = الذاتية » . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبالاً أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذي لم يلبث أن اختفى في أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعني إقبال بـ « خودي » ؟ .

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تأتي إلا البسط والتفصيل ، لأنّ فلسفة إقبال هي فلسفة « خودي » سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الإحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمّتها . وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح في « ضرب الكلم » يتحتم علينا أن نعرّفه تعريفاً خاطفاً بكلمة موجزة قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردي ، أو بعبارة أخرى « أنا » حقيقة مستقلة ، أم هي من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذي قلّمنا أغفل مفكرو أمة من أمم العالم الإجابة عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلّا بالوجود الكلّي ، وأنّ ذات الإنسان (شخصيته أو « أنا ») وهم وخدعة لا غير . ثم إنّ هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذي هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرّج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكي يتلاشى حجاب ذات الإنسان في بحر الوجود الكلّي . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هي فلسفة الحياة التي ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتي حوّلت المسلمين من أمة دائبة في العمل إلى جمادٍ لا حراك به .

وقد عُني إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعني فلسفة « خودي » ، وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة في أن الوجود ليس كلياً يشمل

الكون من حيث المجموع ، بل هو فردي يخصُّ جميع الموجودات كُلاً على حدة ، حتى أن الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون في طبيعة وجوده الفردي الخاص . فـ « خودي » عبارة عن أسمى صورةٍ للحياة الفردية التي بها تتشكَّل شخصية الإنسان ، ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودي » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال : أن الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذي يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودي » وإحكامها . و« التشبه بالله » إنما يعني استمرار الإنسان في التحلِّي بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » في نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذي يكشف عن قوة « خودي » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التي تعترض سبيله في الحياة ، ولا يخفى أن أعظم تلك الموانع هي المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أن المادة شرٌّ يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فإنها ليست شراً ، إنما هي وسيلة لإيقاظ الهمم ، وإبراز قوى الإنسان من مكانها .

واحتناك الموانع والعوائق ، وتغلب الإنسان عليها يصل بـ « خودي » إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت - الأمر الذي ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكلُّ عملٍ يؤدي إلى تقوية « خودي » خير ، كما أن كلَّ عملٍ يؤدي إلى إضعافها شر .

وبيين إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودي » فيقول : إنَّ المرحلة الأولى هي (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فإنَّ الرغبات والأمانى هي عين الحياة وأصل القوة من حيث إنَّها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هي مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق إلى الغايات هو ما يسمَّى بـ « العشق » في عرف إقبال . ثم إنَّ هناك ثلاثة شروط للنجاح في هذا الجهد : أولها الطاعة ، أعني : الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمعٍ على النظام الذي جاء به

القرآن . وينتج من الطاعة ضبط النفس ؛ الذي هو الشرط الثاني للنجاح . وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أي : تغيير مجراها ، وتحويل وجهتها ، بحيث يتم التوازن بينها ، ذلك التوازن الذي يتجلى بأكمل وجه في الذات الإلهية الجامعة لصفات متضادة متعادلة للغاية .

وإذا تمّ تطهير الفكر والعمل ، وتهذيب النفس على النحو الذي تقدّم ، وصل الإنسان إلى المقام الذي يسمّيه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعني إقبال بـ « نيابة الله » القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم . (ولا تعني نيابة الله الحلول محلّ الله ؛ لأن ذلك يستلزم خلوّ المحل ، وانعدام شاغله أولاً) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذي يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودي » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ، ولم تغلب الدنيا عليه - الحال التي تسمّى في عرف إقبال « الفقر (حال الدرويش أو القلندر) » وهي عبارة عن تسخير جميع الكون ، ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التي ذكرها بقوله « الصمد » و« غني عن العالمين » . والجماعة التي تنتظم أفراداً هذه حالهم هي الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

ميان امتان والامقام است كه آن امت دو كيتي را امام است
نياسا يد زكار آفرينش كه خواب و خستكي بروي حرام است

(إنها تعلو فوق الأمم ؛ لأنها أمة نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأنّ النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] وقيل عنها أيضاً :

« ياغان عندليبي خوش صفييري براغان جره بازي زودكبري
أمير أو بسطاناي فقيري فقير أو به درويش أميري
(إنها في البساتين عندليبُ حسن التفريد ، وفي الصحارى باز خفيف سريع
الانقراض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ، كما أنَّ الفقير فيها
أمير على الرغم من كونه درويشاً)^(١) .

﴿ لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(١) قام بترجمة هذه الكلمات من الأردوية الأستاذ الدكتور محمد يوسف (المدرس بكلية
الأداب بجامعة القاهرة) .

فَطْرَهُ الحُرَّ لَا تُطِيقُ مُقَاماً فائلف السيرَ دائباً كالنسيم
ألفُ عَيْنٍ تَشُقُّ صَخْرَكَ فاضرب بَعْدَ غَوْصٍ فِي (الذَّاتِ) ضَرْبَ الكَلِيمِ

إلى القارئ

إذا لم تُصب في الحياة النظر فليس زجاجك كُفء الحجر^(١)
كفاح شديد ، وضربٌ شديد فلا ترجُ في الحرب عَزَفَ الوتر
مَعِينُ الحياة دمَاءُ القلوب ولحنُ الدِّمَا لا المِياهِ الفِطَرِ^(٢)

(١) أنت بالنظر الصائب صلبٌ تطيق الصدام في الحياة ، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام .

(٢) لحن المِياه يستخرج من أوان تصف ، ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة ، ويضرب عليها . وهذه تسمى « جل ترنك » أي : لحن الماء . فقال الشاعر : إنَّ الفطرة لحن دم ، لا لحن ماء . يعني : أن أنغامها تنبعث من دم الناس ، لا من المِياه .

تمهيد

(١)

يَقْظَةُ « الذات » لا أراها بدَيْرٍ لا ولا تُجْتَلَى لَدَى المِحْرَابِ
 إِنَّ رَوْحَ الشُّعُوبِ فِي الشَّرْقِ غَافٍ من سُمُومِ التَّرِياقِ ، رَهْنُ غِيَابِ^(١)
 إِنَّ تَضِيقَ بِالْجِهَادِ فِي الأَرْضِ ذَرَعاً فَحَرَامٌ مَسْرَاكُ فَوْقَ السَّحَابِ^(٢)
 لَيْسَ مِنْ خَيْفَةِ المَمَاتِ نَجَاةٌ إِنَّ تَر (الذات) هَيْكَلًا مِنْ تَرَابِ^(٣)
 لَيْسَ يُخْفِي صُرُوفَهُ الدَّهْرُ لَكِنْ لَكَ قَلْبٌ وَنَاطِرٌ فِي حِجَابِ
 قَدْ مُنِحْتُ الهَشِيمَ فِي آسِيَا إِذْ أَنْ نَارِي حَديدَةٌ فِي التَّهَابِ^(٤)

(٢)

ذَنْبُ إِقْبَالِ البِيَانِ وَإِنْ كَانَ شِبْهَ الزَّمَانِ نَزَرَ الوَصَالِ^(٥)
 هَاجَ أَنْعَامُهُ عَكُوفاً عَلَى الخَشْخَاشِ مَوْتَى ، إِلَى طَلَابِ المَعَالِي
 فَمَهِيضُ الجَنَاحِ أَلْفُ دَارٍ قَدْ رَنَا اليَوْمَ لِلْفَضَاءِ العَالِيِ^(٦)
 فَعَدَاهُ التَّغْرِيدُ فِي الأَسْحَارِ وَحِينَئِذٍ وَمُتَعَةً الأَبْصَارِ^(٧)

(١) الترياق : الأفيون .

(٢) يقول : إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض ، فاشتغاله بالفلك ، وما وراءه حرام .

(٣) يرى إقبال أن الحياة الخالدة بقوة الذات . فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشية الموت .

(٤) ناري شديدة الالتهاب ، فأنا قادرٌ على إحراق هشيم آسيا ؛ أي أممها التي هي كالهشيم ؛ أي إزالة مفاسدها وإعدادها للحياة .

(٥) إقبال قليل المخالطة للناس ، ولكن بيانه سائر فيهم .

(٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفيون حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير .

(٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد . . إلخ جزاء إيقاظه الغافلين .

القسم الأول

الإسلام والمُسلمون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصبح

لكنما الصبحُ الذي ارتجَّت له يُدعى بيومٍ أو غدٍ في الأزمنِ
إنَّا لنجهلُ مطلعَ الصُّبحِ الذي ظلَّمُ العوالمَ ، من أذانِ المؤمنِ

لا إله إلا الله (١)

مُنْتَسِرٌ في الذاتِ معنَى بعيدٌ	سُرُّهُ	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
سيفُ الذاتِ قاطعٌ غيرُ نابٍ	شَحْدُهُ	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
عصرنا يبتغي خليلاً حَطوماً	وُثْنُهُ .	لا إِلَهَ إِلا اللهُ (٢)
إنَّ دنيَاكَ مَوثَنٌ لا تصدِّقُ	زوره .	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
في متاعِ الغرورِ تسعى وتبغي	ربحه !	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
يا أسيرِ الخسارِ والربحِ ينسى	نفسه !	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
مالُ دنيَاكَ والبنونِ خداعٌ	كلُّهُ .	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
هي أصنامٌ واهمٌ قد براها	وهمُّهُ .	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
حبسَ العقلَ في مكانٍ ووقتٍ	كفرُهُ .	لا إِلَهَ إِلا اللهُ
لا زمانٌ ولا مانٌ فحطَّم	غلُّهُ .	لا إِلَهَ إِلا اللهُ

(١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر .

(٢) الوثنُ : جمع وثن ، والموثن : مكان الأوثان .

الاستسلام للقدر (١)

من القرآن قد تركوا المساعي وبالقرآن قد ملكوا الثرى
إلى (التقدير) ردّوا كلّ سغي وكان زماغهم قدراً خفياً
تبذلت الضمائر في إسارٍ فما كرهوه صار لهم رضىاً

المعراج (٢)

وذرة طار فيها الشوق صاعدة تُغيّر في عرصات الشمس والقمر
يارفقة المريج ا تلقى الصقر مقدمة دُراجة تملأ الأنفاس من شرر
المسلم السهم ، والأفلاك غايته سرائر الرّوح في المعراج فأذكر^(٣)
جهلت **﴿ والنجم ﴾** أسراراً فلا عجب ما زال مدك محتاجاً إلى القمر^(٤)

-
- (١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنّ المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي ، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الآفاق . وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً . والحق أنّ العبودية بدلت النفوس ، فأروا حسناً ما كان عندهم قبيحاً .
- (٢) الذرة التي يملؤها الشوق تعلقو على الشمس والقمر ، والدُراجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر ، فإنما القوة الحق قوة الروح ، لا شيء يستعصي عليها .
- (٣) يريد أن في المعراج سرّ الروح . وهو رمز إلى أنّ المسلم سهم هدفه الفلك .
- (٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم ، التي يذكر فيها الوحي ، وتقريب الرسول إلى ربه . وليس جهلك عجبياً ، فإن نفسك لم تكمل ، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه ، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدّه .

إلى سيد مصابٍ بالفلسفة

لو لم تُؤَلَّ « ذَاتَكَ » النسياناً
أصداف (هيكل) من الخوالي
فكيف صاح تُحكّم الحياةُ
وطلّب الإنسان للثبات
يحوّل الدُّجى إلى الإشراق
وإنني في الأصل سُومناتي
وأنت من أولاد هاشميين
في عَصَبِي فلسفةُ الأشياء
أحاط إقبالٌ بها تفصيلاً
عاقبةُ العقل إلى شتاتٍ
ونعمةُ الأفكار دونَ صَوْتِ
الدِّينِ في حياتنا تقويم
(قلبك فاربط بالهدى المحمدي
إن تك بالطريق غير داري

لم تَحْمِلَنْ زُنَّارَ (بَرَّجَسَانَا)^(١)
طَلَسَمَهُ جميعه خيالي
وكيف تجتازُ الزمانَ (الذاتُ) ؟
وقصدُه دستور ذي الحياة ؟
أذانُ مؤمِنِي نِدا الآفاق
إلى مَناءَ سَلَفِي واللات^(٢)
وطيتتي من نسلِ بَرَهْمِي
قد مُزِجَتْ بطيتتي ومائي
وإن يكن عرفانُه قليلاً
فلسفةُ بُعدٍ من الحياة
للذّة الأعمال حادي الموت
الدِّينِ أحمدٌ وإبراهيمُ
« أبا علي » اتركُنْ يابن علي
فالقُرشيُّ اتبَعه لا البخاري^(٣)

- (١) برجسون : فيلسوف فرنسوي ، ويلفظ اسمه في الهند بركسان ، وهيكل : فيلسوف ألماني .
- (٢) سومنات : معبد كبير في الهند هدمه السلطان محمود الغزنوي حينما فتح الهند ، ويشيده الهنادك اليوم . واللات ، ومناة من أصنام العرب .
- (٣) هذان البيتان من شعر الخاقاني في « تحفة العراقيين » وأبو علي والبخاري في البيتين : ابن سينا .

الأرض والسماء

صاح عَلى الذي رأيتَ ربيعاً هو في أعين خريف الزمان
سالك النهج اكل حين شؤون لا تفكر في الربح والخسران
رُب ما خلته بدنياك أوجاً هو أرض لعالم غاب ثان

اضمحلال المسلمين

إن كان ذا الذهب الذي يقضي الحوائج في الدنى
فالفقير صاح ميسر ما لا يسره الغنى
شبان قومي لو تحلوا بالشجاعة ديدنا
لم تُلَفَ صغلكي أقل من الملوك تصوننا
الأمر ليس كما زعمت وقد وصفت المؤمنا
فزعمت أن طمأحه من قلة المال انثنى
إن كان في الدنيا بدا لي جوهراً فيه سنا
فمن التصغلك قد بدا لا بالخزائن والقنى

العلم والعشق

قان لي العلم غروراً : إنما العشق جنون
قال لي العشق مجيئاً : إنما العلم ظنين
لا تكن سوس كتاب يا أسيراً للظنون
فمن العشق شهود ومن العلم حجاب
من لهيب العشق نارث ثورة في الكائنات

وشهوْدُ (السذاتِ) للعشيق ، وللعلم الصّفات
 ومِنَ العِشيقِ ثباتٌ وحياءٌ وممسات
 عَلِمْنَا سُؤْلَ جَلِيٍّ عِشْقُنَا خَافِي الجواب
 معجزاتُ العِشيقِ مُلكٌ زانُهُ فقِرٌّ وديِن
 وعييدُ العِشيقِ أدنَا هم له عرشٌ مكيِن
 ومِنَ العِشيقِ زمانٌ ومكانٌ ومكيِن^(١)
 إنَّما العِشيقُ يقيِنُ وبسِه يفتَحُ باب
 أَلْفَةُ المنزِلِ في شَرعِ مَن الحُصْبِ حرام
 خَطَرُ البَحْرِ حلالٌ راحَةُ السَّرْبِ حرامٌ
 خَفَقَةُ البَرقِ حلالٌ وَفِرَةُ الحَصْبِ حرام^(٢)
 عَلِمْنَا نَسْلُ كِتابِ عِشْقُنَا أُمُّ الكِتابِ

اجتهاد

حَكْمَةُ الدِّينِ كما قد زعموا
 ما بها لذةٌ سعيٍ دائِبِ
 أين منهم جُرأةُ العِقلِ لَدِي
 آه للتقليدِ والأسرِ بما
 عَلِمْتُ في الهندِ من أيِّ طريقِ؟
 لا ولا فيها من الفكرِ العميقِ
 مَخْفَلِ يهفو إلى الفكرِ مَشوقِ
 أَلْفِ سُوهِ وزوالِ التحقيقِ

(١) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكيِن مع مكان . ويراد بها من يحل في المكان .

(٢) الحب لا يرضى القرار ففي شرعه ألفة المنزل حرام ، وحلال ركوب الخطر في البحر ، وحرام الدعة على البر . وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال ، ووفرة الحب ؛ أي : الجمع والادخار وحب السلامة حرام . وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردني .

بَدَّلُوا الْقُرْآنَ لَا أَنْفُسَهُمْ كَمَ فَقِيهِ مُبَعَدٍ مِنْ تَوْفِيْقٍ (١)
وَكَفَى الْقُرْآنَ نَقْصاً أَنَّهُ مَا هَدَى الْمُؤْمِنَ مِنْهَاجَ الرِّقِيقِ (٢)

شكر وشكوى

لَكَ الْحَمْدُ إِنِّي عَبْدٌ جَهْلٌ وَلَكِنْ وُصِّلْتُ بِسِرِّ الْغِيُوبِ
مَنْخَتْ الْقُلُوبِ هِيَاماً جَدِيداً أَثَرْتُ الْبَعِيدَ بِهِ وَالْقَرِيبَ
وَمِنْ حَزٍّ شَدْوِي يُرَى فِي الْخَرِيفِ طَرُوباً بِصَحْبَتِي الْعَنْدَلِيبِ
وَلَكِنْ خُلِقْتُ بِأَرْضٍ بِهَا نَفُوسٌ الْعَبِيدِ بِرِقِّ تَطْيِبِ

الذكر والفكر

ذَانِ لِلسَّالِكِ الطَّمُوحِ مَقَامٍ نَزَلَتْ فِيهِ «عَلَّمَ الْأَسْمَاءَ» (٣)
وَمَقَامِ التَّفْكِيرِ قَوْلُ ابْنِ سِينَا وَمَقَامِ الْعَطَّارِ بِالذِّكْرِ ضَاءً (٤)
وَالذِّكْرِ «سَبْحَانَ رَبِّي» وَالْفَكْرُ يُقَيِّسُ الزَّمَانَ وَالْأَرْجَاءَ (٥)

-
- (١) كرر إقبال هذا المعنى في شعره ، يقول : إن النفوس قد ضعفت ، فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها إشفاقاً من تكاليفه .
 - (٢) يعني أن الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها ، فحسبوا القرآن ناقصاً .
 - (٣) الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .
 - (٤) في الأصل : العطار والرؤمي ؛ أي : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وهما من كبار شعراء الصوفية .
 - (٥) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية ، والفكر في شغل بقياس الزمان والمكان .

شيخ الحرم

يَخْفَى عَلَيْكَ مَقَامُ آدَمَ فِي الْوَرَى فَالْنَفْسُ مَا نَالَ الْإِلَهَ وَصَالَهَا^(١)
مَا فِي أذَانِكَ مِنْ صَبَاحِي دَعْوَةً أَوْ فِي الصَّلَاةِ جَمَالَهَا وَجَلَالَهَا

(٢) القدر

رَبِّمَا يَبْلُغُ اللَّثِيمُ مُنَاهُ وَيُنَالُ الْكَرِيمَ ضَيْمُ الزَّمَانِ
عَلَّ فِي مَنْطِقِ الْقَضَاءِ خِفَاءً وَيُرَى دُونَ مَنْطِقِ فِي الْعِيَانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذِي الْحَقِيقَةَ طُرّاً وَجَلَاهَا التَّارِيخُ كُلَّ أَوَانِ
نَحْوَ مَسْعَى الْأَقْوَامِ يَرْنُو الْقَضَاءُ نَظْرَةً كَالْحُسَامِ فِيهَا مَضَاءُ

التوحيد

قُوَّةٌ كَانَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ فَصَارَ التَّوْحِيدُ عِلْمَ الْكَلَامِ
رَدَّهُ فِي الْفِعَالِ غَيْرَ مَضِيءٍ جَهَلْنَا الْيَوْمَ مَا لَنَا مِنْ مَقَامِ
قَائِدَ الْجَيْشِ! قَدْ رَأَيْتُ غُمُوداً مِنْ «هُوَ اللَّهُ» مَا بِهَا مِنْ حُسَامِ^(٣)

-
- (١) يخفى عليك مقام الإنسان ، ولهذا أخذت إلى الأرض فلم تصل إلى الله .
(٢) يقول إقبال في هذه الأبيات : إن القضاء يبدو غير تابع للمنطق ، ولعل له منطوقاً خفياً ، وعلى كل حال نرى حقيقة لا جدال فيها ، هي أن عين القضاء تنظر إلى مساعي الأمم ، فتقضي فيها على قدر مساعيها .
(٣) رأيت غموداً ليس فيها حسام من التوحيد ، وفي الأصل : من « قل هو الله » أي قل هو الله أحد .

ما درى الشيخُ أنّ توحيدَ فكرٍ دونِ فعلٍ ، يُعدُّ لغوَ كلامٍ^(١)
يا إماماً لركعةٍ كيف تدري في الوَزي ما إمامةُ الأَقوم ؟

العلمُ والدين^(٢)

العلم يخلق إبراهيم موثته إذا تراه نديمَ القلبِ والنَّظيرِ
هذي الحياةُ وهذا الكونُ ، ما يُدلا ما مُحدثٌ وقديمٌ قولٌ ذي بصرِ
ما يُحسنُ المرجُ تربيبَ الزُّهورِ إذا لم تشركِ النَّسماتُ الطَّلَّ في الزَّهرِ
العلم إن لم يُضِف نجوى الكليم إلى رأي الحكيم فما للعلم من قَدَرِ

المسلمُ الهندي

قال البَرَهَمَنُ : خائنٌ أوطانه والإنكليزُ تقول : هذا مجتدي
وَبُيُوءَةُ البَنَجابِ قالت : كافر مستمسكٌ بقديمه لا يهتدي^(٣)
أَيَّانَ صوتُ الحَقِّ يعلو هاهنا ؟ ويلٌ لقلبي في الصِّراعِ المُجهدِ^(٤)

-
- (١) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال ، فإنَّ ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل .
(٢) العلم وحده عاجز مُضِل حتى يتَّصل به القلب ويصاحبه الإيمان ، ويهديه العشق . فإن
كان كذلك خلق هو إبراهيم ليحطم أوثانه التي يصنعها . هذا شأن الحياة ، لا قديم
فيها ولا حديث ، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطَّل والنسيم لا بدَّ من اشتراكهما
في تربية الزهر .
(٣) نبوة البنجاب يقصد بها من ادعى النبوة (هو مرزا غلام أحمد القادياني) .
(٤) هذا الشطر مضمن في الشعر ، وقد جاء في الأصل بلفظ فارسي .

على ذكر الإذن بحمل السيف^(١)

أيها المسلم تَذري اليومَ ما هو مصراعٌ من البيت الذي وأرى مصراعه الثاني في أنتَ يا مسلمٌ - إن تظفر به -

قيمةُ الفولاذ والعَضْب الذَّكَر مضمراً فيه من التَّوْحِيدِ سِرِّ سيفٍ فَقَرٍ تحتويه كَفٌّ حُرِّ خالداً أو حيدرٌ يومَ المَكْر^(٢)

الجهاد^(٣)

الشيخُ أفْتى أَنه عَصْرُ القلم أما دَرى الشيخُ بأنَّ وعظهُ فما ترى السِّلَاحَ كَفٌّ مسلمٍ مَنْ قلبه يهابُ مَوْتَ كافرٍ فعَلَّمَنْ تَرَكَ الجهادِ طاغياً أما ترى الغربَ بدأ مُدَجَّجاً يا مُفتياً على الكنيسِ مُشفقاً الحربُ في المشرقِ شرٌّ داهمٌ

ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأممِ في مسجدٍ قد صار من لَعْوِ الكَلِمِ؟ بل قلبه من لَذَّةِ الموتِ حُرِّم فكيف ميتةُ الشَّهيدِ يَغْتَنم^(٤)؟ مِنْ كَفِّهِ يَسِيلُ في العالمِ دَم ليحفظَ الباطلَ في عِرْزِ عَمَمٍ؟ قد حارَ في أحكامِهِ أولو الفَهَم والحربُ في المغربِ شرٌّ لا جَرَم

(١) أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حرّم حمل السلاح كله ، فنظم إقبال هذه الأبيات .

(٢) يريد خالد بن الوليد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

(٣) قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد ، تقول : إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف ، وتدعو المسلمين إلى السلم ، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين .

(٤) يريد بموت كافر : الموت في غير جهاد .

إن يَبْتَغِ الْحَقَّ فَكَيْفَ حَاسِبَ الْمَسْئَلَةَ لَمْ لَا الْفِرْنَجَ ذَلِكَ الْحَكَمُ ؟

القوة والدين

كم أصاب الإنسان في هذه الأركان
ويقول التاريخ في كل عصر :
هي سيلٌ غشاؤه الفنُّ والعلمُ
وهي سُمٌّ بغير دينٍ . وبالدين
ضِيٌّ مِنْ إِسْكَندَرٍ وَمَنْ جَنَكِيزِ
خَطَرٌ فَزَطُ قُوَّةٍ لِعَزِيزِ
وَمَا أَثَلَّ الْوَرَى مِنْ كَنُوزِ
دَوَاءٍ لِكُلِّ سُوءٍ نَجِيزِ

الفقر (١)

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حومة الحرب كالرُجوم

(١) يشيد محمد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعده مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سُودد ، والمقتمح كل عقبة ، ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان .

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تدري اليوم ما
هو مصراع من البيت الذي
وأرى مصراعه الثانوي في
وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

في حومة الحرب كالرُجوم
وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلّم فالف مقام وشان
وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمُرُّ عَلَيْكَ مِنْ فِقْرِ مَسْنَأٍ
فيطبع منك سيفاً للمنايا =

وكلُّ ضربٍ له سديدٌ إنَّ نارَ من قلبه السَّليمِ
 حماسُهُ قَصٌّ كلُّ عصرٍ قِصَّةَ فرعونَ والكلِّيمِ
 يا غيرةَ الفقر أنجدينا واهدي إلى نهجك القويمِ
 عبادةَ الغرب جمعُ مال تنخَّرُ في رُوحه السقيمِ

= وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملكٍ مقام فقر ، ولكن تؤثِّر الذلَّ مذعناً ما احتيالي
 وقوله في القطعة التي أولها « متاعك في الحياة فنون علم » :

وما إن ذلَّ قوم قد أعدوا حماس العشق والفقر الغيورُ
 ويتبين للقارئ من التأمل في هذه الأبيات أنَّ الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتزُّ به من متاع الدنيا . فما يعني إقبال حين يذكر الفقر ويُشيد به ويُبالغ في إكباره ؟ الذي يُدركه القارئ من كلام الشاعر : أن الفقر الذي يعنيه الشاعر هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيتها عاملة مقدمة لا يطغىها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلطاً لا يُعمر سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصوفية الفقر .

في « رسالة القشيري » :

سُئِل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدَّق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل : صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب « عوارف المعارف » للسهروردي :

وقال الكتاني : « إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صحَّ الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أنَّ الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني أن لا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

العشْقُ والشُّكْرُ ما أباحا أنْ أضْيَطَ النفسَ في همومي
فَعُقْدَةُ الكِمْ لَمْ تُفْتَحْ إلا بِمَوْجِ مِنَ النِّسِيمِ^(١)

الإسلام

إنَّ نارَ « الذَّاتِ » ، والنورُ لديها هي للإسلام رُوحٌ مستنير^(٢)
إنَّ نارَ « الذاتِ » ، فاقبس من لظاها في حياة الخَلْقِ نورٌ وسُفُورٌ
هي تقويمٌ وجودٌ وهي أضلُّ للتَّجَلِّيِ أُخْفِيَتْ خَلْفَ سُتُورِ
إنَّ قَلْبِي الغَرْبُ مِنَ الإسلامِ لفظاً فله اسمٌ آخِرُ : الفقرُ الغَيبُورِ^(٣)

الحياة الأبدية^(٤)

صَدَفٌ لنا هذه الحياة ، وذاتنا كالقطر من نَيْسانِ في الصَّدَفَاتِ^(٥)
ما قيمة الصَّدَفِ الذي لا يستطيع يُحْيِلُ قَطْرَاتِ إِلَى دُرَّاتِ
إنَّ صَانَتِ الذَّاتِ المَتِينَةُ نَفْسَهَا أَعَيْتْ عَلَى الأَيامِ كُلَّ مَمَاتِ

-
- (١) كِمْ الزهر لا يفتح إلا بالنسيم ، وبيان الشاعر وشكواه كالنسيم تفتح بهما نفسه .
 - (٢) روح الإسلام هي الذات نارها ونورها .
 - (٣) إنَّ نَفْرَ الفَرْنِجِ من لفظ الإسلام فنحن نسميه اسماً آخر فيه حقيقته هو الفقر الغيور .
 - (٤) يؤكد الشاعر في هذه الأبيات رأيه في الذات أنَّها مقصد الحياة ، وأنَّها إن قويت واستحكمت ؛ لم تمت .
 - (٥) يقال : إنَّ الأصداف تكون على سطح الماء مفتوحة ، فإذا نزل مطر نيسان تدخل في كل صدفة قطرة منه فتطبق عليها حتى تتحوَّل دُرَّة . والشاعر يجعل الحياة صدفةً ، والذات قطرةً من نيسان . ويريد أن تحكم الحياة الذات كما تحيل الصدفة القطرة دُرَّة .

السُّلْطَانُ (١)

تَعَلَّمْ ؛ فَأَلْفُ مَقَامٍ وَشَانٍ
إِذَا أَنْجَلْتَ (الذَّاتِ) فِي قَهْرهَا
وَتَوَزَنَ فِي ذَا الْمَقَامِ الْقُوَى
وَإِنَّكَ فِي ذَا الْمَقَامِ عَظِيمٌ
وَمَا ذَاكَ بَغْيٌ وَقَهْرٌ وَلَكِنْ
فَمَا يَسْتَطَاعُ بِقَهْرٍ وَبَغْيٍ
وَأَعْيَاكَ فِي الدَّهْرِ حَفْظُ لِفْقَرٍ
وَكَانَ عَلَى الدِّينِ سِيَمَا سَجُودٍ
وَكَانَ عَلَى الشَّمْسِ مِنْهُ سَنَاءٌ
لِفَقْرٍ بَدَأَ فِيهِ رُوحَ الْقُرْآنِ
فَهَذَا مَقَامٌ لِمَلِكِ الزَّمَانِ
قُوَى مُؤْمِنٍ تُبْتَلَى بِامْتِحَانِ
وَظَلٌّ مِنْ اللَّهِ فِي ذَا الْمَكَانِ
هُوَ الْعَشَقُ وَالْوَجْدُ مِلءُ الْجَنَانِ
عَلَى الْأَرْضِ حَفْظُ الْوَرَى فِي أَمَانِ
فَأَصْبَحْتَ فِي الرِّقِّ خِدْنَ الْهَوَانِ
تُبَارِي الْكَوَاكِبَ مِلءُ الْعِيَانِ
فَهَلْ فِي نَجُومِكَ مِنْهُ مَعَانِ ؟

إِلَى الصُّوفِيِّ

تَرَى عَيْنَاكَ دُنْيَا الْمَعْجَزَاتِ
وَمِنْ دُنْيَا الْخِيَالِ عَجَبَتْ ، فَاعْجَبْ
تَبَدَّلْهَا بِنَظْرَةٍ غَيْرِ وَاِعِ
وَفِي عَيْنِي دُنْيَا الْحَادِثَاتِ
لِدُنْيَا الْحَيَاةِ وَلِلْمَمَاتِ
وَكَمْ تَدْعُوكَ دُنْيَا الْمَمَكِّنَاتِ

(١) السُّلْطَانُ الْحَقُّ هُوَ أَحَدُ شُؤُونَ الْفَقْرِ ، كَمَا يَفْسِرُهُ الشَّاعِرُ ، فَهُوَ تَجَلَّى « الذَّاتِ » - ذَاتِ الْفَقِيرِ - بِالتَّسَلُّطِ . وَلَيْسَ السُّلْطَانُ طَغْيَانًا ، أَوْ بَغْيًا إلخ . . (كَتَبْتُ فِي بَهْوِ بَالِ فِي رِيَاضِ الْمَنْزَلِ دَارِ السَّيِّدِ رَاسِ مَسْعُودِ) .

صريح الفرنج

- ١ -

مِنْ تَجَلَّى الْفَرَنْجِ نَلْتَّ وَجُوداً فَهَمْ مِنْكَ هَيْكَلًا قَدْ أَقَامُوا
وَمِنْ (الذات) هَيْكَلُ التُّزْبِ خَالٍ أَنْتَ غِمْدٌ مُذَهَّبٌ لَا حَسَامُ

- ٢ -

ووجودُ الإله عندك ريبٌ وأرى الريبَ في وجودك أنتا
إنَّما الكونُ جوهرٌ (الذات) يُجَلَّى فانظرن أيَّ جوهرٍ قد دفتنا

التصوُّف (١)

إنَّ علم اللاهوت في ملكوتٍ ليس للدين آسياً - ليس شيئاً
وقيامُ الأسحار في طولٍ وَجَدَ ليس للذات راعياً - ليس شيئاً
ذلك العقلُ صاعداً للثريا ليس بالوجد سارياً - ليس شيئاً
ينطق العقلُ « لا إله » ولكن ليس بالقلب مسلماً - ليس شيئاً^(٢)
كلماتي خوافق وسنا الإصباح لم يبدُ خافقاً - ليس شيئاً

(١) يقصد الشاعر أنَّ علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء . وكذلك الذكر الذي لا يحفظ « الذات » والعقل الذي لا يصحبه العشق ، والفكر الذي لا يستجيب له القلب .

(٢) أي : يقول العقل : « لا إله إلا الله » . . . إلخ .

الإسلامُ الهنديُّ

بوحدة الأفكار تحيا أمةٌ
لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوى
يا عابداً ليس لديه قوّة
وهات إسلاماً به تصوّف
للشيخ في الهند أجزت سجدّة
فحسب الإسلام حُرّاً سيّداً
ودونها الإلهام يُلقَى ملحداً^(١)
لم يُفلح العقلُ هنا ولا اهتدى
أذهب إلى كهفٍ وسبّح واعبدا
إلى الردى والذلّ واليأس هدى
فحسب الإسلام حُرّاً سيّداً

قطعة (٢)

ما القلب مات ، قلبٌ
يمحو الفؤاد داءً
بحرّك في سُكونٍ
لا وحشٍ أو هياجاً
وفي السماء سرّاً
ما هاج طرفُ نجمٍ
رمى نسيباً صبحي
شـرارةً أكنت
ذنيا غداً وأمسي
فأحيي ذا الرميما
في أمم قديما
سُحّر أم أنيما؟
أو ساحلاً لطيمما
لست به عليمما
منك فتى كليمما
أبـاءك الهشيمما^(٣)
في طينتي قديما
يُصـرهما عليمما

- (١) بغير توحد الأفكار تعمّ الفوضى . فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان يصير إلحاداً .
(٢) عنوان هذه القطعة في الأصل (غزل) والغزل عندهم آيات قليلة تجمع أفكاراً مختلفة .
(٣) الأباء : القصب ، وهو سريع الاحتراق . ثم القصب يحرق أحياناً لإخصاب الأرض ، فالشاعر يعني أنه يحرق الأنفس لتزداد حياة .

مَنْ حَازَ مِثْلِي عَيْنًا جَرِيئَةً هَجُومًا

الدُّنْيَا (١)

كذالكم بدا لي بوقلمونٍ وقَلْبْتُ في الملكوتِ النظرُ
فهذا هلالٌ ، وهذي نجومٌ وهذا عقيقٌ وهذا حجر
وعينُ البصيرة أعملتها فأوحى إليَّ صحيحُ الخبر
فهذا ترابٌ وتلك سماءٌ وذلك طودٌ وهذا نهر
ولا أكتُم الحقَّ : أنت وجودٌ ولا شيء ما ساح فيه البصر

الصَّلَاةُ (٢)

تلوُّنٌ في كلِّ ثوبٍ مناةٌ وشاب بنو الدهر وهي فتاةٌ
فهذا السجود الذي تجتويهه به من ألوف السُّجود نِجاةٌ^(٣)

(١) أنا كذلك أبصر دنيا الألوان التي تشبه بوقلمون ، وأعرف الهلال والنجم والسماء والأرض . . إلخ ، ولكنني أرى أنَّ الإنسان وجودٌ حقٌّ ، وما عداه ليس شيئاً .

(٢) الأصنام لم تنقطع عبادتها ، فلا تزال تظهر بين الناس في صورٍ مختلفةٍ ، فتعبد ضروب العبادات . فاعلم أنَّ سجود الصلاة الذي يثقل عليك ينجيك من آلاف السجود لهذه الأصنام .

(٣) تجتويهه : تكرهه .

(١) الوحي

ليس هذا العقل ذو الوهد من حرياً بالإمامة
فحياة الظن والتخمين ضَعْفٌ وَسَقَامَةٌ
ليس في فكرك نورٌ أو إلى السعي استقامه
كيف يجلو في حياة ذلك الليلُ ظلامه؟
إن لغز الحسن والقبح ليعيي ذا الفهامه
حين لا تجلو الحياة السرَّ منها مستهامه

هزيمة

خلا الصوفي من حرقٍ وكدٍّ؛ شرابٌ (ألسْتُ) معذرةُ البطالة^(٢)
وفر إلى ترهبه فقيهٌ يرى في الشرع معترك البسالة^(٣)
إذا خشي الرجال وعى حياة فتلك هي الهزيمة لا محاله

العقل والقلب

سيطر العقل على الكون أميراً وطوى الأفلاك والأرض مسيراً
ذا جلالٍ يخضع الكون له غيرَ قلبٍ ثار بالعقل جسوراً

- (١) العقل ظنٌ وتخمينٌ ، لا تضيء به النفس ، فلا تنجلي به ظلمات الحياة . وإنما إدراك الحسن والقيح بالوحي ، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها .
- (٢) يوم « ألسْتُ » أو عهد « ألسْتُ » إشارة إلى الآية ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالصوفي في سكر بذكرى « ألسْتُ » يتعلل به ، ويعتذر لبطالته .
- (٣) لما رأى الفقيه أن الشرع جهادٌ وكفاحٌ فز إلى الترهب .

سكر العمل

في طريق الصُّوفيِّ سُكْرُ الحال وطريقُ الفقيهِ سُكْرُ المقال
ونشيد الشُّعرِ المرْجَعِ مَيْت خامدُ اللّٰحنِ لم يُشَبِّبِ بجمال
بين نومٍ ويقظةٍ غيرُ صاحٍ بين سُكْرِ الأفكارِ والبَلْبالِ
وبنفسِي مجاهِدٌ لا أراه ! فيه سُكْرُ الأعمالِ لا الأقوالِ

(١) القبر

لا يجد القلندرُ راحةً وإن ثوى بقبره تحت الثرى
سكينةُ الأفلاكِ في الضُّريحِ لا فساحةُ الأفلاكِ أو طولُ الثرى

(٢) همّة القلندر

يقول للزمان ذلك الفتى : امض إلى حيث يسير المؤمنُ
مالك في معتركي من طاقةٍ حذارٍ من قلندرٍ لا يُذعن

(١) فكرة الشاعر أنَّ النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت . والقلندر أو القلندري : الحر الذي لا يركن إلى سكون ، ولا تقيده رغبةٌ أو رهبة .

(٢) القلندر : يعني به الشاعر الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ، ولا أهل ، ولا دار وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب ، وأحدث طريق كان سالكوها يُدِيمون السفر ، لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ، ولا أهل ، ولا وطن ، ويحلقون رؤوسهم .
وسُمِّي سالك هذه الطريقة : قلندر باسم صاحب الطريقة .

وقد رأى المترجم أن يبقى اللفظ في الترجمة لأنه عَلِمَ في الأصل ، وجعله أحياناً وصفاً وأحياناً نَسَبَ إليه ، فقال : القلندرُ والقلندريُّ .

إذا طفى اليمُّ فهَيَّا أقدمنُ ما حاجتي مَلاحه والسُّفن
لقد محاسرك تكبيرى فهل تقوى على جحوده يا وهن ؟
يحاسب الأفلاك ذا القلندر وقاهرٌ أيامه لا يقهر

الفلسفة

ليس يخفى على القلندر فكرٌ ساورَ النشءَ ظاهراً أو خفياً^(١)
أنا عندي بكلِّ حالِك خُبْرٌ فهذا الطريق سرٌّ ملياً
لا يقيم الحكيمُ في شَرِك اللف ولا بالحروف كان حفيّاً
ليس همُّ الغوّاص أصداف بحرٍ يتبغي الغائصون دُرّاً بهيّا
إنَّ في حلقة المجانين عقلاً في شرارٍ يرى لهيّا مضيّاً^(٢)
إن أغلى من الجواهر ، معنى صدق القلبُ سرّه مطويّاً
فلسفاتٌ ما سَطرت بدم القلب مَوَاتٌ أو للمات تُهيّا

رجال الله

إنما الحرُّ من يُجيد ضراباً لا الذي حربهُ تدور هُراء
وسجايا الأحرار تجمع تاجاً ذا سناء ، وخرقةً وقَباء^(٣)

(١) القلندر هنا إقبال نفسه .

(٢) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهر صغيرة ، فيرى في الشرارة لهيباً عظيماً .

(٣) سجية الحر فيها عظمة الملك ، وفيها خلق الصوفية لابسى الخرقه ، وفيها فقه العلماء لابسى القباء .

من خفايا تُرابهم أخذ الدهرُ شراراً فصاغ منه ذُكاء
 فطرةٌ حرّةٌ تعاف الدنيا من طواف الأصنام عاشت براء
 أنت في الكفر والتدينِ جمعاً وثنيٌّ تُقدّس الأهواء^(١)

(٢) الكافر والمؤمن

أمسٍ عند البحر قال الخضر لي قولاً أعيه^(٣)
 تبتغي الترياق من سُمِّ فرنجٍ تتقيه ؟
 فخذنْ قولاً سديداً هو بالسيف شبيهه
 ذا مضياءٍ وضيياءٍ خبرة الصيقل فيه :
 إنمّا الكافر حيرانُ له الأفاق تيهه
 وأرى المؤمن كوناً تاهت الأفاق فيه

-
- (١) الأحرار منزهون عن عبادة الأصنام ، وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها .
 (٢) يكرّر الشاعر هذا المعنى كثيراً : إنّ المؤمن مسيطرٌ على الكون ، يتصرف فيه ، لا يضلُّ فيه ، ولا يحار ، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير ، وإنّ غيره مقهور في الكون حائر ، تتلقفه أحداثه ، وتقلبه غيره .
 والفكرة مأخوذة من مشنوي جلال الدين الرّومي . فقد قصّ المشنوي قصة افتقاد حليلة الرسول في طفولته وطلبها إياه والهة ، وأنّ جبريل لقيها ، فقال لها : لا تخشي عليه أن يتيه في الأفاق ، فهذه الأفاق تتيه فيه .
 (٣) يروى أن الخضر صاحب إسكندر سارا حتى بلغا أرض الظلمات ، وفيها عين الحياة ، فشرب منها الخضر ، فخلد ، ولم يهتد إليها إسكندر . فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة ، ويقولون عنه ما يشاؤون .

المهديُّ الحقُّ

كلُّ ثوى في مَحْبَسٍ من صنعه : سيَّارُ إفرنج وثابتُ مشرق^(١)
والشَّيْخُ في حَرَمٍ وحَبْرُ كنيْسةٍ لا جِدَّةٌ في القول أو في المنطق
أهلُ السياسة في شِراكِ قديمهم والشَّعْرُ أفلس في خيالٍ مُغلق
من لي بمهديٍّ له نظرٌ يزلزلُ عالمَ الأفكار ، غيرَ ممخِرِقُ

المؤمن

- ١ -

في الدُّنيا

مع الصَّخْبِ لَيْنٍ كمْسٍ الحريرِ بعيدٌ من المَحَكِّ ، المؤمنُ^(٢)
حديداً إذا ما طغى باطلٌ جريءٌ لدى المَعْرَكِ ، المؤمنُ
من الطَّينِ ، لكن على الطَّينِ يسمو ويأبى على الفلكِ ، المؤمن
وما هُمُّه صيدٌ طيرٍ ولكن يصيد من المَلَكِ ، المؤمن

- ٢ -

في الجَنَّةِ

تقول الملائك في غبطةٍ : حبيبٌ إلى قلبنا ، المؤمن

(١) الفرنجي : الدائب في العمل ، كالكوكب السَّيَّار ، والشرقي : القاعد عن السير ، كالكوكب الثابت .

(٢) القافية مردوفة بكلمة « المؤمن » والروئي الكاف التي قبلها .

وللحور شكوى إلى ربّها : سريعٌ إلى هجرنا ، المؤمن

محمد علي الباب (١)

مفيضاً في مقالات	أجاب (الباب) في حفل
بإعراب (السّموات)	وفات الشيخ توفيق
فلاقوه بسمات	سرت في الحفل غلطته
وفاتكم مقاماتي	فقال (الباب) : لم تذرُوا
في حبسٍ وإعنات	ثوى القرآن بالإعراب
بتحريرٍ لآيات	وإنّ إمامتي جاءت

القدر (٢)

الخالق وإبليس

ليس عنه من مَحيد	إبليس : يا إلهاً أمره كُن
بعـدوّ أو حسود	لم يُصَب آدمٌ مني
ومكانٍ في حدود	ويلٌ غرّ ، من زمانٍ
أمرك أو كيف أحيّد	كيف أستكبر عن

(١) ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن ، فلحن في إعراب السموات . فضحك الحاضرون ، فقال : إنّ بشرى إمامتي تحريرُ الآيات من الإعراب .

(٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي .

كان في علمك أني حائدٌ عن ذا السجود

الخالق : هل عرفت السرَّ هذا
إبليس : بعداً ! يا من من تجلّيه
قبلَ أو بعدَ الجحود؟
كمالاتُ الوجود
(الخالق ناظراً إلى الملائكة)

خِصَّةُ الفطرة فيه
قال : ما شئتَ سجودي
علمته ذاك عذرا
أنا لا أملك أمرا
ذلك الظالم سَمَى
اختياراً فيه جِبرا
إنَّه سَمَى رَماداً
شعلة فيه وجمرا

أين روح محمد! (١)

أرى الملة البيضاء بُدِّدَ نظمها
وليس ببحر العرب لَذَّةُ ثورةٍ
فمسلّمك انظر حاله ، أين يذهب ؟
وفي الصدر موجٌ غاله ، أين يذهب ؟
وقطعُ الفيافي هاله ، أين يذهب
حفيظٌ لأيِّ ، ياله ، أين يذهب ؟
ولا رَكْبَ للحادي ولا زادَ عنده
فبيّن لنا الأسرارَ روح محمد !

(١) يصف الشاعر في هذه الأبيات غمّه وحيرته ، فالأمة الإسلامية انفرط عقدها ، وفي صدره موجٌ ، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم ، فيخلط به هذا الموج . وهو حادٍ ولكن لا زاد له ، ولا قافلة يحدوها . وأمامه فيافي هائلةٌ . وهو حفيظٌ على آيات الله يبتغي أن يسير بها . فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل روح الرسول أين يذهب .

مدنية الإسلام

حياة المسلم أعرف في بياني كمالُ العقل فيها والجنونُ^(١)
سناً كالصُّبحِ مَغربِه طُلوعُ وحيدٌ ، كالزَّمانِ له شؤونُ
ولا كالعصر ، خِلوٌ من حَياءِ ولا فيها من الماضي فُتونُ
حياةٌ بالحقائق في قَرارِ وليست ما يُطلسِمُ أفلاطونُ^(٢)
عناصرُها يؤلِّفُها جَمالُ تمثَّل فيه جبريلُ الأمينُ
وحسنُ الخَلقِ من عُجَمِ لديها ونازُ العُربِ فيها والشُّجونُ

الإمامة^(٣)

أتسألني : الإمامةُ ما مداها؟ جَبَاك اللهُ مثلي بالخفايا
إمامُ العصر حقاً من تراه فتسألمُ ما تشاهدُ في البرايا
بمراة الممات يريك وجه الـ حبيب فتجتوي عيشَ الدنايا

(١) الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة . فحياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام . وهي كالشمس تغرب لتطلع . وهي فذة لا نظير لها ، ولكنها كالزمان في شؤون متعددة ، وهي قائمة على الحقائق ، وجامعة عناصر الجمال والقوة .

(٢) ليست قائمة على أفكار أفلاطون ؛ التي ترى الحقائق في عالم المثل ، لا على هذه الأرض .

(٣) يقصد إقبال من ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره . ويرى أن الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود . . إلخ .

ويشعركَ التخلُّفَ عن كمالٍ فينفخُ فيك مشوبَ السَّجَايا^(١)
يُمِرُّ عليكِ مِنْ فقرٍ مِسْنَاً فيطبَعُ منك سيفاً للمنايا
فُتُون المَلَّةِ البيضا إماماً كأنَّ المسلمين به سبايا^(٢)

الفقر والترهب^(٣)

إسلامك الموهومُ شيءٌ آخر؛ الفقرُ عندك كالترهب يظهر
شَتَانٌ ، فانظر ، بين خلوة راهبٍ وشراع فقرٍ في عُبابٍ يمخر
في الروح والأبدان يبغي جلوةً فنهاية الإيمان (ذات) تبهر^(٤)
هو صيرفي الكائنات وجوده فعن الفناء أو البقاء يخبر^(٥)
فاسأله عما ترثيه أعالمُ أم موج رائحة ولون يزخر؟
لما أضع المسلمون على المدى ذا الفقر - لما ضاع هذا الجوهر
لم يبق فيهم من سليمان ولا سلمانَ دولةً عِرَّةً لا تقهر

-
- (١) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال .
 - (٢) فتنة الملة الإسلامية إمامٌ يمكن أصحاب السُّلطان من إذلال المسلمين .
 - (٣) يشيد إقبال بالفقر ، وينسب إليه المعجزات . وهو فيما يؤخذ من كلامه : التحرر من الطمع والحرص ، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ، ويصدّه عن الحق والخير . وهو لا يشبه الرهبانية في شيء . فمن حسب الفقر رهبانيةً فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر .
 - (٤) الضمير في « يبغي » يرجع إلى الفقر ، وهو يطلب تجلّي الروح والجسم . وتجلي الذات هو مقصد الإيمان .
 - (٥) هذا الفقر ينقد الكائنات ، فيقول : هذا للفناء وهذا للبقاء ، وهذا حق ، وهذا باطل .

قطعة (١)

متاعك في الحياة فنون علم
وما عندي متاع غير قلب
لأهل الفكر معجزة تجلّت
وأهل الذكر شادوا معجزات
أقول لمسلم : ما فيك صدر
ومزقتُ الجيوبَ وأنتَ خالٍ
أقلّ القولَ وافتخَ عينَ قلبٍ
وما إن ذلّ قومٌ قد أعدوا

تظّلُ الدَّهْرَ منها في حُبور
طموحٍ ما أراه بالصُّبور
بفلسفةٍ معقّدة السُّطور
على موسى وفرعونٍ وطور^(٢)
لأنفاسٍ بها حرٌّ النشور
جنوني - لا ألومك - في قصور^(٣)
ولا تكُ مُهذراً عند البصير
حماسَ العشق والفقرِ الغيور

التَّسْلِيمُ والرِّضَا

على كل غصنٍ تبين أن النبات مَشوقٌ لِرَحْبِ الفضاء
فما قرّ في ظلمةِ الترابِ حبّ
جنونُ النشوءِ به والنَّماء
فلا تبغ في فطرةِ تركٍ سعي
فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النَّماءِ فضاءً فيسبحُ
وما ضاقَ مُلكُ الإلهِ ، فيسبحوا

(١) عنوان هذه القطعة في الأصل « غزل » والغزل في عرف شعراء الفرس ومن قبلهم : أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات . وربما لا تشتمل على شيء مما يسمّى بالغزل في الشعر العربي .

(٢) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون ، فلهذا نكّرت الاسمين ، وصرفتهما .

(٣) يعني : إنني لم أصيرك مثلي مجنوناً ؛ لأن جنوني لم يكمل ، فلم يؤثر فيك ، فاللوم عليّ لا عليك .

نكتة التوحيد (١)

إِنَّ سِرَّ التَّوْحِيدِ طَوْعٌ بَيَّانِي شِدَّتْ فِي الرَّأْسِ مَوْثِنَا ، مَا اِحْتِيَالِي؟ (٢)
 رَمَزُ شَوْقٍ بِلَا إِلَهٍ خَفِيٌّ لَيْسَ فِي الْفَقْهِ بَيْنَا ، مَا اِحْتِيَالِي؟
 كَمْ سُرُورٍ فِي حَرْبٍ حَقٌّ وَزُورٍ لَسْتُ فِي الْحَرْبِ مَطْعَنَا ، مَا اِحْتِيَالِي؟ (٣)
 كَمْ تُجَلِّسِي الْأَفَاقَ نَظْرَةً حَرًّا حَجَبَ الرِّقِّ أَعْيْنَا ، مَا اِحْتِيَالِي؟
 أَيُّ مُلْكٍ مَقَامٌ فَقْرًا وَلَكِنْ تَوَثَّرَ الذَّلُّ مُدْعَنَا ، مَا اِحْتِيَالِي؟

الإلهام والحرية

إِنَّ لِلْحُرِّ مَلْهَمًا نَظَرَاتٍ تَحْفِزُ الْقَوْلَ وَالْفِعَالَ بِنَارٍ
 حَرًّا أَنْفَاسَهُ يَشِيْعُ بِرُوضِ فَتَرَى الرُّوْضَ مُزْهَرًا مِنْ شَرَارِ
 يَهْبُ الْعَنْدَلِيبَ سَيْرَةً بَازٍ كَيْفَ حَالَتِ طِبَائِعُ الْأَطْيَارِ؟
 يَنْحُ الْمُجْتَدِينَ شَوْكَةً جَمًّا عَارَفُ النَّفْسِ وَالْهُ الْأَسْحَارِ (٤)
 وَوَقَى اللَّهُ حِكْمَةً لَذَلِيلِ مِثْلَ جَنْكِيْزِ طَالِعٍ بِالدَّمَارِ (٥)

- (١) بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة . والروي حرف النون في موثنا ، ومطعنا . . إلخ (المترجم) .
- (٢) يمكن أن يبين سرَّ التوحيد ، ولكن ما حيلتي وقد بنيت في رأسك معبدًا للأوثان . وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن ، ترجمة لكلمتي بت كده ، بتخانته ، ونحوهما .
- (٣) كم سرورٍ في مجاهدة الباطل بالحق في هذه الحياة .
- (٤) جم : يراد به جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير .
- (٥) يريد أن حكمة الذليل تدمر الأمم كغارات جنكيز خان .

الرُّوحُ والجِسْمُ (١)

تحير الناسُ في ذا اللغز من قدم : ما جوهر الرُّوح أو ما جوهر البدن؟
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل : وثورة وسرورِ النفس والحزن
ومشكَلٌ لك أنَّ الخمر من قدح : أو أن من خمرة كاساً ، لذي زَكَن (٢)
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الرُّوح في بدن؟ جمرٌ بدا في رَمادٍ منه للْفَطِنِ

« لَاهور » و « كراجي » (٣)

قد تولى الله عبداً مسلمٌ ما أمرا
هو بالموت إلى عا لَم روح سافرا
كيف تَفدون شهيداً لخلود آثرا
دُمهُ من حَرَمِ أعلى وأغلى جوهر (٤)
آه للمسلم غفلاًن نسيّاً ما درى :
سرّاً لا تدع مع الله إلهاً آخر (٥)

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ همي في هذه الحياة القلق ، والثورة ، والسرور ، والحزن . وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة .

(٢) الزكن : الفطنة .

(٣) روي أنَّ هندوكياً في لاهور اسمه : راجيال ، أساء الأدب في الحديث عن الرسول صلوات الله عليه ، فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين ، وقتله في غير ضوضاء ، وأن رجلاً من الهنادك في كراجي فعل فعله ، فذهب إليه مسلم من كوهات في غير مشاورة ، ولا مؤامرة فقتله . وأراد المسلمون أن يؤدوا دية القتيلين وينجوا القاتلين من العقاب ، فكتب إقبال الأبيات .

(٤) يعني : أن كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد . . إلخ .

(٥) الآية : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

النُّبُوَّةُ (١)

لَسْتُ الْمُحَدِّثَ وَالْفَقِيهَةَ وَلَا الْوَلِيَّ وَلَا الْمُجَدِّدَ
لَا عَلِمَ عِنْدِي بِالنُّبُوَّةِ كَيْفَ تُوصَفُ أَوْ تُحَدَّدُ
لَكُنْ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي الْأَيَّامِ لِي نَظَرٌ مُسَدَّدُ
أَوْحَى إِلَيَّ بِسِرِّهِ الْفَلَكُ الْمُحِيطُ فَلَا أَفْنَدُ
فَرَأَيْتَ فِي ظَلَمَاتِ هـ إِذَا الْعَصْرُ ذَا الْحَقِّ الْمُؤَيَّدِ :
عِنْدِي حَشِيئَةُ الْمُسْلِمِينَ نُبُوَّةٌ فِيهِمْ تَجَدَّدُ
مَا إِنْ لَدَيْهَا دَعْوَةٌ لِلْبَاسِ وَالْمُجَدِّدِ الْمُخَلَّدِ

الإنسان

ذَا طَلَسْنَا الْكَوْنَ وَالْعَدَمَ سُمِّيَ الْإِنْسَانُ مِنْ قِدَمِ
هُوَ سِرُّ اللَّهِ جَلًّا فَلَا يَحْتَوِيهِ الْوَصْفُ فِي كَلِمِ
إِنَّ هَذَا الدَّهْرَ مِنْ أَزْلِ مِنْ سَفَارِ بَاءٍ بِالسَّقَمِ
وَمَضَى الْإِنْسَانُ سِيرَتَهُ لَمْ يُصَبِّ بِالضَّعْفِ وَالْهَرَمِ
وَإِلَيْكَ السِّرُّ أَعْلَنَهُ إِنْ تَسَّغَهُ غَيْرَ مَتَّهِمِ :
مَا بَدَأَ رُوحاً وَلَا بَدَناً ذَلِكَ الْإِنْسَانُ لِلْفَهَمِ

« مكة » و « جنينا »

كَمْ حَدِيثٍ عَنِ الشُّعُوبِ سَمَعْنَا وَحَدَّةَ النَّاسِ حُجِّبَتِ عَنْ عِيَانِ

(١) يعني الشاعر بهذه الأبيات من أَدْعَى النُّبُوَّةِ ، ودعا إلى المسالمة والكف عن الجهاد .

حكمة الغرب فُرقةُ النَّاسِ والإِسْـمَ
ومقالٍ من مَكَّةَ لَجِنِيوا
خَبْريني اليقين : هل عصبه الأقد
سلامٌ فيه توخُّدُ العُمَـرَانِ
قد وعاه اللبيبُ في كلِّ آن :
سوام خَيْرٌ أو عصبه الإنسان ؟

يا شيخَ الحرم

ودَّع الخلبوةَ يا شيخَ الحرم
يحفظُ اللهُ لك الفتیان في
هُم عن الغرب زجاجاً أخذوا
طُـولُ ذلُّ أظلم القلبُ به
في جنوني منك أسراژُ بدت
واسمعنُ في الفجر مَنِّي ذا النغم
حُكْمِ نفسٍ ، واشتعالٍ في الهمم
عَلَّمَنَهُمْ صَدْمَةَ الصَّخْرِ الأَصْم
أدرِكُ الحيرانَ في هذي الظلم
فاجزني يا شيخُ عن هذا اللَّـم (١)

(٢) المَهدي

أرى الأقبامَ تَمضي في حياة
فمجدوبُ الفرنجِ على خيالٍ
على قدر التخييل في الحياة
من المهدي قاد إلى النجاة (٣)

(١) يعني : أن نشوته وولاه وقد عبر عنهما بالجنون أدركا أسرار شيخ الحرم ، فأفشيها ، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون .

(٢) كتب سبنجلر يقول : إنَّ ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي . فردَّ إقبال بأنَّ هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام . وكتب مولانا أسلم جرابوري يأخذ على إقبال أنه يذكر المهدي في شعره أحياناً . فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ، ويذكر أنه يتوسل بها أحياناً إلى نفع الحياة في موتى الأحياء .

(٣) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه ؛ الذي تكلم عن الإنسان الكامل .

فإن تنفر من المهديّ يَنْفِرْ إذا ما الحيّ من جهل تردّي
 غزالُ المسك من هذي الفلاة^(١) أتسليم ذا الجهول إلى الردى أم
 بأكفانٍ وأغرَقَ في سُبَاتِ تمرّق عنه أثواب الممات؟

المؤمن

إنّ للمؤمن العجيب الشان هو في قوله السّديد وفي الفعل
 كلّ حينٍ جديدَ شانٍ وأنّ فيه قدسيّةً إلى جبروت
 على الله واضحُ البرهانِ إنّ تُؤلّف هذي العناصرُ كان
 ومن القهرِ فيه والغفرانِ هو تُربّ سما يجاورُ جبريلَ
 المسلمُ المستعلي على الحدّثان لست تدري بسرّه فتراه
 ويأبى الحلول في الأوطان فيه عزمٌ على القضاء دليلٌ
 قارئاً وهو صورةُ القرآن هو بَرْد النّدى بقلب شقيقٍ
 وهو في العالمين كالميزان^(٢) ليله والنهار لحنٌ حياةٍ
 وبقلب البحار كالطُوفان^(٣) إنّ فكري مطالع لنجوم

- (١) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة ، وتحمل ما يحمله غزال المسك في الفلاة ، فلا تحرم الناس منها .
- (٢) يقول إقبال في مواضع كثيرة : إنّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر ، وإنّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة . وهنا يقول : إنّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة .
- (٣) هو تارةً كالنّدى يبرد قلب الشقائق ، وتارةً كالموج الهائج في البحر .
- (٤) يقول : أيها الباحث عن مستقبله في طوابع النّجوم هلمّ أدلّك على أسباب السعادة ، فإنّ فكري يطلع نجوماً صادقةً تدلّ على السعد والنّحس .

المُسلم البنّجايي (١)

مجدّدٌ في كل حين مذهباً يحلُّ في مرحلة ليركبا
في حلبة التحقيق نكسٌ وإذا قامره داع غويٌّ غلبا
جباله التأويل إن تُنصب له هوى من العُشِّ إليها مُعجبا

الحرية (٢)

ألا مَنْ يطيق اليوم نُصحاً لمسلمٍ وحريةً الأفكار من ربِّه أمر
من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ فموثّن أفرنج به الزورُ والسّحر
وإن شئت فالقرآن تأويلٌ لأعبٍ فجدّد لنا شرعاً يلائمه العصر
رأيتُ بأرض الهند أيّ عجيبة فإسلامها عبد ومسلمها حُرٌّ

نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هذي الحضارة ما تديّن قلبها فأخوة الإفرنج بالعصباتِ
فلئن تنصّر برهميٍّ لم يزل للإنكليز إليه نظرة عات
ولوّ أنّهم قد أسلموا لم يرفقوا بالمسلم المنكودٍ من إعنات^(٣)

-
- (١) عُرف أهل البنجاب بكثرة التّحل والدعوات المبتدعة .
(٢) ينعى إقبال في هذه الأبيات على من يدعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام وحضارته ، فإذا عُرضت أوربة وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً .
(٣) لو أنّ الإنكليز أسلموا لم يُحسنوا معاملة المسلم .

لا وإلا (١)

لو لم تسر في ظلام التُّرب نابتةً ما نشرت في فضاء الثُّور أغصانا
تقضي الحياة بـ « لا » في البدء نافية وفي النهاية « إلا » تكمل الشانا
إن لم تجيء بعدها « إلا » مثبتةً كانت على الموت « لا » في الدهر عنوانا
إن أمةً روحها لم يمض معتزماً عن « لا » فقد آذنت بالهُلُك إيدانا

إلى أمراء العرب (٢)

هل يُسعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقهُ مخاطباً أمراء العُرب في أدبِ
من أمةٍ قبل كلِّ النَّاسِ قد أخذتُ بحكمةٍ فأعانتها على التُّوبِ :
إخاءُ مصطفىويٍّ دون تفرقةٍ وهجرُ كلِّ غويٍّ من أبي لهبِ
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤها من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العُربِ

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌّ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبين فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّة والروس الشيوعيين خاصَّة .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينعي على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

الأحكام الإلهية (١)

قيدَ القضاء ترى أم قيدَ أحكام
في كلِّ حينٍ ترى التقديرَ في غيرِ
إنَّ النبات وإنَّ الجامدات لها
والمؤمن الحرُّ لا شيءٌ يقيدُه
ما أعجزت هذه أربابَ أفهام
رهينُها بين لذاتِ وآلام^(٢)
من القضاء قيودَ ذاتِ أحكام
لكن لخالقه في قيد أحكام

الموت (٣)

في اللحد أيضاً يبقى
إن يك قلبٌ حيّاً
هذي النجوم تمضي
والذاتُ فيها راحٌ
إن مسَّ جسماً موتٌ
فللوجود قُطبٌ
الغيبُ والحضور
فالقلبُ لا صبور
كشَرِّ يطير
في أبرد سُرور
واحتجب الظهور
مناله عسير

(١) إقبال يؤمن بحرية الإرادة ، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث . وفي هذه الأبيات يقول : إن الجماد والنبات خاضع لقوانين لا يحدد عنها ، وأما المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً . وهذه الفكرة تلقى قارىء شعره في مواضع كثيرة .

(٢) عالم الطبيعة والحادثات في تغير مستمر فمن خضع له تداولته اللذات والآلام .

(٣) يرى الشاعر : أنَّ القلب الحي لا يموت ، فهو حيٌّ بعد الموت ، طموح طلعة ، لا يرضى بالسكون والقرار . وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات (خودي) . والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم .

قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ (١)

إِنْ تَحُلْ دُنْيَا فَلَمْ تَفْنِ أَرْضٌ وَسَمَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ
مِنْ « أَنَا الْحَقُّ » انطوى فيك قلب وَمَضَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ (٢)
لَا تُرْغِ مِمَّا تَرَى ؛ لِفَرْنَجِ سِيمِيَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ (٣)

(١) في هذه الآيات يبشّر إقبال بالمستقبل الوضاء على رغم الخطوب ، ويقول : تغيرت الدنيا ، ولكن الأرض والسماء كما كانت . وكلمة « قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ » مكررة بلفظها في الأصل .

(٢) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال أنا الحق . يقول للمسلم : فيك روح تتسبب إلى الأرواح العظيمة .

(٣) لا يرعك ما يحيط بك من فتن الإفرنج ، فهي سيمياء لا حقيقة له .

القسم الثاني

التَّعْلِيمُ وَالتَّربِيَةُ

المقصود (١)

اسبنوزا :

يبصر العاقلُ الحياةَ وليست غيرَ نورٍ وجلوةٍ تُستحبُّ

أفلاطون :

يبصر الموتَ عاقلٌ . فحياةٌ
ما إلى الموت والحياة التفاتٌ
كشرارٍ بجنح ليلٍ يشبُّ
مقصدُ الذات رؤية الذات حسبُ (٢)

إنسان هذا العصر

حُرِّمَ العِشْقَ وللعقل به
تبغَّ العقلَ شروداً سادراً
نكَزاتُ كشجاعٍ يثأرُ (٣)
ما هدى العقلَ لديه بصرُ
وعلى الأفلاك دام السَّفَرُ
هو من حكمته في شَرِّكٍ
من شُعاعِ الشَّمسِ في قبضته
غابَ عنه نفعُه والضررُ
ما به ليلُ حياةٍ يُسفرُ !

-
- (١) يبين هنا الشاعر رأي اسبنوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة . كُتبت هذه الأبيات في بهو فال في رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .
- (٢) هذا رأي إقبال .
- (٣) النكزة : عضة الحية ، والشجاع : نوع من الحيات .

أُمَمُ الشَّرْقِ

كَيْفَ تُجَلَى حَقَائِقُ لَعْيُونِ عَمِيثٌ بِالْخُضُوعِ وَالتَّقْلِيدِ
كَيْفَ يُحْيِي الْفَرَنْجُ عُزْباً وَفُزْساً بَفَنُونِ تَسِيرُ نَحْوَ اللُّحُودِ

التَّنبُّهُ (١)

نَظَرَ الْمُنْجَمِ فِي جِبَاكَ نَجُومِهِ لَكِنْ مَقَامُ الذَّاتِ عَنْهُ يُسْتَرُ
مَنْ يَدِرُ أَنَّ الذَّاتِ أَرْفَعُ مَنْزَلاً عَرَفَ الزَّمَانَ وَصَرْفَهُ لَا يُقْهَرُ (٢)
وَجَمِيلَ أَنْظَارِ يَرَى وَقَبِيحَهَا وَحَلَالَ قَلْبِ وَالْمَحْرَمِ يُبْصَرُ

مُصْلِحُو الشَّرْقِ (٣)

يَسْتِ فَلَ أَرْجِي فِي أَنَاسِ لَهُمْ فَرٌّ كَفَنُ السَّامِرِيِّ (٤)

(١) في هذه الأبيات ينمى إقبال أيضاً على الإنسان اهتمامه بعالم الطبيعة وإهماله نفسه ، ويقول : إنَّ تقوية الذات وتقديرها يعين الإنسان على الحوادث ويبصره الجميل والقبیح في البصيرة ، والحلال والحرام ، حلال القلب وحرامه (استفت قلبك وإن أفتاك المفتون) .

(٢) أرفع منزلاً من الفلك .

(٣) يأخذ الشاعر على مصلحي الشرق أنهم لم يخرجوا للناس شيئاً ، وأنهم لم يستمسكوا بالسنة الصالحة القديمة ، ولا أخذوا بالسنة الحديثة .

(٤) السامري : الذي صنع لقوم موسى عجلاً من الذهب ، ودعاهم إلى عبادته ، فنه سحر وضلال .

سُقَاةٌ فِي رُبُوعِ الشَّرْقِ طَافُوا عَلَى التُّدْمَاءِ بِالْقَدْحِ الْخَلِيِّ
سَحَابٌ مَا حَوَى بَرَقاً قَدِيماً وَليْسَ لَدَيْهِ مَن بَرَقَ فَتِيًّا

الحضارة الغربية

أرى تثقيفَ إفرنج فسَادَ القَلْبِ والنَّظَرِ
فَروُحُ حَضَارَةٍ لَهُمْ خَلَّتْ مِنْ عَفَّةِ الوَطْرِ
إِذَا مَا الرُّوحِ جَانِبَهَا جَمَالُ الصَّفْوِ والطُّهُرِ
فَأَيْنَ جَمَالُ وَجْدَانِ وَلَطْفُ الذُّوقِ والفِكْرِ

أسرار ظاهرة (١)

مَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى السِّيفِ قَوْمٌ مِنْ حَدِيدٍ يُصَاغُ فِيهِمْ شَبَابٌ
أَيْنَ مِنْكَ الْأَفْلَاكُ؟ إِنَّكَ حُرٌّ وَهِيَ قَهْرٌ ذَهَابَهَا وَالْإِيَابُ
مَا اصْطَخَابَ الْأَمْوَاجِ؟ لَذَّةِ سَعِي وَاللَّالِي يَصْوَغُهَا الوَهَّابُ
لَيْسَ يَهْوَى الشَّاهِينَ مِنْ طَوْلِ خَفَقِ يَا أَخَا العِزْمِ لَا يَنْلِكَ التُّرَابُ

(١) قال موسوليني لإقبال حين لقيه : من ملك الحديد ملك كل شيء . فأجاب إقبال :
من كان هو حديداً فهو كل شيء . وقد ضمن هذا المعنى البيت الأول من هذه
الآيات .

وصية السلطان تيبو (١)

طاويي البيداء شوقاً ! أقبلن
 لا ! وإن سار بليلى محملاً
 جدول الماء ! تقدّم مُسرِعاً
 لا تحز في مَصْنَمِ الكونِ وسز
 يا مُذِيبَ الحَفَلِ ! لا تقبل له
 كلُّ قلبٍ ذلٌّ للعقل فقد
 وخذ الحقُّ وثنى باطلٌ
 لا تعرّج ، منزلاً لا تقبلن (٢)
 فامض شوقاً ، محملاً لا تقبلن
 واغدُ نَهراً ، ساحلاً لا تقبلن
 في البرايا ، ضللاً لا تقبلن
 حُرقة ، كن مشعلاً ، لا تقبلن
 قال ريسي أزلًا : لا تقبلن
 فشوب حقُّ باطلاً لا تقبلن

قطعة

إلى عَصَبات العُرب ما أنت متممٌ ولستُ بهنديٌّ ولا أنا أعجمي

(١) السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند . وقد حارب الإنكليز زمناً طويلاً ، وحاول أن يولب عليهم دولاً إسلامية ، ويتفق مع نابليون ، وكان في مصر حينئذ . فجمع له الإنكليز ما استطاعوا . فلما يئس من النصر ألقى بنفسه من قلعة فمات سنة ١٢١٣ هـ .

وهو عند إقبال ممن تتجلّى فيهم (الذاتية) فقد جعل هذه الوصية على لسانه .
 وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال :

يدعو إلى السير الدائب ، وهجر المحمل ولو في صحبة ليلي ، وإلى المضي والتقدّم والنماء ، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهراً ، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يضل الإنسان فيه ، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد ناراً ، وألا يذل القلب للعقل .

(٢) القافية مردوفة والروي اللام في منزلاً وساحلاً . . . إلخ .

فقد علّمتني (الذاتُ) تحليقَ نافرٍ
 بعينك أني كافرٌ غير مسلمٍ
 فدينك تعدادٌ لأنفاسٍ مُحجَمٍ
 تبدّلتْ فالتبديل في الشرع حكمةٌ
 فليست أرى في بيدك اليومَ جنةً
 إذا حاد عن نار الحياة منغمٌ
 يمرُّ على الدارين غيرَ محوّمٍ
 وأنت بعيني كافر غير مسلمٍ
 وديني إحراقٌ لأنفاسٍ مُقَدِّمٍ^(١)
 فليس يُطبق الظبيُّ شرعةَ ضيغمٍ^(٢)
 تشبُّ بهذا العقل نارَ التَّقَدُّمِ^(٣)
 فموتٌ شعوبٍ لحنٌ هذا المنغمُ^(٤)

اليقظة

خِدْنُ حَقٌّ تَنَبَّهتَ فِيهِ (ذاتُ)
 نظراتٌ لَدَيْهِ تُشْرِقُ فِيهَا
 إِيهِ عِبْدَ الْأَفَاقِ ! كَيْفَ تَدَانِي
 أَنْتَ فِي الْبِرِّ قَاعِدٌ عَنِ طِلَابِ
 كَالْحَسَامِ الْمَصْمُومِ الْبِرَّاقِ
 مَا نَطَوَى فِي الذَّرَاتِ مِنْ إِشْرَاقِ
 رَجُلِ اللَّهِ صَاحِبِ الْأَفَاقِ
 وَهُوَ فِي الْبَحْرِ مَحْرَمِ الْأَعْمَاقِ

تربية الذات

رَبِّبِ «الذاتَ» بِالرَّعَايَةِ تُبْصِرُ (كفُّ تُرب) يُشِيعُ فِي الْكُونِ نَاراً^(٥)

- (١) أنت تدين بالسكون والإحجام ، فحياتك عدُّ أنفاس ، وأنا أدين بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس .
- (٢) كرر إقبال هذا المعنى ، يقول : إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة ، فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها .
- (٣) يرمز إلى هيام معجون ليلي في البيداء . والجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة .
- (٤) إذا لم تكن الألحان ناطقةً بحرقة الحياة وكدها فهي مميتة للهمم .
- (٥) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب ، أو قبضة من تراب .

إِنَّ سِرَّ الْكَلِيمِ فِي الدَّهْرِ بَيِّدٌ وَشُعَيْبٌ وَالرَّعِي لَيْلَ نَهَاراً^(١)

حرية الفكر

بحرية الأفكار هلك جماعة إذا لم يكن فيها تدبُّرٌ عالم
فحرية الأفكار في رأس جاهلٍ طريق لِرَدِّ الناس مثل البهائم

حياة الذات

إِنَّ الذَّاتُ حَيَّتْ فَالْفَقِيرُ مَمْلُوكٌ ترى طُغْرَلاً أو سَنَجْرَاً لا يَشَاكُلُ^(٢)
إِنَّ الذَّاتُ حَيَّتْ فَالْبَحَارُ ضَحَاضِحٌ إِنَّ الذَّاتُ حَيَّتْ فَالْحَزُونُ مَخَامِلُ
ترى في الحياة الوحشَ قاهر لَجَّةً وفي موته موجُ السَّرَابِ سَلاسلُ

حكومة^(٣)

يَرْضَى الْمَرِيدُونَ قَوْلَ حَقٍّ ليسوا عن الحقِّ بالعُتَاةِ
وَالشَّيْخُ قَوْلَ الْفَقِيرِ يَقْلِي وليس للحقِّ بالمُواتي
قَدْ قَعَدَتْ أُمَّةٌ وَبَاءَتْ في حَلْبَةِ السَّعْيِ بِالْخَزَاةِ
إِنَّ شَغَلْتَ عَقْلَهَا بِبَحْثٍ فلسفةُ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ

(١) يعني فسحة البيداء وتربية روح عظيمة كشعيب ، والجد الدائب .

(٢) طغرل وسنجر من ملوك السلاجقة .

(٣) بمعنى حكم .

دستورُ ذا السديرِ ليس فيه
لكنما راحهُ نصيب
الشَّهْدُ عند الشباب فيها
المُرُّ من مورد الحياة

المدرسة الهندية

إقبالٌ أقصر ، هنا لا تُعرف الذاتُ
الخيرَ ألا تُرى في عين قُبْرَةٍ
فلحظة الحرِّ عام للذليلِ فكم
ولحظة الحرِّ من خلدِ رسالته
وفكرة الحرِّ من حقِّ منورةٍ
كرامةٌ حيَّةٌ مائلةٌ
حسب المُقيِّدِ تعليماً وتربيَّةً

فما لمدرسة هذي المقالاتُ
من البُزاة مقاماتُ وحالاتُ
تبطيء السيرَ بالعُبدان أوقاتُ
ولحظة العبد من مَوْتِ فُجاءاتُ
وفكرة العبدِ تغشاها الخرافاتُ
والعبدُ من غيره تأتي الكراماتُ
تصويرُه ولحونُ والنباتاتُ^(٢)

التربية

فرقُ علمٍ وحياةٍ
هو في الرأس ذكاءٌ
قدرةٌ في العلم تبدو

ليس فيه مِنْ خفاءٍ
وهي في القلب ذكاءٌ^(٣)
ومتعاغٌ وثرَاءٌ

(١) يكني عن الدُّنيا بالدَّير القديم ، وقد حذفت القديم في الترجمة .

(٢) يعني : حسب الدليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون ، لا تدرك نفسه معاني الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم .

(٣) ذكاء : اتقاد .

مُعضِّلٌ أَنْ لَيْسَ فِيهِ فِي خُطَا السَّيْرِ اهْتِدَاءٌ
 وَأُولُو الْأَبْصَارِ نَزْرٌ وَأُولُو الْعِلْمِ زُهَاءٌ
 لَيْسَ بِدَعَاً أَنْ كَأْساً لَكَ مِنْ رَاحِ خَلَاءِ
 مَا طَرِيقُ الشَّيْخِ فِي الْمَكْتَبِ لِلْقَلْبِ ضِيَاءٌ^(١)
 كَيْفَ بِالْكَبْرِيتِ إِشْعَاءٌ لُ سِرَاجِ الْكَهْرِبَاءِ؟

الحسن والقبيح^(٢)

إِنَّ لِلْفِكْرِ طُلُوعاً وَغُرُوباً كَنُجُومِ سَابِحَاتِ فِي الْعَوَالِي
 عَالَمُ الذَّاتِ بِهِ عُلوٌّ وَسُفْلٌ وَاعْتِرَاكُ الْقَبِيحِ فِيهِ وَالْجَمَالِ
 فِي اعْتِلَاءِ الذَّاتِ مَا يَبْدُو جَمِيلٌ وَقَبِيحٌ مَا بَدَأَ فِي الْاِسْتِفَالِ

موت الذات

مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْغَرْبِ ظَلَامٌ وَبِمَوْتِ الذَّاتِ فِي الشَّرْقِ جَذَامٌ
 مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْعُرْبِ خَمُودٌ وَلَدَى الْعُجْمِ عُرُوقٌ وَعِظَامٌ
 مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْهِنْدِ جَنَاحٌ هَيْضَ فِي الْأَقْفَاصِ وَالْعِشِّ حَرَامٌ
 مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ يُعْرِي مُسَلِّمًا مِنْ ثِيَابِ سَادَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ^(٣)

(١) المكتب - المدرسة : وفي تركية : المدرسة خاصة بالعلوم الدينية ، والمكتب لما يسمى مدرسة في مصر . والكلمة بعينها في الأصل .

(٢) هنا رأي لإقبال في الحسن والقبح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها . يقول :
 ما تدركه الذات في اعتلائها جميل ، وما تدركه في استفالها قبيح .

(٣) في الأصل « شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله » والمعنى أن موت الذات قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي ، وسوغت لهم سفاسف الأمور ، فطوعت لهم =

ضيف عزيز

ضميرٌ أولي المدارس في ازدحام بأفكارٍ كما امتلأ القفيزُ
وهذا العصرُ ماضي في هواه جميلاً من قبيح لا يميزُ
ففي جنّات قلبك أحل بيتاً عسى يثوي به ضيفٌ عزيزُ^(١)

العصرُ الحاضر

فأين يُصيب المرء ناصجَ فكرةٍ وأجواءُ هذا العصر لا تُنضجُ الثمر
مدارسُ فيها كلُّ عقلٍ محرَّرٌ ولكن بها الأفكارُ عَقْدٌ قد انتثر
أطاحت بعشق الغرب أفكارُ ملحدٍ وعبدَ عقلَ الشَّرْقِ فوضى من الفكر

طالب العلم^(٢)

الله يحبوكِ علماً بمائجاتِ العُبابِ
فإنَّ بحركِ رَهْوٍ ما يُبتلى باضطرابِ
لن تستطيع فراغاً في السَّفَرِ من أبوابِ

= أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام ليعيشوا به .

(١) ينبغي أن يخلى القلب حيناً من الأفكار المتزاحمة التي تشغله ليفرغ للواردات النفسية ، والمعاني الروحية العالية .

(٢) يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب ، وتحريكها ، وإثارتها للنظر ، وحفزها للمطالب العالية ، لا تلقينها مسطورات الكتب .

فأنت قاري كتابٍ ولستَ أهلَ كتاب

امتحان^(١)

قال نهرُ الطَّوْدِ يوماً للحجرِ : بسقوطٍ وانتكاسٍ تفتخرا !
أنت للاقدام والغمِّ لَقَى وأنا يشتاقني بحرٌّ وبرّ
لم تُدهدّه من جدارٍ مرّةً كيف تُدرى أزجاجُ أم حجر ؟

المدرسة^(٢)

مَلِكُ الموتِ عصرُنا يتوقّى كلّ نفسٍ بفكرةٍ في المعاش
يَرْجُفُ القلبُ مِنْ كفاحِ حياةٍ وهي موتٌ لمُشفقٍ من هِراش
أبعدَ الدرسِ عن جِجَاكِ جُنوناً صاحَ بالعقل : لا تَلذُ بِنقاش^(٣)
عينُ صقرٍ مُنحتّها وعليها وضعَ الرقُّ نظرةَ الخفّاش
حجبتُ دونك المدارس سرّاً هو في البيدِ والرّواسخِ فاش

(١) في الأبيات التالية يضرب إقبال مثلاً لرأيه في أنّ الكدّ والجهد يقويان الإنسان ، ويرفعانه ، وأنّ الحياة لا تكمل دون عناء - يمثل بالنهر المنحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر . . . إلخ .

(٢) يقول إقبال : إنّ المدارس وسيلة إلى الوظائف ، وسبيلٌ إلى المعاش ، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة ، بل تهبط بالفطرة ، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليقة . وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيراً من المدارس بها !

(٣) جنونٌ يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير .

الحكيم نيتشه (١)

أي قدرٍ لذا الحكيم ولكن لم يكن أهل نكتة التوحيد
ليس إلا لذي البصيرة يبدو سرُّ معنى بـ (لا إله) بعيد
أرسل الفكر أسهماً في سماء وحوى الشمس بالخيال المديد
طاهر الطين في الترهّب لكن لذة الإثم نُصب طَرْفٍ حديد

الأساتذة

إن كان تربيةً الياقوتٍ مقصدنا فما شعاع رمته الشمس حيران^(٢)
وما المدارس أو ما الدارسون بها وللروايات عمّ الأرض إذعان
كانت جديراً بقود العصر أدمغةً يقودها العصر ما فيهنّ نُكران

قطعة

يبلغ المنزل سارٍ لا ينام مُسرحٌ عين هزبرٍ في الظلام
إنّما للعبد تُمنى راحة ليس للحرّ على الأرض حمام

- (١) إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته ، ولكنه يأخذ عليه أنّه عرف العقل لا القلب ، وأدرك العلم لا العشق . وهنا يقول : لم يكن « لنكتة التوحيد أهلاً ، وأنه كان ضرورة عقاً ، ولكن كان يتشوّف إلى لذة الإثم ، فيكثر الحديث عنها . »
- (٢) يقول الطبيعويون القدماء : إنّ العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار النفيسة تنضج بأشعة الشمس . ويقول إقبال : إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة . تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة .

قد أزاغَ العينَ في الغرب سناً لك من صاحبٍ ﴿ ما زاغ ﴾ إماماً^(١)
 ذاكُمُ الحفلُ الذي أكؤسه كنجوم ، لمحّةً فيه المُقام
 أعمتِ الأسفارُ حسّاً فالصّبا لم تعطر لك من روضٍ مشاماً^(٢)

الدِّينَ والتَّعليمَ

قد عرفنا قدرَ أشياخِ الحَرَمِ كلُّ دعوى دون إخلاصٍ سَقَمَ
 ولتعليمِ النَّصارى نغمٌ ليس من دينٍ وخلقٍ ذا النَّعمِ
 تكتبُ الذُّلَّ على أقدارها أمةً بالذاتِ فيها لا تُهَمُّ
 ربما تَغْفِرُ للفردِ ولا تغفِرُ الفطرةَ أمامَ الأممِ

إلى جَاوِيدِ^(٣)

- ١ -

حَرَبٌ على الأديانِ ذا الزمانُ مرَّكِبٌ في طبعه الكفرانُ

(١) يشير إلى الآية في سورة (النجم) ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] وصاحب ما زاغ هو الرسول عليه السلام .

(٢) يعني أنّ العكوف على الكتب أمات الحس . فالصّبا تمرُّ على الروض ، وتأتي الأيك فلا تشم رائحة الروض فيها . حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية ، وأغفلت الإنسان عن وحي الكون .

(٣) جاويد ابن الشاعر ، وباسمه نظم « جاويد نامه » الديوان الخالد .
 والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامي الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه . وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاويد ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه . ونظامي من أئمة شعراء الفرس .

سُدَّةَ أهل الله - فاطلُبُنْهَا -
لكنه « الحقُّ » عصرٌ سحرِ
عينُ الحياة ماؤها نَضُوبٌ
مَنْ كان في نظرتهم سِهَامٌ
لكنما الدَّارُ التي سراجُ
إِنْ تك (لا إله) في ضمير
عُشْكُ فوق (الذات) أَحِكْمَنُه
الأدميُّ يا بنيَّ بحسْرُ
مِنْ حَبَّة تری ألوفَ حَبِّ
لا تغفلنْ فلاتَ حينِ لِغِبِ

أرفعُ مما شيدَ السُّلطانُ
السَّحْرُ في أموره ميزانُ
فأينَ راحَ الليلَ والرَّيحانُ
منهم خلا الكُتَّابَ والديوانُ
أنت لها مذاقُها عرفانُ^(١)
فالغرب من تعليمه أمانُ
ثم اطرَبَنَ ما شاءت الأغصانُ
في كلِّ قطرةٍ به طوفانُ
إمَّا جفا راحته الذَّهقانُ
العلمَ حصَّلَ واستهنَّ بالصَّغِبِ

- ٢ -

إن لم يكن في الصَّدرِ حرُّ قلب
إن ينشَطِ الغزالُ في ذكاء
ماءُ الحياة هاهنا قريبُ
في غيرة أرى طريقَ حقِّ

لم تنضجِ الحياة في هُمام
لم يظفرِ الصَّيَّادُ بالمَرامِ^(٢)
طريقُه حرارةُ الإقدامِ^(٣)
الفقرُ بالغيرة في تمام

(١) يعني : دار إقبال التي نشأ بها جاويد .

(٢) إنَّما يصاد الصيد حين يغفل ، أو يبطن . فإن كان يقظاً وثاباً لا يظفر به الصياد .
فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام .

متى تحمل القلب الذكوى وصارماً وأنفاً حياً تجتنبك المظالمُ
(٣) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسبيل إليه الجدُّ والكُدُّ ، وشدة العطش . كما قال في
رسالة المشرق :

غصنُ الحياةِ ندي من ظمئنا في الطَّلاب

لباشقِ ضَرَاعَةُ الحَمَامِ^(١)
 كم أنوريّ عندهم وجامي^(٢)
 نُوحُ خَالٍ فِي دُجَى الظَّلَامِ
 فِي نَظَرِ الدُّنْيَا مِنَ الكَرَامِ
 نِبَاهَةُ الذِّكْرِ عَلَى الأَيَّامِ
 مَا أَجْمَلَ المَقَالَ مِنْ نِظَامِي^(٣)
 فِي حَلْبَةِ السَّبْقِ إِلَى المَعَالِي

يَا قِرَةَ الأَعْيُنِ مُسْتَحِيلٌ
 لَيْسَ المَقَالُ فِي الأَنَامِ نَزْرًا
 وَإِنَّمَا بَيْنَ الِوَرَى مُتَاعِي
 وَصَدَقُ أَقْوَالِ بَهَا تِرَانِي
 مَوْهَبَةُ الخَلَّاقِ لَا تُرَاثُ
 لِنُورِ عَيْنِيهِ يَقُولُ نَصْحًا
 أَبَوْتِي لَيْسَتْ بِذَاتِ بَالٍ

- ٣ -

الدِّينُ وَالدَّوْلَةُ فَعَلُ هَازِي
 فَلَيسَ إِلا كَلِمٌ نَوَازِي
 وَابْتَغِ فَقْرًا أَصْلَهُ حِجَازِي^(٤)
 كَاللَّهِ مُسْتَغْنٍ بِلا إِعْوَازِ
 فَإِنَّمَا هَذَا مَقَامُ البَازِي
 مَا بَابِنِ سِينَا كُجِلَتْ وَالرَازِي
 إِنَّ لَمْ يَكُنْ طَبْعُكَ مِنْ إِيَازِ^(٥)
 مِنْ نَفَخَاتِ النَّايِ فِي اشْمِزَازِ^(٦)

عَبَاءٌ عَلَى المَوْمِنِ ذِي اللِّيَالِي
 وَلَا أَرَى نَشْوَانَ فِي كِفَاحِ
 فَإِن تَكُنْ ذَا هَمَّةٍ فَاقْدَمِ
 الأَدْمِيَّ مِنْهُ فِي صِفَاتِ
 هَذَا المَقَامِ لِلْبُغَاثِ حَتَفِ
 تُضِيءُ عَيْنُ العَقْلِ مِنْ سَنَاءِ
 سَطْوَةِ (محمود) تُصِيبُ فِيهِ
 فَذَاكَ فِي دُنْيَاكَ إِسْرَافِيلُ

- (١) الباشق ضرب من الطيور الجوارح . ولا يذل الباشق كالحمام ، فكذلك الكرام لا تضرع ضراعة الحمام .
 (٢) ليس الكلام في الناس قليلاً ، فكم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي . وهما من كبار شعراء الفرس .
 (٣) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات .
 (٤) فقر نسب إلى الرسول الحجازي . راجع المقدمة في الكلام على الفقر .
 (٥) السلطان محمود بن سبكتكين وغلामه إياز يشيع ذكرهما في الآداب الإسلامية الشرقية .
 (٦) وضرب محمود وإياز هنا مثلاً للعظمة والحقارة .
 فذاك : إشارة إلى الفقر فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل .

نظرته المثيرة الليالي ساريةً بالكون في ارتجاز
وصاحب الفقر الغيور هذا بلا سلاح في الزمان غازِ
إمارة المؤمن فيه سرُّ عطيةً الوهاب هذا الفقر

القسم الثالث

المرأة

الرَّجُلُ الْإِفْرَنْجِي

كم حكيمٍ قد تمنَّى حلَّه مشكُلُ المرأة في هذي الحياةِ
لا تُلُنْها في فسادٍ شائعٍ شهدتْ بالطُّهرِ كلُّ النِّيَّراتِ
عِشْرَةُ الْإِفْرَنْجِ نَهَجٌ مُفْسَدٌ جهلُ الحمقى طباعَ المحصناتِ

سؤال

إلى عالم الغرب من أسلست له الرومُ والهندُ يُزجى سؤال :
كمال معاشره عندكم حيالُ النِّساءِ وعُطلُ الرِّجالِ؟^(١)

حِجَاب

أرى فلكاً كلَّ حينٍ للونِ ولم تنضُ دنياك هذا الإهابِ
ولا فرق ما بين عرسٍ وعرسٍ فذي في نقابٍ وذا في نقابٍ^(٢)
ولم يزلِ النَّاسُ رهناً حجَابِ ومن برزتْ ذاته مِنْ حجَابِ؟

-
- (١) الحيال : الخلو من الحمل .
(٢) نقاب الرجل والمرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده ، أن الذات لا تزال في حجاب . والعرس : الزوج للرجل والمرأة .

الخلوة

فَصَحَّ العَصْرَ جِنَّةً بالسُّفُورِ نُورٌ عَيْنٍ وظُلْمَةٌ فِي الصُّدُورِ
إِنْ تَجُزَّ مَتَعَةُ العَيُونِ مَدَاهَا كَانَ فِيهَا الشَّتَاتُ فِي التَّفْكِيرِ
قَطْرَةُ المَاءِ لَا تُحَوِّلُ دُرّاً دُونَ أَصْدَافِهَا بِقَاعِ البَحُورِ
تُمْسِكُ الذَّاتُ نَفْسَهَا حِينَ تَخْلُو لَا خِلَاءَ بِمَسْجِدٍ أَوْ دِيُورِ

المرأة

إِنَّمَا المَرَأَةُ لَوْنٌ فِي رَسُومِ الكَاتِنَاتِ
لِحْنُهَا يَنْفِثُ نَارَ الوَجْدِ فِي صَدْرِ الحَيَاةِ
ذَلِكَ الطَّيْنُ تَعَالَى فَوْقَ أَوْجِ النَّيِّراتِ
إِنَّهَا دَرَجٌ لِسَيْدِهَا كُلُّ دُرٍّ مِنْ صَفَاتِ
مَا لِأَفْلَاطُونٍ تَرُوي مِنْ قَضَايَا مَعْضَلَاتِ
وَهُوَ مِنْهَا كَشْرَارِ مِنْ ذِكْيِ الجَمَرَاتِ^(١)

حرية النساء

قَضِيَّةُ عَصْرِ لَسْتُ فِيهَا بِفَيصِلُ وَإِنْ كُنْتُ بَيْنَ الشَّهْدِ وَالسُّمِّ أَفْرِقُ
وَمَا نَفْعُ أَقْوَالِ تَزِيدُ مَلَامَتِي وَقَبْلَ بَنُو التَّمْدِينِ عَنِّي تَفَرَّقُوا
يَبِينُ هَذَا السَّرَّ وَجِدَانُ مَرَأَةٍ وَيَعْجِزُ عَنْهُ فِي الرِّجَالِ المَحَقَّقُ

(١) يعني : أن المرأة لا تتفلسف ، ولن تلد الفلاسفة .

أحرية النّسوانِ أجملُ زينةً أم الجيدُ بالدرِّ الثمينِ يطوّقُ^(١)

حصانة المرأة

في الصّدر حقٌّ ليس يُدرّكه من حاز بردَ دِمائه عَصَبُ
حفظُ الأنوثة في يدي رجلٍ لا العلم يحفظها ولا الحُجُبُ
إن غاب هذا الحقُّ عن أممٍ فكسوفُ شمسٍ فيهمُ كَثَبُ

المرأة والتعليم

موتُ الأمومة إن رامت حضارتهم فالموتُ عاقبة الإنسان في الغربِ
إن يجعل المرأة التعليمُ لا امرأةً فالعلمُ موتٌ يراه صاحبُ القلبِ
إن تحرمنَّ الفتاةَ الدينَ مدرسةً فالعلمُ والفرُّ موتُ العشقِ والحبِّ^(٢)

المرأة

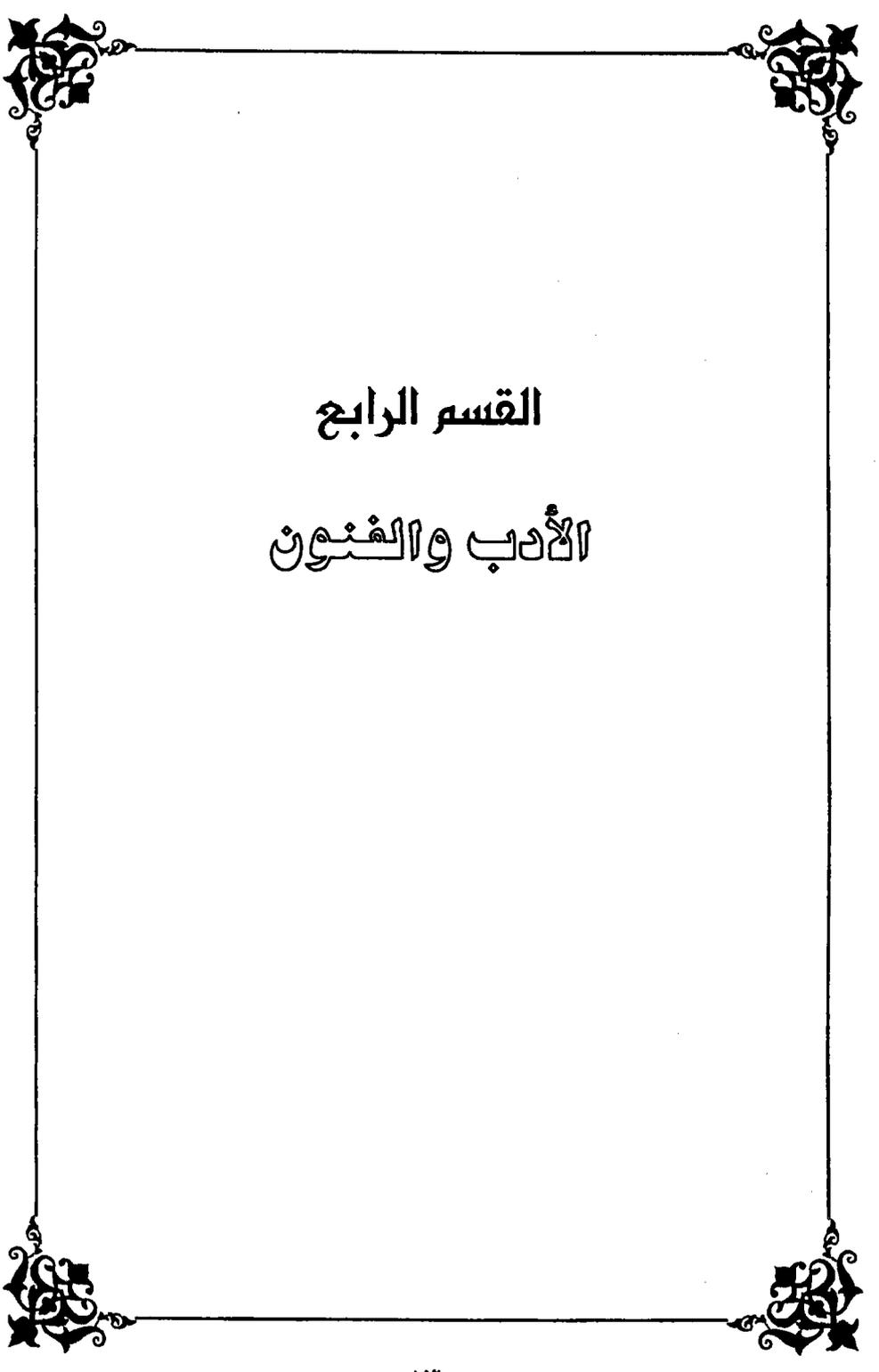
بغيره يتجلّى جوهرُ امرأةٍ ووحده يتجلّى جوهرُ الرّجلِ
حرارةُ الشّوقِ سرٌّ في بلابلها كيانها لذّةُ التخليقِ كالشّعَلِ

(١) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة : أحرية المرأة كما نرى اليوم أحبُّ إليها . أو غل عنقها بعقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت .

(٢) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها ؛ فعلمها وفنها موت عاطفة المرأة ، وذهاب الحب الحق .

من هذه النار أسرارُ الحياة بَدَت
كذلكم في فؤادي للنساء أَسَى
والخلقُ والموتُ منها في وغَى زَجَلِ
لكنَّها عقدةٌ أَعِيثُ على الحيل^(١)

(١) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه . ولكن لا حيلة لأحدٍ في هذا .



القسم الرابع
الأدب والفنون

الدِّينُ وَالْفَنُّ

الدِّينُ وَالْفَنُّ وَالتَّدْبِيرُ وَالْحُطْبُ وَالشُّعْرُ وَالتَّنْثِيرُ وَالتَّحْرِيرُ وَالكُتُبُ
كُلُّ يُحِيطُ بِمَكْنُونٍ يَضُنُّ بِهِ ؛ فِي صَدْرِهِ يَتَوَارَى جَوْهَرٌ عَجَبٌ
وَمِنْ ضَمِيرِ سَلِيلِ الطِّينِ مَطْلَعُهَا لَكِنْ لَهَا مِنْ وَرَاءِ الرُّهْرِ مَضْطَرَبٌ^(١)
إِنْ تَحْفَظِ « الذَّاتَ » هَذِي فَالْحَيَاةُ بِهَا أَوْ لَمْ تَطُقْ ذَاكَ فَهِيَ السَّحَرُ وَالكَذِبُ^(٢)
كَمْ أُمَةٌ تَحْتَ هَذِي الشَّمْسِ قَدْ خَزِيَتْ إِذْ جَانِبِ الذَّاتِ فِيهَا الدِّينُ وَالأَدَبُ

التَّخْلِيقُ

جِدَّةُ الدُّنْيَا بِتَجْدِيدِ الفِكرِ لَيْسَتْ الدُّنْيَا بِصَخْرٍ وَمَدْرُ
هَمَّةُ الغَائِصِ فِي « الذَّاتِ » لَهَا مِنْ غَدِيرِ المَاءِ بَحْرٌ قَدْ زَخَرَ
قَاهِرُ الأَيَّامِ مِنْ أَنفَاسِهِ هِيَ أَعْمَارُ خَلُودٍ فِي الدَّهْرِ
رِيحُ أَصْحَابِ مِنَ البِيدِ أَتَتْ لِأَعْجِيبُ إِنْ بَدَا خِذْنُ سَفَرِ^(٣)

(١) سليل الطين : الإنسان .

(٢) الدين وسائر ما ذكره في البيت الأول مقصدها حفظ الذات . . . إلخ .

(٣) يعجب إقبال بالبادية : لأنَّ الذات فيها أقوى ، ولذكرى الرسول وأصحابه الذين

أخرجوا للعالم الحياة والقوة . وهو يجد من البادية ريحاً تبشر بصاحب مسعدي له ،
يدعو دعوته ، ويحقق أمله .

جُنُون

واهنُ البيت شاعرٌ وفقيةُ وطوى البيدَ - ويحه - المجنونُ
في طمّاحِ الجنونِ أيُّ كمالِ حينَ تعدو البيداءَ منه فنونُ^(١)
فله في الدروسِ أيضاً مجالُ ليس وقفاً على الفيافي الجنونِ

إلى شعره

ليَ من فعلك شكوى : همتَ في حُبِّ الطلوعِ
شِغْتَ عن قلبي فالأسد - رارُ عن قلبي تَشِيعُ
لا تكنُ مثلَ شرارِ نَدَّ عن نارٍ يضيغُ
والتمسِ خلوةَ صدرِ فيه من نارٍ ضلوعُ

مسجدُ « باريس »

يا نظري لا يخدعَنَّك فُتُه للزُّورِ هذا الحرِّمُ المغرَّبُ
وليس هذا حرِّمًا لكنَّه عندَ الفرنجِ للغرامِ ملعِبُ
قد أخفتِ الإفرنجِ رُوحَ موثني في صورةٍ من حرِّمِ تُكذِّبُ^(٢)
إنَّ الذي شيدَ هذا موثناً دمشقُ من عُدوانه تخرَّبُ

(١) إن تجاوز البيداء إلى الحضرة فنونه ، وفيه إشارة إلى مجنون ليلي .

(٢) الموثن : معبد الأوثان .

الأدب (١)

رأيتُ العشق يقفو اليوم نهجاً من العقل الإلهي القويم
وليس يُريق ماءً الوجه ذلاً على عتبات محبوبٍ غريم
محا التقليد في روح قديم وأحيا الروح في جسدٍ قديم

البصيرة

الريبعُ النضيرُ ملءُ الفضاء وجيوشُ الشقيقِ في الصحراء
وشبابٌ وتمعنةٌ وسُرورٌ ودلائلٌ ونشوةٌ بالفتاء^(٢)
وعيونُ النجومِ في حلك الليل وسَبحُ الأفلاكِ في الدماء^(٣)
وعروسُ الهلالِ في هودج الليل تهادى بموكبٍ للقاء
وتبدّي ذكاءٌ في رونق الصُّبح وصمتُ الأفلاكِ في ذا الرِّواء
سرحُ العينِ ، لا تكلفُ أجراً لا يباغُ الجمالُ في ذا الفضاء

مسجدُ قُوَّةِ الإسلام (٤)

تملاً صدري همومُ مفؤودٍ لم يبق إلا اذكأرُ مفقودٍ^(٥)

(١) بهذا يُجمل الشاعر طريقة الأدب الحديث ، فهو مزاج من القلب والعقل . وهو يجدد الروح في صور قديمة ، أو يحرر من التقليد الأرواح العتيقة . (كُتبت هذه الأبيات في بهوفال . - رياض المنزل - دار السيد راس مسعود) .

(٢) الفتاء : الشباب .

(٣) الدماء : البحر .

(٤) مسجد عظيمٌ شامخٌ في دهلي ، هدمت بعض جدره .

(٥) المفؤود : حزين الفؤاد .

قد خمدت « لا إله » لا حُرَقُ
 في الخلق كلُّ العيون تنكرني
 مِنْ صَخْرِكَ المسلمونَ في خَجَلٍ
 فَإِنَّمَا كُفِّءَ مَا تَمَثَّلَهُ
 جلالُ تكبيره لذي أُذُنٍ
 وما صلّاتي بقلب ذي حُرَقٍ
 ولا أذاني جلالُ مقتدرٍ
 ولا تجلُّ ثبوءاً ملحودٍ
 أعياناً إيازاً مقامُ محمودٍ^(١)
 لجوهرٍ كالرُّجَاجِ معدودٍ^(٢)
 صلاة حُرِّ ريبٍ توحيدٍ
 فيه وغي هالكٍ وموجودٍ
 ولا دُعائي دعاءُ معمودٍ
 فكيف ترضى سجدَ رِعديدٍ

مسرّح

تضيء حريمَ وجودك ذاتك
 لها فوق أوجِ الثُّريا مقام
 أمِن « ذات » غيرك تعمُر قلباً
 فلا تبعثنَ وُثنها بعد موتٍ
 كمال المحاكاة أنت تَفنّي
 كيف بها وسرورُ حياتك
 جُليتَ بها وتجلّت صفاتك
 معاذ الإله ! تُرى أين ذاتك ؟
 فتحيا مناتك فيها ولا تُك^(٣)
 فيكيفك همّ الحياة مماتك^(٤)

-
- (١) السلطان محمود وإياز مولاه ، أي لا ينال العبد مقام السيد .
 (٢) لجوهرهم الضعيف كالرُّجَاج .
 (٣) الوثن : جمع وثن . ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن .
 (٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله ، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً
 فتستريح من عناء الحياة .

شعاعُ الأمل (١)

- ١ -

تنادي أشعتها في ضجر
عجبتُ لندينا نهاراً وليلاً
إلامَ الهيامُ بهذا الفضاء
فلا دِعةً في اتقادِ برملي
ولا دِعةً في دوامِ طوافي
تجمَّعنَ في صدري المستنير
ذُكاءً وتجمعُ منها النَشْرُ (٢)
عجبتُ عجبتُ لندينا الغيّر
وجورُ الزَّمانِ بكنَّ استمرّ
تَلالُأُ ذرَّأته كالشُّرر
طوافَ الصِّبا في رياض الزَّهر
ودغْنُ البداةِ ودغْنُ الحضّر

- ٢ -

تداعى الأشعةُ من كلِّ صوبٍ
وصاحت : تعذّر في الغربِ نورٌ
وفي الشُّرقِ قلبٌ بصيرٌ ولكن
أنوارَ العوالمِ لا تهجُرنا
إلى الشمسِ تبغي لديها قرارا
دُخانُ المصانعِ يكسوهُ قارا
كعالمِ غيبٍ بصمتِ تواري
إلى نورِ صدركِ آوى الحَيارى (٣)

- ٣ -

شُعاعُ جريءٍ له نظرةٌ
ولا يستقرُّ على حالةٍ
يقول : أضيءُ على الشرقِ حتى
كنظرةِ حوراءٍ تغزو الضميرُ
ترى زئبقاً في ضياءِ يَموزُ
أرى ذرَّةَ كشمسٍ تبيّزُ

(١) لعلَّ الشاعر يعني نفسه بشعاع الأمل . الشمس يثست من إضاءة في الشرق أو الغرب ، فدعت أشعتها إليها ، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بياسها إلا شعاعاً جريئاً يقول للشمس : ذريني أضيء الشرق ، ولا تياسي ، فكل ليل إلى صباح . الشاعر يرى في أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع .

(٢) النشر : المنتشر المتفرق .

(٣) الخطاب للشمس .

وأجلو عن الهند هذا الظلام
 ففيها من الشرق آماله
 تضيء بها أعين النيرين
 وكم عاش في أرضها غائص
 فأعوز أعوادها عازف
 ينام البرهمان في سدة
 ومسلمها خذن محرابه
 فلا يحزنك من الشرق نوم
 قضت فطرة الله أن تبدلي

فأوقظ نوامها للنشور
 « وإقبالها » بالذموع مطير
 حصاها يلوح كدر منير
 يرى كالضحاح ليج البحور
 وكانت تهيج الجوى في الصدور
 لدى مؤنن والزمان يسير
 ينوح ومن قدر يستجيز
 وفي الغرب لا ترهبن الشرور^(١)
 بليل الظلام صباح الشفور

أمل (٢)

لا ولا ربك لــــواء
 سر تبت في اللقاء
 وهيام وغناء
 أم سواها ذا العطاء^(٣)
 في محياها ضياء
 الكون منه في امتلاء
 يك كفراً ذا البلاء
 هود للحر سبباً^(٤)

لست من أجناد حرب
 بيد أني في صروف الدهر
 عُدتني ذكراً وفكراً
 لست أدري أهو شعر
 إن عبد الحق يُزهى
 من جلال ظلّ فكر
 ليس دون الكفر إن لم
 أن يرى بالحاضر المش

(١) الخطاب للشمس .

(٢) كتب في بهوبال - رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٣) هو يدري أنه وهبه الذكر، والفكر، والهيام، والغناء، ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر .

(٤) ليس أقل من الكفر أن يأسر الحر ما يراه ويشهده ، فيقيد به فكره وعمله . فالحر =

لا تذب غمًّا فكم في الدهر ——— أذوارٌ وضواء
كم نجوم حادّثاتٍ سوف تجلوها السّماء

البصيرة

لم تُخفِ هذي الكائنات ضميرها إن صاحب النظرات شوق بصيرة
شوق الظهور يثور في ذراتها تبذل الأيام في جلاواتها^(١)
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا أبناء من خضعوا لها ساداتها
من ذي البصيرة لي جنون ثائر عرفت به الذرات طي فلاتها^(٢)
هذي البصيرة لا تيسر لامرئ تخزي القلوب بنفسه وسِماتها

إلى أهل الفن^(٣)

رأيت الكواكب لمحات نور وذاتك بالعشق رهن خلود

= لا يقيد ما يسمى « الأمر الواقع » .

(١) يعني أنّ نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فترى الدنيا على غير صورتها الظاهرة .

(٢) الجنون : هو الحماس والإقدام . ويعني الشاعر أنّ بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في

نفسه ، فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة . والشاعر يقرن

الجنون بالفلاة إشارة إلى قصة مجنون ليلي (تراجع المقدمة في معنى الجنون) .

(٣) مذهب الشاعر أنّ الفنّ ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة ، وينبغي أن يصور « ذات »

صاحب الفن . فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها ، و« الذات » العاشقة خالدة .

وضمير الإنسان لا تحده الألوان . والذات تخلو للذكر والفكر ، وتظهر للشعر والإنشاد

غير خاضعة لهذا العالم . والروح المستعبدة فيها عبد ، والروح المقدره نفسها تسيطر

على كل شيء .

تعالى ضميرك عن كلِّ لونٍ فعفبتَ من اللّونِ كلَّ القيودِ
وغيبةُ ذاتك ذكراً وفكراً ومحضُها شعراً والنشيدُ
إذا أضنتِ الروحَ آلامُ رِقِّ ففتنك عبدٌ رهينُ سجودِ
وإنَّ عرفتَ قدرها كنتَ حقاً على الجنِّ والإنسِ ربَّ الجنودِ

قطعة

ثائرَ الموجِ كم لدى البحرِ دُرٌّ وعلى السّاحلِ الصّموتُ غناءً^(١)
في شراري سنا البروقِ ولكن رطبة العُودِ هذه القصباءُ^(٢)
ولك الوقتُ والتصرّفُ فيه ليس يا غرّاً ! للنّجومِ غناءً
قد رأينا عجيبةً من جنونِ فيه رَفُو لما يشقُّ القضاء^(٣)
إنّما الكاملُ الخلاءِ شهْمٌ دونَ مَنْ الكرومِ فيه إنشاءً^(٤)
وإلى اليومِ حانةُ الشّرقِ فيها خمرَةٌ للشّعورِ منها جلاءً^(٥)
يثس المبصرون من أمم الغد رب فيها بواطنُ سَوداءِ

-
- (١) الدُرُّ في ثورة الموج ، وليس في سكون السواحل إلا الغناء ، فالحياة جدٌ وكدٌ ، لا سكون .
(٢) شراري يحرق كالبرق ، ولكن هذه النفوس كالقصب الرطب لا تشتعل .
(٣) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاءً ، فهو يرفو ما يمزقه القضاء ، أي يصلح في هذا العالم مذلاً للطبيعة ، وما يحسبه الناس قضاءً وقدراً في هذا الكون .
(٤) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر .
(٥) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمره الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاءً .

الوجود

أنت تحت الشمس تمضي كشرارٍ لست تدري ما مقاماتُ الوجودِ
ليس في فنك للذات بناءً ويلُ تصويرٍ وشدوٍ وقصيدُ
ليس في المكتب والحانة إلا درسُ إفناءٍ به الذات تبيدُ
ليت شعري هل تعلمتَ وجوداً لحياةٍ ودوامٍ وخلودُ

الغناء

صاح من أين لناي نشوة؟ صوتُ عودٍ ذاك أم من قلب حيّ؟
صاح ما القلبُ؟ ومن أين له قوةٌ سكرى تحدت كلَّ شيءٍ
ولماذا نظرة منه سرت مثلَ ريحٍ صرصرٍ في تخت كي^(١)
ولماذا ذلك السرُّ له : من حياةٍ فيه يحيا كلُّ حيّ^(٢)
ولماذا كلُّ حينٍ مبدلٌ وارداتٍ زُمراً تهفو إليّ
ولماذا صاحبُ القلبِ ازدرى ملكَ رومٍ ومُنَى شامٍ وريّ
إن وعى للقلبِ رمزاً مطربٌ طويّ الفنُّ له أسرعَ طي^(٣)

-
- (١) كي : كيكاموس أحد ملوك الفرس القدماء ، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به .
(٢) لماذا خص القلب بهذا السر : أنَّ بحياته تحيا الأمم .
(٣) إن عرف المطرب رمز القلب ، فأرسل في نعماته خفقات القلوب ، طوى مراحل الفن ، فبلغ غايته دون عناء .

النسيم والندى

النسيم :

لم أرق في فلك النجوم وإنني في شق أبواب الأزاهر أعمل
وأسير عن وطني غريباً مجبراً في مسمعي شدو البلابل يثقل
قل لي ، فقد أعطيت سرّ كليهما ، المرج أم فلك الكواكب أجمل^(١)

الندى :

لو لم تكن في المرج رهن هشيمه لرأيته سرّ الكواكب يحمل^(٢)

أهرام مصر^(٣)

شادت الفطرة كُثباناً لها في سُكونٍ من يباب قد وقد
رَوَّع الأفلاك فيه هرمٌ أي كَفَّ صَوَّرت هذا الأبد!
من إسار الكون حرَّز صنعةً صائدٌ ذو الفن أم صيداً يعد^(٤)

(١) و(٢) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج ، أيهما أجمل . فيقول الندى لو لم تعلق بالهشيم ، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سرّ الكواكب ، وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج .

(٣) في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ، ويشير إلى ما قال في أبيات أخرى من أن صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة ، بل يسيطر عليها ، ويؤثر فيها .

(٤) لم يحاك باني الهرم كُثبان الرمال ، بل شاد هذا الأثر الخالد ، فحرر الصنعة من أسر الخليفة ، فإن صاحب الفن صائد لا صيد ، يأسر الخليفة ولا تأسره .

مخلوقات الفن

قد رأى ذو بصرٍ سرَّ الذَّاتِ وجلا الفنُّ لعينِ جَنَّاتِ^(١)
ما به الذَّاتِ ولا الكون يُرى فهو من جهدِ حياةٍ في نِجاةِ^(٢)
تعسَ الكافرُ مَنْ أصنامِه من حُطامِ لمناةٍ واللاتِ^(٣)
هالكٌ صلَّى عليه فُتِّه في ظلامِ اللَّحدِ يرنو للحياةِ^(٤)

إقبال

قال للرومي^(٥) في الخلدِ سنائي : لا يزالُ الشرقُ بالتقليدِ يُوسرُ
قال منصور : ولكنْ قد سمعنا أن سرَّ الذاتِ أفشاه قلندرُ

الفنونُ الجميلةُ

نظراتُ الآفاق مُتعةٌ عينِ سرَّحوا العينَ يا أولي الأبصارِ

- (١) ذات الإنسان أو مركز وجوده (خودي) في فلسفة إقبال .
- (٢) ليس في هذا الفن الذات ، ولا فيه عالم الصباح والمساء ، فهو فرار من جهاد الحياة .
- (٣) المقلد في الفن يتخذ أصناماً من بقايا أصنامٍ محطمةٍ كانت في العصر الخالية .
- (٤) في الأصل : أنت ميت وفنك أمام جنازتك .
- (٥) جلال الدين الرومي أكبر شعراء الصوفية ، ومجدُّ الدين السنائي طليعة شعراء الصوفية الكبار ، ومنصورُ في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي المعروف . والشاعر يتخيل : أنَّ السنائي قال في الجنة للرومي : لا يزال الشرق في أسر القديم . فقال الحلاج : قد ظهر مجذوب أفشى للناس سرَّ الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق .

غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ : مَا نَظَرَاتُ لَا تَجَلِّي كَوَامِنَ الْأَسْرَارِ^(١)
 مَقْصِدُ الْفَنِّ فِي الْحَيَاةِ لَهَيْبٌ أَبَدِيٌّ فَمَا وَمِضُّ الشَّرَارِ؟^(٢)
 قَطْرُ نَيْسَانَ ! مَا اللَّالِيءُ إِنْ لَمْ تَتَلَاطَمْ بِهَا قُلُوبُ الْبَحَارِ^(٣)
 مَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ فِي الشَّعْرِ وَاللَّحْنِ إِذَا مَا أَذْوَى سَنَا الْأَزْهَارِ^(٤)
 لَيْسَ إِلَّا الْأَعْجَازُ يَحْيِي فَنًّا لَيْسَ ضَرْبُ الْكَلِيمِ فِيهِ ، عَوَارِي^(٥)

صُبْحُ الْمَرْجِ^(٦)

الرَّهْرَةَ :

وَإِنِّ الْأَفْلَاكَ ! هَلْ خِلْتِ بَعِيدًا مَوْطِنِي ؟ لَا إِنَّهُ غَيْرُ بَعِيدِ

النَّدَى :

مَنْ يَطِرُ مَا بَيْنَ أَرْضٍ وَسَمَاءٍ يَتَيَّنُّ أَنَّهُ غَيْرُ بَعِيدِ

- (١) إن لم تنفذ نظرات صاحب الفن إلى حقائق الأشياء ؛ فما هي بمجدية .
 (٢) الفنُّ يصوِّر لهيب الحياة الأبدية ، فلا قيمة للفنِّ الذي يخرج شراراً لا يلبث أن يُطفأ .
 (٢) قطر المطر في نيسان يُخلق منه الدرُّ في الصَّدْفِ . يقول الشاعر : يا قطر نيسان !
 ما قيمة الدرِّ الذي لا يضطرب له قلبُ البحر . يعني : أن بدائع الفن ينبغي أن يجيش لها قلب العالم .
 (٤) إن كان نسيمُ الصبح المتمثِّل في إنشاد الشاعر ولحن المغني يذبلُ الرَّهْرَ في الرَّوْضَةِ ولا ينضِّره فأئى نسيم هو ؟!
 (٥) حياة الأمم بالإعجاز ، فالفنُّ الذي لا إعجاز فيه عاريةٌ لا دوام لها .
 (٦) خلاصة ما يؤخذ من هذه الأبيات أنَّ الإنسان ينبغي أن يعمل في هذه الأرض غير غافلٍ عن عالم الغيب ، كضوء الصُّبْحِ يُغشى السهول والجبال ولكنَّه موصول بالفلك ، وعالم الغيب والشهادة ليسا متباعدين كما قال النَّدَى : إنَّ الطيران يُعلِّم أنَّ الأرض ليست بعيدةً من السماء .

الصُّبْح :

أقبلن في الرّوض كالصُّبْح رقيقاً ليس يؤذي وطؤه قطر النَّدى
واحضن الأجيال والبيد ولكن من عُرا الأفلاك لا تحلُّ يدا

(١) الخاقاني

ذا صاحب تحفة العراقيين ذو القلب يراه قرّة العين
تنشق لفكره الشُّتور الحُجُبُ جميعها تُنير
يجتاز بعالم المعاني لا يسمع قول : ﴿ كُنْ تَرْنِي ﴾^(٢)
فأسأله بذلك التُّراب والدَّهرُ يجيشُ في عُباب^(٣)
ذا محرّم عالم الثُّواب كم دلّ بموجز الخطاب^(٤) :

- (١) شاعرٌ فارسيٌّ كبيرٌ ، توفي في تبريز سنة ٥٨٢ هـ . وله من الكتب « تحفة العراقيين » . سجل فيها ما رأى في العراقيين العربي والعجمي حينما مرَّ بهما في طريق الحج ، وله ديوانٌ ، ومنظومةٌ اسمها « هفت إقليم » (الأقاليم السبعة) .
وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن = مفعول مفاعلن فعولن . وهو ضربٌ شائع في الشعر الإسلامي الشرقي وهو مشتقٌ من الأوزان العربيّة ، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أولها :
يا مَنْ لعبت به شمولٌ ما ألطفَ هذه الشمائل
وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيد في شعرنا مثلاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير .
(٢) ينكشف له عالم المعاني ، فلا يسمع منه ﴿ كُنْ تَرْنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا رمز إلى الآية في قصة موسى : ﴿ قَالَ كُنْ تَرْنِي ﴾ .
(٣) أسأله عن هذا العالم الأرضي وعن حوادث الدَّهر . وفي القرآن الكريم ﴿ فَسْأَلْ يَوْمَئِذٍ خَيْرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] أي أسأل عنه .
(٤) المحرم : المطلع على السرِّ . واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربية وليست بعيدة من المعنى الأصلي .

« نَاهِيكَ بِشَرِّ هَذَا الْعَالَمِ إِبْلِيسُ ثَوِي وَمَاتَ آدَمُ »^(١)

(٢) الرَّؤْمِي

ما زال طَرْفُكَ فِي حَلْطٍ وَفِي سِنَةٍ وَعِنكَ ذَاتُكَ فِي الْأَسْرَارِ لَمْ تَزَلِ
وَلَمْ تَزَلْ فِي صَلَاةٍ لَا قِيَامَ لَهَا وَبِالصَّرَاعَةِ عَزَّ الرُّوحُ لَمْ تَصِلْ^(٣)
وَمِزْهُرُ « الذَّاتِ » أَوْ تَارٌ مَقْطَعَةٌ مَازَلْتَ عَنِ نِعْمَةِ الرَّؤْمِيِّ فِي شُغْلٍ

(٤) الْجِدَّةُ

إِنْ صَدَقَتْ نَفْسُكَ فِي الذَّهْرِ النَّظْرُ تُنَوِّرُ الْأَفْلَاكَ مِنْكَ فِي الْبُكَزِ
وَتَسْتَضِيءُ الشَّمْسُ مِنْكَ بِالشَّرْرِ وَيَنْجَلِي قَدْرُكَ فِي سِيْمَا الْقَمَرِ
وَالْبَحْرُ يَلْقَى مِنْكَ مَوْجاً ذَا دُرِّ وَتَسْتَحْيِي إِعْجَازَ صُنْعِكَ الْفِطْرِ^(٥)

(١) حسبك تعريفاً بهذا العالم أن آدم مات ، وبقي إبليس أي : بقيت نزعات الشر في هذا

العالم . فهو عالمٌ محنّ وجهاد . وهذا البيت مضمّن من شعر الخاقاني .

(٢) هو مولانا جلال الدين الرّومي صاحب المثنوي ، والشاعر يتّخذُه إماماً ، ويشيد بذكره في شعره .

(٣) الصلاة قيامٌ وسجودٌ ، يقول الشاعر : إنهما رمزُ الدلال والصَّرَاعَةِ (ناز و نياز) أي : الخضوع والسّيادة ، ولكنّ بعضَ الناس صلاتهم سجودٌ بغير قيام . . . إلخ .

(٤) يرى الشاعر أنّ الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء . يقول : إنك إن صدقت النظر فيما حولك ؛ رأيت دنيا أخرى جديدة غير التي تراها ، وتغيّر إدراكك هذا العالم ، وتبيّن أنه مسخرٌ لك .

(٥) تستحي الخليفة من صنعك المعجز ، تراه أحسن منها .

تخذت أفكار الورى مرآتك فكيف لا تبلغ حتى ذاتك^(١)

مرزا بيدل^(٢)

ذي سماء وجمال وفجاج ذاك حق أم عيون في اعوجاج ؟
فرق الآراء إثبات ونفي أهى دنيا أم خداع في الحجاج ؟
عقدة قد حلها بيدل حقاً أعجزت من قبله كل علاج :
« ما بدا ذا المراج لو في القلب وسع بان لون الخمر من ضيق الزجاج »

الجلال والجمال^(٣)

حسبي كمالاً قوة من حيدر وكفاك من أفلاطن الإدراك

(١) إنك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك ، فقد أضعتها بالتقليد .
(٢) من شعراء إيران ، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان ، فأكرم السلطان وفادته ، وهو شاعر صوفي له ديوان كبير يغلب فيه التعمق وتكثر الدقائق .
وقد أعجب إقبال بفكرة في بيت لبديل ، فبنى عليه هذه الأبيات ، وهي : أن هذا العالم الحسي لا خطر له ، بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم . كالخمر يظهر لونها كأس الزجاج لضيقها . وترجمة البيت في النشر :

« لو أوسع القلب ما ظهر هذا المرج ، خرج لون الخمر من شدة ضيق الزجاج » .
(٣) الشاعر من المعجبين بالقوة ، الداعين إليها ، وهو يدعي هنا الإجمال بغير جلال ، يرى الكمال في شجاعة علي لا في خيال أفلاطون ، ويرى سجود السماء للقوة جمالاً - وقد تخيل الشعراء أن انحناء السماء في رأي العين سجوداً - والنعمة التي لا قوة فيها نفخة ضائعة ، بل لا يحب أن يجازى إلا بنار شديدة الالتهاب .

وأرى جمالاً في بهاء أن تُرى في سجدةٍ للقوّة الأفلاك
ولنغمةً من دون نارٍ نفخةً ما الحسنُ إلا بالجلال يُحاكُ
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن وهما جنةٌ ولهيها دراكُ

(١) المصوّر

قلد الغربَ فنُّ عجمٍ وهندٍ عمّ هذي البلادَ موتُ الخيال
شقني الغمُّ أن بهزادَ عصري يُفقد الشرقَ بهجةَ الآزال^(٢)
يا خبيراً بفنّه فيه تمّت صنعةُ العصر والعصورِ الخوالي
كم ترى من خليقةٍ وتربها أرىنا الذاتَ فوق هذي المجالي

(٣) الغناء الحلال

تفتح القلبَ نغمةً من غناء أيّ فتحٍ والقلبُ رهنُ همودٍ؟
في صدور الأفلاك لحنٌ خفيٌّ صاهرٌ حرّه نجومُ الوجودِ

- (١) يرى الشاعر أنّ المصوّر وكلّ ذي فنٍّ ينبغي أن يُظهرَ ذاته فيما يصوّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأنّ المحاكاة موت .
- (٢) بهزاد : مصوّرٌ فارسيٌّ مشهور نبغ أيام الدولة الصفوية ، والشاعر يغمّ لأنّ بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرقُ بهجةَ القديمة .
- (٣) يرى الشاعر أنّ الغناء وكلّ لحنٍ يحلُّ إن كان فيه قوةُ الذات وحرقة الحياة ، ويخزّم إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته؟! وفي الأفلاك ألحانٌ طبيعية تذيب النجوم ، وتبريء الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . . إلخ . والنغمة الحيّة التي يُحلّها فقهاء الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

يهجرُ الناسَ منه خوفٌ وغمٌ إيازُ يسمو إلى محمود^(١)
 تيهُ هذي النُّجوم يفنى ولكن أنت تبقى ونعمة التَّوحيد^(٢)
 قد أحلت شريعةُ الذَّاتِ لحناً لم يزل في انتظار شادٍ مُجيد^(٣)

الغناءُ الحرام

ما بذكري من التصوِّفِ وَجَدُّ أو برأبي ثوابهم والعذابُ
 قَرَّبَ اللهُ مذهبي من فقيهِ عُرِفَتْ عنه سُنَّةٌ وكتابُ :
 « إن سَرَتْ في اللحون دعوةُ موتِ حَرُمَ النَّايُ عندنا والرَّبابُ »^(٤)

النَّافورة

لا يُطَيِّبُنِي مَسِيرُ النَّهْرِ مَطْرَدًا مُسَايِرًا تُرِبَهُ جَنبًا إِلَى جَنبِ
 دَعِ ذَاكَ ، وَانظُرْ إِلَى نَافُورَةٍ بَسَقَتْ تُصَعَّدُ الْمَاءَ مِنْهَا قُوَّةُ الْقَلْبِ^(٥)

-
- (١) السُّلطان محمود بن سبكتكين وخادمه إياز .
 (٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ، ويقول : إنه يفنى ، ويبقى الإنسان ونغمته الموحدة .
 (٣) اللحن الذي أحلته شريعةُ الذَّاتِ ، وهو الذي يحيي النفوس ويقويها ، لم يظفر به أحدٌ ، فلا يزال ينتظر مطرباً .
 (٤) هذا مذهبه : الألحان التي تميمت النفوس حرام .
 (٥) لا يُعجب الشَّاعر بالنهر يساير الأرض ، بل يُعجب بنافورةٍ قويةٍ تقذف الماءَ عالياً في الهواء .

(١) الشاعر

في غابة الشرق نايّ يبتغي نَفْساً
من كان في ذاته من رَقّةِ خَوْزٍ
إنّاؤها من زجاجٍ كان أو خزفٍ
لم تبصر الشمسُ من دُنيا يُخال بها
طُوْرٌ جديدٌ ، وبرقٌ كلّ آونةٍ
يا شاعرَ الشَّرْقِ هل في صدرك النَّفْسُ؟
فقلْ له من لُحونِ العُجْمِ يَحْتَرِسُ
اجعل بخمرك سيفاً لمعه قَبَسُ
مجددٌ بغير الجلاذ المرّ يُلْتَمَسُ
لا قَرَبَ اللهُ للعشاقِ ما التمسوا

شعر العجم

كم بشعر العُجْمِ من سِخْرٍ ولكن
صَمْتُ طيرِ الصُّبْحِ أولى من غِناءٍ
ليس ضرباً ما يشقُّ الطَّوْدَ لكن
يَنْحِتُ العَصْرُ أيا إقبالاً ! صخراً
منه سيفُ الدَّاتِ ذو حدٍّ كليلٍ
إن سرى باللَّحْنِ في الرِّوَضِ ذبولٌ
ليس منه عرشُ برويز يميلُ^(٢)
فاحذرن من كلِّ ما يُبدي الوذيلُ^(٣)

-
- (١) ينفّرُ إقبالٌ من شعر الرِّخاوةِ والذَّلّةِ ، ويقول هنا : من ضعفت « ذاتهم » فليحترسوا من ألحان العجم ، فهي تدعو إلى الرِّقّةِ والترَفِ .
ولا بدّ للشعر أن يكون في حدّةِ السيف ، ملائماً لمعركة الحياة مهما تكن صورته ، كالخمر في زجاجيّة أو صراحية ، ينبغي أن تكون محرقةً . وليس لشوق الشاعر غايةً ففي كل حين طوْرٌ جديدٌ ، وبرقٌ للتجلّي جديد .
- (٢) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شقَّ الجبل . والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شقَّ طريقاً في الجبل ، ولم يظفر بشيرين ، كما وعده برويز .
- (٣) الوذيلُ : جمع وذيلة ، وهي المرأة . والشُّطْرُ فارسيٌّ من شعر العراقي . ومعناه : احذر من كلِّ ما يبين في المرأة « أي هذا عصر حقائق لا خيالات . ينحت الصخور ، ويحطم كلُّ ضعيفٍ ، فكلُّ ما بدا في الزجاج فلا تركزن إليه » .

أصحابُ الفنِّ في الهند

تَحْيَلُهُمْ جَنَازَةً كُلَّ عَشْقٍ وَظَلَمَةٌ فَكْرَهُمْ لِلْحَيِّ قَبْرُ
 وَمَوْتُهُمْ بِهِ نَقْشُ الْمَنَايَا وَلَيْسَ لِفَنَّهُمْ بِالْعَيْشِ خُبْرُ^(١)
 يُنِيمُ الرُّوحَ فِي إِقْطَاطِ جَسْمِ وَدُونَ الْمَجْدِ يُسَدِّلُ مِنْهُ سِتْرُ
 يُسَخَّرُ لِلْأَنْوَاثَةِ كُلِّ شَيْءٍ لَهُمْ قَصَصٌ وَتَصْوِيرٌ وَشِعْرُ^(٢)

الرَّجُلُ الْعَظِيمُ

هُوَ فِي الْحُبِّ عَمِيقٌ وَهُوَ فِي الْبُغْضِ عَمِيقٌ
 قَهْرُهُ فَرُوقُ عِبَادِ اللَّهِ بَشِيرٌ وَشَفِيرٌ
 نَشَأَتْهُ ظَلَمَةُ التَّقْلِيدِ بِالنَّاسِ تَحْيِيقٌ
 غَيْرَ أَنَّ الطَّبْعَ بِالْإِبْدِ سَدَاعَ وَالْخَلْقَ خَلِيقٌ
 هُوَ فِي الْمَجْمَعِ خَالٍ وَمِنْ الْحَشْدِ طَلِيقٌ
 مِثْلُ شَمْعِ الْحَفْلِ ؛ فِي الْحَفْلِ وَحِيدٌ وَرَفِيقٌ^(٣)
 مِثْلُ شَمْسِ الصُّبْحِ ؛ فِكْرٌ فِيهِ نُورٌ وَبَرِيقٌ
 لَفْظُهُ حَرٌّ يَسِيرٌ لَكِنَّ الْمَعْنَى دَقِيقٌ
 نَظَرٌ فِيهِ سَدِيدٌ عَنِ بَنِي الْعَصْرِ سَحِيقٌ

(١) الموتى : معبد الأوثان .

(٢) الفن الهندي بالشهواتِ الجسمية ، ويُفتن في تصويرها ، فهو يوقظ الجسم ، وينيم الرُّوح ، ويسخَّر كل شيءٍ للأنوثة .

(٣) يكون في جمعٍ من الناس وكأنه وحده ، له فكره ، ونظره . مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ، ووحيدةٌ بحرقتها ونورها .

ليس يدري أيُّ حالٍ فيه أشياخُ الطريقِ

عالمٌ جديدٌ^(١)

مَنْ كَانَ حَيَّ الْقَلْبَ فِي الدُّنْيَا فَمَا يخفي عليه من القضاء ضميره
تجلو له رؤياه كوناً مُحدثاً يدعُ المثالَ يروقه تصويره
فإذا جلا صوتُ الأذانِ منامه شادَ الذي في حلمه تعبيره
ولهيكلُ الدُّنيا الجديدةِ طينه هذا الضئيلُ ، وروحها تكبيره

خلقُ المعاني

خلقُ المعاني من الخلاقِ موهبةٌ لكنَّ للفنِّ في الفنَّانِ إجهاداً
من حُرقةٍ في دَمِ الباني ، مشيدةٌ حاناتُ حافظٍ أو زوناتُ بهزادا^(٢)
ما جوهرٌ يتجلَّى دونَ مجاهدةٍ من ومضةِ الفأسِ نارت دارُ فرهادا

(١) الرَّجُلُ العَظِيمُ يَرى فِي مَنامِهِ أَوْ خِيارِهِ عالِماً جَدِيداً ، فَيَعْمَلُ عَزمَهُ ، فلا يَسْتَعصِي عَليه أَن يَحققَ فِي عالِمِ الحَقائِقِ ما رَأى فِي الرُؤيا أَوْ الخِيارِ .

وَهذا العالِمُ الجَدِيدُ الَّذِي يَخْلُقُهُ نَاشِئٌ مَن نَفسِهِ ، فَهيكَلُهُ : جِسمُهُ الصَغيرُ ، وَروحُهُ : تَكبيرُهُ ، وإيمانُهُ ، وَعَزمُهُ .

(٢) حَافظُ الشيرازي الشاعِرُ الفارسي الكَبيرُ ، وَحاناتُهُ : شِعْرُهُ . وَبَهزادُ مَصورُ فارسي مَشهورُ عاشَ فِي أيامِ الدُولَةِ الصَفويَّةِ . وَالزوناتُ : جَمعُ زونَةٍ وَهِيَ مَعرَضُ الأَصنامِ ، أَو الدُّمى ، يَضْرَبُ بِها المِثَلُ فِي الجَمالِ وَالزِينَةِ .

المُوسِيقَا

دَلَّ عَلَى بَرْدِ دَمِ الْمُغْنِي لَحْنٌ لَهُ الْوَجْوه لَا تُنِيرُ^(١)
أَنْفَاسُ زَامِرٍ سُمُومٌ لَحْنِ إِنْ كَانَ لَمْ يَطْهُرْ بِهِ ضَمِيرُ^(٢)
بِالشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ فِي رِيَاضِ مِنْ الشَّقِيقِ شَاقِنِي الْمَسِيرُ
فَمَا مَرَرْتُ بَيْنَهَا بِمَرْجٍ شَقَّتْ بِهِ جُيُوبَهَا الرُّهُورُ^(٣)

لَذَّةُ النَّظَرِ

أَيُّ ذَاتٍ حَوَى فَتَى الصِّينِ مَنْ قَا لَ لَجْلَادِهِ أَمَامَ الْجِمَامِ :
مَنْظَرٌ رَائِقٌ ، تَمَهَّلْ ، تَمَهَّلْ لَأَرَى لِحْظَةً وَمِيضَ الْحُسَامِ^(٤)

الشَّعْرُ

لَمْ أَدْرِ سِرَّ الشَّعْرِ إِلَّا نَكْنَةَ سَبَّرُ الشُّعُوبِ تُبَيِّنُهَا تَفْصِيلاً

- (١) اللّحن الذي لا تنير له وجوه السّامعين دليلٌ على برود نفس المغني ، وخمود عاطفته .
- (٢) لا بدّ للمطرب من طهارة الضمير لتكون ألحانه صدى الضمير الطاهر ، وإلا فأنفاسه في اللحن سمّ للسامعين .
- (٣) زهور الشرق والغرب لم يهج بها الطرب فتمزق جيوبها كما يفعل من يغلبه الطرب من حزنٍ أو فرح - يعني : لم يظهر المطربون أسرار النفس ، ويبدو مكنون الضمير الإنساني ، ولا تزال « الذات » محجوبة .
- (٤) رجلٌ صينيٌّ قام أمام الجلابد والسيف مصلت فلم يشغله هذا المقام عن الإعجاب بوميض السيف ، فقال للجلابد : أمهلني لأمتع النفس بهذا المنظر . فهذا يعجب به إقبال أيّ إعجاب ، ويرى فيه ذاتاً كاملة .

الشَّعْرُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ رِسَالَةٌ أَبَدِيَّةٌ لَا تَقْبَلُ التَّبْدِيلَا
إِنْ كَانَ مِنْ جَبْرِيلَ فِيهِ نَغْمَةٌ أَوْ كَانَ فِيهِ نَفْخُ إِسْرَافِيلَا^(١)

الرَّقْصُ وَالْمُوسِيقَا

إِنَّ لِلشَّعْرِ بِهَجَّةٍ ضَاءَ مِنْهَا رُوحُ جَبْرِيلَ وَالرَّجِيمُ اللَّعِينُ
وَمِنَ الْمُوسِيقَا ابْتِهَاجٌ شَوْقٌ وَكَذَا الرَّقْصُ نَشْوَةٌ وَفُتُونُ
قَدْ سَمَعْنَا فِي الصُّيُنِ قَوْلَ حَكِيمٍ فِيهِ أَفْشَى مَخَبَّاتِ الْفُنُونِ :
إِنَّ لِلْمُوسِيقَا مِنَ الشَّعْرِ رُوحًا وَمِنَ الرَّقْصِ جِسْمُهَا فِي الْعَيُونِ

ضَبْطُ النَّفْسِ

دَابُّ أَهْلِ الزَّمَانِ شَكْوَى الزَّمَانِ لَيْسَ لِلْحَرِّ آهَةٌ فِي طِعَانِ
قَدْ أَسْرَّ النَّجْوَى إِلَيَّ عَلِيمٌ مِنْ شِيُوخِ الْقُلُوبِ وَالْعِرْفَانِ :
إِنَّ كَظْمَ النَّوَّاحِ شِيمَةٌ لَيْثٌ وَمِنَ النَّوْحِ شِيمَةُ التُّغْلِبَانِ

الرَّقْصُ

دَغْ لِأَهْلِ الْغَرْبِ رَقْصًا بِجَسُومٍ إِنَّ رَقْصَ الرُّوحِ مِنْ ضَرْبِ الْكَلِيمِ
فَبِهَذَا الرَّقْصِ سُلْطَانٌ وَفَقْرٌ وَبِذَاكَ الرَّقْصِ هَمٌّ لَا يَرِيمُ

(١) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبدية إن كان جميلاً هادياً ، كنعلمات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صغقٌ وبعثٌ ، كصوت إسرافيل .

القسم الخامس

سياساتُ المشرقِ والمغربِ

انقلاب

أبمشرقٍ أو مغربٍ نارُ الحياة ونورُها
فهنأ تموتُ ذواتُها وهناك ماتَ ضميرُها
وأرى القلوبَ لثورةٍ ملءُ البلادِ زفيرُها
فلعلَّ دنياك القديمة للمماتِ مَسيرُها

تملُّق (١)

جهلْتُ أمورَ الناسِ غيرَ مجرَّبٍ ولكنَّ ربَّ القلبِ للغيبِ يشهدُ
فقلْ لوزيرٍ ما بدا لك مادحاً فذاتك دُستورٌ وعهدٌ مجدُّدٌ
إذا قال : صقرُ الليلِ لليومِ مادحٌ فهل ذاك حقٌّ أو دِهانٌ يردُّدٌ^(٢)

المناصب (٣)

سحرُ الفرنجة قد أحاط بمؤمنٍ يا ويحَ عيني قد همتَ عبراتها

(١) العنوانُ في الأصل (خوش آمد) وهي عبارة فارسيَّة بمعنى مرحباً أو أهلاً وسهلاً . ومعناها بالأردوية التملُّق . وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام

الاستقلال الداخلي لولايات الهند ، وكثرت مناصب الوزراء فيها .

(٢) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً إنها صقراً لليل فهل هذا حقٌّ أو ملق ؟

(٣) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السابقة .

فلعلَّ منصِبكَ الرفيع مباركٌ فالذاتُ من جَرَّاه حانَ مماتُها
هذي القضيةُ معضِلٌ إخفاؤها وضحتُ لكلِّ مفكِّرٍ آياتُها :
« لا شِرْكَ في حكمٍ لعبدٍ إنمَّا شُرِّيتْ عقولُهُمُ وخابَ شُرَّاتُها »^(١)

أوربة واليهود^(٢)

نظامٌ ومالٌ وعيشٌ رغيذٌ وظلمةٌ صدرٍ لها القلبُ يَقلِّي
دخانُ المصانع في الغربِ داجٍ فواديه ليس بأهلِ التَّجَلِّي
رأيتُ حضارتَه في احتضارٍ تموتُ اعتباراً ، وما الموتُ يُملِّي^(٣)
فليس غريباً تولِّي اليهود كنائسَه بعد هذا التولِّي

عبودية الأنفس^(٤)

ليس يخلو زمانٌ شعبٍ ذليلٍ من عليمٍ وشاعرٍ وحكيمٍ
فرقتهم مذاهبُ القولِ لكنْ جمَعَ الآراءَ مقصدٌ في الصِّميمِ :

-
- (١) الأممُ المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظم .
شُرِّيت : بيعت ، والشراة : البائعون .
- (٢) إقبال توفي سنة ١٩٣٨م فهو لم يشهد حرب فلسطين ولم يرَ تسلُّطَ اليهود على أوربة
وأمریکا ، كما رأينا . ولكنَّه نظر إلى الحوادث نظرة عارفٍ خبير .
- (٣) تموت في شبابها ، والموت يمهل .
- (٤) لا تخلو الأمم الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتى إلى غاية
واحدة ، هي أن يروِّضوا الأمة على الخضوع ، ويمحوا من سجايها الإقدام حتى
ترضى بالرقِّ ، هذا مقصدُهم ، كلُّ تأويل في القول تحيُّلٌ لهذا المقصد .

« علموا الليث جفلة الطَّيِّبِ وامحوا قصصَ الأُسْدِ في الحديثِ القديمِ^(١)
همُّهم غبطةُ الرِّقِيِّ برقٌ كلُّ تأويلهم خِداغٌ عليهم

الرُّوسُ الشُّيُوعِيُونَ

إِنَّ سَيْرَ القُضَاءِ جِدُّ عَجِيبٍ أَيُّ سِرِّ حَوَى ضَمِيرُ الزَّمَانِ
ليس يَألو الصُّلَيْبَ سِرّاً قَبِيلٌ كان يَرْجو النِّجَاةَ بِالصُّلْبَانِ
أَمَرَ الوَحْيِ مُلْحَدِي الرُّوسِ « هُدُوا مَا أَقَامَ القُسُوسُ مِنْ أوثَانِ »

اليَوْمُ وَالغَدُ

مَنْ عَدَاهُ لِيَوْمِهِ فِي جِهَادٍ نُورُ نَفْسٍ وَشُعْلَةٌ فِي الكُبُودِ
مَالَهُ الحَقُّ فِي مَتَاعٍ وَهَمٌّ يَسْتَسِرُّانَ فِي الغَدِ المَوْعُودِ
ليس أَهلاً لِمَعْرَكِ الغَدِ مَنْ فِي سِيرِهِ (اليَوْمُ) ليسَ بِالمَعْدُودِ

المَشْرِقُ

جَيْبُ الشَّقَائِقِ مِنْ شَدَوِي غَدَا مِرْقَاً وَنِسْمَةُ الصُّبْحِ رَوْضاً تَطْلُبُ الْآنَا^(٢)

(١) في هذا البيت مقصد القائلين المذكورين في البيتين السابقين .
(٢) أنا شدوت حتى مرقت شقائق النعمان جيوبها وهداً ، ونسيمُ الصبح لا يزال يطلب روضاً ينضر أزهاره .

ما «مصطفى» أو «رضا» جلّى حقيقتها فالروح في الشرق جسماً تطلب الآنا^(١)
وحق ذاتي عقابٌ غير أنّ لها ذا العصرُ جذعاً وحبلاً يطلب الآنا^(٢)

سياسةُ الإفرنج

يا ربّ نذك في غربِ سياسته وما تعبد إلا الهامَ والرؤسا^(٣)
خلقت إبليس فرداً من لظى لهبٍ ومن تُرابٍ أقامت ألفَ إبليسا

العبيد

تعلمتُ بين الغرب والشرق حكمةً أراها لأهل الرقّ أجدى الفوائد :
فلا مُلك أو فقراً وديناً وحكمةً يؤسس إلا فوق صخرِ العقائد
فإمّا خلا منها ضميرُ جماعةٍ فأفعالٌ رعيدي وأقوالٍ هامدٍ

إلى أهل مصر

من أبي الهول أتني نكتةً وأبو الهول طوى السرّ القديم^(٤)

(١) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهراً لروح الشرق ، فهي تطلب الآن بدناً تظهر فيه .

(٢) وذاتي تستحقّ العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية ، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً ليصلبني ليس قادراً على صليبي .

(٣) الروسُ : أي : الرؤساء ، أي : لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوربة وحكامها .

(٤) أبو الهول : رمز العقل والقوة ، رأسُ إنسان على جسم أسد .

بَدَلْتُ سَيْرَ شُعُوبِ جَمَلَةٍ قُوَّةٌ لَمْ يَجْفُهَا الْعَقْلُ الْحَكِيمُ
طَبَعُهَا فِي كُلِّ عَصْرِ مَائِلٌ يُبَدِّلُ الشَّكْلَ وَيَبْقَى فِي الصَّمِيمِ
فَهِيَ طَوْرًا فِي حُسَامِ الْمُصْطَفَى وَهِيَ طَوْرًا فِي عَصَا مُوسَى الْكَلِيمِ

الْحَبْشَةُ

(١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عِقبَانُ أوروَيْتَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي جَيْفَةِ الْأَحْبَاشِ أَيُّ سَمِّ
قَدْ آتَى لِلْمَيْتَةِ أَنْ تَجِيفَا
حَضَارَةٌ تَكْمَلُ بِالْمَخْزَاةِ وَعَيْشُ أَقْوَامٍ عَلَى الْغَارَاتِ
وَكُلُّ ذَنْبٍ طَارِدٌ خُرُوفًا
وَجَهُّ الْكَنِيسَةِ اكْتَسَى شَنَارًا رُومًا أَرَاقَتِ مَاءَهُ نَهَارًا
يَا بَابُ قَدْ أَضْحَى الْوَرَى أَسِيفًا^(١)

أوامرُ إبليس إلى أبنائه السَّاسة^(٢)

عليكم بِالْبَرْهَمَنِ فَارِيكُوهِ بِأَشْرَاكِ السِّيَاسَةِ وَالْحِبَالِ

(١) يعني : الباب رئيس الكاثوليك .

(٢) يَصُورُ الشَّاعِرُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَمَلَ السَّاسَةِ بِأَوَامِرِ إِبْلِيسِ . وَإِنَّمَا يَأْمُرُهُمْ بِإِبْعَادِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا مِنَ الدِّينِ ، وَلا سِيَمَا الْمُسْلِمِينَ ، هُوَ لِأَنَّ الصَّابِرِينَ الْمُسْتَمْتِينَ . وَقَدْ خَصَّ الْعَرَبَ الَّذِينَ نَشَأَ الدِّينَ فِي حَضَارَتِهِمْ ، وَالْأَفْغَانَ الَّذِينَ تَسَيَّرَ عَلَيْهِمْ حَمِيَّةُ الدِّينِ . . إلخ .

ثُمَّ أَوْصَاهُمْ بِإِخْرَاجِ إِقْبَالِ مِنَ الرُّوضِ لِأَنَّ نَفْسَهُ يَشْعَلُ الْحَقَائِقُ ؛ أَي : يَشِيرُ النَّارَ فِي الشَّبَابِ ، فَيُبْعِدُهُمْ عَنِ سِيَاسَةِ إِبْلِيسِ .

وأصحابَ الزَّنَانِيرِ اطردوهم
وذلكم الصَّبُورُ على الرزايا
فروحٌ محمدٍ منه اسلبوه
وفي العَرَبِ اقدفوا في كلِّ فكرٍ
بأرضِ العُزْبِ للإسلامِ كيدوا
وفي الأفغانِ بالذِّينِ اعتصامٌ
عليكم بالفقيهِ فأخرجوه
وقوَّاماً على الحرَمِ اسلبوهم
غَزَالَ المسكِ من خَتَنِ أثيروا
وإقبالٌ له شَدُوٌّ مثير
من المَرَجِ اطردوا هذا المغنِّي

جماعةُ الأممِ الشَّرْقِيَّةِ (٤)

سُخِّرَ الماءَ والهواءُ مسخَّرَ
جبروتُ الفرنجِ غَرَّتَه رؤيا
إن جنيوا للشرقِ طهرانُ صارت
ليس يدعأُ إن القضاءَ تغيَّرَ
علَّها غيرَ ما رآه تُعبَّرَ
فلعلَّ التبديلَ للأرضِ يُقدَّرَ

(١) ذلكم الصبور . . إلخ . يعني : المسلم .

(٢) يريد بقوَّام الحرَم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرَم وغيره .

(٣) بلاد ختن في تركستان كانت معروفةً بمسكها ، وغزالُ تينٍ مشهور في الشعر الفارسي وما يتَّصل به .

ويريد الشاعر : أخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها . أي : أخلوا بلاد

المسلمين من السنن القويمة ، والآمال العالية .

(٤) كتبت في شيش محل (دار أمير بهوبال) .

المُلكُ الخالد

إني لَغَوَّاصُ المعاني فِطْرَةً لكنني بَحَرَ السِّيَاسَةِ أَحْذَرُ
ما إن يُحِبُّ الدَّهْرُ مُلْكَاً خالداً ولو أنَّ فيه من الرُّؤْيَى ما يَسْحَرُ
فَرهاذُ أبقى الدَّهْرُ نَحْتَ صخوره لم يَبْقَ من برويز مُلْكٌ يُؤَثَّرُ

الجمهورية

بدا السُّرُّ في قولَةٍ من أريبٍ وما كان من قبله يُعلنُ^(١) :
نظامُ الجماهير حُكْمٌ به تُعدُّ العِبَادُ ولا تَوَزَنُ

أوربة وسورية

أهدت الشَّامَ إلى الغرب نبيًّا هو عَفٌّ ومُواسٍ وصَبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا من قمارٍ ونساءٍ وخمور

من مُوسوليني

(إلى أُنْداده في المشرق والمغرب)

أرى العصرَ يأبى من مُسولينَ جُرْمَهُ وأخيارُ أوربة عليَّ غِضابُ

(١) سيظهر .

كلانا بآلاتِ التمذّنِ آخذٌ
وقد نَقَمُوا مِنِّي غِرامَ تَمَلُّكِ
لِمَنْ شَعَبَاتُ الحِكمِ تُبقي ممالِكاً
أينفُخُ في الأعوادِ أبناءَ قِصرِ
نهبتم خيامَ البدو والزَّرْعَ والقُرى
قصدنا من التمدينِ قتلاً وغارةً
أنتقم أفعالَ الشيوفِ حِرابُ
أما ثارَ منهم بالضُّعافِ ضِرابُ
ولا مُلكَ أو ملكَ بهنَّ يُصابُ
ويُجَبى إليكم عامرٌ ويابُ^(١)
وكم كانَ منكم للعُروشِ نِهَابُ
أمسُكم فخرٌ ويومي عابُ ؟

شكوى

مستقبلَ الهندِ من يدري ؟ وما بَرِحَتْ
دهقانها من ظلامِ اللّحدِ مطرَحِ
الجسمُ والرُّوحُ للباغين قد رُهنَا
رضيتَ رقاً لأوربّة بلا أنفِ
يا ويحها ، دَرّةٌ في التّاجِ تُرتَهِنُ^(٢)
ولم يزل مِرْقاً تحت الثرى الكفنُ
لم يبق في أرضها دارٌ ولا سَكَنُ
فمنك شكواي لا منها ، وبى حَزَنُ

انتداب

مَلِكُ الحضارةِ أين يُحتم سِيرُهُ ؟
في حيثُ لا خمِرٌ ولا قَمَرٌ ولا
والرُّوحُ في بَدَنِ قوِيّ خافقُ
حيثُ المدارسُ غائضٌ ينبوعُها
في عصرنا هذا السّؤالُ يسيرُ :
ضيقُ الثيابِ على النّساءِ يجورُ
لكن على سَنَنِ الجِدودِ يسيرُ
وابنُ البداوةِ في الذّكاءِ جَسورُ

(١) يشغل أبناء الرومان بالزهر والموسيقا وغيرهم يملكون الأرض ، ويضربون الخراج حتى على الصّحارى .

(٢) كان الإنكليز يقولون : إن الهند أنمن دَرّةٌ في تاج الإمبراطورية .

يُفتي جهابذة الفرنجة أنما هذي البقاغ من التمدن بُور^(١)

السِّياسةُ اللادينيةُ

ما الحق مخفٍ عن فؤادي سِرّه فلقد جاني الله قلباً مُبصراً
فسياسةُ اللادينِ عندي خِسَّةٌ مات الضميرُ بها وإبليسُ افترى^(٢)
لما قلَى حكمُ الفرنجِ كنيسةً ساسوا كشيطانٍ بلا قيدٍ جرى
شَرِهَتْ لأموالِ العبادِ كنيسةً فإذا الخَميسُ سفيرُها بين الوري^(٣)

شبكة التمدين

أمانتها علت عن كلِّ ريبٍ وإقبالٌ مُقَرَّرٌ دون نكرٍ
فأوربة نصيرةُ كلِّ شعبي تشكّي الدهرَ من ظلمٍ وضُرِّ
كراماتُ القساوسِ أن أضأوا سراجُ الكهْرُبَاءِ بكلِّ فكرٍ
ولكن من فلسطينَ بقلبي وللشامِ الكسيرةَ حرُّ جَمِرِ
وتلكم عُقدةٌ ليست لحلِّ تُلاقِي كلَّ تدييرٍ بعُسرِ
من الترك الجفأةِ نجوا فلاقوا بأشراكِ التمدنِ شرَّ أسرِ^(٤)

-
- (١) حيثما وُجدَ الناس على الأخلاق القويمة والفترة السليمة قال الفرنج هذه الأرض في حاجةٍ إلى التمدن ، فأرسلوا إليها ملك التمدن باسم الانتداب .
- (٢) إبليس افتراها .
- (٣) الخميس : الجيش .
- (٤) في هذا استهزاء : إن أوربة ادّعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك ، ولكنها أوقعتهم في شرِّ أسر .

نصيحة

قال لُزْدٌ من الفرنج لنجل
أظلمُ الظلم للمساكين إعلامُ
إنَّ للملك سِرَّةً فاكْتُمْنَه :
وبحمض التَّعليم فاغمس نفوساً
أينَ منه الإكسيرُ؟ هذا محيلٌ
ابغِ مَرَأَى يدومُ فيه المراد^(١)
خِرَافٍ شريعةَ الآساد^(٢)
لا تَرُمُ بالسُّيوفِ قهَرَ العباد
ثمَّ صُغِ طينها وفاقَ المراد
جَبَلَ التُّبْرِ كومةً مِن رَماد

قرصانُ وإسكندر

إسكندر :

جزاؤك في سلاسلك ارتهانُ
فقد صيرتَ وَسَعَ البحر ضيقاً
القرصان :

أو التصميمُ من سيفي العتيق^(٣)
بما أمعنتَ في قطع الطَّريق

سِكندرُ! للفتوة لم توفَّقني
فإنَّ القتلَ دأبي لا أماري
كلانا اليوم قرصانُ : بئرُ
أيجملُ بالفتى فضحُ الرِّفيقِ؟
كذاك القتلُ دأبُك يا صديقي
تصوُلُ ، وَصَلْتُ في بحرٍ عميق

-
- (١) أطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين ، أي : المطمع الذي لا يحد .
(٢) أظلمُ الظلم أن تعلمَ الغنمَ سيرةَ الأسد : أي : تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة .
(٣) صمم السَّيف : أصاب المفصل ، فقطعه .

عصبة الأمم (١)

مِسْكِينَةٌ مِنْذُ زَمَانٍ تُحْتَضِرُ لَا فَاةَ مِقْوَلِي بِسَيِّءِ الْخَبْرِ (٢)
وَمَوْتُهَا مُحْتَمٌّ لَكُنَّمَا يَدْعُو الْقُسُوسُ أَنْ يَزُولَ ذَا الْخَطَرِ
عَجُوزٌ أَوْرَبَةٌ يَجُوزُ عَيْشُهَا عَلَى رُقَى إِبْلِيسَ أَيَّاماً أُخْرَ (٣)

الشَّامُ وَفِلَسْطِينَ

مَرَحَى لِحَانَاتِ الْفَرَنْجِ فَقَدْ مَلَأَتْ بِهِنَّ زَجَاجَهَا حَلْبُ
إِنْ فِي فِلَسْطِينَ الْيَهُودُ رَجَعَتْ فَلْيَأْخُذَنَّ إِسْبَانِيَا الْعَرَبُ
لِلْإِنْكَلِيزِ مَقَاصِدٌ خَفِيَّةٌ مَا إِنْ يُرَادُ الشَّهْدُ وَالرَّطَبُ (٤)

أُمَّةُ السِّيَاسَةِ

مَا رَجَائِي بِسَاسَةِ قَدِ اسْتَفُوا وَإِلَى الْأَرْضِ أَخْلَدُوا إِدْرَاكَ
نَظَرَاتٍ إِلَى ذُبَابٍ وَنَمَلٍ فَهَمُّ الْعَنْكَبُوتِ مَدَّتْ شِبَاكَ
حَبَّذَا الرِّكْبُ قَدْ هَدَاهُ أَمِيرٌ ذُو مِرَامٍ تُجَاوِزُ الْأَفْلَاكَ

(١) العنوان في الأصل : جمعية أقوام .

(٢) يعني لا أودُّ أن أخبرَ بموتها .

(٣) الظاهر أنَّ الشاعر نظم هذه الأبيات حينما كانت عصبة الأمم في آخر سنواتها .

(٤) بلاد العرب كلها معروفة في الهند بالنخل ، ويقول الشاعر ليس قصد السياسة الإنكليزية

ما تعلن من عمرانِ البلاد بل لها مقاصدٌ خفيةٌ .

نزعات العبودية

بأسبابِ سُقْمِ الشُّعُوبِ خَفَاءُ يقصّر في شزجِهِنَّ البيانُ :
 بشرع الأسود إمام العبيد يرى دائماً حكمة الثعلبان^(١)
 كليماً الإله يُرى لعنة على قومه في خطوب الزمان
 إذا كان في السرّ هذا الكليماً لقوة فرعون طوع البنان

صلاة العبيد (٢)

قال بعد الصّلاة حلفُ جهادٍ : كم يطيلُ الصّلاة فيكم إمامُ
 ما درى ذاكُم المجاهدُ المؤمنُ الغرُّ صلاة العبيد كيف تُقامُ
 كم لدى الحرِّ في الحياة كَفَاحُ غيرَةُ الحرِّ للشعوب قوامُ
 حُرْمِ العبدُ حرقة الكدِّ عجزاً فعلى وقته المضى حرامُ
 لا تعجّب إذا أطال سجوداً ما لديه سوى الشُّجود مرامُ
 رَبِّ وَقَفُّ أئمة الهندِ يوماً لسجود تحيا به الأقوامُ

(١) أسباب مرض الأمم أئمة أدلة ، يرون في شريعة الأسود فلسفة الثعالب ، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة . والحكمة هنا الفلسفة ، والثعلبان : الثعلب الذكر .

(٢) جاء إلى لاهور وفدٌ من الهلال الأحمر التركي فصحبهم إقبال في صلاة المسجد الكبير ، فأطال الإمام الصّلاة ، فسأل أحدُ رجال الوفد : لماذا يطيل الصلاة إمامكم هذه الإطالة ؟ فكتب إقبال هذه الأبيات .

إلى عرب فلسطين

لا يزالُ الزَّمانُ يَصَلَى بنايَ لم تزل في حَشَاكَ دونَ خمودِ^(١)
لا دواءٌ بلنـدُن أو جنـيـوا بوريدِ الفرنجِ كَفُّ اليهودِ^(٢)
ومن الرقِّ للشعوبِ نِجاةٌ قوَّةُ الذَّاتِ وازدهارُ الوجودِ

الشَّرقُ والغربُ

علَّةُ الشَّرقِ ذِلَّةٌ واقتداءً ونظامُ الجمهورِ في الغربِ داءٌ
مَرَضُ القلبِ والبصيرةُ فاشٌ ما بشرقٍ ولا بـغـربِ شفاء

نزعات التسلُّطِ (إصلاحات)

أرى رحمةَ الصَّيادِ سِتْراً لقهـره ولم يُجدِ فينا ذا الصفيـرِ المجددُ^(٣)
وقد زَيْنَ الأقفاصَ بالزَّهرِ ذابلاً لعلَّ أسيراً للإسارِ يُغَرَّدُ

(١) يعني : أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد .

(٢) يعني : يقبض اليهود على وريد أوربة .

(٣) يقصد الشاعر ما دعاه الإنكليز إصلاحاً ، حين جعلوا للهند نوعاً من الحكم الداخلي ، يقول :

ما يزال الصياد قاسياً ، وإن تظاهر بالشفقة ، ولا يرققه أن تجدد له غناء . وإنما همُّه أن يرضى الأسير فهو يزِينُ الأقفاص بزهورٍ لا نضرة فيها ، لعلَّ الطائر يرضى بقفصه .

القسم السادس

أفكار محراب غل الأفغاني

للشاعر إعجابٌ بالأفغان لقوتهم وبسالتهم ، واعتزازهم
بجبالهم ، وحميتهم الإسلاميّة ، وقد تخيّل الشاعر أنّ شاعراً
(محراب غل) أنشأ هذا الشعر الذي في الصّفحات التّالية ، بيّنَ
عمّا في نفوس هؤلاء النّاس وما في معيشتهم كما يُريد الشاعر
(إقبال) .

- ١ -

يا جبالي أيتان عنك الميسرُ
لا زهورٌ ولا صدى عندليبِ
جتني فيك مخرمٌ وشعابٌ
لن يكونَ الشاهينُ عبدَ بُغاثِ
خلعةُ الإنكليز أم سُحقُ نوبِ
وترابُ الآباء هذي الصُخورُ
فيك منذُ الأزال تأوي الصُقورُ
ماؤك الثُور ، والثُرابُ العيبرُ
الحفظُ الأبدانِ رُوحِي أبيضُ
إيه فقري الغيور ! ماذا تشيرُ؟

- ٢ -

تنافرُ النَّاسِ دائِمٌ أبداً
في الذاتِ عُصن ، للزَّمانِ إذا أملِ
تبقى على الدهرِ واحداً بطلاً
لستُ ولا أنتَ القضاءَ فَصَّلَهُ
دواؤُه في الجروحِ أرسله
إن كان في القلبِ « لا شريك له »

- ٣ -

يجوز أن تُبدلَ أنتَ ، لا تَحُلْ
إذا سرى في ذاتك انقلابُها
يغني الشرابُ والفناءُ إذ ترى
تدعو بتحقيقِ الرَّجاءِ جاهداً
بدعوة أن القضاءَ يُبدلُ
فجائرُ أن القضاءَ يُبدلُ
رسمَ « السُّقاةِ » والإناءُ يُبدلُ
ودعوتي أن الرَّجاءِ يُبدلُ

- ٤ -

وما فَلَكَ جائرٌ في السَّيرِ
أرى رَكبَها جاهداً في الميسرِ
سِكندُرُ زَمَجَرَ كالرَّعدِ حيناً
وعائتُ بدِهلي يدا نادرِ
وماذا ذكاءٌ وماذا القَمَزُ؟
وأقعدَها طولُ هذا السَّفَرِ
وعندك يا موتُ صدقُ الخبرِ
بضربةِ سيفِ حكي فاخْتَصَرَ^(١)

(١) نادر شاه : ملك إيران وأفغانستان ، فتح دهلِي ، وتوفي سنة ١١٦٠هـ .

وتبقى الجبالُ وأفغانها
تُذَلُّ الحوائجُ صيدَ الرِّجالِ
إن الدَّاتُ أيدها فقَّرها
قوامُ الشُّعوبِ بحُرِّ فقيرِ
لك الملك والحكم ربُّ القُدرا !
تري الليث كالثعلب المحتقر
فعندي وعندك مُلك البَشْرِ
إلى سُدَّة المُلِك ما إن نظر

- ٥ -

مدارسُ ثم ضوضاءٌ ولهوٌ
وسمُّ الحرِّ هذا ليسَ علماً
وما أدبٌ وفلسفةٌ غناءٌ
تحكَّم في الطبيعة ربُّ فنِّ
فربُّ الفنِّ من بركاتِ فنِّ
وذلك إن يشأَ قَطَرَتْ عليه
وغمِّ دام في العيش الوفير
إذا كان الجَدَا كَفَّ الشعير^(١)
قوام الفنِّ في جهْدِ المسير^(٢)
يضيء الليل كالصُّبحِ المنير
يطوِّعُ لحكمه كلُّ العسير
أياةُ الشَّمسِ كالطلِّ النَّضير^(٣)

- ٦ -

عالمُ التَّجديدِ إن يظفرَ بحرُّ
لا تدغ ذاتك بالتقليدِ لغواً
بارك التَّجديدُ قوماً ليس فيهم
خشيتي أنْ وغى التَّجديد في الشَّرْقِ
موجدٍ من حوله طاف الزمانُ
جوهرٌ فردٌ فحُطه بصوانُ
غيرَ حفلِ الأمس ، ذكري وعيان^(٤)
على التَّقليدِ للغربِ دهان

- ٧ -

تبدَّل الأقسامُ في البُلدانِ
في الروم والشام وهندُستان

- (١) العلم الذي جدواه كفُّ من شعير ؛ أي : متاعٌ قليل ، ليس علماً ولكن سُمّاً للأحرار .
(٢) الفنُّ بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة .
(٣) ربُّ الفنِّ إن شاء قطرت عليه أياةُ الشمس (أي شعاعها) كالنَّدى ، فجعلها مادةً منه .
(٤) التجديد بركةٌ لقوم لا يذكرون ، ولا يرون إلا صورَ الماضي .

يابن الجبالِ هُبَّ للزَّمانِ وأذركنْ ذاتك بالعرفانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

ذا موسمٌ ومأوّه عُبابُ وَعَسْجِداً يُنبِتُ ذا الترابِ
من لم يروْ زرعَه احتسابُ فكيف يُدعى الغرُّ بالدهقانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

ما لم يهيج في مَوْجِه الزخَّارِ فأبى بحرِ ذاك في البحارِ؟
ما ليس فيه ثورةُ الإعصارِ فكيف يُدعى عاصفَ الأكوانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

من اهتدى ونفسَه أصابا مقلَّباً في طينه الترابا
فحرثُ ذا العبدِ الذي قد طابا يُفدى بكلِّ الجاهِ والسُّلطانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

جهلُك هذا ما بهِ مِنْ عارِ قد صيَّر الجهلَ من الفخارِ
كم عالمٍ فاضلٍ مماري متاجرٍ بالدينِ والإيمانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

- ٨ -

يدَّعي الزاعُ أنَّ ريشك قُبِحَ ويقول الخفَّاش : أعمى جهول
ما رُذال البُغاثِ يا صقرُ! تدري في عَنانِ السَّماءِ كيفَ تصول
كيف تدري بحالِ طائرِ عزمِ كلُّه في المطارِ عينٌ تجول

لا يَسْفُ العَشْقُ دَابَّ الهوسِ
رَبِّ روضِ حالِ حتى ليرى
مُزْمَعُ الأَسفارِ لا يبغى صدئِ
أُتري قافلَةُ الموجِ لها
خدعَ العَيْنِ فتى مدرسةِ
وهو مَيِّتٌ ومن الغربِ اجتذى
إن تُردِ تربيةَ القلبِ فَمِنِ

سوادُ عيونِ عِترتهِ فتى
يُرى في السلمِ ظيماً ذا جمالِ
به نازٌ تُحرقُ كلَّ شيءِ
جِباهِ اللهِ أَبهَةً ومُلكاً
سبيلُ التَّاجِ حَسرُ الرأسِ عنه

يَسْطِيعُ نُوراً ذا السَّراجِ الخابي (٢)
والحرُّ فيه باسمٌ لِحِرابِ
أتراهُ أهلَ تطاعنِ وِضرابِ
في بارحاتك لألأث أنوازهُ
يشكو الضَّعيفُ من الزمانِ صُروفهُ
من صوتِ طيرِ الصُّبحِ يدهشُ ذا الفتى

(١) وهو حاسر الرأس ولكنّه طموحٌ إلى التاج ، أو هو في همته وعزته كصاحب التاج ، فلا تحقره بأنّه حاسر .

(٢) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة ، فهو أهلٌ لأن يضيء مرّةً أخرى ،
يعني : الإسلام .

حذري لأنك في طباع طفولةٍ والغربُ تاجرٌ سُكَّرِ وجُلابٍ^(١)

- ١٢ -

بلا دينٍ ولا تينٍ هوثٌ في الفسخِ رجلاه^(٢)
دواءُ العاجزِ المغلوبِ « لا غلابَ إلا هُوَ »
وصيَّادُ المعانِي ما رَجَبَتْ في الغربِ عيناه
فضاءٌ موزقٌ لكن يقوِّمُ ذاته سحرًا
فهذا الزَّهرُ أحسنُّه بدمعِ العَيْنِ أوَاهُ^(٤)
وديرُ الكونِ ، زونُ الرِّيبِ على الأُمُوهِ تلقاهُ
على الكُفَّارِ مُستوِلٍ سح والألوانِ معناهُ^(٥)
إمامَ المسجدِ ! امتنعهُ وذو الإيمانِ مـولاهُ
زوى المحرابِ حاجِبَه أميراً حينَ يغشاهُ
ولم تُعجِبهُ تقواه^(٦)

- ١٣ -

دنياك في عينيَّ شيءٌ آخِرُ أنى لعينك - ليت شعري - تظهُرُ

- (١) يخاف على المسلم أو الشرقي لأن فيه طبع الطفل يحبُّ السكر والجلاب . وأوربة تحسن التجارة بهما ، فهو يتهافُ على تجارتها .
- (٢) يشير إلى مصطفى كمال وأتباعه سياسةً لا دينيةً ، واتخاذ الحروف اللاتينية للغة التركية .
- (٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكياً يصيده فإنما هي فضاء لا صيد فيه . أي لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها .
- (٤) الأواه : المتعبِّد ، الرقيق ، كثيرُ الدعاء .
- (٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنام من الألوان والروائح ، يستعبد الكفَر ، ولكنه مسخرٌ للمؤمن .
- (٦) تخيل زاوية المحراب تقطياً لصلاة أمير ليس فيها معنى الصلاة .

ماذا التقلبُ في عقول شبابنا
 شيخُ المساجدِ ما دُعَاؤُكَ سُخْرَةٌ
 في كلِّ صدرٍ قد تبدَّى مَحْشُرٌ
 ما « الذَّاتُ » يُرجى في رِبَاطِ خَلْقِهَا
 أبه الحياةُ بلا جهادٍ تَظْفَرُ^(١)
 هل للشَّرارِ مِنَ الرَّمَادِ تَسْعُرُ^(٢)

- ١٤ -

كلُّ عشقٍ دونَ إقدامِ هوى
 ويلتا مِن ترفٍ! أين فتى
 ويذُ الله بعشقٍ مخطر
 تَخِذَ الأهوالَ زاد السَّفَرِ
 خَلْوَةُ الأَطوادِ ليست وَحِشَةٌ
 يَعْرِفُ « النَّفْسُ » بها ذو البَصَرِ

- ١٥ -

عِلْمُ فقيرٍ لسالكٍ غيرُ صَغْبِ
 لا يكونُ الفولاذُ جوهراً سِيفِ
 حَدَّثَ الناسَ عن هُداةِ الضميرِ
 إنَّ يكنُ في الطباعِ منه حريزُ
 إنَّ قَهْرَ الإلهِ فقيرٌ ذليلُ
 وسبيلُ السُّلطانِ فقيرٌ غَيورُ
 قد سبَّكَ الفرنجُ نفساً ولكن
 أنت يا مؤمنُ البشيرِ النذيرُ^(٣)

- ١٦ -

مَوْتُ الشُّعوبِ بُعْذُهَا
 والذَّاتُ إمَّا رُكُزَتْ
 عن جَذَبَاتِ المَرَكِزِ
 فقيرٌ تراه شاكياً
 فللمعالِي تُرَكِّزِ
 باقٍ عليه مسحَةٌ
 جَوْرَ الرِّمَانِ اللّحِزِ
 ولم يزل مُيسِّراً
 من اجتداءِ الكَزِزِ
 أن يجعَلَ الصُّخُورَ كالذَّرَاتِ غَيرِ مُعْجِزِ^(٤)

(١) في الأصل شيخ الحرم ، والمراد به المساجد عامة .

(٢) الرِّباط : مقام الصُّوفية ، وفي الأصل خانقاه .

(٣) جاء هذا المصراع في الأصل بالفارسية .

(٤) لا يحول دون همة الحرّ شيء من عالم المادّة فهو يحيل الصخور ذرات ، فلا تكون في =

فَأَيْنَ يَا مُؤْمِنٌ أَنْتَ الْيَوْمَ لِمَ تُبْرَزُ
مَا فِي جِهَادٍ لَذَّةٌ جَمْرُكَ فِيهِ مُعْزِي^(١)
يَا شَمْسُ مِنْ سُرَادِقِ الْمَشْرِقِ سُرْقِ هَيْبَا فَابْرُزِي
وَإِكْسِي جِبَالِي حُلَّةً تُزْهِئُ بِلَوْنِ الْقُرْمُزِ

- ١٧ -

إِنَّ يَكُنْ فِي الْأَلُوفِ رَبُّ يَقِينٍ نَفَخَ النَّارَ فِي شَبَابٍ وَشَيْبٍ
رَبِّمَا تَنْشَى الصَّحَارَى فَقِيرًا يَخْلُقُ الدَّرَّ مِنْ حَصَى فِي الْجِيُوبِ^(٢)
بِيرَاعٍ لَكَ أَكْتَبَنْ لَكَ حِظًّا لَمْ يَخْطُ الْجَبِينُ رَبُّ الْغِيُوبِ^(٣)
ذَا الْفِضَاءِ الَّذِي يُسَمَّى سَمَاءً لَيْسَ شَيْئًا لَدَى الْعُقَابِ النَّجِيبِ
هُوَ فَوْقَ الرُّؤُوسِ يُدْعَى سَمَاءً وَهُوَ أَرْضٌ تَحْتَ الْجَنَاحِ الْهَبُوبِ

- ١٨ -

أَيُّ قَوْلٍ لَشِيرِشَاهٍ رَشِيدٍ فِي اخْتِلَافِ الْقَبِيلِ ذَلَّ الْعَبِيدِ^(٤)
خَلَعُوا ثُوبَ أُمَّةٍ جَمَعْتَهُمْ وَازْدَهَوْا بِالْوَزِيرِ وَالْمَحْسُودِ^(٥)
ذَهَبَ الَّذِينَ فِي الْجِبَالِ شِعَاعًا كُلُّ حِزْبٍ لِلْبُدْهِ فِي سَجُودِ^(٦)
حَرَمٌ فِيهِ حُرْمَةُ اللَّاتِ تَرَعَى فَجَبَاكَ الْمَوْلَى بِضَرْبِ سَدِيدِ^(٧)

= طريقه عقبات .

(١) ليس في الجهاد لذة ما لم تكن فيه حرارة الإيمان . وجمر المؤمن يفتقد اليوم في الجهاد .

(٢) الجيوب وجه الأرض ، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) اكتب حظك بقلمك ، فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك ، كما تزعم .

(٤) شيرشاه : أحد أمراء الأفغان .

(٥) الوزير ، والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان .

(٦) اللبد : الصنم .

(٧) هذا حرم ولكن فيه أصنام . فالله يوقفك لضرب تكسر فيه الأصنام ، كما كسر الرسول =

ليس الذي يُدرك الألوانَ بالبصرِ
يا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلةً
وحانةُ الغزبِ للصادي مفتحةُ
لك المماتُ بهذا الشكرِ مُستترُ
هل يسمَعَنَّ بنو الخانات موعظتي
بل مُعتَنِي عن ضياءِ الشَّمسِ والقَمَرِ^(١)
تَقَدَّمَنُ . ليس هذا مُنتَهَى السَّفَرِ
ما الشُّكرُ فيها بعلمِ العصرِ بالتُّكْرِ
إن لم يكن فيكَ للتَّوْحِيدِ مِنْ شَرَرِ^(٢)
في شَمَلَةٍ لستُ ذا تاجٍ ولا سُرُرٍ؟^(٣)

مقاصدُ الفِطْرَةِ العلياءِ يحفظُها
يراقبُ السَّحَرَ في التمدينِ يُطله
للحُسنِ واللُّطفِ صاعُ الروضِ بلبله
يا شيخُ كم تُعجِبُ الأبصارَ مدرسةُ
هل يعرفُ الذَّهرُ للإسلامِ مِنْ شَبِيهِ
مَنْ عاش في البيدِ أو في الطُّودِ إنسانا
في فقره أودَعَ الخلاقُ سلطانا
وتُنشِئُ البيدُ للإقدامِ عِقبانا
لكنَّ في البيدِ فاروقاً وسلْمانا^(٤)
في نشوةٍ تتحدَّى السَّيفَ غضبانا

- = أصنام الكعبة .
- (١) ليس بمبصر الذي يرى الألوان ، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا يحتاج في رؤيتها إلى الشمس والقمر .
- (٢) لا ضير في أن تأخذ علومَ العصرِ وتنتشي بها ، ولكنَّ الهلاكَ فيها أن تغفل بها عن الإيمان والتَّوحيد .
- (٣) الخانات : جمع خان ، ومعناه : الأمير . يعني يسمع هؤلاء الأمراء قولي وأنا في ثيابِ خشنة ، لست ملكاً ولا أميراً .
- (٤) يعني : الأصحاب الكرام ، مثل : عمر الفاروق ، وسلمان الفارسي .

الدِّيَّانُ السَّابِعُ

رِسَالَةُ الْخُلُودِ
جَاوِيدِنَامَه

نقله إلى العربية شعراً
الدكتور حسين مجيب المصري

يعتبرُ هذا الدِّيوانُ التُّحفَةَ الأدبيةَ لمحمد إقبال ، وهو عبارةٌ عن شعرٍ (مثنوي) للفلسفة الدِّينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطعٍ شعريٍّ مزدوج ، طبع عام ١٩٣٢ م ، وإنَّه يُبرزُ قُوى الشاعر الفكريَّة وذراها الرفيعة ، وفيه توريَّةٌ إلى جاويد ابن الشاعر ، ويشتمل هذا الدِّيوان على ثمانية أقسام ، وفيها يحكي الشاعر قصَّةَ سفرٍ في الأفلاك كقصَّة دانتي الشاعر الإيطالي ، تبدأ القصَّة بمقدمةٍ فيها مناجاةٌ وفصولٌ أخرى ، إلى أن تظهر روحُ جلال الدِّين الرُّوميِّ ، فيشرحُ أسرارَ المعراج ، وهو دليلُ الشاعر في هذه الرحلة ، ثم يأتي زورابه وهو روح الزَّمان والمكان ، فيحملُ الشاعرَ ودليله جلالَ الدين الرُّومي إلى العالم العلويِّ .

وفي القسم الأول يزورُ الشَّاعر « القمر » وهنا قدَّمه الروميُّ إلى الحكيم الهندي المعروف باسم « جهان دوست » (محبُّ الدنيا) يجلسُ تحت شجرةٍ يأكلُ ويشربُ في تأمُّلٍ وتفكُّرٍ على طريقة اليوجا الهندية ، وحديثه مع الرُّوميِّ واضحٌ ، وهو يبيِّن للإنسان أنَّ الطريق إلى التقدُّم يمكنُ خلالَ المزج بين الثقافة الشَّرقية والغربيَّة ، فالشرقُ قد ركز على الرُّوحانيات مهملاً المادِّيات ، بينما الغرب قد ركز على المادِّيات مهملاً الرُّوحانيات .

ويوافقُ الحكيمُ الهنديُّ على ملاحظاتِ الرُّوميِّ ، لكنَّه ينقلُ إلى الشاعر أخباراً مشجعةً ، وهي أنَّ الشَّرقَ النائم الكسلان هو مع هذا كله في طريقه إلى اليقظة من النَّوم والانشغال .

ويذهبُ الشَّاعرُ إلى وادي جرغميد ، حيث يرى الشاعرُ كتب البوذه وزردشت والمسيح ومحمد ﷺ ، والشَّاعر لا يقابلُ الرُّسل شخصياً بل من خلال كتبهم ، وهو يشرحُ تعاليمَ كلِّ رسولٍ على لسانِ أربع شخصياتٍ ، فتعاليمُ بوذه تُشرحُ على لسانِ فتاةٍ راقصةٍ ، بينما زردشت على لسانِ أهرمن ، وتعاليمُ المسيح

على لسان تولستي ، وتعاليم محمد ﷺ على لسان أبي جهل .

وفي القسم الثاني ينتقل الشاعرُ بعد ذلك إلى « عطارد » حيث يقابل جمالَ الدِّين الأفغاني^(١) وسعيدَ حليم باشا ، وهنا يقدِّم الرُّوميُّ الشاعرَ على أنه « زنده رود » أو « النهر الحي » وهو الاسم الذي يستخدمه الشاعر من هنا فصاعداً خلال الكتاب . وفي إجاباته عن أسئلة الأفغانيِّ ، فإنَّ الشاعر يصفُ الأخطاء التي ترتكبها أممُ الشَّرْقِ خاصَّةً الترك ، والفرس ، والعرب ، في تغريبهم لأنفسهم ، ويقارنُ سعيدُ حليم باشا بين الشَّرْقِ والغرب ، ويبينُ أنَّ إنقاذَ وخلصَ الجنس البشريَّ يَكْمُنُ في المزج والتأليف بين كلتا الثقافتين ، أو كما يعبر الشاعر في تزواج العقل بالعشق .

ويحكي سعيدُ حليم باشا بعد ذلك للنَّهر الحيِّ (زنده رود) أنَّ دين الله قد أصابه الفسادُ من جرَّاء تعصُّب « المُلَّا » فقد اقتصرَت وظيفتُه على خَلْقِ المتاعب .

وينتقلُ الشاعرُ في القسم الثالث إلى « فلك الزحل » ، حيث يزورُ مسكنَ الآلهة القديمة ، ويأخذُ الرُّوميُّ الشاعرَ إلى إقليمٍ يقعُ مباشرةً تحت نهرٍ ، حيث يقيم فرعون وكتشز ، ويقدِّم فرعونُ الاعتذاراتِ ؛ لأنَّه لم يعترف بالولاء والإخلاص لموسى ، ويحدِّثُ الآخرين كي يكونوا أكثرَ حذراً في مثل هذه الحالات ، ويقارنُ الرُّوميُّ بين « الأثوقراطية »^(٢) والاستعمارية في الشرق .

وفي القسم الرابع يتَّجه الشاعرُ إلى « المرِّيخ » حيث يقابل فلكياً ، ويناقشُ الشاعرُ مع حكيم المرِّيخ مشكلةَ القضاء والقَدْر ، وفي رأي الحكيم أنه من

(١) فيلسوف الإسلام في عصره ، نشأ في كابل ، جال في الشرق والغرب ، دعا إلى الوحدة الإسلامية ، له مؤلفاتٌ معروفة ، منها : « إبطال مذهب الدهريين » أصدره والشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » في باريس عام ١٨٨٤م ، توفي عام ١٨٩٧م .

(٢) الحكم الفردي .

الممكن بالنسبة للإنسان أن يغيّر قدره ، والإنسان يجب أن يحاول أن يحرص على السيطرة التامة على القدرة .

وفي القسم الخامس ينتقل الشاعر إلى كوكب « المشتري » حيث يتقابل مع الشاعر غالب^(١) والصوفي منصور الحلّاج^(٢) وغيرهم ، ويناقش معهم فلسفة الحياة والموت ، بينما تستمر هذه المحادثة يظهر الشيطان على مسرح الأحداث ، ووصف الشيطان هنا رائع ، ويحتاج إلى دراسة مفصلة .

وفي القسم السادس يصل الشاعر إلى كوكب « زحل » ، حيث يقابل أرواح المتهمين بالخيانة العظمى ضدّ أوطانهم : مير جعفر من البنغال ، ومير صادق من الدكن ، والاثنان في قارب يكافحان دونما أملٍ ضدّ عاصفةٍ مثيرة في بحر من الدماء ، وفي تلك اللحظة .

وفي القسم السابع يصل الشاعر إلى « ما وراء الأفلاك » ، وأول من يقابل ، يقابل نيتشه ، الذي ظلّ طوال حياته يحاول البحث عن الله ، لكنّه فشل ، لأنّه اعتمد أساساً على العقل الذي لا يؤدّي إلى شيء . وبعد نيتشه يطير الشاعر إلى قصر عبد الصّمد حاكم بنجاب ، ثم يقابل أخيراً الشاعر الشيخ سيد علي همداني ، والشاعر غنيّ من كشمير ، ويشير بعد ذلك إلى بيع البريطانيين لكشمير .

(١) هو ميرزا أسد الله غالب (١٧٩٧م - ١٨٦٩م) كان من أعظم شعراء الأردوية ، قد سبقت ترجمته في الديوان الثالث « رسالة الخلود » .

(٢) هو الحسين بن منصور أبو مغيث ، كان من عظام فلاسفة الإسلام ، وكبار الصوفيين الزمّاد ، أصله من البيضاء بفارس ، عاش في خلوات الصوفية لاسيّما مع الجنيد وسهل التستري ، اتهم بالزندقة والقول بالحلول ، فحكم عليه ، وسجن ثماني سنوات ثم عذب وصلّب عام ٣٠٩هـ / ٩٢٢م له كتب كثيرة ، لم يبق منها إلا « كتاب الطواسين » في شرح مذهبه الذي أنشأ في التصوف ، وأثار حوله الجدل ، فقدّمه البعض وكفّره آخرون .

ويقابلُ الشَّاعرُ كذلك نادر شاه ، وأحمد شاه ، والشاعر الهندي بهر تري هري ، وبينما هو يستعدُّ لمغادرة إقليم ما وراء الأفلاك يسمعُ الصَّوتَ الإلهيَّ المقدَّسَ يوضِّحُ له أن السرَّ الحقيقيَّ للتقدُّم والتطوُّر يكمنُ في نموِّ ، وتطوُّر الفرديات ، والمجتمعات ، وهنا تنتهي الرحلة .

وفي القسم الثامن الذي هو الأخير يخاطب فيه الشَّاعرُ الشَّبَابَ عن طريق ابنه جاويد فينصحهم بتجنُّب الرفقةِ الشَّرِّيرة ، وأن ينمُّوا شخصياتهم وذاتياتهم عن طريق الجهاد والكفاح المستمر .

وقد نَقَلَ هذا الديوانَ من الفارسيَّة إلى العربيَّة شعراً الأستاذُ الدكتور حسين مجيب المصري بعنوان « في السماء » ، ويُقدِّم الآن إلى القراء هذا الديوان في عنوانه الأصل الذي سمَّاه الشاعر بـ « جاويد نامه » (رسالة الخلود) توريةً إلى ابنه « جاويد » وهو الآن بين أيديكم .

مُنَاجَاةٌ

إِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي دُنْيَا السَّرَابِ
 شَوْقُهُ لِلْخَلِّ نَارٌ تَضْطَّرِمُ
 عَالَمٌ يَحْوِيهِ مِنْ مَاءٍ وَطِينِ
 تَضْمَتُ الدَّامَاءِ وَالْبِيدَا مَعَاً
 وَذُكَاةً وَسَمَاءً حَوْلَهَا
 النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ عِدَّةٌ
 مِثْلُنَا الْمَسْكِينُ أَمْسَى كُلُّ نَجْمٍ
 مَا أَعَدَّ الرَّكْبُ زَاداً لِلرَّحِيلِ
 صَيْدُنَا الدُّنْيَا وَنَحْنُ الصَّائِدُونَ
 نَحْتُ فِي الشُّكُورِ وَمَا مِنْ مُسْتَجِيبِ
 شَاهَدْتُ عَيْنَايَ يَوْمَا أُشْرِقَا
 مِنْ جَفُولِ النَّجْمِ فِي الدُّنْيَا ظَهَرَ
 مَا لَدَيْنَا مِثْلَ هَذَا الْمُعْجَبِ
 إِنْ أَنْارَ الرُّوْحَ وَمَضَّ مِنْ سَنَاهِ

لَا يَنِي عَنِ نَوْجِهِ شَبَهُ الرَّبَابِ^(١)
 رَقَّتِ الشُّكُورُ وَمِنْهَا كَمْ عِلْمِ
 وَالَّةُ فِي الصَّدْرِ خَفَاقَ الْوَتِينِ؟^(٢)
 وَكَذَا طَوْذٌ وَبِدْرٌ لَعَلَعَا^(٣)
 كُلُّهَا فِي الْوِوْرِ تَشْكُو سَمْعَهَا^(٤)
 كُلُّ نَجْمٍ أَوْحَشَتْهُ وَخَدَةُ^(٥)
 ضَلَّ فِي الزَّرْقَاءِ مَغْشِيَا بِهِمْ^(٦)
 آهٍ مِنْ تَيْهِ وَمِنْ لَيْلٍ طَوِيلِ
 أَوْ أُسَارِي مَا تَرَاهُمْ يَذْكُرُونَ
 أَيْنَ لِلْإِنْسَانِ خِلٌّ أَوْ حَبِيبِ
 فِي ضِيَاءِ كُلِّ شَيْءٍ أَغْرَقَا
 بَرَهَةً يَبْدُو وَلَكِنْ مَا اسْتَقْرَ^(٧)
 مَالَهُ ظَهَرَ وَلَا مِنْ مَغْرِبِ^(٨)
 أَصْبَحَ الصَّوْتُ كُلُّونٍ إِذْ تَرَاهِ

(١) لَا يَنِي : لَا يَضْعَفُ ، وَلَا يَفْتَرُ .

(٢) الْوَتِينِ : عَرَقٌ فِي الْقَلْبِ وَالْمَرَادُ هُنَا الْقَلْبُ .

(٣) الدَّامَاءُ : الْبَحْرُ . وَالْبِيدَاءُ : الصَّحْرَاءُ . وَالطَّوْدُ : الْجَبَلُ . وَلَعَلَعَا : لَمَعَ وَتَلَأَلَا .

(٤) ذُكَاةٌ : الشَّمْسُ . وَالْوِوْرُ : ثِقْلُ السَّمْعِ أَوْ ذَهَابُهُ .

(٥) الْعِدَّةُ : الْجَمَاعَةُ .

(٦) الزَّرْقَاءُ : السَّمَاءُ .

(٧) جَفَلَ : نَدَّ وَشَرَدَ .

(٨) الْمُعْجَبِ : الَّذِي يَثِيرُ الْعَجَبَ .

وعلى الدهر سيقى سزَمدا^(١)
 إنَّ يومي مُزْمَهْرٌ فلتُغْنِنِي^(٢)
 هذه الأفلاكُ فيمنَ حَيَّرتَ^(٣)
 أسكرتُ من خميرها أو من سقاه^(٤)
 فإليه بُخْتُ بالسرِّ الخفي^(٥)
 حرفٌ ﴿ادعوني﴾، لمن هذا الكلام؟^(٦)
 أتضنُّ؟ وعلى روعي الحزين
 ما رأث في الشمسِ نقصاً عيننا
 أينَ روحٌ لي تناهى صبرها^(٧)
 كي نرى روحاً وما فيها خمود
 لم تنل ما كنتَ تبغي من رغبة^(٨)
 قلبُ إنسانٍ فذا كنزٌ ثمين
 ظلمةَ الرُّوحِ تأملها معي

بدد الغيب بنور قد بدا
 يا إلهي مثل هذا اليوم هبني
 آية التسخير فيمن أنزلت
 (علم الأسماء) سر من دراه
 من جميع الخلق من ذا تخطفي
 قد رشقت الصذر منا بالسهام
 لك وجه هو قرآني وديني
 لو زمت ألف شعاع شمسنا
 قيد هذا العصر قيد من نهى
 ويمر الدهر من عمر الوجود
 أنت ما لم تفلح الأرض الجديدة
 إن نما من ذلك الطين المهين
 أنت بدر مر بي في مخدعي

(١) السرمد : الدائم .

(٢) از مهر اليوم : اشتد برده .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] أي سخر الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والثمار ، والأنهار ، والدواب للإنسان لينتفع بها .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] أي أسماء المسميات ، فأراه الأجناس التي خلقها ، وعلمه أن هذا اسم فرس ، وهذا اسم بعير ، وهلم جرا .

(٥) اصطفى : اختار .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] أي : اعبدوني أنبكم .

(٧) النهى : العقل . وتناهى : بلغ النهاية .

(٨) فلاح الأرض : شقها ليزرعها . والرغبة : الأمر المطلوب .

أَيخَافُ الْبَرْقُ لَيْلًا زَلَّةً !
 أَهْدِنِي رَبِّاهُ مَزْرَقَ الرُّوَّاقِ (١)
 وَاجْعَلِ الطَّيْنَ نَجِيًّا لِلْمَلَائِكِ (٢)
 وَدَعِ الْعُودَ وَأَضْرِمِ حَطْبًا
 وَعَلَى الْكُونِ دُخَانِي بَدَّدَنْ
 وَبِغَضِّ الطَّرْفِ هَبْنِي نَظْرَةً
 إِنَّمَا كَانَ عَمَانًا ذَنْبِنَا
 أُؤْخِذِ الرُّوحَ الَّتِي مَا إِنْ تَرَاهُ (٣)
 أَرْسَلِ الْمَعُولَ أَوْ رِيحَ السَّحْرِ (٤)
 وَاهِدِ هَذَا الْقَلْبَ لِلْجَذْبِ الدَّفِينِ
 عُشُّ ذَاكَ الْعِشْقِ قَلْبٌ لَا يَنَامُ
 مَسْرَحًا أَضْحَى لِأَفْكَارٍ تُعَدُّ
 عَلْمُنَا مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ سَاحِرٍ (٥)
 مَا رَمَاهُ الْوَهْمُ فِي جَوْفِ الرَّدَى
 عَقَلُنَا مَسًّا وَجَبْرٌ دَيْبُنَا
 نَحْنُ نَرْنُو وَهِيَ مِنْ يَرْوِي الْخَبْرَ

لَمْ نُنْزِ عَنْ هَشِيمٍ شَعْلَةً
 عِشْتُ مَا قَدْ عِشْتُ لَكِنْ فِي الْفِرَاقِ
 افْتَحَنْ كُلَّ بَابٍ لِي هُنَالِكَ
 هَاكَ صَدْرِي فِيهِ أَشْعِلْ لَهَا
 نَحْ تِلْكَ النَّارَ عَوْدِي أَوْ قَدَنْ
 أَجْجِ النَّارَ بِكَأْسِي خَمْرَةً
 قَدْ طَلَبْنَاكَ وَمَا تَبَدُّو لَنَا
 وَعَنِ السَّرِّ أَمِطْ سِتْرًا خَفَاهُ
 دَوْحُ فَكْرِي لَا يُرْجَى مِنْ ثَمَرِ
 قَدْ وَهَبْتُ الْعَقْلَ فَا مَنَحْنِي الْجَنُونَ
 إِنَّمَا لِلْعَلْمِ فِي الْفِكْرِ الْمَقَامُ
 وَإِذَا الْعَلْمُ عَنِ الْعِشْقِ انْفَرَدُ
 فِيهِ سِخْرُ السَّامِرِيِّ ظَاهِرُ
 بِالتَّجَلِّيِ عَالَمُ الْقَوْمِ اهْتَدَى
 عِشْنَا لَوْلَا التَّجَلِّيِ سَقَمْنَا
 هَذِهِ الدُّنْيَا بِهَا بَحْرٌ وَبِرْ

(١) مزرقة الرواق : السماء .

(٢) يريد بالطين نفسه ؛ لأنه إنسانٌ خلق من طين . والتَّجِي : صاحب السر . والملائكة : الملائكة .

(٣) خفاه : أخفاه .

(٤) الدوح : جمع دوحه وهي الشجرة العظيمة .

(٥) بعد أن ذهب موسى لميقات ربه ، تحيّن رجلٌ يسمى السامري غيبته ، وأخذ من بني إسرائيل حلي نسانهم ، وألقاها في النار ؛ ليسبك منها عجلًا ، وجعله بحيث يكون له صوتٌ كالخوار ، وخذع بني إسرائيل بقوله : هذا إلهكم وإله موسى .

فَلَقَةُ الْبَدْرِ إِلَيْهِ فَلْتَعْدُ^(١)
 وَكَلَامُ الْهَجْرِ يَخْلُو مِنْ خِتَامِ
 مَنْ بَعِيدٍ فَلْتَقُلْ إِنِّي قَرِيبٌ
 فَكُلُّ صَوْبٍ وَشِمَالٍ وَجَنُوبِ
 وَوَرَاءَ كُلِّ نَجْمٍ اسْتَبِقُ^(٢)
 وَلِنَا الْأَنْفَاسُ عَمْرٌ مُسْتَعَارِ
 أَي عَبْدٍ غَارَ مِنْ صُنْعِ الْإِلَهِ^(٣)
 لَمْ يَسِرَّ بِغِيَابٍ أَوْ حُضُورِ^(٤)
 وَأَنَا الْأَرْضُ أُسْكِنِي السَّمَاءِ
 كُلَّ خَيْرٍ ، وَمَسِيرِي لِلْأَمَامِ
 لَا وَلَا تِلْكَ السَّمَاءُ هَذَا الْكِتَابِ
 أَيْنَ مِنْ غَاصَ عَلَى قَاعِي الْعَمِيقِ^(٥)
 وَتَرَى فِي الْبَحْرِ مَوْجَاتٍ تَفِرُّ
 وَلَدَيَّْ عَنِ غَدِي قَوْلٌ مَبِينٌ
 وَليَكُنْ كُلُّ عَمِيقٍ كَالضُّحُولِ^(٦)

فإلى الدار فؤاداً ضلّ رُد
 من ترابي ما نما إلا الكلام
 إنني في الكون ذيبك الغريب
 ريثما كالشمس يطوى بالغروب
 من غدي والأمس إنني مُنطلق
 أنت نور خالد نحن الشرار
 قل لمن ما ماز موتاً من حياه
 جاب آفاقاً وليس بالصّبور
 إنني الفاني فهب أنت البقاء
 يا إلهي هب فعالي والكلام
 ليس من دنياي هذاك الخطاب
 إنني بحر سكوني لا يليق
 وعلى الساحل دُنيا تستقر
 قد يشئت من شيوخ الأقدمين
 وعلى الفتیان يسر ما أقول

-
- (١) فلقة البدر بكسر الفاء : القطعة منه .
 (٢) استبق : تسابق .
 (٣) ماز الشيء : فرزه عن غيره .
 (٤) جاب البلاد : قطعها .
 (٥) غاص على اللؤلؤ : غطس يستخرجه .
 (٦) الضحول : جمع ضحل ، وهو الماء لا عمق له .

تمهيدٌ سماويٌّ

في اليومِ الأوَّلِ لِلخَلْقِ ، تنشي
 لِلخُضُورِ لذةٌ أو لِلغِيَابِ
 كَانَ لِلأنفاسِ خِيْطٌ فَانقَطَعَ
 حَيْثُما تَمَضِي تُشاهِدُ قائلًا
 عَلِّمُوا الأنجَمَ طُرّاً سَيْرَها
 هذِهِ الشَّمْسُ أَقامتْ خِيمةً
 أوَّلُ الإصباحِ فِي الأفقِ انبَثَقَ
 كَانَ لِلإنسانِ أرضٌ قاحِلَةٌ
 الجِبَالُ لَيْسَ فِيها مِنْ نَهْزِ
 ما شَدَّتْ فِي العُضُنِ طَيْرٌ بِالغِناءِ
 التَّجَلِّيِ غابَ عَنِ بحرٍ وَبَرٍ
 فِي ربيعٍ ما بَدَتْ مِنْ خُضْرَةٍ
 لَمْ تَلِكِ الأَرْضَ مَزْرُقُ الفَلَكِ
 وَفضائي لَيْسَ فِيهِ مِنْ ضَرِيرِ
 قَدْ يَطوُلُ التُّرْبُ طوداً فِي السَما
 فَلتَعيشِي مثَلما عاشَ الجَميلُ
 فاعترِي الأَرْضَ مِنَ اللُّومِ الحَجَلُ

وبها قَدْ خُلِقَ الكونُ العُجابِ
 بَنَتِ الحيرةُ صرْحاً ما انصَدَعُ^(١)
 بَعْدَ شوقٍ : لَسْتُ مثلي يا فُلا^(٢)
 مَنحُوها فِي السَّما نُورَها^(٣)
 زانَها التُّبُرُ رسوماً جَمَّةً
 ورأى الكونَ وليداً فَاغْتَنقُ
 لا تَمُرُّ فِي ثراها قافِلَةٌ
 والفيافي تَحْتَ غيمٍ ما انهمَزُ
 لا ولا فِي المَرجِ سِرْبٌ مِنْ ظِباءِ
 ولها الثوبُ دِخانٌ وانثَرُ
 وانطَوَّتْ تحتَ الثرى فِي غِبرَةٍ
 « ما رأَتْ عَيْنٌ كَهذا هَيْتَ لَكَ ! »^(٤)
 لَكَ نورٌ مِنْ سِراجِي أَيُّ نُورِ
 لا يضاهاي فَلَكَأُ أو أنجُما^(٥)
 أو فموتي مِنْ سَنارٍ لِلذَّليلِ^(٦)
 بَعْدَ حَزَنِ وَضِياحٍ لِالأَمَلِ

(١) الصرح : كلُّ بناءٍ عالٍ .

(٢) يا فُلا : ترخيمٌ يا فلان .

(٣) طُرّاً : جميعاً .

(٤) هيت لك : هَلُمَّ وتعال .

(٥) التراب : التراب . والطَّودُ : الجبل .

(٦) السَّنارُ : العيبُ والعار .

ونداءً جاء من فوقِ القَمَمِ^(١)
 أيّ بأسٍ؟ ذاتك امنتخها النّظر
 ليس من نورِ أتانا من فلّك^(٢)
 من صُروفِ الدّهرِ أنوارٌ لروح
 يسبقُ الشّمسَ شعاعاً والقَمَر
 وهي تبدي من ثراكِ ذا السّنا!^(٣)
 ولهذا العشقِ غزوّ اللّامكان
 عينه يقظى وفاقتِ جبرئيلِ!
 وله يئدو رباطاً ذا الفلّك^(٤)
 إبرةٌ قد خرقتِ ثوبَ الحرير
 فضّلهُ في عينها نورُ البصر^(٥)
 وهو كالمهمازِ في جنبِ القضاء^(٦)
 لتري الذّاتِ تجلّت في الصّفات
 سيداً أضحى لِكُلِّ الكائنات^(٧)

ومن الظلمة أضواها الألم
 يا أميناً لست تدري ما الخبر
 النّهارُ نورُه من مُعترك
 نورُ هذا الصّبحِ من شمسِ جريح
 نورُ تلكِ الرّوحِ ماضٍ في سَفَر
 من كتابِ الرّوحِ أسقطتِ « المنى »
 يملكُ العقْلُ من الدّنيا العنان
 يهتدي الفِكْرُ ومن غيرِ الدّلّيل
 يالهُ ترباً يطيرُ كالمَلِك
 يخزُ الزرّقاءِ جسمٌ في المسير
 ثوبُ دُنيانا محاعنه الوضّر
 ورقيقُ الدّينِ سقّاكِ الدّماء
 تستنيرُ عينُه بالكائنات
 من تلظّي عشقه من حُسنِ ذات

-
- (١) أضواها : أضعفها .
 (٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد به معترك الحياة .
 (٣) السنا : النور .
 (٤) الرباط : مبنى لتزول المسافرين كما أنه لإقامة المتعبدين .
 (٥) الوضّر : الوسخ .
 (٦) رقيق الدين : الملهد .
 (٧) تلظت النار : تلهبت .

أغنية الملائكة (١)

ويوماً تبهر الصلصال نورياً بأنوار
ويوماً تُضبحُ الأرضُ سما من نجمِ أقدار
خيالُ المرءِ ظمآنٌ ، سيولُ الدهرِ ترويه
ويوماً خارجَ الأفلاكِ في أمنٍ ستلقيه
وفي معنىٍ لإنسانٍ تأمل أنت ثمَّ اسأل
ويوماً بَعْدَ تطويعِ سِنْمَسِي ذلكَ الأكمل
ويعلو منه شأنٌ لم يكن في أمسه شيئاً
ويوماً أنت لا تلقاهُ عندَ الله مَرْضِيّاً

تمهيدٌ أرضيٌّ

تلوحُ روحُ جلالِ الدِّينِ الرومي ، وتتناولُ بالشَّرحِ سرَّ المعراج
شُعْلَةٌ لِلْعِشْقِ شَبَّتْ فِي الْمَدِينَةِ ضَجَّةٌ لِلْقَوْمِ تَطْوِيهَا دَفِينَةٌ
تَنْشُدُ الْخَلْوَةَ فِي طَوْدِ أَشَمِ أَوْ عَلَى السَّاحِلِ مِنْ بَحْرِ خِضَمِ (٢)
مَا وَجَدْتُ لِي حَمِيمًا مَرَّةً فَقَصَّذْتُ الْبَحْرَ أَلْقِي نَظْرَةً
وَرَأَيْتُ الْبَحْرَ فِي وَقْتِ الْغُرُوبِ زَرْقَةً فِيهَا يَوَاقِيْتُ تَذُوبَ
لِلضَّرِيرِ وَاهْبُ نَوْرَ الْبَصْرِ لِلْمَسَاءِ مَكْسَبٌ لَوْنِ السَّحْرِ
ثُمَّ نَاجَيْتُ طَوِيلًا مُهْجَتِي وَطَلَبْتُ فِي خِيَالِي مُنِيَّتِي (٣)

(١) هذه المنظومة من بحر الهزج ، وهو في العربية سداسيُّ أصلاً ، ولا يستعملُ إلا رباعياً ،

غيرَ أنَّ الفرسَ يستعملونه ثمانياً . وقد أوردناه ثمانياً كما ورد في هذا الشعر الفارسي .

(٢) الطودُ الأشمُ : الجبلُ المرتفع . البحرُ الخِضَمُ : العظيمُ الواسع .

(٣) المُهْجَةُ : دَمُ الْقَلْبِ . وَالْمَرَادُ بِهِ هُنَا الْقَلْبُ .

إِنِّي الفاني ومالي من خلود وأنا حيٌّ ومثلي في اللُّحود
ظامىءٌ والنَّبَعُ عن ثغري بعيد فإذا بي منشدٌ هذا الشَّيد

غزل

أَفْتَحِ الثَّغْرَ لَذَّةَ الشَّهْدِ أَطْلُبُ أَظْهِرِ الخَدَّ رَوْضَةَ الوَزْدِ أَطْلُبُ
هذه الكأسُ في يدي وبأخرى شِعْرُهُ ، إِنَّ رَقِصَةَ الوَجْدِ أَطْلُبُ^(١)
في دلالٍ تقولُ قُمْ أَنْتَ عَنَّا قَلِّ وَكِرِّزْ ، فَقَوْلَةَ القَنْدِ أَطْلُبُ^(٢)
أَنْتَ يا عَقْلُ فإنصِرِفْ عن هُذَاءِ أَنْتَ يا عِشْقُ صِحْوَةَ الجَدِّ أَطْلُبُ^(٣)
إِنَّ تِلْكَ الحِياةِ كَالسَّيْلِ تَمْضِي وأنا الحوتُ لُجَّةَ المَدِّ أَطْلُبُ^(٤)
ذاكَ فرعونُ أزمَضَ النَّفْسَ جَوْرًا نورَ موسى بليلةِ البَزْدِ أَطْلُبُ^(٥)
طافَ في الليلِ شَيْخُنَا بسراج قالَ إِنِّي مؤجَّلَ العَوْدِ أَطْلُبُ^(٦)
ورفاقٍ كَرِهْتُ مِنْهُمُ خِصَالًا رُسْتَمًا لي وَسَيِّدَ الأَسَدِ أَطْلُبُ^(٧)

(١) يريد برقصه الوجد رقص المولوية ، وهم أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي ، وكانوا يرقصون ، على أنَّ الرِّقْصَ والسماع مما يثير في القلوب لوعة العشق الإلهي . وسنصفُ رقصهم تفصيلاً في الصفحات الأخيرة من الكتاب .

(٢) القَنْدُ : السكر .

(٣) الهذاء : الاسم من هذي بمعنى تكلم بغير المعقول لمرض أو غيره .

(٤) اللجة : معظم الماء . والمدُّ : ارتفاع ماء البحر .

(٥) ذكرنا ليلة البرد هنا لأن موسى عليه السلام كان يرعى غنمه ومعه امرأته في ليلة باردة وأراد أن يقدح بزنده فما أخرج الزند ناراً غير أنه شاهد ناراً من بعيد ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُوثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارَ الْعَلِيِّ ءَإِيكُمْ مِمَّنَّا يَقِينٍ أَوْ أَجِدْ عَلَيَّ النَّارَ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(٦) العود : العودة وجعلناها مؤجلة للمبالغة .

(٧) رستم : بطل الأساطير الفارسية المشتهر بشجاعته وشهامته في الملاحم ، وأردنا بسيد الأسد أسد الله وهو عليٌّ كرم الله وجهه .

كم بحثنا ، وأي شيء وجدنا
قلت إنني برغم ذاك فقد أطلبُ

فوق ماء أغبر الموجُ نام
إنَّ منها اللَّيْلُ شيئاً قد سَرَقَ
روحُ « رومي » مَرَّقَتْ كَلَّ الشُّتور
إنَّه شَمْسُ الضُّحَى في طَلَعَتِه
وبنورِ سمرمديّ قَدْ أَضَاءَ
شفتاه فيهما سرُّ الوجود
إنَّ هذا القَوْلَ مرآةٌ تَدَلَّتْ
غَيْرُ موجودٍ وموجودٌ؟ أجنبي
قال لي الموجودُ ما يبغِي الظهور
للوجودِ زينةً تُدْعَى « أنا »
ألقوا يومَ « أَلْسَتْ » مجمعا
إن تَكُنْ حَيًّا أو الميْتِ الدَّفِينِ
شاهداً فلتتخذهُ من شعور

غابتِ الشَّمْسُ وفي الأفقِ الظُّلام
يَشْهَدُ الكوكبُ بالثُّورِ ائْتَلَقَ
ولها من خَلْفِ أطوایدِ ظُهور^(١)
وشبابُ شيبه ، في مِيعَتِه^(٢)
من حُبُورِ الخُلْدِ غَطَّاه الرِّداءُ^(٣)
فكَّ عنه القَوْلُ فكَّاً للقيود
وهو عَلِمَ فيه نازٌ قد تجلَّتْ
غيرُ محمودٍ ومحمودٌ؟ أجنبي
فالوجودُ يقتضي هذا الظُّهور
رغبةً في الذاتِ برهاناً لنا^(٤)
« أينَ مَنْ يَشْهَدُ؟ » قالوها معا^(٥)
أو تَجُدُ بالروحِ سلٌّ عن ذا الأمين^(٦)
أو عيونٍ مالها إلَّا كَ نور

(١) روميّ : هو جلال الدين الرومي . والأطواد : الجبال .

(٢) مِيعَةُ الشَّبابِ : أوَّلُهُ .

(٣) السَّرْمَدِيُّ : الخالد . والحُبُورُ : الشُّرُور .

(٤) أنا هنا بمعنى الذاتِ أو الفرد . وفي رأي إقبال أنَّ حياة الإنسان لن تكون إلا فردية ، ولا وجود لحياة كَلِّية في واقع الأمر ، وتجلِّي الحياة في الفرد ليس إلَّا . فالأنا أو الإنسان يسمو ويخلد بالعمل ، وإلى تلك الحقيقة كانت إشارة الإسلام .

(٥) يُكثِرُ شعراءُ التصوُّف من الفرس ذَكَرَ يومَ « أَلْسَتْ » مشيرين بذلك إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٦) المراد بهذا الأمين : الشَّاهد .

واجعل الثاني شعور الآخرين
ولتكن ذاتُ الإله خيرَ شاهد
أنتَ إنْ واجهتَ ذِيكَ الضَّيَاءِ
الحياةُ هي للذَّاتِ الوصول
لم ثلاثم مؤمناً قطُّ الصِّفَاتِ
ما هو المعراجُ؟ مرجأةٌ لشاهد
شاهدٌ عدلٌ وممَّا قاله
ما للإنسانِ ثباتٌ في الحضور
ذرةٌ لا تلق من هذا اللهبِ
أنْ تزيدَ التورَ فيكَ ذاكَ أخلقُ
جسمك الباليَ جدُّ بالصِّقالِ

شاهد الذَّاتِ بعينِ الآخرين
ولها نورٌ به ذاتاً فشاهد
نلتَ طولاً سرمدياً للبقاء
وهي ذاتٌ ليس يُخفيها سُدول^(١)
ما اختيارُ المصطفى إلا لِذاتِ
واختبارٌ ، وتراه عينُ شاهد
عيشنا البستانُ أزهارٌ له
أو هو الكاملُ لا يشكو القصور^(٢)
ثم صنهُ مثلَ تذكاري الحبيب
أن تظاهيه بشمسِ ذاكَ أليقُ
واختبر ذاتك عيش فالعمرُ طال

ليس بالمحمودِ إلا ذو الوجود

عيشنا لولاهُ ما يعلو الوقود^(٣)

قلت كيفَ نحنُ نمضي قصدنا الحقُّ
وبعيدٌ أمرٌ عن أمرنا
قلت والسُّلطانِ إمَّا كانَ لك
انتظر يوماً تعرّى الكائناتِ

لجبالٍ ومياهٍ كيفَ ذا الشقُّ^(٤)
والرَّمانُ شصُّه في حلقنا^(٥)
لاستطعتَ اليومَ تحطيمَ الفلكِ^(٦)
والغبارُ طالَ من ذيلِ الجهاتِ

(١) السُّدول : جمع سدل ، وهو الستر . واللام في للذات بمعنى إلى .

(٢) الحضور عند المتصوفة هو حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي عنده كالحكم العيني . ونقيضه الغيبة ، وهي غيبة القلب من دون الله حتى يغيب عن نفسه ، ويستطيع مشاهدتها .

(٣) الوقود : النار وأثقادها . والدُّخان هو المراد بما يعلوها ، وهو متفرِّقٌ متبدد .

(٤) الحق : هو الله جل وعلا .

(٥) الشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك .

(٦) إما : مركبة من إن الشرطية وما الزائدة .

أنت منه وهو منك ما ترى
 أو فمّت في الوخل والذرّ المبعثر^(١)
 كنت في دنيا الجهات الأربع^(٢)
 وتفكّ عنك هاتيك القيودا
 ما دراهُ قسطاً إلا ذو فؤاد
 ظاهرٌ هذا وذا خلفَ السّتار
 باحثٌ هذا وللثاني المرام
 ذاك قَطُّ لا يسيرُ في الجهات
 ما هما إلا لذاك دأبته
 للرجال المولد الدنيا فطر
 ذاك بالروح وهذا باللسان^(٣)

الأقلّ لا ترى والأكثر
 قوله ﴿إلا بسلطان﴾ تذكّر
 بولادٍ أي هذا الألمي
 بولادٍ أنت قد تمضي بعيدا
 ليس من ماء وطين ذالولاذ
 ذاك من جبرٍ وذا بالاختيار
 بالبكا ذاك وذا بالابتسام
 ذا سكونٌ ، سيره في الكائنات
 ذا لليل ولصبح حاجته
 مولدٌ للطفل بطناً قد فطر
 ودليل العالمين في الأذان

مولدٌ للروح حلّت جسمنا

زلزل الدنيا فماجّت حولنا

قال شأن من شؤون الحياة
 ثابتٌ هذا وللثاني المُرور
 وتراها جمعت في خلوة
 لكن الخلوة من نورٍ لذات
 عشقها الماضي بها للخلوة
 كي يحلّ اللغز من طين وماء

قلت لمولدٍ معنى لا أراه
 إنّما دنياك غيبٌ أو حضور
 ولذاتٍ ذوبها في جلوة
 جلوة للذات في نور الصفات
 عقلها الدافع نحو الجلوة
 وإلى العالم هذا العقل جاء

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ يَمْشُرُ الْجِبْنَ وَالْإِنِّسَ إِذْ أَنْتَظَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ
 أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] والشاعر يصف
 قدرة الإنسان بطاعة الرحمن . والذر : صغار النمل .

(٢) الولاد : الولادة . والألمي : الذكي الحصيف .

(٣) جرت العادة بالأذان في أذن الوليد .

ثم أمسى البرق والغيم الخطيبا
لا كعربيدٍ جريءٍ في الغرر^(١)!
نملةً أنتَ تراه إذ يسير
أمّ من يهوى وثيدَ الخُطوة^(٢)
فمتى أمرٌ له يوماً يتم
لا ولا حتّى قريباً من شطون^(٣)
أو حوالبه يطوفُ في مهل
وقلوبٌ كالشموكِ إذ تُعوم^(٤)
والمماتُ دونَ قبرٍ للعَيان^(٥)
لا ولا من قُوّةٍ للأقوياء^(٦)
شقّ ذلكَ البدرَ المنير
جيشَ فرعونَ بلا حربٍ هزم^(٧)
كامنٌ فيها وها منها انتشر
يفضلُ الدّينَ ومن علمٍ أهم
وله قد عَفَّرَ الكونُ الجيين
مادنا أو شطاً وهو اللامكان
وله الكونُ جوادٌ يُزكبُ

كلُّ جلمودٍ له أضحى أديبا
عنه تَألف ذوقاً للنظر
يَزْهَبُ السَّيْرَ فيمضي كالضريبر
حيثُ كانَ العقلُ فوقَ القُوّةِ
أمرُه شيئاً فشيئاً ينتظّم
ما درى العشقُ شهوراً من سنين
ويشُقُّ العقلُ شقّاً في الجبل
ومن العشقِ جبالٌ كالهشيم
إنّما العشقُ يباتُ اللامكان
ليس يقوى العشقُ من ربحٍ وماء
خيبراً نال بخبزٍ من شعير
رأسَ نمرودٍ بلا ضربٍ حطّم
إنّه في الرُّوحِ ، في العينِ البصر
والرّمادُ العشقُ والعشقُ الضّم
وهو سلطانٌ وبرهانٌ مبين
أمسنا والغدُ وهو اللأزمان
من إليه الكونُ ذاتاً يطلب

(١) العربيد : من يؤذي نديمه في سكره ، والمراد به هنا الصُّوفي . والغرر : التعرُّض للهلاك .

(٢) أمّ : قصد . والوثيد : البطيء .

(٣) الشُّتون : البعيد .

(٤) الشموك : الأسماك .

(٥) البيات : الهجوم ليلاً . والعيان : المعاينة والمشاهدة .

(٦) الريح والماء والتراب والنار هي العناصر الأربعة .

(٧) حطم بمعنى حطّم .

يبطلُ الفتنَةَ في دُنيا الحطامِ
 باذلينَ العقلَ قرباناً لهم
 وعلى ذاتِكَ موتاً فلتَحَرِّمِ^(١)
 القيامُ ممكنٌ مِن غيرِ صور^(٢)
 فإلامَ منك صوتُ الضَّفدَعِ
 ذلكَ الرُّنَّارَ عنكَ اطْرَحَنَّ^(٣)
 ما تراهُ عَنْهُ فاسألْ عَفْلَكَ
 فَمِنَ الدَّهْرِ وَعَمَى للدَّهْرِ سِراً^(٤)
 في عيونِ ما لها ذُلُّ الأسيرِ

منه يبدو ما لقلبٍ من مَقامِ
 يَهْبُ العِشَّاقُ رَبِّاً نَفْسَهُم
 عاشقٌ أنت ؟ على اللاصِوبِ أقدمِ
 أنت يا من أنت ميتٌ في الحفيرِ
 لك لحنٌ مُطربٌ في المَسْمَعِ
 المَكَانَ وَالزَّمَانَ اذْكَبَنَّ
 اشْحَذِ الأذْنَ واشْحَذِ عينَكَ
 « من بسمع منه صوتُ النملِ مرّاً
 تَحْرِقُ النَّظْرَةَ لي كلَّ السُّتورِ

إِنَّمَا الإنسانُ هَذَاكَ النَّظْرِ
 فِيهِ مَنْ كَانَ يَهْوَى قَدْ غَمَرَ
 كُلَّ هَذَا الجِسمِ فاضْهَرْ في النَّظْرِ
 فعَلَيْكَ وَعَلَيْكَ بِالنَّظْرِ^(٥)

وَسُعةُ الدُّنيا تخافُ ! لا تَخَفِ^(٦)
 فِيهِمَا حالاً لروحِ أنتَ واجِدُ
 فاختلافُ الغَدِ والأَمْسِ انْبِثِقُ
 لا ترى عُلُوَّ الفِضاءِ الأعْظَمِ
 قد تَمَدُّ في السَّماءِ غصنَها

مِنْ سَمواتِ تَخافُ ! لا تَخَفِ
 الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ فلتشاهِذِ
 نَظْرٌ مِنْ جَلوةِ إمَّا سَبِقِ
 حَبَّةٌ في جوفِ طِينِ مَظْلَمِ
 وهي لا تدري قَريباً أَنها

(١) الصَّوب : الجهة .

(٢) الحفير : القبر .

(٣) الزنار : حزام يتمنطق به أهل الذمة .

(٤) هذا البيتٌ للشاعر الفارسي جلال الدِّين الرُّومي .

(٥) هذان البيتان من شعره كذلك .

(٦) الوسعة : الاتساع .

ولها الجوهرُ نغرقُ للنماء
ومقامٌ ، وهما أيضاً سواء^(١)

قلتَ إنَّ الجسمَ للأرواحِ مَحْمِلٌ أبصرِ الرُّوحَ وعن جسمِ فَمِل^(٢)
إنَّما الجسمُ تعلقُ الرُّوحِ حال قولُك المحمِلُ زوراً ومحال
ما هي الرُّوحُ ؟ احتراقٌ بالوجيب وهي ذوقُ الغزو للأفقِ الرَّحيب^(٣)
واعتيادُ اللونِ والريحِ والجسد والمَقَامُ في الجهاتِ بالعدد^(٤)
القريبُ والبعيدُ في الضمير إنما المعراجُ تغييرُ الشُّعور
في الشُّعورِ ذاك من جذبٍ وشوق خلَّصنَ الذَّات من تحتِ وفوق

ليسَ هذا الجسمُ للرُّوحِ النُّظيرِ
والترابُ مانعاً من أنْ نظيراً^(٥)

« زروان » وهو روحُ الزَّمانِ والمكان

يمضي بالمسافر في سفرته إلى العالم العلوي^(٦)

دبَّ في روعي فتورٌ من كلامه زئبقُ ذرَّاتِ جسمي من أمامه^(٧)

- (١) النماء : النمو ، يقول : إنَّ الحبة هي جوهرها .
- (٢) المحمِل : شقَّان على البعير يُحمَل فيهما العدلان .
- (٣) الوجيب : خفقان القلب .
- (٤) المقصود بتلك الجهات الأربع أو الاتجاهات الأربعة .
- (٥) التراب هنا هو مادة جسم الإنسان .
- (٦) زروان في المجوسية أو الزرادشتية هو الزمان المطلق . وعند بعض المجوس : الذين يقولون بوجود إلهين أهورامزدا إله الخير وأهريمن إله الشر ، وأنَّ هذين الإلهين ظهرا من زروان ، ويُعرفون بالزروانيَّة ، كما يذهبون إلى التوحيد ، ويرفضون الثنوية .
- (٧) يعني بقوله : إنَّ ذرات جسمه كالزئبق : أن جسمه يرتعد . ومن : بمعنى في .

بَغْتَةً شَاهَدْتُ بَيْنَ الْخَافِقِينَ
مَلَكٌ يَهْبِطُ مِنْ هَذَا الْغَمَامِ
هَذِهِ كَاللَّيْلِ وَالْآخَرَى مُنِيرُهُ
فِي الْجَنَاحِ حَمْرَةٌ أَوْ صَفْرَةٌ
فِي طَبَاعٍ مِنْهُ سَرَبٌ لِلْخِيَالِ
فَتَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي سَمَاءِ
قَالَ زُرَّوَانُ أَنَا الدُّنْيَا فَهَزْتُ
كُلَّ تَسْدِيرٍ بِتَقْدِيرِ رَأْيَتِهِ
إِنَّ بِي لِلزَّهْرِ فِي الْعُصْنِ النَّمَاءِ
تُصْبِحُ الْحَبَّةُ إِنْ طَرَتْ الْعُصُونَا
وَأَنَا مِنْ لِي الْعِتَابُ وَالْخِطَابُ
الْحَيَاةُ وَالْمَمَاتُ وَالنُّشُورُ
فِي يَدِي الْإِنْسَانُ بَلْ كُلُّ الْمَلَائِكِ
مَا قَطَفْتُ مِنْ وَرُودٍ فَهُوَ لِي
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَسِيرٌ فِي طَلْسَمِي
« لِي مَعَ اللَّهِ » حَدِيثٌ مِنْ وَعَاةِ
إِنْ أَرَدْتَ لِي رَحِيلاً مِنْ هِنَالِكَ

السَّمَاءِ فِي غَمَامٍ كَاللُّجَيْنِ^(١)
طَلَعْتَاهُ فِي الْبِيَاضِ وَالْقَتَامِ^(٢)
هَاهُمَا يَقْضِي وَوَسْنِي كَالضَّرِيرِهِ^(٣)
وَلُجَيْنٌ أَزْهَرْتُهُ خُضْرَةٌ^(٤)
بَيْنَ أَرْضٍ وَنَجُومٍ فِي انْتِقَالِ^(٥)
لِجَنَاحَيْهِ جَدِيدٌ مِنْ فِضَاءِ
وَأَنَا مِنْ قَدْ ظَهَرْتُ وَاخْتَفَيْتِ
كُلَّ حَيٍّ فِي شِبَاكِي قَدْ حَمَلْتِهِ
وَلِتَلْكَ الطَّيْرُ فِي الْوَكْرِ الْغَنَاءِ
وَبِفِيضِي الْوَضْلُ نَالَ الْعَاشِقُونَا
أُظْمِئُ الْطَّامِي وَآتِي بِالشَّرَابِ
وَأَنَا النَّارُ وَجَنَاتٌ وَحُورُ
وَبِنِي عَالَمٍ مِنْ فِيهِ هَالِكٌ^(٦)
أَمْ مَا لِنَاطِرَيْكَ يَنْجَلِي
وَتَشِيخُ فِي زَفِيرٍ مِنْ فَمِي
سَرَى الْمَغْمُورُ فِي لُبْسٍ وَعَاةِ^(٧)
« لِي مَعَ اللَّهِ » اذْكَرَنَّ فِي فُؤَادِكَ

(١) الخافقان : المشرق والمغرب . اللجين : الفضة .

(٢) يقول : إن له طلعتين أو وجهين ، أحدهما : أبيض ، والثاني : أسود . والقتام : السواد ، والظلام .

(٣) وسنى : نائمة .

(٤) أزهر المصباح : أضواءه .

(٥) سرب سرباً : مضى في الأرض على وجهه .

(٦) الملائك : الملائكة .

(٧) يشير إلى قوله ﷺ : « ولي مع الله وقت » .

أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لِي مِنْ رُؤْيَتِهِ قَدْ نَسِيتُ عَالَمِي مِنْ قُدْرَتِهِ
عَالِماً آخَرَ أَبَدِي يَا تَرِي أَوْ كَأَنَّ عَالَمِي قَدْ غَيَّرَا!
بَيْنَ الْوَانِ وَرِيحٍ قَدْ قَضَيْتُ وَإِلَى دُنْيَا الْكُونِ قَدْ مَضَيْتُ^(١)
وَأَنَا عَنْ عَالَمِي هَذَا انْقَطَعْتُ عَالِماً آخَرَ إِنِّي قَدْ مَلَكَتُ
لِضِيَاعِ عَالَمِي إِنِّي حَزِنْتُ مِنْ تُرَابِي غَيْرِهِ هَا قَدْ وَجَدْتُ
خَفًّا جَسْمِي ، ذَاكَ رُوحِي مَا اسْتَقَرَّ وَبِقَلْبِي زَادَ نُورٌ لِلْبَصْرِ
وَالْخَفَايَا مَا عَلَيْهَا مِنْ حِجَابِ وَالتُّجُومُ لِحْنُهَا لِحْنٌ عَجَابِ

زَمَزَمَةٌ^(٢) التُّجُومِ

عَقْلُكَ الْحَاصِلَ كَانَ لِلْحَيَاةِ لَكَ عَشَقٌ هُوَ سِرُّ الْكَائِنَاتِ
فَتَعَالَ ، أَنْتِ يَا هَذَا التُّرَابِ مَرْحَباً وَلْتَمَضِ فِي دُنْيَا الْجِهَاتِ
وَعَلَيْكَ الْمَشْتَرِي وَالزُّهْرَةُ الْحَسِ نَاءٌ كَانَا فِي شَدِيدٍ مِنْ نِزَاعِ
رَغْبَةٌ فِي نَظْرَةٍ مِنْكَ أُنَارَتْ مَا أَثَارَتْ مِنْ تَجَلِّيِ الْمَعْجَزَاتِ^(٣)
وَطَرِيقٌ لِلْحَبِيبِ ، كَمْ جَدِيدِ وَجَدِيدٍ فِيهِ يَبْدُو لِلتَّجَلِّيِ
إِنَّمَا هَذَا الْحَنِينُ لِلْوَحِيدِ فِي قُلُوبِ الْعَاشِقِينَ الشَّقِيَّاتِ^(٤)
الْحَيَاةُ إِنَّهَا هَذَا الصَّفَاءِ الْحَيَاةُ إِنَّهَا هَذَا النَّمَاءِ

(١) الريح : الرائحة . وقضى : مات .

(٢) الزمزمة : الترتيم ، أو التكلّم بصوتٍ خفي . وقد آثرنا أن نترجم هذه المنظومة على نسقها في أصلها .

(٣) الزهرة : كوكبٌ معروفٌ وقد سكنت الهاء فيها لضرورة الشعر . يقول الشاعر : إن رغبة المشتري والزهرة في نظرة منك إليهما وهما المتناسان عليك ، مما أثار هذا التجلي .

(٤) الشيق : المشتاق .

الحياءُ مُلكِ ربي ، باعدِ الـ
 غزلُ إن شاقَ منك النفسِ يو
 شحنةُ السلطانِ يبدو ثمَّ خـ
 في العراقِ والشَّامِ بلْ وهذ
 هؤلاءِ يطلبونَ الحُلُودَ دُو
 كي يمورَ البحرِ بالأمواجِ مؤ
 متعةٌ للسَّيْلِ يجري بالهـديـ
 الفقيرُ كانَ ناراً كلُّ مُد
 الملوكِ حَسْبُهُمْ في بطشهم
 إنَّ للصُّوفيِّ عزّاً ياله
 إنَّ للصُّوفيِّ جذباً من كليـ
 يُقتلُ الصُّوفيُّ بالعينين لـ
 ذاكِ يبغِي السَّلمَ والصُّلحَ وهم
 ذا وذاكِ يالعمري يفتحـا
 ولهذا كانَ قولُ لِيْن

خطو سريعاً وتَسِرُ حتَّى الفناء^(١)
 ما فله رَجَعَ الصَّيَاحُ ، اَمْتَحَنُ
 حَميراً بحانٍ ، جِرَّةَ الرِّاحِ اَمْتَحَنُ^(٢)
 مد ثم فرس ، يَألفون الطَّعمَ حلوا
 ما ، طعم هذا العِشْقِ مرّاً ، اَمْتَحَنُ
 راً وهو طامٍ في عُرَامِ واحتدام^(٣)
 ر من حُدُورِ السَّهْلِ نَهراً ، اَمْتَحَنُ^(٤)
 لك ليس إلا من عُثاء ، فاعلَمُنْ
 من مُعَدَمِ رَفَعِ النَّداءِ ، فاعلَمُنْ^(٥)
 عزّاً ، وهذا المُلكُ للإسكندرِ
 م الله ، لكنَّ ذاكِ سِخْرُ السَّامري
 كَنَّ الملوكِ بالجِوشِ قَتْلُهُم
 ييغون بالهيجاءِ حُكْمَ الجائرِ^(٦)
 ن عالَمَيْنِ ، والدُّوامِ بُغِيَّةُ
 لكنْ لَذاكَ كانَ عَنفُ القاهرِ^(٧)

- (١) النماء : التَّموُّ . ولتسر حتى الفناء : أي إلى الأبد .
 (٢) الشَّحنة : من يقوم للسلطان بضبط اليد . والخمير : من يُدمن شرب الخمر . والرَّاح :
 الخمر .
 (٣) يمور : يضطرب . الطامي : الممتلىء الجائش . العارم : العنف والشدَّة . والاحتدام
 بهذا المعنى .
 (٤) الهدير : صوت أمواج البحر . والحُدُور : المكان ينحدر منه .
 (٥) العثاء : ما يحمله السيل من القش واليابس من أوراق الشجر . يقول : إنَّ للفقير ناراً
 تحرق الملك قشاً وصوت الفقراء إذا ارتفع بالشكوى قَوْضُ ملك الملوك .
 (٦) الهيجاء : الحرب .
 (٧) أي أنَّ الصوفي والملك كل منهما له عالم يفتحه ، وإن اختلف هذان العالمان ، وكيفية =

فتعالَ وتقدّم ، قبضة الصُّوفي قدّم ، سدّ ذي القرنين حطّم
أحي ما كان لموسى من رسو م ، ليس هذا السُّحرُ غيرَ المين ، حطّم^(١)

= فتحهما ، كما تختلف رغبة الصوفي عن رغبة الملك في الدوام .
(١) المين : الكذب . والكلام في الشطر الأول من هذا البيت منصرف إلى ذي القرنين
الذي قيل عنه إنه الإسكندر الذي ملك الدنيا ، كما قيل : إنّه كان نبياً . وسمي ذا
القرنين لأنّه طاف قرني الدنيا ، يعني شرقها وغربها . وقيل كان له قرنان أي صغيرتان ،
أو انقرض في وقته قرنان من الناس ، كما ذهب بعضهم إلى أنه سمّي ذا القرنين لقرنين
على تاجه ، وهو من الروم ، وإقبال يلمح إلى ما جاء في القرآن عنه ، وهو قوله عز من
قائل : ﴿ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي آيَاتِنَا وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْبُزْءِ وَأَقْرَبُوا
سَدًّا ﴾ [الكهف : ٩٤] .

القسم الأول

فَلَا تُقَمِّرْ

فلک القمر

إِنَّمَا الْأَرْضُ لِرَبِّي وَالسَّمَاءُ
 كُلُّ مَا لِلنَّاطِرِينَ قَدْ بَدَا
 لَا تَسِرْ مِثْلَ الْغَرِيبِ فِي دِيَارِكَ
 إِنَّ مِنْكَ الْقَوْلَ كُلُّهُ يَمْتَثِلُ
 عَالِمٌ لِلْعَيْنِ وَالْأَذِنِ الصَّنَمِ
 أَشْبِهَ الْمَجْنُونَ فِي وَادِي الطَّلَبِ
 إِنَّ طَوَيْتَ الْأَرْضَ طَيًّا وَالسَّمَاءَ
 غَيْرَهَا سَبْعًا مِنْ اللَّهِ أَطْلُبَنَّ
 خَارِجَ الذَّاتِ بِشَطِّ الْكُوْنِ
 لَوْ بَكَفُ الذَّاتِ عَنْ بَحْثِ أَمَانِ
 الشَّرِيًّا مَا وَرَثْنَا وَالضَّيَاءَ
 بَعِيونَ لَصَفِيًّا فَاقْصِدَا
 لَا تَخَفْ مِنْ غُرْبَةٍ مَرَّتْ بِبَالِكَ
 وَبِأَمْرِ أَوْ بِنَهْيٍ قَدْ عَمِلَ
 وَالرَّدى مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا اخْتَرَمَ^(١)
 كُنْ كِإِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمٍ وَكَبَّ^(٢)
 عَالِمِكَ اطْوِ عَلَى حَدِّ سَوَاءِ
 كَمْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ تَسْأَلَنَّ^(٣)
 لَا تَرَى خَيْرًا وَشَرًّا يَنْبَرِي^(٤)
 كَانَ هَذَا الْقَبْرُ خَيْرًا مِنْ جِنَانِ
 وَتَمَوْتُ الرُّوحُ مِنْ طُولِ الْمَقَامِ
 أَيُّهَا الرَّاحِلُ ، فَاْمُضِ لِلْأَمَامِ
 وَمَعَ النَّجْمِ تَطْيِبُ سَفَرْتِكَ
 حِينَ كَانَتْ فِي الْفَضَاءِ وَطَاتِي
 حَبَّذَا مِنْ غَيْرٍ وَقِفْ رِحْلَتِكَ
 مَا عَلَا أَلْقَيْتُ تَحْتَ نَظْرَتِي

(١) اخترمه الموت : أخذه .

(٢) المجنون هنا هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى . وقد ولله العشق حتى اختلط عقله ، وهام على وجهه في القفار . وشعراء التصوف يرمزون به إلى العاشق الإلهي . ووكب بمعنى قام . والإشارة إلى إبراهيم عليه السلام الذي قام في قومه وحطَّم أصنامهم .

(٣) يريد سبع سموات يطلبها وما لا يحصى كثرة من الأزمنة والأمكنة .

(٤) انبرى : تعرض .

هذه الغبراء قنديل اللّيلالي
واقتربتُ في صُعودي واقتربت
قَوْلَةَ «الرُّومي» : بدذ كلِّ شك
يَنْعُدُ البَدْرُ ولكنْ تَأَلَّفُه
وعلى رأسي ظَلِي قد بدا لي
وعلى البَدْرِ جِبَالاً قد رَأَيْت
وترسّم ما تراه لِلفلّك^(١)
منزلاً في نهجنا ذا نعرفه^(٢)

ليله والصُّبْحُ فيه ما يُرى
فيه غَيْرَانٌ لإعجابِ الوري^(٣)

يا لصمتٍ ولرعبٍ في الجبل
فتأمّل «خافطين» و«يلدرم»
ما زكا عشبٌ بِتلكَ الأرضِ قط
الجهام ، والرِّياحُ العاصفات
عالمٌ ما فيه من لوين وصوت
ليس في بطنٍ له أصلُ الحياة
وسليلٌ لذكاءِ ذا الوجودِ
قولة : «الرومي» : تابعِ خَطْوَتَكَ
ما اختفى يَفْضَلُ فيه ما ظَهَرَ
يا ذكيّ اللبِّ كلُّ ما حَصَلَ
تَظْهَرُ الدُّنيا لعينٍ باصرة
ظهره الأخدودُ والجوفُ اشتعل
والدُّخانُ فوقَ نارٍ تَضْطَرُمُ^(٤)
لا ولا طيرٌ جناحاً قد بَسَطَ
ناشبتُ حرباً لها تِلْكَ الموات^(٥)
لا حياةَ فيه أو آثارَ مَوْتِ
لا ولا في الصُّلبِ سَيْرُ الحادثاتِ
لانقلابِ قَطْ ما كانَ الولودُ^(٦)
وعلى ما نلتَ شِدْذَ قَبْضَتِكَ
ولدينا فيه كانَ المُستَقَرُّ
فبسمعيكَ اِحتَجِجْنَهُ والمُقلِّ^(٧)
إنَّها الميزانُ وهي النَّاظرةُ

(١) الرومي : جلال الدين الرومي . وترسّم الدار : نظر إلى آثارها وتأملها .

(٢) المنزل : مكان النزول . والنَّهْجُ : الطريق .

(٣) الغيران : جمع غار وهو الكهف . والوري : الناس .

(٤) خافطين ويلدرم : اسم جبلين يتخيلهما الشاعر في القمر .

(٥) الجهام : السحاب لا مطر فيه . والموات : الأرض الخربة .

(٦) ذُكاء : الشمس . والسليل : الابن . والولود : الوالدة .

(٧) اللب : العقل . السمع : الأذن . احتجج الشيء : جذبه إليه .

أينما يَحْمَلُكَ مولانا انْطَلِقْ لا تفكّر في سواه واصْطَفِقْ^(١)
ثم شُدَّ الكَفَّ مني في مَهْلٍ
والى غارٍ حثيثاً قد وَصَلَ

الحكيم الهنديّ الذي آثر الخلوة في غارٍ من غيرانِ القمر

ويسميه أهل الهند « صديق الناس كافة »

كضربِ قاذبي هذا الرّفيق	ودخلتُ ذلك الكهفَ العميق
من ظلام فيه ذا بدرٍ ملول	تحملُ المصباحَ شمسٌ للدُّخول !
وعذابي طال في وهمي وظنّي	وكانَ العَقْلُ منّي ماتَ عنّي
ومَضَيْتُ واللُّصوصُ في الكَمين	ما بقلبي الصُّدُقُ أو بَرزُدُ اليقين
جلوةٌ لاحت لعيني في جلاء	ظَهَرَ الصُّبْحُ ولم تَبْرُغْ ذُكاء ^(٢)
هذه الأحجارُ عبَادَ الصَّنم	أرضُ جنّ نخلها مثلُ الأكم ^(٣)
كانَ من ماءٍ وطينِ ذا المَقام	أو خيالي يتهادى في المنام ^(٤)
النَّسيمُ مثلُ خميرِ تُسْكُرُ	والظَّلَالُ ومضَ نورٌ تُظْهَرُ
ما رأيتُ قُبَّةً من لا زَوَزِد	لا ولا في الأفقِ من ألوانِ ورد ^(٥)
ما أقامَ النُّورُ في أسِرِ الظَّلَام	وامْحَى صُبْحٌ وليلٌ من قَتَام ^(٦)

(١) مولانا هو جلال الدين الرومي . اصطفق : تحرك ، واضطرب .

(٢) بزغت الشمس : أشرقت . وذُكاء : الشمس .

(٣) الأكم : جمع أكمة : وهي الهضبة .

(٤) يتهادى : يتمايل في مشيته .

(٥) اللأزورد : حجر تشبه زرقته زرقه السماء .

(٦) القَتَام : السواد والظلام .

وحكيمُ الهِنْدِ في ظلِّ جلس
جِسْمَهُ الوهْنانَ عَرَى كَلِّه
وعلى الإنسانِ من طينٍ مفضَّل
لا يَعُدُّ الوَقْتَ أيا ماً تمرُّ
قال للروميِّ من هذا الرَّفيقِ ؟
عينُه في الكُحْلِ نورٌ لِلْغَلَسِ (١)
حيَةً بيضاءُ تسعى حَوْلَه
صورةٌ تلكِ الدُّنْيَا ممَّا تَخَيَّلُ (٢)
والزَّمانُ لا يفيِدُ أو يَضُرُّ
مِنَةُ الدُّنْيَا بعينيه البَريقِ !

الرُّومِيُّ (٣)

إنَّه الجَوَّالُ في وادي الطَّلَبِ
غِرَّةٌ منها له رأيٌ سديد
كأسُه قد أصبحت قوسَ السَّماءِ
كالعقابِ صَيْدُهُ لِلنِّيْرانِ
كَلَّمَ الأرضَ كَمَنْ نَشَى بَدَنَ
لدخانٍ مِنْهُ نارٌ في صعود
ناحَ كالنَّايِ لِقَرُطِ الاشتياقِ
لست أدري السرَّ في صَلْصالِه
والمَقامَ ، والذي في منزله
يُشْبِهُ السَّيَّارَ في السَّيْرِ اضطرب
وعلى عيبٍ له إنِّي شهيدٌ (٤)
فِكْرُهُ يبغي إلى الوحي انتماء
في السَّماءِ طوفُه بالخافِقَيْنِ (٥)
والجنانُ عِنْدَهُ بيَتْ الوَثْنِ (٦)
ورأيتُ الكبرياءَ في سجدود
وقتيلٌ في الوِصالِ والفِراقِ

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٢) الدُّنْيَا : جمع دنيا .

(٣) هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

(٤) الغِرَّة : الغفلة وعدم التجربة .

(٥) النِّيْران : الشمسُ ، والقمر . والخافقان : المشرق والمغرب .

(٦) نَشَى : سكر . والدَّن : جرَّة الخمر . والفرس يشبهون الحسناء بالوثن أي الصنم في الحسن .

جهان دوست

ما لِرَبِّ الكونِ لونٌ ، وهوَ لون
أَيُّ ربِّ أَيُّ إنسانٍ وكَونٍ ؟

الروميُّ

إِنَّمَا الإنسانُ سَيْفٌ لِإِلَهِهِ ذَلِكَ الكَوْنُ مَسْنٌ قَدْ تَرَاهُ
شَاهِدَ الشَّرْقِ الإِلهِ وَخَدَّهُ وَأَشْحَاحَ الغَرْبِ عَنْهُ خَدَّهُ^(١)
أَنْ تَرَى اللهُ بِعَيْنِكَ التَّقَاةَ أَنْ تَرَى الذَّاتَ وَلَا سِتْرَ الحَيَاةِ^(٢)
وَإِنَّ العَبْدُ مِنَ الدُّنْيَا انْتَقَى رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ بِالْعَبْدِ اسْتَحَقَّ
إِنَّ غَفَلْتَ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ قَدَرٍ فَارِقِ الصَّلْصَالَ رُوْحَ ذُو شَرَرٍ

جهان دوست

فِي طَلَسْمٍ لِلوُجُودِ وَالْعَدَمِ ذَلِكَ الشَّرْقُ بِسَرٍّ مَا أَلَمَ
مَا لَنَا أَهْلَ السَّمَاءِ إِلا النَّظْرُ فِي غَدٍ لِلشَّرْقِ تحْقِيقُ الوَطْرُ
شَاهَدَتُ عَيْنِي عَلَى رَأْسِ الجِبَلِ مَلَكاً مِنْ قُبَّةِ الزَّرْقَانِ نَزَلَ
كَانَ مِنْ عَيْنِيهِ ذَوْقٌ لِلنَّظْرِ وَهُوَ بِالْعَيْنِينَ دَنِيَانَا عَمَزَ
قَلْتُ سَرّاً عَنْ صَفِيٍّ لَا تَكُنْ أَرْضُنَا كَيْفَ تَرَاهَا اذْكُرَنَّ
حُسْنُ نَجْمٍ لَاحٍ فِي أَفْقِ عَشِيقَتَا فِي قَلْبِ السَّحْرِ قَلْباً قَدْ رَمَيْتَا^(٣)

(١) أشحاح عنه وجهه : أعرض متكرهاً .

(٢) التقاة : التقوى .

(٣) القليب : البئر . والإشارة إلى البئر التي نكس فيها هاروت وماروت . وهما شيطانان

كانا يُعلِّمان الناس السحر في بابل . ويقال : إنهما ملكان عشقا النساء وعلقا منكسين

في بئر . كما قيل : إنهما مثالٌ لرجلٍ اتقى ربّه ، واقترب منه ، ثم أضلّه الشيطان .

قال يَبْدُو الآنَ هذا المَشْرِقُ شَمْسُهُ الأخرى عليه تُشْرِقُ
يَظْهَرُ الياقوتُ من صَخِرِ الطَّرِيقِ يوسفُ يخرُجُ من جُبِّ عميقٍ^(١)
ويولِّي عن ديارٍ من كَفَزٍ ليرى عن ذلك الكُفْرِ المَفَزِ^(٢)
حَبَّذا شَعْبٌ بِروحٍ قد خَفَقَ ذأته من طينه هذا خُلِقَ
حاملُ العَرَشِ بأعيادِ فَرِخِ^(٣)

إن رأى للشَّعْبِ عينا تَنْفَتِخُ

غاصَ شيخُ الهندِ في صمتٍ قليلاً فرآني تَهْتُ في فهمي مَلولاً
قال : موتُ العقلِ ؟ قلتُ : تركُ فِكْرِ قال : موت القلب ؟ قلتُ : تركُ ذِكْرِ
قال : جسم ؟ قلتُ : تُزُبُّ قد تراه قال : روح ؟ قلتُ : رمزٌ لَلإله
قال : والإنسانُ ؟ أبدي سِرِّه قلتُ : كونٌ ؟ قال : وَجَّةٌ شَطْرَه^(٤)
قال : علم ؟ قلتُ : قشْرٌ لا يَطيبُ والدليلُ ؟ قلتُ : وجهٌ للحبیب
قال : ما دينُ العوامِ ؟ : ما سمعنا قال : دينُ العارفينِ ؟ : ما رأينا

طابَ نفساً قرَّ عينا من مقالي

صفوةٌ من حكمةِ ألقى بيالي^(٥)

(١) الجبُّ : البئر العميقة . والإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته الذين غاظهم أن يؤثره أبوه عليهم ، فذهبوا به وجعلوه في الجب ، ثم تركوه وجاؤوا أباهم بيبكون مدَّعين أن الذئب أكله . وجاءت قافلةٌ ، فلما أدلوا الدلو في الجبِّ تعلَّق بها يوسف ، وأنجاه الله من الهلكة .

(٢) في الأصل إشارة إلى إبراهيم عليه السلام وما جاء عنه في سورة الأنعام وهو ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِنِّي أَخَذْتُ آبَتَكَ بِمَا هِيَ إِيَّاهُ اللَّهُ إِنَّكَ وَوَمَلَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٣) حامل العرش : أحد الملائكة الذين يحملون العرش .

(٤) الشطر : الجهة والناحية . وشطره منصوب على الظرفية .

(٥) صفوة الشيء : خلاصته وخياره . والبال : القلب .

تسعُ كلماتٍ للعارفِ الهنديِّ

ليس يُخفي عالمٌ ذاتَ الإله
غائصاً ما رَدَّ رَسْمٌ في المياه

أنتَ إن في غير ذي الدُّنيا وُلدْتَ
بشبابٍ غيرِ هذا قد نَعِمْتَ

بعد موت ربِّنا ، وهو الحياة
لا يُحسُّ العَبْدُ شيئاً بالوفاء
نحنُ طيْرٌ بجناحٍ لا تطيرُ
علمنا بالموت مقطوعُ النّظيرُ

إنَّما الوقتُ سَمَامٌ في الشَّهاد^(١)
رحمةٌ في قَهْرٍ قَهَّارِ العِبادِ
ويلوحُ قَهْرُهُ في كلِّ صوبِ
رحمةٌ فيه مَضَّتْ من غيرِ أوبِ

إنَّما الموتُ كفورٌ يا حَكِيمِ

(١) السَّمَامُ والشَّهاد : جمعُ سَمٍّ وشَهْد .

أَنْتَ إِنْ جَاهَدْتَ أَمْوَاتاً مُلِيمًا (١)
وَمَعَ النَّفْسِ التَّقَى فِي قِتَالِ
يَا لَهُ اللَّيْثُ الْهَضُورُ وَالْغَزَالُ (٢)

كَافِرٌ صَاحِي الْفَوَادِ ذُو صَنَمٍ
يَفْضُلُ الْمُؤْمِنَ نَامًا فِي الْحَرَمِ

عَمِيَتْ عَيْنٌ رَأَتْ غَيْرَ السَّادِ
لَا تَرَى الشَّمْسَ اللَّيَالِي فِي سَوَادِ
صَحْبَةً لِلْحَبِّ وَالطَّيْنِ النَّمَاءِ
صَحْبَةً الْإِنْسَانَ وَالطَّيْنِ الشَّقَاءِ
يَرْضَى الْحَبُّ مِنَ الطَّيْنِ الْعَذَابِ
لِيَرَى النَّوْرَ كَتَبِرٍ فِي أَنْسَابِ
قَدْ سَأَلْتُ الْوَرْدَ ذَا الصَّدْرِ الْجَرِيحِ
أَيُّ حَسَنِ لَكَ مِنْ طِينٍ وَرِيحٍ؟
فَأَجَابَ : يَا حَكِيمًا مَا شَعَزَ
بُخْمُودِ الْبَزْقِ هَلْ يَأْتِي الْخَبْرُ !
رُوحْنَا فِي الْجِسْمِ جَذْبٌ وَأَنْجَذَابِ
مَنْكَ مَا يَخْفَى لَدَيْنَا كَالسَّرَابِ (٣)

(١) جاهد العدو : قاتله . والمليم : المعلوم .

(٢) الهصور : الذي يهصر فريسته .

(٣) يقول : إنَّ الروح في جسمنا مما يقع بين الروح والجسم من تجاذب . وجذبك خفي
أما جذبنا فظاهر .

تَجَلِّي سُروش (١)

أوصد العارفُ باباً للكلام
 إنَّه بالشَّوقِ والدَّوقِ انجذب
 بالحضورِ مِنْهُ ذراتٌ كطور
 في أساطير الليالي غائبة
 شعرها المِغطارُ حتَّى خضرها
 وهي في سُكْرِ التَّجَلِّي أغرقت
 ولديها دارُ مصباحِ الخيال
 فيه تبدو كلُّ ألوانِ الشُّكول
 قلتُ للزُّومِيِّ بالسِّرِّ العليم
 قال : « ذا الجسمُ لُجَيْنٌ يلمعُ
 ثمَّ حنَّ الشوقُ فيه للظُّهور
 ومن الغُربةِ كان ذا نصيبِ

أُنكَّرته الذَّاتُ لا تِلْكَ المُدام
 في وجودٍ من شهودٍ قد وَقَبٌ (٢)
 أو فلا نورٍ ولا حتَّى ظُهُور (٣)
 كوكبٌ مِنْهُ الظَّلامُ حَالِيَةٌ (٤)
 والشُّهوبُ نورُها مِنْ نُورِها (٥)
 وتَغَنَّتْ ما بكأسِ أُنكَّرتْ
 فلِكا كَمَ دَارٍ في الدَّهرِ الطُّوال (٦)
 نَمِرٌ يَفْرِسُ أو صقْرٌ يَجُول (٧)
 اكشفِ الأسرار ، لي فهمٌ سقيم
 وهو في فكرِ الإلهِ يَنْبُعُ «
 فأتى الدُّنيا خَلَّتْ مِنْ كُلِّ نُورٍ
 كلُّنا يا صاحِ في الدُّنيا غَرِيبٌ (٨)

(١) سروش : اسمُ ملك في الديانة الزرادشتية ، واسمه مشتق من : سراوشا ، بمعنى

السماع في الفارسية القديمة ، وهو رمزٌ للطاعة ، ومرشدُ الأرواح في الآخرة .

(٢) وقب : دخل .

(٣) الطور : الجبل .

(٤) الغائبة : المرأة التي يغنيها حسنُها عن أن تتحلَّى . والحالية : هي التي تلبس الحلِّي .

(٥) المعطار : من تعود أن يتعهَّد نفسه بالعطر . والشُّهوب : جمع سُهْب ، وهو السَّهْلُ المنبسط .

(٦) مصباح الخيال : مصباحٌ ما يعرف بخيال الظلِّ ، وهو مصباحٌ يُدار حوله ستار فيه نقوشٌ وصور . والطوال : الطويل .

(٧) الشُّكول : جمع شكل . وفرس النمر : افترس .

(٨) يا صاحِ : بمعنى يا صاحبي .

عرفوه بِسُروش ، كالملائك أبعَدَ الحسَنَ وقد أدنى كذلك
 فتحَ البُرْعومِ منَّا بالنَّدى وبأنفاسِ رماداً أوقداً^(١)
 منه ألحانٌ لأوتارِ القريض وشقوقُ الشُّرِّ بالبيتِ الأريض^(٢)
 ثمَّ غَنَّى فَشَهَدْتُ عالِماً
 اسْمَعُ الألحانَ جمرأَ مُضَرِّماً

لحنُ سُروش

أخشى عليك ركوبَ بحرٍ من سَراب
 وكما وُلِدَتِ العُمَرَ تطوي في الحجاب^(٣)
 لِلْفَخْرِ كحلٌّ عن جفوني أغسلُه
 فأرى مصيرَ الشَّعْبِ في هذا الكتاب^(٤)
 في كلِّ صَوْبٍ انطواءً لآخِ لي
 لِلْبُرْقِ كَانَ الموتُ في جوفِ السَّحابِ
 في الغَرْبِ كُنْتُ وَقَلَّمَا عيني رأَتِ
 من كَانَ ذا لحنٍ تجافى عن جِسَابِ
 دُنْيَاكَ فامِلِكْ إن أَرَدتَ القُرْبَ لك
 الروضَ خُذْ يا عطره في الماءِ ذاب^(٥)

(١) البرعوم : الزهرة قبل أن تفتح .

(٢) الستر هنا كسوة الكعبة . والأريض : المعجب للعين .

(٣) يريد ذلك الغشاء الذي يكون على الوليد حين يولد ويعدهء بجاباً كذلك الحجاب الذي يحجب المعرفة .

(٤) الفخر هو الرازي صاحب تفسير القرآن .

(٥) في هذا تلميح إلى شطر من بيت من مآثورات الصوفية وترجمته (إنه في وأنا فيه كالعطر =

مَا أَنْتَ إِلَّا لِلْفَنَّا يَا زَاهِداً
 أَنْسَيْتَ طُوفَاناً تَوَارَى فِي الْحَبَابِ^(١)
 اللَّحْنَ تَسْمَعُ مَا تَرَى مِنْ مُطْرِبٍ
 حَوْرِيَّةٍ قَدْ غُرِبَتْ تُبْكِي الرَّبَابَ

الرحيل إلى وادي يرغميد المسمّى عند الملائكة وادي الطواسين^(٢)

قَوْلُهُ لِلطَّامِثِينَ السَّلْسِيلِ	إِنَّمَا الرُّومِيُّ لِلْعِشْقِ الدَّلِيلِ
قَوْلُ « اللَّهُ هُوَ » حَبَاهَا حَرًّا جَمْرًا ^(٣)	قَالَ : « إِنَّ النَّارَ إِنْ كَانَتْ بِشَعْرِ
كَانَ لِأَفْلَاكِ مِنْهَا نَفْضَةٌ	نَعْمَةٌ مِنْهَا الْهَشِيمُ رَوْضَةٌ
وَبِهَا الْمُلْكُ الْفَقِيرُ وَاجِدٌ	وَعَلَى الْحَقِّ الْعَلِيِّ شَاهِدٌ
ثُمَّ يَصْحُو الْقَلْبُ كَالرُّوحِ الْأَمِينِ ^(٤)	وَبِهَا دَفَقُ الدَّمَاءِ فِي الْوَتِينِ
سَارِقُ الْقَلْبِ وَإِبْلِيسَ النَّظَرِ	نَازِمُ الْأَشْعَارِ بِالسَّخْرِ اشْتَهَزَ
رُوحُهُ مِنْ سِخْرِ قَوْلِ جَرَّدهِ	شَاعِرُ الْهِنْدِ الْإِلَهَ أَيْدَهُ
وَضُرُوبَ الْكُفْرِ حَتَّى الْأَتْقِيَاءِ ^(٥)	عَلَّمُوا الشُّغْرَ أَفَانِينَ الْغِنَاءِ

= في ماء الورد .

(١) الحَبَابُ : الفقايع التي تعلق الماء والشراب .

(٢) الطواسين : جمع ط . س ، وهما حرفان في أوائل سورِ قرآنية ، وهي : النمل ، والشعراء ، والقصاص . وللحلاج كتاب الطواسين . وقد جعل إقبال هذا الاسم اسماً للمكان الذي تتجلّى فيه صفات الأنبياء .

(٣) حباه : حبا فلاناً كذا وبكذا : أعطاه .

(٤) الوتين : عرق في القلب . والروح الأمين : جبريل .

(٥) الأفانين : الأساليب والأجناس . والضروب : الأنواع والأشكال .

لفظهم ما فيه شيء من ألم إن خيراً من لحون أفسدت
يبحث الشاعر طوعاً بالسليقة ليس إلا القلب في صدر الشعوب
نقش السكر وناز عالما ما تراهم في حياة بل عدم
قولة كانت برؤيا أضغثت^(١) يجعل الآمال في النفس الحقيقه
إنها لولاه كالوادي الحطيب^(٢) بهما لم يك شغراً ماتما !

في الأنام يُخَلَقُ الرُّوحُ السَّوِيًّا

ورث الشاعر من ثمَّ النَّبِيَّا «

قلت : هاتِ القولَ في تلكِ النَّبُوَّةِ قلنا لا تطو عن مثلي بقوَّة
والعصورُ كلُّها ميزاتها أصلنا في العنقِ منَّا طهَّرت
كُنَّا في حقلنا زرعٌ لها أصلنا في العنقِ منَّا طهَّرت
بجناحِ الرُّوحِ فكراً علقت^(٣) إنها صوتٌ دويٌّ في الكائنات
تقرأ النُّورَ وتتلو النَّازعات^(٤) ما لشمسٍ أطلعتها من زوال
منكروها قد تجافوا عن كمال^(٥) رحمةُ الله نراها قولاً
غضبُ الله نراها صولةً إنَّ عَقْلَ الكَلِّ حتَّى إنَّ ملكُته
فبها شيئاً رأيتُ ما رأيتُه يرغميدُ امضٍ وأسرعُ في السرى
لترى ما ليسَ بدُّ أن ترى^(٦)

في جدارٍ من صخورٍ بالقمر

للطَّواسينِ أطل منكَ النَّظْرَ «

يعرفُ الشُّوقُ الطَّرِيقَ لا الدَّلِيلَ وَيَطِيرُ بِجَنَاحِ جِبْرِيلَ

(١) أضغث الرؤيا : أتى بها ملتبسة .

(٢) الحطيب : الكثير الحطب .

(٣) الرُّوحُ : جبريل .

(٤) في الأصل : أن سورة النَّجْمِ ، والنُّورِ ، والنَّازعات من شفة النبوة .

(٥) تجافى عن الشيء : مال عنه .

(٦) يرغميد : اسم جبل في القمر .

البَعِيدُ عِنْدَهُ كَالْخُطُوتَيْنِ فِي الْمَقَامِ يَشْتَكِي مِنْ فَرْطِ أَيْنِ (١)
 مِثْلُ نَشْوَانٍ قَصَدْتُ ذَا الْجَبَلِ وَرَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ مِنْ قُلُلِ (٢)
 أَيُّ قَوْلٍ لِي؟ وَمَا وَضَفِي لَهُ؟ هَذِهِ الْأَنْجُمُ طَافَتْ حَوْلَهُ
 عِنْدَ أَهْلِ الْفَرَشِ ضَاءً فِي الضَّمِيرِ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرْشِ فِي الْجَفْنِ الْبَصِيرِ
 عَيْنَنَا وَالْقَلْبَ رَبُّ قَدْ حَبَانَا لَاكْتِنَاهِ السَّرِّ فِي الدُّنْيَا هَدَانَا
 سَرَّ دِنْيَانَا سَأْبِدِي مَنْ سُدِلِ (٣)
 وَحَدِيثِي عَنْ طَوَاسِينِ الرُّسُلِ

طَاسِينِ جَوْتَامَا بُوْدَا (٤) تَوْبَةُ الرَّاقِصَةِ اللَّعُوبِ

جوتاما

الشَّمُولُ وَالْحَيِيبُ ، لَيْسَ شَيْئَا (٥)
 بَلْ وَحَوْرٌ فِي الْجَنَانِ ، لَيْسَ شَيْئَا
 كُلُّ مَا أَنْتَ تَرَاهِ سَوْفَ يَفْنَى

(١) فرط الأين : شدة التعب .

(٢) القلل : جمع قلة ، وهي القمة .

(٣) السدُّلُ : السُّرُّ .

(٤) التزمنا في هذه المنظومة ما يعرف في الشعر الفارسي بالرديف ، وهو كلمة أو عبارة ترد في نهاية كل البيت على أن تسبقها قافية موحدة ، وجعلنا القافية في الترجمة نفس القافية في الأصل (المترجم) .

(٥) الشَّمُولُ : الخمر .

الفلا والشاطِئانِ ، ليس شيئاً^(١)
 علَّمَ غربٌ حكمةً للمشرقِ
 مَعْبُدٌ والطائفانِ ، ليس شيئاً^(٢)
 ذاتَكَ اذْكُرْ وامضِ واغْبُرْ
 أنتَ هذا ، العالمانِ ، ليس شيئاً
 هُذِبَ عيني لي طريقاً شَقَّها
 كلُّ ما فيها عراني ، ليس شيئاً
 دَعَاكَ مَنْ غيِبَ فما وهمٌ بشيءٍ
 لا تكونُ أو تكونُ ، ذاكَ شيءٍ^(٣)
 لا تكونُ جنَّةً كالجنَّةِ
 لوى أهلِ الجنانِ ، ذاكَ شيءٍ^(٤)
 راحةَ الرُّوحِ طلبتَ ، ما تساوي !
 في حبيبِ دمعتانِ ، ذاكَ شيءٍ
 نظرةٌ والعيْنُ سَكْرَى والتَّغْنِي
 يا لهذا من حُسانِ ، منه شيءٍ^(٥)
 كان خيراً في المعاني ، ذاكَ شيءٍ

-
- (١) الفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .
 (٢) ذكرنا الطائف بالمعبد في المثنى مع إرادة الجمع (المترجم) .
 (٣) كان هنا تامة .
 (٤) يريد الشاعر ليقول : إِنَّ الجنة لا تكون إلا ماوى للمتقين جزاء لهم على عمل الصالحات .
 (٥) الحُسان : الحسن .

الرَّاقِصَة

لا تَزِدْ أَحْزَانَ قَلْبِي مَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارٍ
 زِدْ جَمَالَ الشُّعْرِ ثَنِيًّا ، يَا لَهُ لَيْلُ السَّرَارِ (١)
 فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ مِنِّي ، مِنْكَ أَنْوَارُ التَّجَلِّي
 فَأَذَقْتُ الشَّمْسَ وَالْبَدْرَ مَرِيرَ الْإِنْتِظَارِ
 إِنَّ ذَوَاقَ الْحُضُورِ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ عِشْقًا
 يَخْدَعُ الْعِشْقُ فَوَادًا مِنْ مَنَاهُ فِي الْحُمَارِ (٢)
 فِي صَفَاءٍ إِنْ تَرْتَمْتُ بِلَحْنِ لِي جَدِيدِ
 عَادَ طَيْرٌ لِلرِّيَاضِ عَوْدَ مَشْتَاقِ الدِّيَارِ
 طَبِيعِي السَّامِي وَهَبْتَ حُلًّا عَنْ سَاقِي قِيُودِي
 خِرْقَةً هَبْنِي لِتَحْظِيَ بِقَشِيْبٍ مِنْ إِزَارِ (٣)
 أَيُّ مَعْنَى لِلْكَلامِ ؟ وَالصُّخُورُ تَحْتَ فَاسٍ
 يَحْمَلُ الْعِشْقُ الْجِبَالَ ثُمَّ يَمْضِي فِي انْحِدَارِ (٤)

طاسين زرادشت (٥)

أهرمن يخبتر زرادشت

ما خلقتُ منك ناياتِ البُكاءِ وربيعي مثلُ شَهْرِ فِي الشِّتَاءِ (٦)

(١) الثني : كلُّ شيءٍ بعضه على بعض . وليلةُ السَّرارِ : آخر ليلة في الشهر .

(٢) الخمار : الصُّدَاعُ مِنْ شِدَّةِ الشُّكْرِ .

(٣) الخرقَة : ثوب الزاهد . والقشيبُ : الجديد . والإزارُ : الملحفة وكل ما يستر .

(٤) يمضي في انحدار : أن يمضي في سرعةٍ وخفّةٍ .

(٥) زرادشت : هو نبيُّ الفرس القديم الذي اعتقد وجود إله للخير هو أهورا مزدا وآخر للشر

يسمى أهرمن . وجاء قومه بكتابٍ يسمى : الأبتاق .

(٦) النايات : جمع ناي .

أنا في الدنيا أعاني صَوْلَتِكَ بدمائي قد رَسَمْتَ صُورَتَكَ
إِنَّ مِنْ سِينَاكَ لِلْحَقِّ الْحَيَاةَ

واليدُ البيضاء لي منها الممات^(١)

أَخَذْتُ بِالْعَهْدِ مِنْ رَبِّ خَيْلٍ ضَلَّ مِنْ وَفَقَ هَوَى نَفْسِ عَمَلٍ^(٢)
وَمِزَاجُ الرِّيحِ فِي الكَاسَاتِ سَمٌّ وَلَهُ المِنْشَاؤُ وَالذُّودُ النُّعَمُ^(٣)
إِنَّ نوحاً لم يجذُ غَيْرَ الدُّعَاءِ وَالدُّعَاءُ كَانَ خِلاواً مِنْ غِنَاءِ^(٤)
اعتزل في الغارِ وازحلَّ عن ديارِ نحو أهلِ الثُّورِ عَنْ مَخْضِ اختِيارِ
وبعِينِ اجْعَلِ التُّرْبَ الذَّهَبَ وَبِئْجَوَاكِ السَّمَاءِ مِنْ لَهَبٍ^(٥)
كالكَلِيمِ فِي الجِبَالِ كُنْ شَرِيداً وَاخْتَرِقْ مِمَّا رَأَتْ عَيْنٌ بَعِيداً^(٦)
وتناسَ شِيمَةً لِلأنبياءِ دَعَاكَ مِنْ فَرْطِ الذِّكَاةِ وَالدَّهَاءِ
بين من هانوا تهُونُ الفِطْرَةَ وَالرَّمَادِ فِي الرِّيحِ الجَمْرَةَ
الوَلِيِّ إِنْ شَأَى يَوْماً نَبِيّاً لِلهَوَى كَانَ النَّبِيُّ دَاءً عَصِيّاً^(٧)

قُمْ وَفِي عُشِّ انْفِرَادِ عُزْلَتِكَ
وَلْتَدْعُ هَذَا التَّجَلِّيَ خَلْوَتِكَ

(١) يلمحُ إلى طور سيناء ، وإلى قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرَّجَ بَيْضَاءَ يَدَيْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٢) الخيل : المخبول الذي اختلط عقله .

(٣) الإشارة إلى تعذيب زكريا بالمنشار ، وأيوب بالدود .

(٤) الغناء : الكفاية .

(٥) التُّرْبُ : التراب ، والنَّجْوَى : المساءة .

(٦) يريد قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠١﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمُ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ و ١٠] .

(٧) شأى : سبق وكان أفضل . والدَّاءُ العصي : هو الذي لا شفاء له .

زرادشت

الضِّيَاءُ الْبَحْرُ وَالشَّطُّ الْظُّلْمُ مَا حَوَتْ سِيلاً كَمَثَلِي وَازْتَطَمُ^(١)
 فِي فَوَادِي الْمَوْجِ دُفَاعٌ يَمُورُ إِنَّمَا السَّيْلُ عَلَى شَطِّ يَغْيِرُ^(٢)
 صُورَةٌ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ طِلَاءٍ وَإِلَهُ الشَّرِّ رَسَامُ الدِّمَاءِ^(٣)

أظهرِ الذَّاتَ ، فهاتيكِ الحياه

واختبارُ المرءِ ما أدَّت يدها

يُنْضِجُ الذَّاتَ التَّرْدِيَّ فِي الْبَلَاءِ عَنْ قِضَاءِ اللَّهِ قَدْ تَمَحَوَ الْحَقَاءُ
 رَجُلٌ اللَّهُ رَأَى بِاللَّهِ ذَاتَهُ فِي دِمَائِهِ خَرَّ كَيْ يُنْهِيَ حَيَاتَهُ
 بِالْذِّمَاءِ الْعِشْقُ يَسْمُو وَيَسُودُ وَلَهُ الْعِيدَانُ مَنْشَارٌ وَعُودٌ^(٤)

فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا يَجْرِي يَطِيبُ

مَرْحَباً بِالصَّدِّ إِنْ صَدَّ الْحَيْبُ

لَا تَرَى عَيْنِي التَّجَلِّيَّ وَخَدَهَا تَرْمُقُ الْحُسْنَ عَيُونََ حَوْلَهَا^(٥)
 خَلْوَةُ الْإِنْسَانِ ؟ وَجَدُّ سَعْرَا إِنَّهَا الْبَحْثُ ، وَجَمْعٌ قَدْ يُرَى
 خَلْوَةٌ فِي الْعِشْقِ مِنْ شَأْنِ الْكَلِيمِ إِنْ تَجَلَّى كَانَ كَالْمَلِكِ الْعَظِيمِ^(٦)
 خَلْوَةٌ أَوْ جَلْوَةٌ فِي الْقَلْبِ وَقَدْ وَمَقَامٌ أَوْ هَمَا حَالٌ وَوَجْدٌ^(٧)
 وَيَلْسُوخٌ فِيهِمَا الرَّحْمَنُ آيَةٌ بَدَأَ الْأُولَى وَذِي الْآخِرَى نَهَايَةٌ

(١) ارتطم : ازدحم ، وتراكم .

(٢) الدُّفَاعُ : معظم السيل والموج . ويمور : يضطرب .

(٣) يقول : إنَّ « أهرمن » إله الشر رسمها بالدماء .

(٤) يقصد تعذيب المسيح عليه السلام بصلبه ، كما يعتقد المسيحيون ، وتعذيب زكريا عليه السلام بالمنشار .

(٥) لا يريد أن يرى الحسن وحده ، بل في جماعة .

(٦) الكليم : موسى عليه السلام .

(٧) الوَقْدُ : النار .

النُّبُوتُ ، كما قُلْتِ ، المِلَلُ يخلق الإنسانَ عِشْقُ إن كَمُل
 حَبَّذَا رَكُوبٌ ولله المِيسِرُ^(١)
 وبدنيانا كأرواحٍ نَطِيرُ

طاسين المسيح

(رؤيا تولستوي الحكيم)

شامخٌ قد ضمَّ أنواعَ المَمَاتِ فيه وإد ما به رفَّ النَّبات^(٢)
 فيه نورُ البَدْرِ قارٌّ من عُبارِ بسماءِ الشَّمْسِ ظمأى فوقَ نارِ
 والغديرُ زَبِيقٌ قد فارَّ فورَه وهو يجري دافقاً مثل المجرَّة^(٣)
 لا ارتفاع لا انخفاضَ في الطريقِ زاخرٌ طامٍ وذو موجٍ حَنِيق^(٤)
 صاحَ شابٌّ قد حواه الزُّبِيقُ جازِعاً وهو يكادُ يَفِرُّ
 منه ذاك الغيمُ ما إن يقربِ ظامىءٌ ، من زَبِيقٍ هل يَشْرِبُ ا
 وعلى الشَّطِّ رأيتُ غانِيَه لحظَّها ياسِرُ ألفَ ساريَه^(٥)
 عَلِمْتُ من سِخْرِها العبَّادُ كُفرا شرُّها الخيرِ وكانَ الخيرُ شراً
 يا ترى من أنتِ قُلْتُ فلتجيبني ما بُكايك بل وموصولُ النَّحِيبِ
 « إنَّ في عينيَّ سِخْرُ السَّامريِ واسمي افرنكين واسمُ السَّاحر^(٦)

(١) الرُّكْب : ركبان الخيل ، أو الإبل .

(٢) الشامخ : المراد به الجبل . ورفَّ النبات : اهتزَّ نضارةً .

(٣) الغدير : النهر . والمجرَّة : مجموعة من النجوم تشبه النَّهْر .

(٤) الطَّامِي : الممتلىء . والحنيق : الشَّدِيد الغضب .

(٥) الغانية : الحسناء . والسَّارية : الجماعة .

(٦) افرنكين : من فرنكي في الفارسية بمعنى الإفرنجي في العربية . وإقبال يجسَّد التفرنج

على أنه أفسد المسيحية الأولى . أما الإنسان المغمور في ماء النهر فهو رمزٌ إلى الخائن =

الجليدُ فجأةَ كانَ الغدير
 رَدَدَ الشُّكُوِي وَمِنْ قَلْبٍ وَجِعٍ
 قالت افرنكين « فكَزْ فِكْرَةً
 إِنَّمَا عَيْسَى سِرَاجُ الْكَائِنَاتِ
 اذْكَرَنَّ بِيلاطوسَ الممتقع
 لذةَ الإيمانِ فِي رُوحِ حُرْمَتِ
 ما عَرَفَتِ الوحي والجسمَ اشتريتِ
 ولذا فالرُّوحُ أموالٌ فَقَدْتِ »

وَمِنْ الحسَناءِ تجريحُ الملام
 قال : « مَنْ خدعك ، فالرُّورِ الجلي
 ذلُّ عقلٍ ذلُّ دينٍ مِنْ فُسُوقِكَ
 الودادُ مِنْكَ ضُرٌّ خَفِيَّةُ
 أَنْتَ بِالماءِ وبِالطَّيْنِ عَقَدْتِ
 حكمةُ الإنسانِ حَلَّتْ مشكلاتِ
 ما لدى المُنْصِفِ قَطُّ أَيُّ رَيْبِ
 المَسيحُ أَسْكَنَ الرُّوحَ البَدَنَ

كانَ في قلبِ الفتى حَزُّ الحُسامِ
 باعَ شيخَ أُمَّةٍ أو بَزَهَمِي
 هانَ حَتَّى العَشْقُ مِنْ سَومِ سَوقِكَ^(٦)
 مِنْكَ هَذَا الحِقْدُ موْتُ بَغْتةِ
 صلَّةٍ ، والعَبْدُ مِنْ رَبِّ سَلَبْتِ
 وبها چنگيزُ صِرَتْ فِي غزاةِ
 فِي ذنوبِ لِكَ فَاقَتْ كُلَّ ذَنْبِ
 أَنْتَ مِنْ أَدْرَجَتْ مِيتاً فِي الكَفْنِ^(٧)

= الذي خانَ المَسيحَ عليه السلام .

(١) الكَسِيرُ : المَحْطَمُ .

(٢) وجع : بِمعنى تَأَلَمَ ، وَمَرِضَ .

(٣) اللِّمَاحُ : المِثْلَالي . يَقولُ : إِنَّ نوره يغمُرُ العالمين .

(٤) بِيلاطوس : هو من يَعتقد المَسيحيون أَنه القائلُ لِنبي بريء من دم المَسيحِ .

(٥) اللِّجِينُ : الفِضَّةُ .

(٦) الفسوقُ : تَرَكَ أمرَ الله وَعَصِيانَه . السَّومُ : من سامِ السلعةِ ، أَي : عرضها وذكر

ثمنها ، فَكانَ المِناقِقين يَتخذون الدينَ سلعةً لِتِجارَتِهم .

(٧) يَريدُ ليقولُ : إِنَّ المَسيحَ عليه السلامَ أَحيا الموتى .

ما صنعنا كان من ناسوتيه كان ما للقوم من لاهوته
بمات لك نحيًا قاطبة
لا تموتي ، لتري ما العاقبة»^(١)

طاسن محمد (ﷺ) (نياحة أبي جهل في حرم الكعبة)

زارث روح عمرو بن هشام - زعيمُ الجاهلية والنخوة العربية - مكة ، وقد أصبحت بلد الإسلام والتوحيد ، وطهر بيتُ الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحُرِّمت عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة^(٢) ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته خمسَ مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله » .

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالأباء ، وأصبحَ الناس يعتقدون أنهم من آدم ، وآدمُ من تراب ، فلا فضلٌ لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى ، وسمعَ الناسَ يتلون : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأصغى إلى الناس في غدوهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسب ، ووطنٍ أو شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحدًا يعيرُ أحدًا بأُمَّه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتناول بعربيته ، أو قرشيته ،

(١) قاطبةً : جميعاً .

(٢) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظمها ، راجع ابن هشام وابن الكلبي .

وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبين عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلةً في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبد أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتقون حوله ، ويصُدُّون عن رأيه .

ودقق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعةً عربيةً ، أو نكرةً قوميةً ، يتعلَّق بها سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أنَّ الحياة القديمة قد نُسِخت وأبطلت ، وولد مجتمع جديدٌ قام على أساس من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتقوى ، وتغيَّرت الموازين والقيم ، وتغيَّرت عقولُ الناس ونفوسُهم ، وسُمِعَ يُنشدُّ في حزينٍ واستعجاب :

فما النَّاسُ بالنَّاسِ الذي عهدتْهم ولا الدَّارُ بالدَّارِ التي كُنْتُ أُعْرِفُ
لقد أشكلت الأمورُ على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابنُ البلد ، وسيِّدٌ من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحنُ فيه ضعفاء المسلمين : لأنكر مكَّة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنَّه قد ضلَّ الطريق .

لقد كان يرى في الدِّين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ الخطرَ والمُضَرَّ على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليِّ الذي يقوم على النسب والوطن ، وتفضيل الدَّم والعرق ، ويرى العالمَ كلَّه في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكَّة ، ولا يُعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلَّه في العرب ، فغيَّرهم عجمٌ وعلوج ، لا يستحقُّون مدحاً ،

ولا يستحقون رحمةً ، ولا يستحقون عدلاً ، لقد كان يرى كل ذلك ويتوقعه ، وكان من أشد الناس حماسةً في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدق الناس فِراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكنه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أن الأمر يبلغُ بالناس هذا المبلغ ، وأن الإسلام يؤثر في الناس هذا التأثير ، وأن الجاهلية تُطرد من عاصمتها ومهداها هذا الطرد الشنيع .

هاجتِ النَّخوةُ الجاهلية في أبي جهل ، وثارَت رَوْحُه ، ورثي متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمد ﷺ وينوحُ ، ويقول : « إن قلوبنا - معشر الجاهليين - قروخٌ وجروح ، تسيل دماً مما صنع محمد ، فقد أطفأ نورَ الكعبة ، وحطَّ من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قيصرَ وكسرى ، وتبأ بزوال الملوك والسلاطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنَّ الْحَكْمَ لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] و ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفُتِنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوبَ الناس وعقولهم ، وهل كفر أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكارُ جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبودها في جميع الأعصار والأمصار ، إنه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللَّات ، ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة ، يا عجبا ! لقد جرَّد القلوب عن معبود مشهور يُرى ويُلمس ، وربطها بمعبود غير مشهود لا يُرى ولا يُلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يُرى وجود ؟

أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة سجودٌ لغائب ؟ هل يجدُ الإنسان لذَّةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ أمام غائب ؟!

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية والقومية ، إنه من قريش ، ولكنه لا يفضل حراً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، أسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرم العلوج

والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم بالثميم ، والجميل بالذميم ، وذلك العرب ، وذلك بنو قصي .

إننا لا نشك في أنّ هذه المؤاخاة ، التي يحثُّ عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجمي ، وقد تحقّق لدينا أنّ سلمان مزدكيّ ، وأنّ ابن عبد الله خُدع به ، وجرّ البلاء والشقاء على الأمة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشمي قيمته وشرفه ، لقد أعمته هذه الصلاة التي يصلّيها ، هل لعجمي أصلٌ عدناني ، وهل لأعجمي نطقٌ عربيّ ولهجةٌ مضرية ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمّيه محمدٌ وحيّاً ، بكلامكم البليغ السّاحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ! ولماذا لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بينك من هؤلاء الصُّبابة ، أغرّ عليهم ، وعكّر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجازاً نخلي خاوية ، يا مناة ! ويا أيها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدّ من الرحيل ، فلا تعجّلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما ^(١) .

وإليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

صدرنا ناراً تَلَطَّتْ مِنْ مُحَمَّد	فسراج الكعبة الوضاء أحمَد
وَيَهْلِكِ الرُّومُ أَوْ كَسْرَى تَغْنَى	سَلَبَ الْفَتِيانَ طُرّاً مِنْ يَدَيْنَا
ساحرٌ والقولُ منه ساحرٌ	وبقولٍ « لا إله » كافرٌ !
وبساطُ دينِ آباءِ طَوَى	وأذاقَ ما عبدناه التَّوى ^(٢)
حَطَمَ اللَّاتُ فَكَانَتْ كَالْفُتَاتِ	مِنْهُ فَلتَقْتَصِرُ كُلُّ الْكائِنَاتِ ^(٣)

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن عليّ الندوي ، صفحة ١٦٩ - ١٧٤ .

(٢) التَّوى : الهلاك .

(٣) الفتات : كسارة الشيء بعد أن يتفتت .

ناطَ مِنْهُ الْقَلْبُ بِالْغَيْبِ الْكَنِينِ وَمَا الْحَاضِرَ بِالسَّخْرِ الْمُبِينِ^(١)
ويعيبُ المرءُ للغيبِ النَّظْرَ أينَ شيءٌ ليسَ يبدو لِلْبَصْرِ^(٢)
الضَّرِيرُ مَنْ لَغَيْبٍ يَسْجُدُ يَا لِهَذَا الدِّينِ أَعْمَى يُتَعَدُّ
مَا السُّجُودُ وَلِرَبِّ لَا يُحَدُّ
الصَّلَاةُ مَا ارْتَضَاهَا قَطُّ عَبْدٌ!

فِي قَرِيشٍ بَتٌّ أَصْلًا لِلنَّسَبِ يَا لِدِينٍ مَنكَرٌ فَضَلَ الْعَرَبِ^(٣)
الْوَضِيعُ كَالرَّفِيعِ عِنْدَهُ لِلخِوَانِ فَهَوَ يَدْعُو عَبْدَهُ^(٤)
مَا دَرَى فَضْلًا لِأَحْرَارِ الْعَرَبِ وَدَّ أَحْبَاشٍ غَلَظٍ قَدْ خَطَبَ^(٥)
وَلِحَمْرِ الْقَوْمِ بِالسُّودِ اجْتِمَاعُ يَا لِعَمْرِي عَزُّنَا هَذَا مُضَاغُ
المَسَاوَاةُ أَرَاهَا أَعْجَمِيَّةَ دَانَ سَلْمَانَ بَدِينِ الْمَزْدَكِيَّةِ^(٦)
ابنُ عِبْدِ اللَّهِ مَخْدُوعٌ بِهِ فَأَذَاقَ الْعُرْبَ مِنْ تَخْرِيْبِهِ
وَبَنِي هَاشِمٍ جَافَى قَوْمَهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي ظَلَامٍ عَيْنُهُمْ!
أَيْنَ مِنْ عَدْنَانَ أَصْلُ الْأَعْجَمِيِّ أَيْنَ مِنْ سَخْبَانَ صَنَمْتُ الْأَبْنَمِ^(٧)
لِخَوَاصِّ الْعُرْبِ عَيْنٌ لَا تُرَى قَمَ زَهَيْرٌ شَقٌّ مَرْكُومِ الثَّرَى^(٨)

(١) الكنين : المستور .

(٢) يقول : إن الشيء الكائن وحده هو الذي يشاهد .

(٣) بت : قطع .

(٤) الخوان : ما يوضع عليه الطعام .

(٥) خطب الود : طلبه .

(٦) لم يكن الصحابيُّ الجليل سلمان الفارسي على الديانة المزدكية قبل إسلامه بل على الزرادشتية . والمزدكية تدعو إلى المشاع في الأموال والنساء . ولكن الشاعر هنا يبالغ في التهكم بأبي جهل وجهالته ، فيقول إنه توهم أن النبي ﷺ عرف المساواة عن سلمان ، وهو يُجري على لسان أبي جهل من الكلام ما يؤيد أن أبا جهل من الكافرين .

(٧) سحبان مضرب المثال في الفصاحة عن العرب .

(٨) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى من أصحاب المعلقات ، وجاء في سيرته أنه رأى قبل موته بعام كأنه رفع إلى السماء ثم انقطعت به الحبال . وفسر رؤياه لبنيه =

أنت في صحرائنا خيرُ الدليل

قُمْ وحرطم سخرَ لحنِ جبرئيل

قُلْ وَحَدَّثْنَا طويلاً يا حَجْرُ ! ما رأينا منه ؟ واصدُقنا الخَبْرُ

قَابِلَ الأَعْدَارِ أنت يا هبل عَنكَ ذُؤْمُنُ دِيننا ما إنْ عَقَلُ

رَأْسُهُمُ أَلْقِ لَذئِبٍ أو هَصُورَ وَلْيَكُنْ في نخلهم مُرُّ التُّمُورِ^(١)

صَرَصَراً واجعلْ هواءَ الباديةِ إِنَّهُمْ أعجازُ نخلٍ خَاوِيَةٍ

لا تُدومي ، لا تَريمي يا مناةُ أَنْتما فينا قلوبٌ خافِقَاتُ^(٢)

تَسْكُنانِ بينَ جَفْنينَا الجِدَاقا

مهلةٌ إنْ كنتِ أزمَعَتِ الفِراقا^(٣)

= بقوله : سيكون بعدي أمرٌ يعلو من اتبعه فخذوا بحظكم منه . وما حال الحول حتى

يُبعثَ النبي ﷺ . والمركوم : الذي بعضه فوق بعض .

(١) الهصور : الأسد . والتُّمُور : جمع تمر .

(٢) اللآت ومناة : من الأصنام التي كانت العرب تعبدها في جاهليتها . لا يريم : لا يفارق مكانه .

(٣) الجِدَاق : جمع حَدَاقَة ، وهي معظم سواد العين . والشُّطر الثاني من البيت مما اقتبسه

إقبال عن شاعرٍ عربي .

القسم الثاني

هُنَاكَ عُمَلَارِد

ساعةٌ مع السيّد جمال الدين الأفغاني^(١)

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومرّيّه الروحي والفكري - الشيخ جلال الدين الرومي - في سياحةٍ روحيةٍ فكريةٍ ، ومرّ في جولته - الخيالية - بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصياتٍ ماضية ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر والرّجالات ، وتحدّث معهم في مسائل كثيرة .

ومرّ في رحلته بمنزلٍ بكرٍ ، لم يطأه آدميٌّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدّنيا بسهولة ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلةٍ من المدنية والصناعة الإنسانيّة ، وأعجَب الشاعر جمالُ الطبيعة ، ورقةُ الهواء ، وخريزُ الماء في هدوء الصّحراء .

وأقبل إلى شيخه الرّوميّ ، فقال وقد قرّع أذنه صوتٌ عذبٌ رقيقٌ : مالي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، أم حالمٌ ؟

قال الرّوميّ : إنه منزلُ الصّلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدمٌ يوماً أو يومين ، لمّا هبط من الجنة ، قد شهّد هذا المكانُ زفرائه وأنّاته في السّحر ، وبلّث دموعه التراب ، يزوره أصحاب المقامات الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيد ، وأبي يزيد ،

(١) هو جمال الدين الأفغاني ، ذلك المصلح الدّيني ، والسياسيّ ، والاجتماعيّ ، ورجل الفكر الحرّ والأدب العالي ، ومن له الرّيادة في دعوته إلى الحقّ ومكافحته للباطل . وكان الدّاعي إلى التجديد في الإسلام ، راغباً في إصلاح العالم الإسلاميّ بالرجوع إلى القرآن . بعد أن فترت عنه همم المسلمين ولم يأخذوا بتعاليمه الدّاعية إلى شحذ الهمم وتحرير العقول ، كان الأفغاني عظيم الأثر ، واسع النفوذ ، دائب العمل في مصر على الخصوص ، توفي عام ١٨٩٨ م .

فلنقم ولنشرع لندرك الصلوة في هذه البقعة المباركة ، وننال لذة الروح ، ونعمة الخشوع التي حُرمتها في العالم المادي .

ونهضا من مكانهما مسرعين فوجدا رجلين يُصليان ، أحدهما أفغانِيّ ، والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما ، فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغانِيّ ، يصلي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الروميّ : إنّ الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضل منهما ، وقد حلأ كثيراً من عقدي وألغازي ، أما الإمام السيد جمال الدين ؛ فقد نفخ في الشرق الناعس روح النشاط ، ودبت بدعوته الثائرة الحياة في الأموات والجمادات ، وأما الزعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدامي ، والفكر المحلّق السامي ، والروح القلقة ، والعقل الكبير المستنير ، إنّ ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوء المكان والزمان ، وشخصية الإمام ، وجمال القرآن جواً خاشعاً رهيباً ، رقّ فيه القلب ، وفاضت فيه العين ، وكانت قراءة لو سمعها إبراهيم الخليل لأعجب بها ، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءة تقلق النفوس ، وتذيب القلوب ، وتعلو بها صيحة التكبير ، والتهليل في القبور ، وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتضح بها معاني أم الكتاب .

وندع محمد إقبال يحكي قصته ، قال : « قمتُ بعد الصلاة ، وقبّلتُ يده في أدبٍ ومحبةٍ وقد قدمني أستاذنا الروميّ إلى السيد ، وقال : إنّ جوالّ جواب في الآفاق ، لا يستقرّ في مكان ، ويحمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ، ولم يخضع لأحد ، فيعيش حرّاً طليقاً » .

وأقبل عليّ السيد جمال الدين ، فقال : حدّثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ، وينظرون بنور الله .

قلتُ : يا سيدي ! لقد رأيتُ في ضمير الأمة التي خلقت لتسخير العالم

معركة حامية ، وصراعاً دامياً بين الدّين والوطن ، لقد ضعُف الإيمانُ في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الأمل من سيطرة الدّين وسيادته ، فلجأت إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراك والإيرانيون سُكارى بصهباء أوربة ونشوتها ، وأصبحوا فريسةً كيدها ودهائها ، أصبح الشّرقُ خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشّيعيّةُ بيهجة الدّين وبهاء الملة .

سمعَ الأفغانيُّ كل ذلك في صبرٍ وأناة ، وفي تألّمٍ وحزن ، ثم انفجر قائلاً : إنّ الباقعة الأوربيّ هو الذي علّم أهلَ الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزالُ يبحثُ عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكنّه بذر في الشرق بذورَ الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصرَ والشامَ والعراقِ ، فتحرّزَ أيُّها المسلمُ الشرقيُّ ! من قيود الوطنية والقومية ، وكنْ « عالمياً آفاقياً » يعتبرُ كلَّ بلدٍ وطنه ، وكلَّ أرضٍ أرضه ، إنّ كنتَ تميز بين « الجميل » و« القبيح » فلا تربطَ نفسك وقلبك بالتراب والحجارة والقرميد ، إنّ الدين هو أن ينهض الإنسانُ من الحضيض ، ويعرفَ قيمةَ نفسه ، إنّ الذي عرف « الله » وآمن به ، لم يسهه هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات ، إنّ الحشيش ينبثُ على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكنّ النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب ، إنّ آدم لو خلق من ماء وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين . إنّ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة ، إنّ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنّ « الحرّ » لا يعرف القيود والحدود ، فإذا حُبس في « التراب »^(١) اضطرب وثار ، لأنّ الصقور لا تستريحُ ولا تهدأ في الأوكار .

إنّ هذه الحفنة من التراب ، التي نسمّيها « الوطن » ونطلقُ عليها أسماء « مصر » و« إيران » و« اليمن » ، بينها وبين أهلها نسبٌ ؛ لأنّ هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها ،

(١) يعني به « الوطن » .

وتنحصرُ في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسناتها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث أن تتحرَّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه . إنّ فطرتها بريئة من الشرق والغرب ، وإن كان مولدها وظهورها في الشرق .

أما الشيوعية يا عزيزي ! فإنَّ مصدرها ذلك الإسرائيليُّ ، الذي خلط الحقَّ بالباطل ، وآمن قلبه وكفر عقله ، إنّ الغربيين فقدوا القيم الرُّوحية ، والحقائق الغيبيَّة ، وذهبوا يبحثون عن الرُّوح في « المعدة » إنّ الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكنَّ الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إنّ الأخوة الإنسانية لا تقوم على وُحدة الأجسام والبطون ، إنّما يقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس .

إنَّ الملوكيَّة سمنٌ يطرأ على الجسم ، صدرها مظلمٌ خاوٍ ، ليس فيها قلبٌ خفّاق ، إنّها كالنحلة تجلس على كلِّ زهرة ، وتشرَّب منها الرُّضاب ، وتغادرها إلى زهرةٍ أخرى ، وتبقى هذه الزَّهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنها أوراقٌ بالية ، وحشائش ذاوية ، كذلك الملوكية تستحوذُ على الشعوب والأفراد ، وتمتصُّ منها دماءها ، وتركُّها أجساداً هامدة .

إنَّ « الملوكيَّة » و « الشيوعية » تلتقيان على الشره والنَّهامة ، والقلق والسَّامة ، والجهل بالله ، والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج »^(١) ، وعند الملوكية « خراج » ، والإنسانُ البائسُ بين هذين الحجرين قارورة الرُّجاج ، إنّ الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفنِّ ، والملوكية تنزع الروحَ من أجسام الأحياء ، وتسلبُ القوتَ من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادَّة ، وجسمُهما قويٌّ ناضر ، وقلبُهما مظلمٌ فاجر .

(١) يعني : تجرُّد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

ألا ! من يبلغُ « روسيا » أنَّ القرآن وتعاليمه في وادٍ والمسلمين في وادٍ ، لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت صلّتهم عن النَّبِيِّ ﷺ إِنَّ المسلم اليوم لا يؤسّس حياته ، ولا ينظّم مجتمعه على مبادئ القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدّين والدنيا ، لقد نلَّ عرش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربّع عليه ، واقتبس من العجم الملوكية وأساليها ، وبذلك تغيّر نظره إلى الحياة ، وتغيّر منهج تفكيره .

لقد حطّمت « القيصرية والكسروية » مُثَلَّ المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الرُّوسية ! من تاريخنا ، عليك بالثبات والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنام « الملوكية والوطنية » فلا تعودى إليها ، ولا تطوفي حولها مرّةً ثانية . إِنَّ العالم اليوم يطلب أمةً تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرّحمة والشّدّة ، فاقبسي من الشرق ديانته وروحانيته ، لقد أصبحت دياناتُ الإفرنج ودساتيرُهم عتيقةً باليةً ، فلا تعودى إليها مرّةً ثانيةً ، لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات « إلا الله » ، وهكذا تكملين مهمّتك ، وتُتمين رحلتك العظيمة ، إِنَّك تبحثين عن نظامٍ للعالم ، فعليك أن تبחי له عن أساسٍ مُحكمٍ ، وليس هو إلا الدينُ والعقيدةُ .

لقد محوت يا روسيا ! أساطيرَ الأولين أسطورةً أسطورةً ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورةً سورةً ، وما أدراك ما القرآن ؟ إِنَّه نعيٌّ للملوكية والشُّخرة ، وحتفٌ للاكتناز والأثرة ، وحياةٌ للصعلوك ، وبشرى للملوك ، إِنَّه يذمُّ الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويحثُّ على إنفاق كلِّ ما فضل عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة : ﴿ لَنْ نَسْأَلَكَ الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] إنه يحرمُّ الربا ، ويحلُّ البيع ، ويحثُّ على القرض الحسن ، وهل يتولّد من الربا إلا الشرورُ والفتن ، والقساوةُ والضراوةُ ؟ إِنَّ اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكلُّ ما في الدنيا ملكٌ لله تعالى ، ومتاعٌ

للعبد ، والإنسانُ أمينٌ في مال الله ، ووصيٌّ على أرضه ، وخلقهُ ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، قد انتكست رايةُ الحقِّ بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدنُ بظلمهم ، وعيبتهم . إنَّ المبدأ الذي يقرُّه القرآن : أنَّ قوت بني آدم من مائدةٍ واحدة ، وأنَّ الأسرةَ الإنسانيةَ كلُّها كنفسٍ واحدة^(١) .

إنَّه لما قامت دولةُ القرآن ، اختفى الرُّهبان والكهَّان ، أقول لك ما أوْمَنُ به وأدين : إنه ليس بكتابٍ فحسب ، إنَّه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان ، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم . إنَّه ظاهرٌ ومستترٌ ، كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطقٌ ، إنَّه يحتوي على جدود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية .

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ودستوراً جديداً ، فجديرٌ بك أن تنظري إلى العالم بنور القرآن نظراً جديداً^(٢) .

والآن إليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً :

يقول إقبال :

وتجليُّه جلياً قذ رأى ^(٣)	الترابُ كلُّ مخلوقٍ شأى
والوجودُ قَنَصْتُ أحبولتي ^(٤)	أبكانَ أم يكونُ سقطتي
إنني منها وإياها مَلَكْتُ ^(٥)	أنا في الزرقاء لي شقاً شققْتُ
أم أراها منه في الصِّدرِ ارتمت	أفؤادي في حنوِّ عانقت

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِمُكُمْ إِلَّا كَفِّينَ وَحِدَةً ﴾ [لقمان : ٢٨] .

(٢) مأخوذ عن « روائع إقبال » لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني التُّدري ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣) شأى : تفوَّق على غيره .

(٤) السَّقطة : المرَّة من الوقوع والتردِّي . وَقَنَص : اصطاد . والأحبولة : المصيدة .

(٥) الزرقاء : السماء .

لست أدري كنه ما تحت البصر
 فرأيت عالماً ما إن رأيت
 من ثرانا إنّه خيرٌ وأقدم^(١)
 ليس للإنسان فيه من أثر^(٢)
 ليس للفطرة من نقد حديد^(٣)
 في الجبال جبذا هذر العباب^(٤)
 والأذان فاض منه سمعنا!^(٥)
 أرضنا والأرض في فيء الإخاء^(٦)
 ذلك العالم يوماً فيه حل
 ويفجر وهو يشكو ، رنة^(٧)
 كلهم في قوميه هذا العلي
 بايزيد والجنيذ عندهم^(٨)

ما الذي يخفى وما شيءٌ ظهّر
 في سماء غيرها طيراً خفقت
 عالمٌ بالبرّ والدّماء مُفعم
 عالمٌ من بغضِ أرماءٍ ظهّر
 ما عليّ صورةٌ لوح الوجود
 قلتُ للرُّوميّ يا حسنَ اليباب
 أينَ آثارُ الحياة هاهنا ؟
 قال لي « هذا مقامُ الأولياء
 آدمٌ عن خُلده حينَ ارتحل
 ورأى هذا الفضاءَ زفرتة
 زائروه من خواصِّ الكمّل
 بوسعيدٍ والفضيلُ بينهم

(١) الدّماء : البحر .

(٢) الأرماء : جمع رمي ، هو السّحابة الصّغيرة .

(٣) النقد الحديد : النقد الشديد الحاد .

(٤) اليباب : الخراب . والعباب : الموج .

(٥) يعجب الشاعر لوجوده في أرض خراب ، ومع ذلك يسمع صوت المؤذن .

(٦) الفيء : الظلّ .

(٧) الرنة : الصّوت ، أو صوت القوس .

(٨) أبو سعيد بن أبي الخير من مشاهير المتصوفة في أوائل القرن الخامس الهجري . وممن

أذاعوا بين الناس في خراسان نظرية وحدة الوجود . وله رباعيّات يعبر فيها عن مذهبه الصّوفي وهو رقيق المعاني أصيل الشاعرية . والفضيل شيخ الحرم المكي كان في الحديث ثقة ، أخذ عنه خلق كثير منهم الشافعي . وهو في عداد زهاد المسلمين كانت وفاته عام ١٨٧هـ وبإيزيد أو أبو يزيد البسطامي أوّل صوفي نسبت إليه الشطحات ، وأراد ابن تيمية أن يدفع عنه غلوه في شطحاته ، وتوفي عام ٢٦١هـ . أما الجنيذ فصوفيّ بغداديّ مرموق المنزلة من أهل الصّحو لا أهل الشكر ، أي أنّه لم يكن من غلاة =

قُمْ مَعِيَ كَيْمَا نَصَلِي رَكَعَتَيْنِ
وَنَذَابُ بَرَهَةَ أَوْ بَرَهَتَيْنِ «

إِنَّمَا الرُّومِيُّ دُومًا فِي الْحَضُورِ مَشْرِقُ الطَّلَعَةِ ذَوْقًا فِي الشَّرُورِ
قَالَ : « إِنَّ الشَّرْقَ قَطُّ مَا وَلَدُ مِثْلَ هَذَيْنِ فَقَدْ حَلًّا الْعُقْدُ
سَيِّدُ السَّادَاتِ مَوْلَانَا جَمَالِ مِنْهُ يَحْيَى الطَّيْنِ وَالصَّخْرُ الْمَقَالِ
وَرِئِيسُ التُّرْكِ مَنْ يُدْعَى حَلِيمَا كَانَ فِي فِكْرٍ وَفِي جَاهٍ عَظِيمَا
مَعَ هَذَيْنِ الصَّلَاةُ طَاعَةٌ وَجَزَاءُ مَنْ يُصَلِّي جَنَّةٌ

سُورَةُ النَّجْمِ تَلَاهَا شَيْخُنَا غَمَرَ الصَّحْرَاءُ صَمْتٌ هَاهُنَا
وَيَثِيرُ اللَّحْنُ وَجَدًّا فِي الْخَلِيلِ وَكَذَا فِي عَمَقِ رُوحِ جِبْرِئِيلِ
وَيَذُودُ الصَّبْرُ عَنْ قَلْبِ صَبُورِ يَرْفَعُ « إِلَّا اللَّهُ » مِنْ كُلِّ الْقُبُورِ
يَهَبُ النَّارِ دَخَانَ الرَّفْرِ وَلِدَاوُدَ ضِرَامَ السَّكْرَةِ
وَبِذَا اللَّحْنِ الظُّهُورُ لِلْغِيَابِ وَارْتِفَاعِ الشُّرِّ عَنْ أُمَّ الْكِتَابِ
وَالصَّلَاةُ بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ نَهَضْتُ وَيَدَيْهِ فِي خَشُوعٍ قَدْ لَثَمْتُ
قَالَ « هَذِي ذَرَّةٌ تَطْوِي الْفَلَكَ عَالِمٌ مِنْ حُرْقَةٍ فِيهَا اعْتَرَكُ^(١)
ذَاتُهَا مِنْهَا تَلَقَّتْ نَظْرَةً لَمْ تَهَبْ قَلْبًا وَكَانَتْ حُرَّةً
وَحَيْثُ فِي الْوُجُودِ سَيْرُهَا زَنْدُهُ رُودٌ إِنَّنِي سَمَّيْتُهَا^(٢)

= المتصوِّفة ، ويعبُدُ أوَّلَ المتكلمين في التوحيد ببغداد ، وكانت وفاته عام ٢٩٧هـ .

(١) اعترك : اختلج واضطرب .

(٢) زنده رود في الفارسية بمعنى النهر الحي ، وهو اسمُ نهرٍ عظيمٍ يجري بمدينة أصفهان في إيران . ولكن الشاعر أخذ عن الشاعر الألماني كوته في منظومة له بعنوان « نشيد محمد » وقد عرفها إقبال وترجمها ، وفيه يشبه الشاعر الألماني روح النبوة بالنهر المتدفق المزبد ، كما قال المستشرق الإيطالي باوزاني .

الأفغانيُّ

زنده رود ، تِلْكَ دَنِيَانَا تَكَلَّمْ أَرْضَنَا صِيفٌ أَوْ سَمَانَا أَنْتَ أَغْلَمْ
يَا تُرَابِيَّأ سَمَاوِيَّيِ الْبَصْر أُمَّةُ الْإِسْلَامِ عَنْهَا مَا الْخَبِرْ؟

زنده رود

أُمَّةٌ قَدْ دَوَّخَتْ كُلَّ الْأُمَمِ فِيهَا فِكْرُ الدِّينِ وَالْأَوْطَانِ عَمِ
وَتَمَوَّتَ الرُّوحُ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ بِأَسْهَاهَا مِنْ قُوَّةِ الدِّينِ الْمَبِينِ
الْفِرْنَجُ الْمُسْلِمِينَ أَسْكُرُوا وَبِشَصِّ فِي الْخُلُوقِ جَرَّروا^(١)
مَنْ نُفُوذِ الْغَزْبِ فِي الشَّرْقِ الْخَرَابِ وَالشُّيُوعُ لَانْحَطَاطِ الدِّينِ بَابِ

الأفغانيُّ

الدِّينِ وَالْوَطَنِ

مَكْرُرٌ لَوْرِدِ الْغَزْبِ كَمْ أَعْيَا الْفَطْنَ فَطَّنَ الْقَوْمَ بِمَعْنَى لِلْوَطَنِ^(٢)
مَرْكَزاً بِيغِي وَأَنْتَ فِي النَّفَاقِ اِنْسَ حَتَّى الشَّامِ ، دَغْ أَمْرَ الْعِرَاقِ
أَنْتَ إِنْ أَدْرَكْتَ مَا خَيْرٌ وَشَرٌّ فَلْتَفُكْ عَنْكَ قِيداً مِنْ حَجَرِ^(٣)
مَا هُوَ الدِّينُ؟ الْقِيَامُ مِنْ ثَرِي ذَاتَهُ الْقَلْبُ الطُّهُورُ كِي يَرَى
« اللهُ هُوَ » مِنْ قَالِهَا قَوْلَا يَجُود لَمْ تَعُدْ تَحْوِيهِ هَاتِيكَ الْحُدُودُ^(٤)

-
- (١) الشص: حديدة معقوفة يُصَادُ بِهَا السَّمَكُ حِينَ يَتَعَلَّقُ مِنْ فَمِهِ . يَقُولُ إِقْبَالُ : إِنَّ الْأُورِيَيْنِ خَدَعُوا الْعَرَبَ ، وَالْفَرَسَ ، وَالتَّرِكَ ، وَجَذَبُوهُمْ إِلَيْهِمْ كَمَا يَجْذِبُ الصِّيَادُ السَّمَكَ .
(٢) فطن : فهم .
(٣) يريد بالحجر المنازل التي تتألف منها المدن .
(٤) يجود : يحسن .

قَشَّةٌ فِي الْأَرْضِ قَامَتْ مِنْ تُرَابٍ وَيْلٌ لِرُوحٍ فِي التُّرَابِ مِنْ تَبَابٍ^(١)
يُخْلِقُ الْإِنْسَانَ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ لَوْنُهُ كَالْوَزْدِ مِنْ مَاءٍ مَعِينٍ^(٢)
بَشَرَ لِلْإِنْسَانِ فِي الطِّينِ الدَّوَامِ إِنَّ بِهِ لِمِ يَغْلُ ذِيكَ الْمَقَامِ
يَا حَكِيمُ ، الرُّوحُ تَسْمُو عَنْ جِهَاتٍ ضَاقَ حَرٌّ بِقِيودِ مُثَقَلَاتِ
مِنْ ظِلَامِ الْأَرْضِ حَرٌّ قَدْ يَتَوَزُّ
مَا كَفَارٍ فَعَلْتَ تِلْكَ الصَّقُوزِ !

قَبِضَةُ الطِّينِ تَسْمِيهَا الْوَطْنِ دَعَكَ مِنْ مِضَرَ وَفُزْسٍ وَالْيَمَنِ^(٣)
بَيْنَ أَوْطَانٍ وَقَوْمٍ نَسَبَةٌ إِنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا نَبْتَةٌ
أَنْتَ إِنْ أَمَعَنْتَ فِي هَذَا النَّظَرِ دَقَّةً أذْرَكْتَ دَقَّتْ كَالشَّعْرِ
فَمَنْ الشَّرْقِ ذُكَاءٌ تَطْلُعُ بِاجْتِرَاءٍ وَتَجَلُّ تَسْطَعُ^(٤)
فِي عَذَابٍ وَاصِبٍ مِنْ نَارِ قَلْبِ عِنْدَ فَكِّ الْقَيْدِ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبِ^(٥)
بِالتَّجَلِّيِ أَشْكِرَتْ فِي شَرْقِهَا أَفْقاً مَا أَفَلَّتْ مِنْ غَرْوِهَا
مِنْهُمَا قَدْ قَطَعْتَ أَصْلَ السَّبَبِ
إِنَّهَا لِلشَّرْقِ لَكُنْ فِي النَّسَبِ^(٦) !

الشُّبُوعِيَّةُ وَالرُّأْسَمَالِيَّةُ

صَاحِبُ « الْمَالِ » سَلِيلٌ لِلْخَلِيلِ وَبَلَا جِبْرِيلَ أَضْحَى كَالرَّسُولِ^(٧)

-
- (١) التَّبَابُ : الْهَلَاكُ وَالْخِرَابُ .
 - (٢) الْمَعِينُ : الْجَارِي .
 - (٣) الْفُرْسُ هُنَا بِمَعْنَى بِلَادِ الْفُرْسِ .
 - (٤) ذُكَاءٌ : الشَّمْسُ .
 - (٥) الْوَاصِبُ : الدَّائِمُ .
 - (٦) يَقُولُ : إِنَّ الشَّمْسَ قَطَعْتَ كُلَّ صِلَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .
 - (٧) يَرِيدُ كَارِلَ مَارِكْسَ صَاحِبَ كِتَابِ رَأْسِ الْمَالِ .

مبطلٌ ، في الرِّينِ حَقّاً يُضْمَرُ مؤمنُ القَلْبِ بعقلِ كافرٍ
 إنَّ أهلَ الغربِ أفلاكاً أضاعوا طلبوا الرُّوحَ بيطنٍ حينَ جاعوا!
 ما استمدَّ الرُّوحَ حسناً من جَسَدُ وعلى الجِسمِ الشُّيعيِّ اعتمَدُ
 قولُه في كُفْرِهِ هذا المُبين ليس إلا في مساواةِ البُتونِ

في صميمِ القَلْبِ ذِيَاكَ الإخاءِ

ما احتوى أصلاً له طينٌ وماءٌ^(١)

الجسومُ بالثَّراءِ سُمِّنَتْ والضُّدورُ مِنْ قلوبِ جُرَدَتْ^(٢)
 يالَهُ الرُّبُورُ يرعى وردَهُ ثم يمضي ، نالَ مِنْهُ شَهْدَهُ
 إنَّ عُضْنَ الوَزْدِ هذا حُسْنُهُ وله البلبُلُ هذا لَخْنُهُ^(٣)
 عَن جِمالِ راقٍ فَلَطَطُوا النَّظْرُ أقصِدِ المعنى وَدَعْ عَنكَ الصُّورُ

أن تَرى لِلقَلْبِ موتاً يَضْعُبُ

أن تَسْمِي الطِّينَ وَزْدًا يَكْرُبُ^(٤)

يَمْلِكَانِ الرُّوحَ نَدَّ صَبْرُهَا تَخَدَعُ النَّاسَ وَيَبْدُو كُفْرُهَا^(٥)
 لهما العيشُ الخَروجُ والخَرَاجُ حَجْرَانِ ، والورىُّ هذا الرُّجَاجُ^(٦)
 هذه ديناً وعلماً حَطَمَتْ تِلْكَ روحاً ورغيفاً حَرَمَتْ
 لهما في الماءِ والطِّينِ الغَرَقُ أَظْلَمَ القَلْبُ وذو الجِسمِ اثْتَلَقُ

والحيَاةُ الاحتِراقُ والعَمَلُ

(١) يقول : إنَّ الإخاءِ في الروح لا في الجسد .

(٢) يراد بالثراء الرأسمالية .

(٣) درج شعراء الفرس على قولهم : إنَّ البلبِلَ يَعْشُقُ الوردة ، ويغني لها ، وهم يشبهون بالبلبل عاشق الذات الإلهية .

(٤) كل في الفارسية بفتح الأول بمعنى الوردة وبكسره بمعنى الطين ، ولبلغاء الفرس ولوع بذكر هذين الاسمين على أنهما رمز للنقيضين . ويكرب : يشير الحزن .

(٥) يتحدث الشاعر عن الشُّيعية والرأسمالية . ونَدَّ : بعد .

(٦) يريد بالخروج والخراج : الإنتاج ودفع الضريبة .

وَالشُّوَيْدَاءُ لِتَلْقَى فِي الْوَحْلِ^(١)

سعيد حليم باشا^(٢) الشرق والغرب

إِنَّ فِي الْغَرْبِ الذُّكَا أَوَّلُ الْحَيَاةِ
وَبِعَشْقِي يَعْزِفُ اللَّهُ الذُّكَا
وَإِذَا الْعِشْقُ الذُّكَا صَادِقًا
أَنْهَضَنَّ الْعَالَمَ الثَّانِي اضْنَعَنَّ
لِلْفِرْنَجِ شَعْلَةً قَدْ بُلَّكَتْ
جُرْحُوا لَكِنْ بَحْدٌ سَيَفْهَمُ
نَشْوَةٌ مِنْ كَرْمِهِمْ لَا تَطْلُبُنَّ
لِلْحَيَاةِ النَّارُ فَلتُشْعَلَنَّ بِنَارِكَ

اضْنَعِ الْعَالَمَ وَازْفَعِ مِنْ مَنَارِكَ
و « كَمَالٌ » حِينَ نَادَى بِالْجَدِيدِ
لَيْسَ لِلْكَعْبَةِ تَجْدِيدُ الْحَيَاةِ
مَا تَعَنَّى التُّرْكُ مَا قَالُوا نَشِيدًا
قَالَ : إِنَّ الْمَخَوَ لِلْعَهْدِ الْعَهِيدِ^(٥)
إِنْ أَتَى الْكَعْبَةَ غَرْبِي بِلَاثِ !
بَلْ قَدِيمُ الْغَرْبِ سَمَوُهُ الْجَدِيدَا

(١) الشُّوَيْدَاءُ : حَبَّةُ الْقَلْبِ .

(٢) هُوَ سَعِيدُ حَلِيمٍ بَاشَا الصَّدْرِ الْأَعْظَمِ الَّذِي قَتَلَ عَامَ ١٩٢١ فِي رُومَا . وَلَقَدْ فَرَّضَ إِجْلَالَهُ حَتَّى عَلَى خُصُومِهِ لِإِسْدَادِ رَأْيِهِ ، وَرِجَاحَةِ عَقْلِهِ . وَالْجَامِعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَفْغَانِي أَنْ كَلَّمَ مِنْهُمَا صَاحِبَ نَزْعَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ .

(٣) الصَّيْدُ : مَا يَصَادُ .

(٤) الْكُرْمُ : شَجَرُ الْعَنْبِ .

(٥) كَمَالٌ هُوَ مِصْطَفَى كَمَالٍ أَوْ كَمَالِ أَتَاتُورِكِ رَائِدِ تَرْكِيَةِ الْحَدِيثَةِ . وَالْعَهِيدُ : الْقَدِيمُ .

نَفْسٌ آخَرُ فِيهِمْ مَا خَفَقَ
 وافقوا العالمَ هذا لا جَرَمَ
 فِي الصَّمِيمِ طُرْفَةٌ لِلْكَائِنَاتِ
 إِنَّ حَيَّ الْقَلْبِ خَلَاقَ الدُّهُورِ
 مَسْلَمًا إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلِ مَنِيرِ
 كَمْ دُنَى تَظْهَرُ فِيهِ مِنْ سُسُورِ
 إِنَّ دُنْيَا مِنْهُ تَكْفِي عَضْرَبَا
 يَوْمَنْ الْإِنْسَانُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
 وَإِذَا دُنْيَاهُ رُئِيَ ثُوبَهَا
 عَالَمٌ فِي الْقَلْبِ مِنْهُمْ مَا انْبَثَقَ
 فِيهِ ذَابُوا شَمْعَةً تَحْتَ الصَّرَمِ^(١)
 لَمْ تَكُنْ تَقْيِيدَ تَقْوِيمِ الْحَيَاةِ^(٢)
 وَمَنْ التَّقْلِيدَ كَانَ ذَا التُّفُورِ
 فِي الْكِتَابِ انظُرْ وَفِي هَذَا الضَّمِيرِ^(٣)
 وَالْعُصُورُ مَرَّهَا تَلَسَّو الْعُصُورِ
 إِنْ عَقَلْتَ أَنْتَ فَاجْعَلْهَا لَنَا
 كُلُّ دُنْيَا يَزْتَدِيهَا مِثْلُ ثُوبِهِ
 قَدَّمَ الْقُرْآنُ دُنْيَا غَيْرَهَا^(٤)

زنده رود

زورقُ نَحْنُ بِلا هَدْيِ جَرِي
 عَالَمُ الْقُرْآنِ أَيْنَ؟ مَنْ دَرِي

الأفغانيُّ

عَالَمٌ فِي صَدْرِنَا هَذَا اخْتَفَى
 لَيْسَ فِيهِ أَيُّ لَوْنٍ أَوْ دِمَاءِ
 فِي انْتِظَارِ « قُمْ » لِإِنْسَانٍ غَفَا
 مَا لَغْرَبٍ مَا لَدَيْهِ مِنْ بَهَاءِ

(١) الصَّرَمُ : الحطب المشتعل والمراد به هنا النار .

(٢) الطُّرْفَةُ : الشيء العجيبُ النادر .

(٣) الْكِتَابُ : الْقُرْآنُ .

(٤) رَتَّ الرَّجُلِ ثُوبَهُ : جعله رثاً أي غير صالح .

ليس فيه من ملوك أو عبيد مثل قلب في خلوة من حدود^(١)
 عالم الحُسن ، ومن فيض النظر بذره ألقى بقلب من عمز^(٢)
 سرمدئ في أحداث تدوم محكمات فيه تهدي من يروم^(٣)
 لا يهاب باطن فيه التعيز وله الظاهر دوماً في التطوؤز
 بين جنبيك ، عليك بالنظر
 محكمات ، ألق سمعاً للخبر^(٤)

مُحْكَمَاتُ الْعَالَمِ الْقُرْآنِيِّ خِلافةُ الْإِنْسَانِ

أثرُ العِشقِ بدا في العالمين ويرى في المرءِ منَّا رأي عَيْن
 ليس سُرُّ العِشقِ من دنيا الرَّحِمِ ما إلى سامٍ وحامٍ يَحْتَكِمُ^(٥)
 كوكبٌ ، ما من شروقٍ أو غروبٍ لا ولا يَذري شمالاً من جنُوبٍ
 قول ﴿إني جاعلٌ﴾ تقديره يئنّ أرضٍ وسما تفسيره^(٦)

- (١) يشبه هذا العالم بقلب المؤمن الذي يخلو من الحدود .
 (٢) يذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم بعد أن ألقى نظرة على آية قرآنية ، وهو بهم بقتل أخته التي كانت قد أسلمت سراً .
 (٣) السّرمدئ : الدائم الخالد . والمحكمات : الآيات التي أحكمت فلا تمس حاجة سامعها إلى تأويلها لبيانها كقصص الأنبياء . ويقابلها المتشابهات .
 (٤) أي أن هذا العالم في داخلك وبين جنبيك . فانظر في نفسك واستمع إلى الآيات المحكمات .
 (٥) الرَّحِم : القرابة . وسام أحد أبناء نوح ؛ وينسب إليه الجنس السّامي ، وكذلك حام وهو أبو الشّودان .
 (٦) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

نور دُنْيَانَا وناراً أَوْجَدَا
والمِدَادُ وَالكِتَابُ وَالْقَلَمُ
مُلْكُهُ مَا فِيهِ حَدٌّ أَوْ نُعُوزُ
واعْتِدَالٌ فِيهِ قَاسَ الْمُمَكِّنَاتِ
قَلْبُهُ قَدْ أَغْرَقَتْ فِيهِ الدُّهُورُ
هَذِهِ الدُّنْيَا لَهُ لَمْ تَتَسَيَّعْ
وَاخْتَلَى يَوْمًا فَجَبْرَائِيلُ نَائِي^(١)

وَعَنِ الْأَفْلَاقِ أَعْلَى قَدْرَهُ

وَالْحَمِيدُ مَنْ تَغْنَى شُكْرَهُ

أَنْ تُرَى اثْنَيْنِ ، وَفَرَّدَ مِنْ عَشِيقَتَنَا
يَزُشْمَانِ شَوْقَ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ^(٢)
طَبَعُهَا لَوْحٌ لِأَسْرَارِ الْحَيَاةِ^(٣)
جَوْهَرٌ فِيهَا أُنْمٌ خَلَقْنَا
وَبَثَّ الْعَيْشِ فِي وَهْجِ الشُّعُورِ^(٤)
لَمْ يَلْخِجْ جِسْمٌ وَرُوحٌ لِلنَّظَرِ
رَسَمْتَنَا وَأَجَادَتْ رَسْمَنَا

إِنْ حَبَاكَ اللَّهُ عَقْلًا لِلتَّفَكُّرِ

طَهَّرَ النَّفْسَ بِتَقْدِيرِ لَهَا أَنْظُرْ

يَكْشِفُ السَّرَّ الْخَفِيِّ قَوْلَنَا

الْحَيَاةُ مِنْهُ كَانَتْ وَالرُّدَى
الإِمَامُ وَالصَّلَاةُ وَالْحَرَمُ
غَيْبُهُ يُمَسِّي رُويِدَا ذَا الْحَضُوزِ
مِنْهُ كَانَ اغْتِبَارُ الْكَائِنَاتِ
يَالَهُ بَحْرًا بِبَلَا شَطِّ يَفُورِ
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ دُنْيَا قَدْ وَسِيعُ
وَتَجَلَّى فإِذَا نُورُ السَّمَاءِ

مَا الْحَيَاةُ يَا بَصِيرٌ هَلْ فَهِمْنَا
يَزْبِطُ الْجَنْسَيْنِ مَوْصُولُ الصَّلَاتِ
تُشْعَلُ الْمَرْأَةُ نِيرَانَ الْحَيَاةِ
أَضْرَمَتْ فِي الرُّوحِ مِنْهَا نَارَنَا
مَمَكِنَاتُ الْعَيْشِ مِنْهَا فِي الضَّمِيرِ
إِنْ يَغِيبُ عَنْ هَذِهِ النَّارِ الشَّرَرُ
مَا لَنَا مِنْ قِيَمَةٍ ، مِنْهَا لَنَا

أَفْسَدَ الْإِيمَانَ فِيكَ عَضْرْنَا

= قَلَمُونَ ﴿ [البقرة : ٣٠] ومعنى استخلاف الله آدم في الأرض أنه سيكون له سلطانٌ عليها ، وسيتصرف في موادها ليجعلها ملائمةً لحاجاته .

(١) يقول : إن جبريل لم يقتحم عليه عزله .

(٢) الجنسان : المراد بهما الرجل والمرأة .

(٣) اللوح : ما يكتب فيه .

(٤) الوهج : اشتعال النار .

في الجسوم الخلقُ نارٌ تَتَّقِدُ
 من يَنَلُ من هذه النَّارِ النَّصِيبَا
 إنَّه ذو الرأى فيما قد عَمِلُ
 مُدَّةً في الغارَ ظلَّ المصطفى
 رَسَمْنَا قد أغرقوا في مُهَجَّتِه
 وعلى إنكار ربِّ إن قَدَرْنَا
 لو أنارت فيك روح كالكليم

فالخيالُ فيك تحيي عزلةً

ثم تأتي بعد بحثٍ ضالَّةٌ^(٢)

من مقاماتِ لنا علمٌ وشوق
 بهجةٌ للعِلمِ تحقيقٌ دقيق
 صاحبُ التَّحقيقِ رامَ المُنجلي
 عينُ موسى رؤيةَ الدُّنيا أرادت
 ﴿لن تراني﴾ إنَّها المعنى الدَّقِيق
 إن تُلخ للعينِ آثارُ الحياة
 هذه الآفاقُ بالعينِ ازْمُقَنُ

لهما فيما جرى لِلقُومِ حَقُّ
 متعةٌ لِلعُشوقِ خَلقٌ قد يَلِيقُ
 صاحبُ الخَلقِ بذاتٍ يَخْتَلِي
 وإليها رغبةَ التَّحقيقِ سَاقَتْ
 وَلتَضِعُ فيه فذا البحرُ العَمِيقُ^(٣)
 تستمدُّ النبعَ جوفَ الكائنات
 وتجلُّي ربُّها لا تَطْلُبُنُ

(١) اغْتَمَلَ : عَمِلَ عملاً يتعلَّق به دون سواه . والمبتكر : المجدِّد لا يقلِّد غيره .

(٢) الضَّالَّةُ : الناقصة الضائعة التي لا يعرف لها صاحب . والمراد هنا ما يراد معرفته .

(٣) الشاعر يريد قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ

أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ وَلَكِن نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَدَ رَبُّهُ
 لِلْجَبَلِ جَمْعًا دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وقد تضاربت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية

الكريمة . وفي شعرٍ لجلال الدين الرُّومي : أن الله خالقُ الوجود من العدم ، والرؤية
 لا تكون إلا لما ظهر وخلق .

خلوة تحفظ كل من صنع
جوهرأ في خاتم كانت لمع^(١)

الحكمُ الإلهيُّ

إنَّ عبدَ الله لا يبغى المقاما
إنَّه حرٌّ وذو نفسٍ زكيَّة
دينه والعرفُ من ربِّ كريم
جازَ عقلٌ في الغرورِ حدَّه
خيرُ كلِّ النَّاسِ يبغى وحيَ ربِّي
ويكونُ السُّلمُ أو حتَّى المصاف
وإذا الإنسانُ أضحى أمرا
وإذا الإنسانُ أضحى أمرا
ماله عبدٌ ولا كانَ الغلاما
ملكه هذا من المولى عطيَّة^(٢)
خلوة والمؤ من ربِّ عظيم
وله النَّفعُ تمنى وخذَه^(٣)
ويرى الخَيْرَ نداءً كي يلبِّي
لا يراعي منصفٌ بل لا يخاف^(٤)
كانَ للمسكينِ حتماً قاهرا
ومن القهَرِ صُدُورُ أيِّ أمر
ولغير الله أمرٌ مخضٌ كُفر
أمراً بالأمرِ زكى عقله
إنَّ صقراً في ذرى جوٍّ يطير
قهره القانون ، مفقودُ البصيرة
من قواين بنى حصناً له
صعوة في أمره قد يستشير^(٥)
يضع الإثمَد في العينِ الضَّريرة^(٦)

(١) يقول : إنَّ الخلوة تحمي كلَّ من أوجد شيئاً ، وهي فصٌّ من الجوهر لخاتمه .

(٢) الزكية : الطاهرة .

(٣) جاز : تجاوز .

(٤) المصاف : الموقف في القتال .

(٥) الذُّرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء . والصَّعوة : أنثى الصَّع وهو عصفور صغير .

(٦) الإثمَد : الكحل .

صاحبُ الأرضِ البدين ، كان شِرْعه
والتَّحِيلُ زارعٌ ما اقتاتَ زَرْعه^(١)

بشَسَ ما في الغربِ حقاً حُكْمُهُمْ
يسحرونَ ، خَدَعُ دَهْرٍ خَدَعُهُمْ
يَسْرِقُونَ ، ذا ثرِيٍّ ذاكَ كَادِحِ
يَكْشِفُ السَّرَّ جَلِيًّا قَوْلُنَا
جَفَنُهُمْ في المالِ حُبًّا قد جَمَدَ
ويلهم ! خوفاً على حُلُوِّ الثَّمَرِ
ولكَيْلا يبعثُ العودُ الرِّينَا
عِنْدَهُمْ من كلِّ فنٍّ كَثْرَةٌ
كُلُّ ما حَصَلَتْ منهم عَبْرَةٌ

يا أسيراً كانَ مِنْ تَقْلِيدِهِمْ
الكتابَ اقْرَأ ، وَعُدْ من أسْرِهِمْ^(٦)

الأرضُ ملكُ اللهِ

إنَّما الإنسانُ في شرقٍ وِغَرْبِ
كعروسٍ ولها كُنَّا الرُّجَالا
لامتلاكِ الأرضِ في حربٍ وِضَرْبِ
سَحَرْتُنَا ، قَطُّ ما نلنا الوِصَالا

(١) البدين : السَّمين . والشَّرْعةُ : الشريعة . واقتات الشيء : اتخذه قوتاً .

(٢) الصُّور : ما ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة ليعث من في القبور .

(٣) النرد : شيءٌ معروفٌ يلعب به مع تحريك قطعٍ من العاج على لوحٍ من الخشب .

(٤) كشح له بالعداوة : أضمرها له .

(٥) جمدت العين : قل دمعها ، أو انقطع . وآده الحمل : أنقله .

(٦) الكتاب : القرآن الكريم .

ضَمَّنَتْ كُلَّ خَدَاعٍ دَلَّهَا
 أَيُّ شَيْءٍ رُمْتَ مِنْ ذَلِكَ الْحَجَرِ
 وَعَنِ الْيَقْطَانِ مَنْ نَامَ افْتَرَقَ
 هَذِهِ الْأَرْضُ مِنْحَاهَا مَتَاعًا
 مَالِكَ الْأَرْضِ إِلَيْكَ الْقَوْلُ عَنْهَا
 وَالْإِمَامَ لَيْتَ شِعْرِي تَبْقِيَانِ
 طُفَّ بِأَفْلَاكِ السَّمَاءِ كَالْعُقَابِ
 فِي هَوَاهَا إِنَّنَا لَسْنَا لَهَا^(١)
 إِنَّهُ الْبَاقِي وَأَنْتَ فِي سَفَرِ^(٢)
 وَمَعَ السَّيَّارِ ضِدًّا مَا اتَّفَقَ^(٣)
 مِنْ شَرَاهَا مِنْحَةً يَوْمًا وَبَاعًا^(٤)
 اتَّخَذَ رِزْقًا وَقَبْرًا ثُمَّ دَعَاهَا^(٥)
 قَدْ تَظَلُّ وَتَغَيْبُ عَنْ عِيَانِ^(٦)
 كُنْ طَهْرًا وَاجْتَنِبِ رِجْسَ التُّرَابِ^(٧)

إِنَّمَا الْأَرْضُ لِرَبِّي ، ذَاكَ ظَاهِر

كُلُّ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا فَهَوَ كَافِر

لَمْ أَقْلُ دَعُ عَنْكَ هَاتِيكَ الدِّيَارَا
 أَرَفَعَنْ عَنْ جَوْهَرِ الْأَرْضِ التُّرَابَا
 فِي الْجِبَالِ اضْرِبْ بِفَأْسِ صَخْرَهَا
 وَطَرِيْقُ آزَرَ فَلْتَجْتَنِبْهَا
 بِالْجَمَالِ لَا تَصِلْ قَلْبًا سَقِيمَا
 عَالِمًا تَمْلِكُ مِنْ حَسَنِ أَنْارَا
 التَّقْطُ حَبَّ النُّجُومِ طِرْ عُقَابَا
 وَبِنُورِ مِنْكَ أَوْقِدْ نَارَهَا
 وَكَمَا تَهْوَى لَكَ الدُّنْيَا أَقْمَهَا^(٨)
 أَعْطِهَا قَلْبًا لَهَا كَانَ الْحَرِيمَا^(٩)

(١) الدَّل : الدلال . ويقول : إنها لا تقبل عشاقها .

(٢) الحجر هنا رمز إلى الدار والوطن . والإنسان سوف يرحل عن دنياه وما البقاء إلا لوطنه وداره من بعده .

(٣) السَّيَّار هو الكوكب السيار ، وضدّه الكوكب الثابت .

(٤) شَرَى الشَّيْء : اشتراه . والمنحة لا تباع ولا تشتري .

(٥) يقول : حسبك أن تجني من الأرض رزقك ، وتحفر فيها قبرك .

(٦) ليت شعري : ليتني أشعر أي ليتني أعلم .

(٧) العقاب : من جوارح الطير . والرَّجْس : القذر .

(٨) آزر : هو أبو إبراهيم عليه السلام . وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٩) الحریم : كل موضع تلزم حمايته . يقول : إنَّ القلب يحيطُ بتلك الأرض وتلزمُ حمايتها وحمايته .

أَمْوَتْ؟ مَا لَنَا مَالٌ وَقَبْرُ أَنْضِيعُ؟ وَلَنَا أَهْلٌ وَوَفْرٌ^(١)
« لا إله » وَلَهَا الْقَلْبُ اتَّسَعُ عَالِمًا فِي الذَّاتِ إِنْسَانٌ جَمَعُ
كَيْفَ فَقْرُ الْجُوعِ أَوْ فَقْرُ الْعُرَاةِ
حُكْمُ سُلْطَانٍ ، فَدَعَّ ذِكْرَ الْعُفَاةِ^(٢) !

-
- (١) الوفير : الكثير من المال .
(٢) يقول : إِنَّ الْفَقْرَ هُوَ حَكْمُ الْحَاكِمِ . وَالْعُفَاةُ : السَّائِلُونَ وَالْفُقَرَاءُ . وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا الرُّهَادُ .

القسم الثالث

فَأَنكَرُكُ زُحَل

الحكمةُ خيرٌ كثير

قال ربِّي إنَّها الخَيْرُ الكَثِيرُ
ولحرفٍ وَهَبَ العِلْمُ الجناحا
والى الأفلاكِ عِلْمٌ قَدْ طَلَعُ
لِلوَجُودِ ، ما يرى تَفْسِيرُهُ
لِلصَّحارى قال جودي بِالْحَبَابِ
عِنه دوماً على ما قَدْ جَرَى
كَنَبِي ، رَبِّه إِمَّا ذَكَر
وَبَغَيْرِ القَلْبِ عِلْمٌ كانَ شَرًّا
مِنَ دخانِ عالِمٍ أَضحى كَفِيفاً
الفيافي والرِّياضُ النَّاضِرَاتِ
صَدْرُ أهْلِ الغَرَبِ يُضئِنُه اللُّهَابُ
نَكَّسُوا الأوضاعَ في أَيامِنَا

إِنْ تَجِدُهُ فَاغْتَنِمُهُ يا بَصِيرُ^(١)
لِلخَسِيسِ رونقَ الغالي أتاحا^(٢)
نظرةً من مُقَلَّةِ الشَّمْسِ اقْتَلَعُ
والمَصِيرُ لِلوَرَى تَقْدِيرُهُ^(٣)
لِلبحارِ قال مُوجي بالسَّرابِ^(٤)
أصلَ تِلْكَ الكائِناتِ كي يَرى
وبقطعِ الفِكرِ عن رُبِّ كَفَرُ^(٥)
نورُهُ الظُّلْماءُ بحرٌ ضَلَّ بَرًّا
والرَّبِيعُ فيه قَدْ أَمسى الخَرِيفا^(٦)
والجبالَ هَدَمَتْها الطَّائِراتِ
لذَّةً لِلسَّطَوِ والغَزْوِ اسْتَطابُوا^(٧)
نَهَبُوا الأموالَ مِنْ أقوامِنَا

(١) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

(٢) أتاح : هَيَأ .

(٣) أي أَنَّ ما يراه العلم ، ويحكم به ، هو وحده ما يفسَّر الوجود .

(٤) الحَبَابُ : النفاخات على سطح الماء . والسَّرابُ : ما يشاهد نصف النهار كأنه ماء .

(٥) إِمَّا : تتألف من إن الشرطية وما الزائدة .

(٦) الكفيف : الأعمى . أي أَنَّ المتصاعد من الدخان والغاز يعمي العيون .

(٧) اللهب : مصدر من لهبت النار أي اشتعلت .

واستمذوا بَطْشَ إبليسَ الرَّجِيمِ تَصِيحُ الْأَنْوَارِ نَاراً بِالْجَحِيمِ^(١)
قَتْلُهُ مَا زَالَ كَالْأَمْرِ الصَّعُوبِ إِنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي عُمُقِ الْقُلُوبِ^(٢)
كَانَ أَوْلَى مُؤْمِناً أَنْ تَجْعَلَهُ وَبَسِيفٍ لِلْكِتَابِ تَقْتُلُهُ^(٣)
مَا جَلالٌ لَيْسَ فِيهِ مِنْ جَمالٍ ! أَيُّ هَجْرٍ ذاكَ يَخْلُو مِنْ وَصالٍ !
عَلِمْنَا بِالْعِشْقِ عِلْمُ الْمُؤْمِنِنا وَبِغَيْرِ الْعِشْقِ عِلْمُ الْكافِرِنا
جِئْتُ عِلْمٌ لَنَا ما لَمْ نُحِبْ وَلِنا الْعَقْلُ كَسَهُمْ لَمْ يُصِبْ
هَبْ عِيُونََ الْعُمَيِّ نوراً تَشْهَدُهُ
وَاهِدٍ لِلإيمانِ مِنْ تَبَّتْ يَدُهُ^(٤)

زندہ رود

محكمات لي أبتت في الكتاب عالمٌ ما زال يطوي في الحجاب^(٥)
النَّقابُ عن جبينِ ما رَفَع ولماذا مِنْ فُؤادٍ ما طَلَع
وَلَدَيْنَا عَالِمٌ فِيهِ الدَّيْبُ للبللى ، والنَّومِ فِيهِ لِلشُّعُوبِ
فِي التَّارِ خَمَدَتْ نارُ الْغِلابِ أَلِمَنْ أَسْلَمَ موْتُ وَالكِتابِ^(٦)

سعيد حلیم باشا

إِنَّ دِينَ الْحَقِّ كَالْكَفْرِ الضَّرْحِ إِنَّ تَرْدَى الشَّيْخُ فِي الْكُفْرِ الْمَباحِ!!^(٧)

(١) يقول إنهم عززوا قوتهم بقوة إبليس . ومعاشرة أهل الجحيم تجعل النور ناراً .

(٢) الصَّعُوبُ : الصَّعْبُ . ويصعب قتل إبليس لأنه اختفى في القلب .

(٣) الكتاب : القرآن .

(٤) يقول : هب عيون العميان بصرأ لرؤية الله بقلوبهم : ومن تبَّت يده هو أبو لهب . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] .

(٥) الكتاب : القرآن .

(٦) غالبه غلاباً بمعنى قاهره .

(٧) الضَّرْحِ : الخالص . وتردَّى في الشيء : سقط .

طَلْنَا يَبْدُو كَبَحْرٍ عِنْدَنَا وَيُرَى فِي الْبَحْرِ هَذَا طَلْنَا! (١)
 مِنْ أَعَاجِبٍ لِمَنْ بَاعَ الْكِتَابَا كَمْ تَعَالَى صَوْتُ جَبْرَيْلَ انْتِحَابَا
 فِي السَّمَاءِ لَمْ تَشْفُهُ جَوْلَةً عِنْدَهُ أُمَّ الْكِتَابِ قَوْلُهُ (٢)
 مَا نَصِيحاً نَالَ مِنْ دِينِ النَّبِيِّ فِي ظِلَامٍ لِضِيَاعِ الْكَوْكَبِ
 وَضَرِيرُ الْقَلْبِ يَهْدِي فِي النَّفَاقِ تَعْمُهُ الْأُمَّةُ مِنْهُ فِي الشَّقَاقِ (٣)
 مَكْتَبٌ ، شَيْخٌ ، وَأَسْرَارُ الْكِتَابِ أَكْمُهُ وَالشَّمْسُ كُمْهَا لَا تَحَابِي (٤)

دِينٌ مَنْ يَكْفُرُ تَدِيرَ الْجِهَادِ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَيْخٌ فِي الْفَسَادِ

« رَجُلُ اللَّهِ لِلدُّنْيَا الرُّوحُ كَانَا » قُلْ لِمَنْ فِي عِزَّةِ الرُّكْنِ اسْتِكَانَا!
 أَنْتَ يَا مَنْ لِلْحَيَاةِ الْفِكْرُ مِنْكَ وَثَبَاتُ الشَّعْبِ قَوْلٌ قِيلَ عَنْكَ
 حَفِظْتُ قَوْلِ اللَّهِ كَانِ دَيْدُنُكَ نَشْرُهُ فِي النَّاسِ كَانِ مَذْهَبُكَ
 أَزْفَعَ الرَّأْسَ تَكَلَّمْ يَا كَلِيمَ مَنْ يَدَيْكَ يَصْدُرُ الْأَمْرُ الْعَظِيمَ
 عَنْ بِيَاضِ الشَّعْبِ حَدَّثْنَا طَوِيلَا وَتَذَكَّرْ بِالْفَلَا ظِيماً جَمِيلَا (٥)

أَنْتَ حَقًّا مَسْتَنِيرٌ مِنْ مُحَمَّدٍ

وَضَعْنَا الْحَالِي فَصْفَهُ ، أَيْنَ نُوْجِدُ!

مَا اسْتَمَدَّ رَجُلُ اللَّهِ الْبَشَرَ وَاسْتَمَدَّ مِنْ إِلِهِ قَدْ غَفَرَ

- (١) الطَّلُّ : النَّدى .
 (٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ . وكلُّ العلوم منسوبة إليه ومتولدة منه . يقول : إن هذا الشيخ لا يبحث فيما وراء الطبيعة ، ولا يعرف القرآن حقَّ المعرفة .
 (٣) يهذي : يتكلم بغير معقول . ويعمه : يتردد في الضلال ، ويتحير في طريقه ، وكلامُ هذا الشيخ يوقع الناس في الحيرة والخلاف .
 (٤) الكمه : جمع أكمه وهو من ولد أعمى .
 (٥) قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَضْمَمْتُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ فَخَرَجَ بِبَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ﴾ [طه : ٢٢]
 وببضاء ؛ أي : مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهاة . والفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

كَلَّ يَوْمَ سَعِدَتْ رُوحُ بِقَرْبِهِ كَلَّ يَوْمَ كَانَ فِي شَأْنِ كَرْبِهِ
 مُؤْمِناً أَوْقَفَ عَلَى السَّرِّ الْخَفِيِّ « كَلَّ يَوْمٍ » مُدًّا بِالشَّرْحِ الْجَلِيِّ^(١)
 مَا لِرَكْبٍ نَزَلَ إِلَّا الْحَرَمَ فِي قُلُوبٍ مِنْهُمْ اللهُ الْحَكَمَ
 وَطَرِيقاً آخِراً مَا إِنْ ذَكَرْتَ
 نَظْرَةً أُخْرَى لَهُمْ مَا إِنْ عَرَفْتَ

الأفغاني

مَنْ حَدِيثِ الْمُصْطَفَى نِلْتَ النِّصِيَا؟ كَانِ دِينُ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا غَرِيباً^(٢)
 إِنَّهُ قَوْلٌ مِنَ الْأَقْوَالِ بِكَزْ مَا عَنِى بِالْفَقْرِ قَطُّ أَهْلُ ذِكْرِ
 عَنْهُ مَشْغُولٌ بِبَحْثِ حُقْبَةٍ نَدْرَةُ الْآيَاتِ كَانَتْ غُرْبَةً^(٣)
 إِنَّهَا فِي كُلِّ عَضْرِ تَخْتَلِفُ أَفْهَمَنَّ مَا أَقُولُ يَا ثَقِفْ^(٤)
 أَمْنَحِ الْقُرْآنَ مَنْ فِكْرٍ مَزِيدَا وَكَمَا شِئْتَ افْتَتِحْ عَصراً جَدِيدَا
 عَنْ كِتَابِ اللهِ مَنْ زَاخَ السُّتَارَا فِيهِ أَهْلُ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْحَيَارَى^(٥)
 هَوْلَاءِ الرُّوسِ شَيْئاً أَبْدَعُوا أَوْجَدُوا الْخُبْرَ وَدِينَا ضِيَعُوا

(١) جاء في سورة الرحمن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ قُلْ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ بمعنى يفنقر إليه كل من فيهن ويطلب منه الرزق والعون . وهو يغفر ذنباً ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويغفر غنياً ويغني فقيراً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

(٢) التلميح إلى قوله ﷺ : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ) أي : أن المؤمنين المُتَمَسِّكِينَ بإيمانهم سوف يجدون أنفسهم في مقبل الأيام بين قوم غرباء ، كما كان شأنهم في أول أمرهم . وهذا يذكرنا بحديث آخر ، وهو : (يأتي زمانٌ يكون فيه القابضُ على دينه كالقابضِ على الجمر) .

(٣) الحُقْبَةُ : المدة من الدهر ، لا وقت لها .

(٤) الثَّقِيفُ : الحاذق الفطن .

(٥) زاح : أزاح .

بِاللِّسَانِ الْحَقِّ قُلٌّ وَاَنْظُرْ بِعَيْنِ
أَبْلَغَنَّ الْقَوْمَ مِنِّْي لَفْظَتَيْنِ

رسالة الأفغاني إلى شعب روسيا

إِنَّ لِلْقُرْآنِ قَضْدًا آخِرًا وَيَرَى فِي الشَّرْعِ هَذَا مِنْ يَرَى
قَلْبُهُ مَا فِيهِ نَارٌ تَسْتَعِزُ صَدْرُهُ فِيهِ النَّبِيُّ لَمْ يَسْتَقِرْ
ثَمَرَ الْقُرْآنِ عَبْدٌ مَا أَكَلُ فِي يَدِ كَأْسٍ دِهَاقًا مَا حَمَلُ^(١)
قِيصِرًا أَفْنَى وَكِسْرَى حَطْمًا وَاَعْتَلَى عَرْشًا لَهُ كِي يَحْكُمَا
دَوْحَةُ السُّلْطَانِ طَالَتْ وَاسْتَوَتْ صُورَةٌ لِلْمَلِكِ فِي الدِّينِ انْطَوَتْ

وَمَنْ الْمَلِكِ اخْتِلَافُ النَّظَرَةِ

وَاخْتِلَافُ الْعُرْفِ بِلِ وَالْفِكْرَةِ

أَنْتَ أَرْسَيْتَ الْأَسَاسَ الْمُخْتَلِفُ وَمَنْ الْمَاضِي قَلُوبًا تَقْتَطِفُ
نَحْنُ فِي الْمَاضِي هَدَمْنَا الْكِسْرَوِيَّةَ أَنْتَ قَوَّضْتَ بِنَاءَ الْقِيَصَرِيَّةِ
كِي تُنِيرَ الْيَوْمَ مِصْبَاحَ الضَّمِيرِ عِبْرَةٌ مَنَا اتَّخَذَ عَبْرَ الْعُصُورِ
وَلْتُنَبِّتْ قَدَمَيْكَ فِي الْمَصَافِ حَوْلَ أَصْنَامِ حِذَارٍ مِنْ طَوَافِ^(٢)
هَذِهِ الدُّنْيَا الْعَجُوزُ قَدْ أَرَادَتْ شَعْبَهَا شَيْخًا وَمِنْ شَيْخِ أَفَادَتْ^(٣)
ثُمَّ وَلَّ الْوَجْهَ نَحْوَ الْمَشْرِقِ كَيْفَ تَنْسَى يَوْمَ مَاضٍ مُعْرِقِ^(٤)
شَعْلَةً أُخْرَى بِرُوحٍ تُوقَدُ وَلَكَ الْعَضْرَ الْجَدِيدُ تُوجَدُ

(١) الدِّهَاقُ : الممثلة .

(٢) المصاف : موقف القتال .

(٣) أفاد : استفاد . وكأنها تستفيد من شيخ يعظها وينصحها .

(٤) وَلَّ : وجه . المُعْرِقُ : العريق في الكرم . يريد ليقول : إنَّ بين الرُّوس والشرق

صلات تاريخية مجيدة .

إِنَّ دِينَ الْغَرْبِ قَدْ أَمْسَى رَمِيمًا لَا تَشَاهِدُ ذَلِكَ الدَّيْرَ الْقَدِيمًا^(١)
 وَتَلَلْتُ الْحَاكِمِينَ الْيَوْمَ تَلًّا أَتْرُكُنَّ « لَا » وَلْتَيِّمَنَّ نَحْوَ « إِلَّا »^(٢)
 إِنَّ « لَا » ضَمِنَ كَلَامٍ كَانَ نَفِيًّا أَنْتَ بِالْإِثْبَاتِ خُذْ دَوْمًا لَتْحِيًّا^(٣)

وَإِذَا شِئْتِ نِظَامَ الْعَالَمِ

فَلِيَكُنْ فَوْقَ الْأَسَاسِ الْمُخْتَمِ

وَمَنْ التَّارِيخِ تَمَحُّو كُلَّ بَابٍ فَاقْبِسِ الْأَنْوَارَ مِنْ أُمَّ الْكِتَابِ
 مَنْ يَقُولُ مَاتَ كِسْرَى مَاتَ قَيْصَرٌ؟ بَيْنَ سُودٍ بِالْيَدِ الْبِيضَاءِ بَشْرٌ؟^(٤)
 دَعَاكَ مَنْ هَذَا التَّجَلِّي لِلشَّيَاتِ أَتَرَكَ الْغَرْبَ وَأَذْرَكَ كُنْهَ ذَاتِ^(٥)
 وَبِمَكْرِ الْغَرْبِ إِنْ كُنْتِ الْخَيْرَا لَا تُقَلِّدْ ثَعْلَبًا بَلْ كُنْ هَضُورًا^(٦)
 أَمَلُ الثَّغْلَبِ فِي الدُّنْيَا طَعَامٌ قَوْلُ أُسْدِ اللَّهِ « حُرٌّ أَوْ حِمَامٌ »^(٧)
 يُضْبِحُ الثَّعْلَبُ ذِيكَ الْأَسَدِ دُونَ قِرَآنٍ ، وَمُلْكٍ مَا اسْتَنْدُ
 فَفَرُّهُ مُلْكٌ وَذِكْرُهُ نَمٌّ فِكْرٌ وَاهِبِ الْفِكْرِ الْكَمَالَ كَانَ ذِكْرٌ
 كَانَ تَهْذِيبًا لِأَشْوَاقٍ وَذَوْقٍ إِنَّهُ فِي الرُّوحِ ، لَمْ يُوجَدِ بِحَلْقٍ
 فِي الضُّدُورِ مِنْهُ نَارٌ تَلْتَهَبُ وَأَجِيجُ النَّارِ لَمَّا تَسْتَطِبُّ^(٨)

يَا شَهِيداً فِي هَوَى الْفِكْرِ الْجَمِيلِ

ذَا تَجَلَّى الْفِكْرِ فِي قَوْلٍ طَوِيلِ

(١) الرميم : العظم البالي .

(٢) تل : صرع . ويمم : وجه . والإشارة في « لا » و « إلا » إلى « لا إله إلا الله » .

(٣) دوماً : دائماً .

(٤) السود : العرب .

(٥) الشيات : الألوان .

(٦) الهصور : الأسد .

(٧) الحمام : الموت . والمعنى نعيش أحراراً أو نموت .

(٨) أجيح النار : تلهبها . لما تستطب : لم تستحسن إلى الآن .

ما هو القرآن؟ هللك الظالمينا
 أهل جزص أي خير حققوا
 ليس من هذا الربا إلا الفتن
 يجعل الإنسان صخري الفؤاد
 عن منال رزق أرض ما امتناع!
 الأمين العبد والرحمن مالك
 الملوكة نكسوا الله رايته
 والخلص كان للمستعبدينا^(١)
 ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا﴾^(٢)
 من درى ما لذة القرض الحسن؟
 أو كليث أذرد وسط المصاد^(٣)
 ملك رب وهي للعبد المتاع
 كل شيء غير وجهه هالك^(٤)
 والقرى من ظلمهم في الذل غاية^(٥)

خبزنا والماء تحوي مائده

إنما الناس كنفس واحده^(٦)

صورة القرآن لما أظهرت
 وأقول ما بقلبي يضمرو
 مشبه الرحمن يخفي وهو ظاهر
 ولغزب فيه أقدار وشرق
 قال جُذ بالروح جُذ للمسلم
 أنت يا من ذلك الشرع اتخذت
 صوراً أخرى سواها أبطلت
 أكتاب ذاك؟ شيء آخر؟
 دائم حي ومنطبق يجاهر^(٧)
 كن سريع الفهم أسرع مثل برق
 فوق ما تحتاج طوعاً قدّم
 في كتاب الله نوراً لو رأيتا

(١) الهلك : الهلاك .

(٢) قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(٣) الأرد : من ذهب أسنانه . والمصاد : مكان الصيد .

(٤) يذكر بقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] .

(٥) الإيماء إلى قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] .

(٦) قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

(٧) المنطبق : البليغ . ويجاهر : يرفع الصوت .

لَعَرَفْتَ مَا تَعَالَى وَانْحَدَزَ

فِي الْحَيَاةِ وَفَهِمْتَ مَا الْقَدَزَ

مَا مَعَ السَّاقِي حَوَانَا الْمَخْفَلُ مِعْزَفُ الْقِرَآنِ دَوْمَا يَهْدَلُ^(١)
لَوْ خَلَا عِزْفٌ لَدَيْنَا مِنْ أَثَرِ فِي السَّمَاءِ لَأَسْتَمَعْنَا لِلْوَتْرِ
ذَكَرُ رَبِّي عَنْ شُعُوبٍ فِي غِنَى لِمَ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَا انْثَى^(٢)
أَيْنَ مِنْ ذِكْرِ لِرَبِّي مِنْ ذَكَرِ مَا لِرُومٍ مَا لِشَامٍ مِنْ خَبَرِ^(٣)
لَوْ أَرَادَ اللَّهُ عَنَّا حَمَلَهُ لَأَسْتَطَاعَ لِسَوَانَا نَقْلَهُ^(٤)
ذَلِكَ التَّقْلِيدُ فَيُنَاقِذُ رَأَيْتُ رِغْدَةً لِلرُّوحِ فِي جِسْمِي وَجَدْتُ^(٥)
فِي غِدِّ قَدْ يُخْرَمُونَ ذِكْرَهُ
وَيَقْلِبُ الْغَيْرِ يَلْقَى نَارَهُ

جلال الدين الرومي

يرغب إلى زنده رود أن يقول شعراً

إِنَّمَا الرَّؤْمِيُّ فِي جَذْبٍ تَفَجَّرَ وَعَرَفْتُ الْقَوْلَ فِيهِ كَيْفَ أَثَرُ
صَعَّدَ الرَّزْفَرَةَ نَاراً لِلْكَبُودِ سَكَبَ الدَّمْعَ دِمَاءً لِلشَّهِيدِ^(٦)
بِالسَّهَامِ رَاشِقٌ قَلْبَ الرَّجَالِ سَيِّدُ الْأَفْغَانِ خُصَّ بِالْمَقَالِ^(٧)

(١) المِعْزَفُ : آلة الطرب . وَهَدَلُ الْحَمَامُ : صَوَّتَ .

(٢) يقول : إِنَّ ذَكَرَ اللَّهُ لَيْسَ خَاصًّا بِشَعْبٍ خَاصٍّ ، وَلَا يَنْتَسِبُ إِلَى زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ .

(٣) يريد ليقول : إن ذكر الله منفصلٌ عن ذاكه ، ولا صلة له بالمكانية .

(٤) غرضُ الشاعر أنَّ الله لا يَخْصُّ بِذِكْرِهِ قَوْمًا بَعِيْنَهُمْ .

(٥) يعيب التقليد عند المسلمين .

(٦) الكبود : جمع كبد .

(٧) المراد بسيد الأفغان السيد جمال الدين الأفغاني .

« حمرة للأفق ضغها في الوتين
 بالمُنَى الأرواح سَيْلٌ ذُو زَبْدٍ
 وأشار ثم قال « زنده رود
 ناقةٌ من أينها ضاقت خُطاها
 امتحانُ الطَّاهِرِينَ بالبلاء
 وَعَنِ النَّيْلِ ابْتِعِذْ مِثْلَ الْكَلِيمِ
 وسموطَ الحقِّ أمْسِكْ بِالْيَمِينِ^(١)
 إِنَّمَا الْيَأْسُ لَهَا مَوْتُ الْأَبْدِ
 فَلْيَكُنْ بِالشَّعْرِ نَاراً ذَا الْوُجُودِ
 آدَهَا الْجِئِلُ وَأَنَّ مِنْ حَدَاها^(٢)
 فَلَنْزِدْ فِي طَوْلِ جُهْدِ اللَّظْمَاءِ^(٣)
 كالخَلِيلِ فَلْتَسْزِ نَحْوَ الضَّرِيمِ^(٤)

من حبيبِ نعمةٍ ماجتْ بِطِيبِ
 أُمَّةٌ تَسْكُنُ دَاراً لِلْحَيْبِ

غَزَلُ زَنْدِه رُودِ

لَيْسَ زَهْرٌ فِي الرِّيَاضِ بِالْمَقِيمِ أَبْدَا
 أَيْنَ مَعْنَى مَا وَجَدْنَا بَعْدَ بَحْثٍ يَأْتُرَى
 وَمِنَ الذَّاتِ تَعَلَّمْ أَنْتَ حَرْفاً وَاخْتَرِقْ
 إِنَّهُ يَمْضِي كَأَمْوَاجِ التَّسِيمِ أَبْدَا
 مَكْتَبٌ يَبْقَى وَحَانٌ كَالْعَقِيمِ أَبْدَا
 تَعْدُمُ الْخَانِقَاهُ نَاراً لِلْكَلِيمِ أَبْدَا^(٥)

(١) حمرة الأفق هي الشفق . والوتين : عرق في القلب . والشموط : حبال تتدلى من السرج .

(٢) الأين : التعب . آده الحمل : أثقله . وحدا الإبل : ساقها ، وغنى لها . يقول : إنَّ غناء من يسوق الناقة يبغى أن يصبح أئناً بعد تعب ناقته .

(٣) الظماء : جمع ظامء . وهذا البيت يتصل بما قبله وما بعده في وجوب الشعور بالجهد والعذاب لامتحان النفس .

(٤) الضريم : الحريق وهو هنا نازر إبراهيم عليه السلام . والشاعرُ يذكر بما وقع لكليم الله موسى ، فقد أوحى الله إلى أمه أن تقذفه في النيل ليلقيه بالساحل .

(٥) الخانقاه : مبنئٌ يقيمُ فيه المتصوِّفة . والكليم : موسى عليه السلام . والشاعر يلمح إلى تلك النار التي آنسها موسى ، وهي عند الصوفية رمزٌ للمعرفة .

لا تحدّث عن صفاء من بخانقاه سَكَنُ
كَمْ بيوتٍ شَيّدوها وَسَطَ بيتٍ واحدٍ
لَيْسَ خَطْباً أَنْ يَضَيِّقَ بالنَّدَامَى مجلسي
وَسِخَ الشَّعْرِ تراه والأديم أبداً^(١)
لا يثيرُ القَلْبُ ريباً للمُقيم أبداً^(٢)
إنَّه ألا ترى كأسَ النَّدِيمِ أبداً !

(١) الأديم : الجلد المدبوغ ، ووجه الأرض ، وقد ترجمنا به كلمة سجادة في الأصل رغبةً منا في الاحتفاظ بنفس القافية والوزن في الترجمة العربية . أما الرديف وهو الكلمة التي تكرر بعد كل بيت فهي في الأصل (كل) وترجمناها بـ (أبداً) وهي ظرف زمان للتأكيد في المستقبل .

(٢) يريد الشاعر بالبيوت بيوت العبادة . ويقول : إنَّ الموحّدين لهم جميعاً فكرةً واحدةً لا ريب فيها ، وهو يعجبُ لانقسام القوم فرقاً وطوائف .

فلكُ الزُّهْرَة

يَخْجُبُ النُّورَ بَدَا بَيْنَ السَّحَابِ
 واجهُونا بالشتور عُلقت
 كي تزيّد النَّارُ في القلبِ اشتعالا
 وبوقدٍ منه في وريدِ دمَاء
 هكذا مِنْ تزيها الأرواحُ قامَتْ
 والطريقُ يحتوي موتاً وحشراً
 في الفضاءِ دارَ مُزرقُ الفلكِ
 وهي إبراهيمُ أو ذاكِ الحريمِ
 السمواتُ وهذي خبيرُ
 من فضاء الصَّفِينِقُ مِنْ حِجَابِ^(١)
 للتَّجَلِّي كُلُّ نارٍ أَخْمَدَتْ
 وترى غُضناً وبالآثمارِ طالا
 زئبقاً بالرقصِ مِنْهُ كانَ ماءً
 وبما لا تَشْهَدُ العِنانُ لاذَتْ^(٢)
 فيه لَكِنْ زَوَّدوا بالنَّارِ سَفْراً^(٣)
 هابطٌ يعلو وما يعلو انسَبَكَ^(٤)
 كالذَّبِيحِ ، في الفِداءِ لا يُلومُ!^(٥)
 لا يُجِنِّدُ الطَّغْنانَ إلا حَيْدَرُ^(٦)

(١) الصفيق : ضدّ الرقيق .

(٢) التُّزب : التراب .

(٣) السَّفَر : المسافرون . يقول : إنَّ النارَ كانت زاداً لهم .

(٤) انسبك الذهب : ذُوبَ وأُفْرِغَ في قالب . وبذلك يشبّه انخفاض واستواء ما ارتفع .

(٥) الذبيح : هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي أطاع واستسلم .

(٦) حيدر هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وفي غزوة خيبر أرسل النبي ﷺ إلى علي

لفتح أحد الحصون وكان عليّ أرمداً . فقال : ما أبصرُ سهلاً ولا جبلاً . فذهب إليه

وقال : افتح عينيك ففتحهما فما رمد بعدها ، ثم دفع إليه اللواء ، ودعا بالنصر له ومن

معه . وشدَّ عليّ على الأعداء فانكشف المسلمون وثبت هو وقتل من بارزه . وانهمز

اليهود إلى حصنهم وبارزه يهوديّ آخر وضربه ضربةً شديدةً حطمتُ رُؤسَه . فتناول كرم

الله وجهه باباً عند الحصن ليُترسَ به عن نفسه . ولم يزل معه حتى فتح الحصن . قيل

وكان هذا الباب ثقيلاً فلم يحمله أربعون رجلاً .

طَهَّرَ الرُّوحَ الصَّارِعَ الْمُسْتَمِرَّ إِنَّهَا تَجْرِي بِهِ أَوْ تَسْتَقِرُّ
وهي في نورٍ على نورٍ تطيرُ وَلَدَيْهَا الصَّيْدُ جَبْرِيْلٌ وَحُوْرٌ^(١)
ثمَّ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصْرُ ﴾ يَضْحَى النَّصِيْبَا

لمقام « عبده » تَمْسِي الرَّقِيْبَا^(٢)

فِي مَقَامِي لَسْتُ أَدْرِي أَيْنَ كُنْتُ إِنِّي عَنْ كُلِّ خُلَانِي نَأَيْتُ
تَعْدَمُ الْحَرْبُ بِصَدْرِي عَسْكَرَا مِنْ لَهُ عَيْنٌ كَعَيْنِي قَدْ يَرَى
مَنْ دَرَى مَا الْحَرْبُ فِي كَفْرِ وَدِينِ وَخَذَهَا نَفْسِي كَزِينِ الْعَابِدِينَ^(٣)
أَيُّ مَعْنَى لِلطَّرِيْقِ وَالْمَقَامِ ؟ إِنَّ شَكْوَايَ السَّرَاجُ فِي الظَّلَامِ^(٤)
أَهْلَكَ الْيَمُّ الشُّيُوخَ وَالشُّبَابَا هَاكَ شَيْخًا وَاحِدًا جَارَ الْعُبَابَا^(٥)
قَدْ رَفَعْتُ السَّتْرَ وَالسَّتْرُ انطَوَى أَرْهَبُ الْوَصْلَ وَتَبْكِينِي النَّوَى^(٦)
الْوَصَالُ آخِرُ الشُّوقِ ! الْحَذْرُ ! مَا لَشَكْوَى وَزَفِيرٍ مِنْ أَثْرَا
سَالِكٌ مَا إِنْ رَأَى مَثَنَ الطَّرِيْقِ مِنْ فِرَاقٍ إِنْ يَكُنْ غَيْرَ الْمُفِيْقِ^(٧)

(١) الصيد : ما يصاد .

(٢) يريد الشاعر قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] . أي
ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه وما تجاوزه بل أثبتته أو ما عدا عن رؤية ما أمر برؤيته من
العجائب . وقد رأى من آيات الله الكبرى ليلة المعراج .
أما قوله (عبده) فالمقصود به قوله تعالى في السورة نفسها ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِيهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾
[النجم : ١٠] ؛ أي أوحى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريلُ إلى النبيِّ ولم يذكر
المَوْحَى تفخيماً لشأنه .

(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزَيْنِ الْعَابِدِينَ رضي الله
عنه ، رابعُ الأئمة الاثني عشر عند الإمامية . وقد عرف بصدقته السرِّ ، والحلم ،
والورع . وهو الوحيد الذي نجا من موقعة كربلاء . وكانت وفاته عام ٩٤ هـ .

(٤) السَّرَاجُ : المصباح .

(٥) الْيَمُّ : البحر . وَالْعُبَابُ : الموج .

(٦) النَّوَى : البعاد .

(٧) الْفِرَاقُ هنا هو : سكون النفس .

إِنَّ لِي قَلْباً وَمِنْ ذَوْقِ النَّظَرِ عَالِماً يَشْتاقُ ، بِالشُّوقِ اسْتَعَزَّ (١)
 إِنَّمَا الرُّومِي بِرُوحِي تَلِكْ أُغْلَمُ قَالَ يَا مَنْ عَالِماً تَبْغِي تَسَلَّمُ
 فِي يَمِينِ الْعِشْقِ نَخْنُ وَهُوَ يَلْعَبُ فَتَأَمَّلْ ، يَحْتَوِينَا أَيُّ كَوْكَبِ (٢)
 عَالِمٌ وَالْأَسُّ مِنْ طِينِ وَمَاءِ مِنْ سِوَادِ الْمِسْكِ يَبْدُو فِي كِسَاءِ (٣)
 وَبِعَيْنِ مَرَّقَتْ كُلَّ الْحُجُبِ انظُرْنَ وَاخْتَرِقِ كُلَّ السُّحُبِ
 سَتَرِي الْأَرْبَابَ حَتْمًا كُلِّهَا وَأَنَا أُغْلَمُ حَقًّا حَالِهَا
 (بَعْلُ وَمَرْدُوخُ وَيَعُوقُ وَنَسْرُ وَفَسْرُ رَمِ خَنْ وَلاَثُ وَمَنَاةُ وَعَسْرُ وَعَسْرُ)
 إِنَّهَا لِلْبَعْثِ تَأْتِي بِالذَّلِيلِ
 فَالزَّمَانُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ خَلِيلِ (٤)

عودة الجاهلية

مرَّ شاعرُ الإسلام - في بعض زيارته الرُّوحية وسياحاته الفكرية - بوادٍ ،
 اجتمعت فيه الآلهة القديمة التي عبدتها أممُ الجاهلية ، ونحتت أصنامها
 وتمائيلها ، وبنّت عليها هياكل ومعابد ، وعكفَ عليها السدنة والكهّان ، وتغنّى
 بها الشعراء والأدباء ، وكان مَجْمَعُ الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلادٍ
 مختلفة ، وعصورٍ مختلفة ، فهذا إلهُ المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التبابعة ،
 والأدواء من اليمن ، وهؤلاء آلهةُ عربِ الجاهلية ، وأولئك آلهةُ وادي الفرات ،

(١) اشتعلت النار : اشتعلت .

(٢) هذا الكوكب هو كوكب الزهرة .

(٣) الأس : الأساس . وهو يشبه هذا العالم بالكعبة وعليها الكسوة السوداء .

(٤) يقول إنَّ هذه الآلهة تقدّم الدليل على بعثها . فما في زماننا إبراهيم الخليل عليه السلام
 محطّمُ الأصنام . وقد أوردنا أسماءها كما وردت في الأصل الفارسي ، فلتنطق كُلُّ وَاوٍ
 ضَمَّةً ليستقيمَ الوزنُ كما هو الشأن في الفارسية .

وهذا إله الوضل ، وذلك ربُّ الفراق ، هذا من سلالة الشمس ، وذلك ختنُ القمر ، وهذا زوجُ المشتري .

ثم إنَّهم أشكالكُ وألوان ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تقلدُ حيَّةٍ ولوaha حول عنقه ، وكلُّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمَّديّ ، الذي أحدث الثَّورة الكبرى عليهم ، وأفسدَ عليهم العيشَ ، وولد العالم الجديد القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسَّس على عقيدة التَّوحيد ، وكلُّهم ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارةً مفاجئةً سرَّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورَحَّبَ بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءه به : أبشروا يا إخوتي ! فإنَّ إنساناً فرَّ من الله ، وثار على الأديان السَّماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسَّع في العلم والنظر ، وجاءَ يتمنَّع بالآثار العتيقة ، ويتحدَّث عن مجدنا ، إنَّها بارقةٌ أملٍ لاحَتْ بعد مدَّة ، ونفحةٌ هبَّت من أرضٍ حكمتها طويلاً ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعلٌ - إله الفينيقيين والكنعانيين القديم - أول من اهتزَّ لهذه الزيارة ، فأنشأ يغني في طربٍ ومرحٍ ، ويقول : « إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنحُ له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنَّه لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود .

حيًا الله الإفرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ؛ التي أتاحتها لنا الدهاء الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدة التَّوحيد ، ونسوا العهدَ والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذَّته .

إنهم صحبوا الغربيين مدَّةً من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ،

وضيَّعوا ذلك الدِّينَ الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بَعَثَ فيهم الإيمانَ واليقين .

إنَّ الرجلَ المؤمنَ الحرَّ الذي لم يكن يعرف الحدودَ والجهات ، ولا يعبدُ غيرَ الإله الواحد الذي خلق السمواتِ والأرضَ أصبحَ يؤمنُ بالوطن ، ويقدِّسه ، ويعبده ، ويقاتلُ في سبيله ، ويكفرُ بالله ، ويهجُرُه ويتناساه .

لقد خَضَعَ المسلمون لنفوذ الغربيين ومجدهم ، وأصبحَ شيوخُهم الكبار وعلماءُهم العظام يتقلَّدون شعارَهم ، ويقتفون آثارَهم ، فلنستبشِرْ ولننتهزْ هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشبابُ ، وحُقَّ لنا أن نَظْرَبَ ، فقد انهزم الدِّينُ ، وانتصرتِ الوطنيةُ والجنسيةُ . إنَّ المصباحَ الذي أناره محمَّد ، تألَّبَ عليه مئةُ « أبي لهب » يطفئونه ، إننا لا نزال نسمع صوت لا إله إلا الله ، ولكنَّه صوت يصدُرُ عن الشفتين ، ولا يصدُرُ عن القلب ، وكل ما غابَ عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحرُ الغربِ دولةَ إله الشرِّ والظلمة ، وشبابه ، وأصبحَ الدِّينُ الإلهي مهَّدَدًا ، فطوبى لنا وإخوتنا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا في الخلواتِ والمغاراتِ .

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرُّفُ المُطلَقُ ، والحريةُ الكاملةُ في حياتهم ، لم نثقلهم بعبادةٍ وطاعةٍ ، وإنما طلبنا منهم ركعةً لا سجود فيها ، وقد أثرنا فيهم العاطفةَ الدِّينيةَ بالأناشيد والأغاني ، فلم تكن صلاتُهم إلا مكاءً ، وتصديّةً ، ونغمَةً ، وأغنيةً ، وأيُّ لذةٍ في صلاةٍ لا غناء فيها ، ولا موسيقا؟!

إنَّ الناسَ لا بدَّ يفضِّلون عبادةَ طاغوتٍ مشهودٍ على عبادةِ إلهٍ غائبٍ ، وربِّ لا يُرى بالأبصارِ»^(١) .

(١) من « روايع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي . صفحة ١٧٥ - ١٧٨ .

وإليك هذه الأبيات المترجمة للعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

أظلمَ العَيْمُ وَلِلرَّيْحِ الخُفُوقُ
الرياحُ البحرُ فيها قد تَعَلَّقُ
لا يرى شَطْطٌ وموجٌ يَهْدُرُ
ومعَ الرُّومِيِّ في بحرِ السَّوَادِ
إنَّه المِسْفَاؤُ لَكِنْ لَمْ أَسَافِرْ
عاجزاً قُلْتُ كلاماً كُوراً
وإذا للعينِ أطوادُ تلخوخِ
وإذا في النَّجْدِ والسَّهْلِ الرَّيِّعِ
ولنا الطَّيْرُ تَغَنَّتْ بِالجَوَى
ذاكَ قَبِضٌ مِنْهُ للجِسمِ البَقَاءُ
وَمِنْ الطَّوْدِ نَظَرْتُ نَظْرَةً
واستوى الوادي ومدَّ جانبيه

في الظَّلامِ تَفَقَّدُ النُّورَ البُرُوقُ! (١)
شَقَّتِ الثُّوبَ بِدُرٍّ كَمْ تَأَلَّقُ
ما على صَنِعِ الرِّيحِ يَفْقِدُ (٢)
حُلماً كُنَّا بِسوداءِ الفُؤادِ (٣)
وعلى هذا رأيتُ عَيْرٌ صَائِرٌ (٤)
« عالمًا آخرَ عيني لا تَرى »
وغديرٌ في مروجٍ وهي قَيْحٌ (٥)
والنَّسِيمُ يالهُ مِسْكَاً يَضُوعٌ (٦)
والينابيعُ وعُشْبٌ ما استوى (٧)
وَلَعَيْنِ الرُّوحِ في الجِسمِ الجِلاءُ
لأرى الدُّنيا ترفُّ نَضْرَةً (٨)
إنَّ ماءَ الخضرِ مشتاقٌ إليه! (٩)

(١) الخفوق : الخفق والخفقان .

(٢) هدَّر البحرُ : ارتفع خريره .

(٣) الروميُّ : هو جلال الدين الروميُّ ، وسوداء القلب وسويداؤه : حبه .

(٤) المسفاؤُ : الكثير الأسفار .

(٥) الأطواد : الجبال . والغدير : النهر . والقيح : الواسعة .

(٦) النجد : ما ارتفع من الأرض . وضاع المسك : انتشرت رائحته .

(٧) الجوى : الحزن . ما استوى : ما ارتفعت سوقه .

(٨) رفَّ النباتُ : تلالاً نضرةً .

(٩) استوى : أصبح مستوياً ، جاء في الروايات الفارسية أن الإسكندر رغب إلى الخضر

عليه السلام أن يكون دليله في رحلة طويلةٍ تكتنفها المصاعب والمعاطب إلى ماء الحياة

وهو ينبوعٌ في أرضٍ بعيدةٍ تسمى دار الظلمات . ومن نَهَلَ نَهْلَةً منه ضَمِنَ أن يكون من

الخالدين . ومضى الخضر مع الإسكندر ، وشاهد الخضر هذا الماء كأنه خيطٌ من =

كُلُّ رَبِّ فِيهِ مِنْ ذَاكَ الزَّمَنُ رَبُّ مِضْرَا ذَا وَذَا رَبُّ الْيَمَنِ
 ذَاكَ مِنْ أَرْبَابِ عُزْبٍ أَوْ عِرَاقٍ ذَاكَ رَبُّ الْوَضَلِ ذَا رَبُّ الْفِرَاقِ
 وَسَلِيلُ الشَّمْسِ صِهْرٌ لِلْقَمَرِ مِنْ بَزُوجِ الْمُشْتَرِي خَصَّ النَّظْرُ
 وَاحِدٌ يَخْتَالُ بِالسَّيْفِ الْحُسَامِ آخِرُ فِي لَيْتِهِ أَفْعَى السَّمَامِ^(١)
 كُلَّهُمْ يَرْتَاغُ مِنْ ذِكْرِ الْجَمِيلِ وَيَخَافُ كُلَّهُمْ بَطْشَ الْخَلِيلِ^(٢)
 « إِنَّمَا الْمَرْءُ مِنَ الْمَوْلَى هَرَبٌ وَالْمِصْلَى » ، قَالَ مَرْدُخُ ، وَانْتَحَبَ^(٣)
 « وَكَأَنَّ الْعَقْلَ مِنْهُ أَوْ مِضَا وَهُوَ لَا يَنْسَى زَمَانًا قَدْ مَضَى^(٤)
 ظَلَّ يَسْتَحْسِنُ مَا كَانَ الْقَدِيمَا فِي تَجَلُّبِنَا يَرَى شَيْئًا عَظِيمَا
 وَيَجِدُّ الْوَهْمُ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَتَهَبُّ الرِّيحُ رِيحًا لِلْأَمَانِي^(٥)
 ثُمَّ غَنَى بَعْلٌ مِنْ فَرْطِ الطَّرَبِ سَرْنَا أَفْشَاهُ عِنْدَ كُلِّ رَبِّ^(٦)

أغنية بعل

مَرَّقَ الْمَرْءُ السَّتَارَ الْأَزْرَقَا مَا اسْتَطَاعَ رُبُّهُ أَنْ يَزْمُقَا^(٧)

= فضة . فشرب منه ، وتلفت حوله ، فما وجد الماء ولا الإسكندر . ولما الحياة هذا
 ذكر متردداً في الشعر الفارسي الصوفي على أنه رمز للحقيقة .

(١) السيف الحسام : القاطع . والليت بكسر اللام : صفحة العنق . والسمام : السموم .

(٢) الجميل : هو الله تعالى . والخليل : إبراهيم عليه السلام .

(٣) المولى : الله جل وعلا . المصلى : مكان الصلاة والمراد به المعابد بجميع أنواعها .

ومردوخ : أكبر آلهة البابليين .

(٤) أومض البرق : ومض ولمع .

(٥) يجد : يصبح جديداً .

(٦) بعل : اسم إله عند الساميين .

(٧) رمقه : نظر إليه طويلاً . وهذه المنظومة مما يعرف عند الفرس : ترجيع بند . =

مَوْجَةٌ لِلْفِكْرِ تَغْشَى قَلْبَهُ مَوْجَةٌ أُخْرَى لَهَا أَنْ تَفْرَقَا^(١)
 رَوْحُهُ بِالْحَسَنِ أَمْسَتْ فِي قَرَارِ مَنِيَّةَ الْمَاضِي عَسَى أَنْ تَصْدَقَا^(٢)
 نَحْنُ حَابُونَ بِعِلْمٍ فَلْيَعِشْ عَالِمٌ أَحْيَا بِعِلْمٍ مَشْرِقَا^(٣)
 أَيُّهَا الْأَرْيَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ

قِفْ تَأَمَّلْ وَخُدَّةٌ قَدْ شَتَّتْ وَ ﴿ أَلَسْتَ ﴾ عِنْدَ قَوْمٍ أُبْطَلَتْ^(٤)
 حُطِّمَتْ كَأْسٌ بِأَيْدِي ثُلَّةٍ خَمْرٌ جِبْرَائِيلَ مِنْهَا أُسْكِرَتْ^(٥)
 كُلُّ حَرٍّ فِي قِيودٍ مِنْ حُدُودِ وَضَلَّةٌ بِاللَّهِ مِنْهُ صُدَّعَتْ
 سَوْدُدُ الْأَسْلَافِ بَرْدٌ فِي دِمَاءِ وَزَنَانِيرُ الشُّيُوخِ سُوهَدَتْ^(٦)
 أَيُّهَا الْأَرْيَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ

بَعْدَ دَهْرٍ عَادَ يَوْمٌ لِلطَّرَبِ أَصْبَحَ الدِّينَ صَرِيحاً لِلنَّسَبِ^(٧)

= والترجيع : بند يحوي عدة أبيات تكون كل مجموعة منها قسماً ، وتلك الأبيات متفقة في الرّوي ، ويتلو كل قسم بيتاً مستقلاً يُكْرَرُ . وقد التزمنا في الترجمة روي هذه الأبيات في الأصل .

(١) غشيه : غطاه . ويفرقُ : يخاف .

(٢) المنية : الأمل .

(٣) الحابي : واجد الحياة . وكأنّ هذا الإله يدعو بطول البقاء لذلك العالم المستشرق الذي أحيا الشرق بعلمه .

(٤) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وهذا من باب التمثيل ؛ أي أنه أقام الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت عقولهم بها ، فكانه أشهدهم على أنفسهم ، وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا ، وأقرنا بوحدانيتك .

(٥) الثلّة : الجماعة من الناس .

(٦) الزّنانير : جمع زُنَّار . وهو ما يشدُّ به النصراني وسطه .

(٧) يقول : إنّ العنصرية طغت على الدّين .

لا تفكر في سراج المصطفى
« لا إله » في لسان ناطق
إن سحر الغرب أحيأ أهرمن^(٢)
أيهما الأرياب قذ آن الأوان

دينك القيد تحرز من قيود
وعليه كي نشق في صلاة
إنما النعمة تُعلي جذبة
إن خيراً من إله قد توارى

أيهما الأرياب قذ آن الأوان

الغوص في بحر الزهرة ومشاهدة روح كتشنر وفرعون

مَيَّزَ الرُّومِيَّ ذَكَرٌ لِلْجَمِيلِ
غَزَلًا قَالَ وَبِالسُّكْرِ اتَّقَدُ

ضربُه يُشبهُ ضَرْباً لِلْخَلِيلِ
كل رب في خشوع قذ سجد

غزل

« حص ما يمضي ويأتي بالنظر، ذاك أولى
ناقة الأيام أوساقاً لغشوق حُمَّلَتِ

انهَضَنَّ خذ بأفكارٍ أخز ، ذاك أولى
ازحَلَنَّ في المساء والسَّحَرُ، ذاك أولى^(٣)

(١) السراج : المصباح . ويولهب في الفارسية هو أبو لهب في العربية .

(٢) أهرمن : هو إله الشر أو الشيطان في دين المجوس .

(٣) الغزل نوع من المنظومات الفارسية ، وتلك المنظومة ذات روي واحد ولا تقل أبياتها عن سبعة عشر . وفي هذا الغزل ما يعرف بالرديف ، وهو كلمة أو كلام يكرر بعد كل =

ينبغي عمًا بها قطع النَّظَرِ ، ذاك أولى
 قلُّ وجودي ليس عِنْدِي ذا خَطَرَ ذاك أولى^(١)
 قال في المعبد حطْمَ ذا الحَجَرَ ، ذاك أولى
 بني تَمَسَّكَ لا تَدْعُنِي يا بُنَيَا
 بالتَّلُوجِ مِنْ لُجَيْنِ أَضْبَحَتْ^(٢)
 وانجلى بِالْجَوْفِ لا بِالْمَظْهَرِ
 قَرَّ عَيْنًا بِسَكُونِ سَرْمَدِي^(٣)
 ووجودُ كُلِّ ما قَدْ غَابَ أَنْكَرُ
 مَعَ أَهْلِ الْحَقِّ فِي حَرْبٍ وَضَرْبِ^(٤)
 وَالرَّفِيقِ مَدِيَّةِ الدَّزْوِيشِ غَالَتْ^(٥)
 ظَامِئانِ يَبِينُ أَمْواجِ تُثَوِّرُ
 مَوْتُ جِبارِ كَأَيَاتِ بَدَأِ^(٦)
 هَاكَ كَفِّي فَمَا قَلْبٌ وَجَفُ^(٧)
 فِيهِ يَخْوِيكَ فَوادٍ خافِقُ
 أَهْواءُ كان يَبْدُو مِثْلَ ماءِ
 إِنَّهُ وادي الظلامِ فِي الفِلا

قالَ شَيْخٌ ما لِدُنْيانا أَساسٌ مُحْكَمٌ
 أَنْتَ بِالْتَّرْكِ أَتَساهَا وَلَوْ حَوالْتَه
 قَلْتُ فِي قَلْبِي مِناةٌ وَكثيرٌ غَيْرُها
 قالَ « فانهضْ مُسْرِعاً واقْدَمْ إِلَيَّ
 الجِبالُ وَهِيَ مِنْ مُوسَى خَلَتْ
 خَلْفَها قَدْ لَاحَ بِحَرِّ الجَواهِرِ
 أَيُّ باسٍ مِنْ عُبَابٍ أَوْ أَتِي
 إِنَّ فِي هَذَا مَقامٌ مِنْ تَجَبَّرُ
 ذاكَ شَرِيفِي وَذا مِنْ أَهْلِ غَرْبِ
 وَعِصا مُوسَى عَلَي هَذَا تَهَاوَتْ
 مِثْلُ فِرْعَونَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ
 يَعْرِفانِ الطَّغَمَ مَرَّاً لِلرَّدىِ
 سِرِّ وَرائِي يا بُنَيَّ لا تَخَفُ
 وَكمُوسَى البَحرِ إِنَّي فالىقُ
 شَقٌّ مِنْهُ البَحرُ صَدِراً كالأضْياءِ
 قاعُه مِنْ كُلِّ لَوْنٍ قَدْ خِلا

= بيتٌ تُلتَزَمُ قبله قافيةٌ موحَّدة . وقد احتفظنا في الترجمة بقافية الأصل . والأوساق :

جمع وَسَق ، وهو حَمْلُ البعير .

(١) الخطر : الأهمية وارتفاع القدر .

(٢) اللجين : الفضة .

(٣) الآتي : السَّيْل . والسَّرْمَدِي : الدائم .

(٤) الحقُّ هنا هو الله .

(٥) المدية : السكين . وغاله : أهلكه .

(٦) يقول : إِنَّ هلاك الجبار مِنْ آياتِ الله .

(٧) وجف القلب : اضطرب .

ومَنْ الْقُرَّانِ طَهَ الشَّيْخُ يَتْلُو وَإِذَا الْقَمْرَاءُ جَوْفَ الْبَحْرِ يَجْلُو^(١)
وَنَضَّتْ عَنْهَا الْجِبَالُ ثُوبَهَا رَجُلَانِ حَائِرَانِ بَيْنَهَا
لَمْ تَشَاهِدْ وَجَهَ شَيْخِي مَرَّةً بَعْضُهَا أَلْقَى لِبَعْضٍ نَظْرَةً
قَالَ فَرَعُونَ أُجْرِي الْبَحْرَ نُورًا ! أَصْبَاحٌ مِلاءَ عَيْنِي أَمْ طُهُورًا !

الروميُّ

الخفي منه وَصَّاحُ الْجَلَاءِ وَالْيَدُ الْبِيضَاءُ أَضْلُّ لِلضِّيَاءِ^(٢)

فرعون

أَهْ عَقْلِي آهْ دِينِي قَدْ فَقَدْتِ وَنَظَرْتُ وَالضِّيَاءَ مَا عَرَفْتِ
أَمْنَحُونِي نَظْرَةً يَا مَنْ مَلَكَتُمْ وَهَبُونِي لَفْتَةً يَا مَنْ ظَلَمْتُمْ^(٣)
يَسَّرَ مِنْ حَرَصِي لَهُمْ أَعْمَى الْبَصَائِرِ يُخْرِجُونَ التَّبْرَ مِنْ جَوْفِ الْمَقَابِرِ^(٤)
ذَلِكَ التَّمْثَالُ فِي دَارِ الْعَجَائِبِ صَمْتُهُ يَرَوِي لَنَا كُلَّ الْغَرَائِبِ
جَاءَنَا عَنْ غَاصِبِينَ بِالْحَبَزِ عَيْنَ عَمِيَانٍ أَنْارَ بِالْبَصَرِ
مَا يَرِيدُونَ لَنَا غَيْرَ الشُّقَاقِ وَالْأَسَاسُ أَحْكَمُوهُ بِالنَّفَاقِ
وَلِهَذَا دَبَّ فِي الْحَكْمِ الْخَوَزُ وَالْفَسَادُ ، وَتَفَشَّى كُلُّ شَرِّ^(٥)

لَوْ بَدَا مُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ لِي

لَا لَتَمَسْتُ مِنْهُ قَلْبَ الْعَاقِلِ

(١) القمراء : نور القمر . ويجلو هنا بمعنى يخرج ، فكان جوف البحر يُظهرُ نور القمر .
(٢) يلمح إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ آيَةَ الْفُرْقَى ﴾ [طه : ٢٢] .

(٣) يوجه الخطاب إلى المستعمرين من أهل الغرب .

(٤) التبر : الذهب . وإقبال يتحدث عن علماء الغرب المنقبين عن آثار الفراعنة .

(٥) الخور : الضعف . وتفشى : انتشر .

الرُّؤْيُ

إِنَّ نُورَ الرُّوحِ لِلْحُكْمِ الْفَلَاحِ وَالْيَدُ الْبِيضَا بِهَا الْمُلْكُ الْمُبَاحِ
 حَاكِمٌ يَقْوَى بِضَعْفٍ مِنْ حُكْمِ وَبِحَرْمَانٍ لِكُلِّ مَنْ حُرِّمِ
 يَلْبَسُ التَّاجَ بِجَمْعِ لِلْخِرَاجِ وَرِجَالِ الصَّخْرِ كَانُوا مِنْ زُجَاجِ
 الْمَغِيرُ مَنْ لَهُ جَيْشٌ وَقَيْدُ حَاكِمٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا مَنْ يَصُدُّ

اللورد كتشنر (١)

إِنَّ لِلْغَرْبِيِّ قَصْدًا قَدْ ظَهَرَ وَأَجَلَ التَّبْرِ كَمْ قَبْرِ حَفَرَ
 إِنَّ تَارِيخًا لِمَضَرَ وَالْكَلِيمِ مَا نَرَاهُ الْيَوْمَ فِي سَفْرِ قَدِيمِ (٢)
 إِنَّمَا بِالْعِلْمِ لِلسَّرِّ الظُّهُورِ حِكْمَةٌ وَالبَحْثُ ، أَوْ شَيْءٌ حَقِيرِ (٣)

فِرْعَوْن

بِالْعُلُومِ كَشَفُوا عَنَّا الْحَجَرَ
 كَانَ لِلْمَهْدِيِّ قَبْرٌ ، مَا الْخَبِرُ ؟

(١) قائد بريطاني حارب أتباع المهدي في السودان ، وغلب على مدينة أم درمان عام ١٨٩٨ . وعرف بتناهيه في الضراوة والفظاظة حين عقد العزم الأكيد على استئصال شأفتهم وإذهاب ريحهم . ولما حَقَّقَ من ذلك بغيته ، أمعن في التشفي منهم ، وضرب الذلة عليهم ليدرك بثأر القائد غوردون الذي انكسرت جيوشه قبله ، وقتل شر قتله . وقد أمر كتشنر بنيش قبر المهدي ، وإلقاء عظامه في النيل ، وإرسال جمجمته إلى متحف في لندن . وشاء الله له أن يدوق كأساً كان يسقي بها . فقد مات غريقاً عام ١٩١٦م بعد أن هَوَتْ به السفينةُ إلى قاعِ اليمِّ .

(٢) السفر : الكتاب .

(٣) يقول : إِنَّ الْحِكْمَةَ بِلَا بَحْثٍ تُعَدُّ شَيْئاً حَقِيراً .

ظهورُ دَرُوشِ السُّودانِ

هو ذا في الماءِ برقٌ يأتلق
وَمِنَ الفِرْدَوْسِ ضاعَ نَفْحُ عَطْرٍ
إِنَّ مِنْهَا الدُّرُّ فِي القاعِ اسْتَقَز
قال « كشنر انظُرَنَّ يا فهِم
ما جباك الله من قبرٍ يَضُمُّكَ
ثُمَّ ضاعَ في اللِّسانِ المَنطِقُ
قال « هبِّي أنتِ يا رُوحَ العَرَبِ
يا فؤادُ ! ابنِ السُّعودِ ، فيصَلُ
أوقِدُوا في الصِّدْرِ ناراً أُخْمِدَتْ
واديَ البطحاءِ أنجب خالدا
أمةَ الإيمانِ ، يا سودَ الجلودِ
فإلامَ تَجْهَلُونَ سَيْرَكُم
ثُمَّ يعلو المَوجُ حَتَّى يَندَفِقُ
لاخَ بِالرُّوحِ لَنا درُوشُ مِضرٍ^(١)
« كشنر » في صَدْرِهِ ذابَ الحَجَزُ^(٢)
إنما هذا ترابي يَنْتَقِمُ^(٣)
بل رُويتَ بينَ أمواجِ تَطْمُكُ^(٤)
والرِّفِيرُ من حِشاهِ يَحْرِقُ
قلدي الأسلافَ في ماضي الحَقَبِ^(٥)
كلكم مِثْلَ الدُّخَانِ يَرْفُلُ^(٦)
أزجِعُوا أيامَ دُنيا ضيَعَتْ
نشتهي التَّوْحِيدَ فيكَ عَرِّدا
منكمُ اسْتافَ عِطْراً لِلخُلُودِ^(٧)
وتولُّونَ سِواكُمُ أمْرَكُمُ
ليت شعري هلْ تخافونَ البلاءِ

(١) ضاع العطر : انتشرت رائحته . نفع : فاح .

(٢) كشنر هو اللورد كشنر . وهكذا أورد الشاعر اسمه مراعاة لوزن الشعر . واستعر : التهب .

(٣) الفهمُ : السريع الفهم .

(٤) طم الماء : غمر .

(٥) الحَقَبُ : جمع حِقْبَةٍ : وهي السَّنَةُ والمِدَّةُ من الزَّمانِ لا وَقْتٌ لها .

(٦) فؤاد الأول المتوفى عام ١٩٣٦ كان ملكاً لمصر . وابن السعود المتوفى عام ١٩٥٣ كان ملكاً للمملكة العربية السعودية : وكان فيصل ملكاً للعراق وتوفى عام ١٩٣٣ .

(٧) السُّود : هم العرب . واستاف : شمَّ .

البلاءُ كانَ لِلْمَرءِ الصَّفَاءِ^(١)

قد سَكَنَّا يثرباً والحِجْبُ نَجْدًا أينَ يا حادي حُدَاءَ هَزَّ وَجْدًا^(٢)
 ديمَةً تهمي وأرضٌ خُضِرَتْ فكأنَّ الحَطَّواتِ أُثْقَلَتْ^(٣)
 الفراقُ وهو يُضنني طَوِيل امضِ في أرضٍ بها عُشْبٌ قليل
 نشوةُ النَّاقَةِ عَشْبٌ ، لي حبيب لك حبلٌ ، وَلَمَنْ أَهْوَى قُلُوبُ^(٤)
 جعلوا للماءِ في الصَّحرا سبيلا في الجبالِ بَلَّلَ الماءُ النَّخِلا
 وتالتُ في التُّلالِ ظبيتان فتأملُ ، كيفَ مِنْها تَهَيَّطان
 ترشفتان مِنْ مياهِ النبعِ قَطَرا ترمُقانِ مَنْ بتلكَ الأرضِ مُرًّا
 وَمِنْ الماءِ الرَّمالُ كالحرير هانَ فيها كلُّ سِيرٍ لِلْبَعيرِ^(٥)
 مثلُ ريشاتِ السَّمانَةِ الغمام أهربَ الغيثُ فَقَدْ شَطَّ المَقامِ^(٦)

قد سَكَنَّا يثرباً والحِجْبُ نَجْدًا
 أينَ يا حادي حُدَاءَ هَزَّ وَجْدًا «

- (١) يذكر الشاعر بحديثٍ للنبيِّ قال فيه : (أشدُّ الناسِ بلاءَ الأنبياءِ ثم الأمتلُ فالأمتلُ إلى أن قال : فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركه يمشي على الأرضِ وما عليه خطيئة) .
- (٢) يثرب : المدينة المنورة . والحِجْبُ : الحبيب . والحادي : من يسوق الإبل . ويغني لها .
- (٣) الديمة : المطر يدوم في سكون . ويهمي : ينهمر . وخضَّرَ الشيء : جعله أخضر اللون . يقول : إنَّ المطرَ يُنبِتُ العشبَ في الأرضِ ، فيصبحُ سيرُ الإبلِ في الأرضِ المعشبة صعباً .
- (٤) يوجه الكلام إلى الحادي قائلاً : إنَّ الناقه تجد في العشب لذتها ونشوتها . أما هو فنشوته بالحبيب . الحادي يملك الحبل الذي يعقل به ناقته ، أما الحبيب فيملك قلب من يهواه .
- (٥) هان : سهل .
- (٦) السماناة : مفرد السَّماني ، وهو نوعٌ معروفٌ من الطيور . وشَطَّ : بَعَدَ .

القسم الرابع

فَلَكَ الْمَرِيخُ

أهل المَرِيخ

تَحْتَ هَذَا الْمَاءِ عَيْنِي أُطِيقَتْ
 نَحْوَ دُنْيَا طَابَ لِي أَنْ أَرْحَلَا
 شَمْسُنَا فِي الْأَفْقِ مِنْهَا أَشْرَقَتْ
 فَإِذَا بِالْجِسْمِ رَوْحاً يَجْهَلُ
 رَوْحُنَا كُلَّ لَهَيْبٍ تُخْمِدُ
 لَمْ تَشِخْ ، وَالْيَوْمُ مَرٌّ كَالطَّيُورِ
 ثُمَّ عَنِّي الذَّاتُ مِنِّي أُبْعِدَتْ
 وَالرَّزْمَانُ وَالْمَكَانُ بُدِّلَا
 وَلَهَا لَيْلًا وَصَبْحًا أُزْجِدَتْ
 عَنِ زَمَانٍ وَمَكَانٍ يُفْضَلُ
 إِنَّهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ تُسْعِدُ
 إِنَّ لِسَالِيَامٍ مِنْهَا أَلْفَ نُورٍ^(١)

هذه الأيامُ مِنْهَا كَمْ تَوَالَّتْ

الدُّنْيَى مِنْهَا وَلَوْلَاهَا لَزَالَتْ^(٢)

ذَلِكَ الْمَرْصَدُ فِي مَرَجٍ سَمَقُ
 الْقِبَابُ الْخَضِرُ لَأَحْتُ أَشْهَدُ
 لَا تَسَاعُ مَا أَرَى حِدَاً طَلَبْتِ
 قَالَ شَيْخُ الرُّومِ وَهُوَ مَرشِدِي
 مِثْلُ دِيَانَا لَهُ لَوْنٌ وَرِيحُ
 وَكَأَهْلِ الْغَرْبِ فِيهِ مَنْ سَكَنُ
 الثُّرَيَّا قَدْ يَصْنِدُ بِالْوَهْقِ^(٣)
 عَالِمٌ هَذَا لَدَيْنَا أَسْوَدُ
 فِي فِضَاءٍ لِلسَّمَاءِ كَمْ نَظَرْتِ
 « أَنْتِ فِي الْمَرِيخِ فَاسْمَعِي وَأَشْهَدِي
 فِيهِ بِلْدَانٌ وَبُنْيَانٌ وَسُوحٌ^(٤)
 سَبَقُونَا كَلْنَا فِي كُلِّ فَنٍ

(١) شاخ : صارَ شيخاً .

(٢) الدُّنْيَى : جمع دنيا .

(٣) سَمَقٌ : ارتفع . الْوَهْقُ : جبلٌ في طرفه أنشودة يطرح في عنقِ الدَّابَّةِ حتى تؤخذ .

والشاعر يشبه المنظار الطويل الذي تشاهد به النجوم في المرصد بالوَهْقِ .

(٤) السُّوحُ : جمع ساحة . وَالرِّيْحُ : الرائحة .

قَهَرُوا حَتَّى الزَّمَانَ وَالْمَكَانَا
 إِنَّ وَعِرَاءَ فِي الْعَقُولِ مَهْدُوا
 قَلْبُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالطَّيْنِ الْمُقَيَّدِ
 كَانَ بِالطَّيْنِ لِقَلْبٍ مَنزِلُ
 تَهَبُ الرُّوحُ الْخُمَارَ وَالسُّرُورَا
 الوجودُ عِنْدَنَا فِي مَظْهَرَيْنِ
 جِسْمَنَا وَالرُّوحُ طَيْرٌ فِي قَفْصِ
 وَإِذَا مَا جَاءَ يَوْمٌ لِلْفِرَاقِ
 بِالْمَنُونِ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ يُخْبِرُ
 رُوحَهُم بِالْجِسْمِ مَا إِنْ رَبَّيَوهُ
 انْدِمَاجِ الْجِسْمِ فِي النَّفْسِ الْفَنَاءِ
 وَكَأَنِّي قُلْتُ مَا لَا يُفْهَمُ
 فِي عُلُومِ لِفَضَا كُلِّ شَأْنَا^(١)
 الْخَفَايَا فِي الْفَضَاءِ شَاهَدُوا
 وَهَنَاكَ الْجِسْمُ بِالْقَلْبِ الْمُصَفَّدِ^(٢)
 كُلُّ مَا شَاءَ بَيْنِي يَفْعَلُ
 تَمْنَحُ الْغَيْبَ لْجِسْمٍ وَالْحُضُورَا^(٣)
 جِسْمَنَا وَالرُّوحُ مَا لَاحَتْ لِعَيْنِ
 سَاكِنُ الْمَرِيخِ عَنِ فِكْرِي نَكْصَ^(٤)
 أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ حَيًّا بِاخْتِرَاقِ
 وَيَقَالُ بَعْدَ يَوْمٍ سَوْفَ تُقْبِرُ^(٥)
 وَلِهَذَا جِسْمُهُمْ لَمْ يَأْلُفُوهُ^(٦)
 وَمِنَ الدُّنْيَا فِرَازٌ وَانْطَوَاءُ^(٧)
 لَكَ رُوحٌ وَبِجِسْمٍ تُحْكَمُ !

بِرَهَةٍ لَا غَيْرَ تَبْقَى هَاهُنَا

لَمْ يُشَاهِدْ مِثْلَ هَذَا غَيْرُنَا

(١) شأى : سبق .

(٢) صفد : قيد .

(٣) الخمار : صداع السكر والمراد هنا السكر .

(٤) الفكرى : إعمال الخاطر في الشيء .

(٥) المنون : الموت .

(٦) ربه : رباه .

(٧) يقول : إن الفرار من الدنيا ، والانطواء على النفس موتٌ كإدماج الجسم في النفس .

ظهور فلك المريخ من المرصد

ممسياً كان بعلمٍ مصباحاً ^(١)	ذاك شيخُ العلمِ بالثلجِ التحي
كنصارى الغربِ في لبسِ المُسوخِ ^(٢)	كشيوخِ العزبِ في الفكرِ السَّبوحِ
مشرقُ الوجهِ كأتراكِ يَمرو ^(٣)	وهو همُّ بقوامٍ مثلَ سرو
لَمَعَتْ عيناهُ بالفكرِ العميقِ	وعلى علمٍ بمعنى للطريقِ
قال كالخيَّامِ والطوسي كلاماً ^(٤)	وكورِدِ كان قد ألقى الكَمَامَا
وهو في « تحت » و « فوق » لم يُقَمِّ	« قلبُ الطينِ أسيرُ الكيفِ والكَمِّ
جوهَرَ السَّيارِ أعطى ما تَبَّتْ ^(٥)	وأطارَ التُّربَ ، ريشُ ما تَبَّتْ
منهما شاهدتُ عَرَضَ المُستَحِيزِ ^(٦)	عَقْلُهُ والقول كالماءِ التَّمِيزِ
ساكنُ المريخِ هذا قال شِعْراً	كانَ حلماً ما أرى أم كان سِخْراً
بيننا من كانَ مِنْ أَهْلِ الصِّفَا	قال « في عهدِ النَّبِيِّ المصطفى

(١) أمسى وأصبح : دخل في المساء والصبح .

(٢) الفرس السَّبوح : السريع . والمسوخ : جمع مسح بالكسر وهو الكساء من شِعْرِ ، كثوب الرُّهبان .

(٣) الهِمُّ : الشيخ الفاني . ومرو : عاصمة خراسان بإيران . والأتراك مضرِب المثل في الحسن عند شعراء الفرس .

(٤) الخيَّام : هو العالم الفلكي المفكِّر عمر الخيام صاحب الرُّبَاعِيَّات المشهورة من أهل القرن السادس الهجري . والطوسي هو نصيرُ الدين الطوسي من أهل هذا القرن . وله المؤلفات في المنطق والحكمة ، والأخلاق ، والعقائد . وله شهرةٌ مستفيضةٌ بحذقه في علم الفلك . وقد ارتقى هذا العلم بفضلٍ منه ، وأسس هولاءُ مرصداً في مدينة مراغة كان نصير الدين يرأس العمل فيه .

(٥) التُّرب : التراب . يقول : إنه أطار الترابَ وما للتراب ريش ولا جناح ليطير ، ثم أشار إلى الكواكب السيارة والثابتة .

(٦) الماء النَمير : الماء الكثير . والمستحيز : الطريق المعترض لا يدرى أين منغذه . واعتراضه يثير الحيرة .

هذه الدُّنيا بعقلٍ أبصرا ورأى الإنسانُ ماذا دبَّرا
الجنّاحَ في سمواتِ بسَطَ في الحجازِ وسَطَ بيدااءِ هَبَطَ^(١)
ما رأى في الخافقينِ قَدْ رُقِمَ في كتابٍ كان أبهى مِنْ إِرَمَ^(٢)
فارساً شاهَدْتُها والغَرْبَ رُزَّتْ أرضَ مِصرَ جَبَّتْها في الهندِ كُنْتُ^(٣)
وعن الأرضِ تَيَقَّنْتُ الخَبَرَ وَيَخِرُّ وَيَبْرُّ لِي سَفَرَ^(٤)
وعراكُ المرءِ في الدُّنيا رَعِينَا
وهو حقّاً لَيْسَ يَدْرِي مالدينا^(٥)

الرُّوميُّ

من سماءِ كُنْتُ من أرضِ ريفي ثملٌ ماذقتُ طعاماً للرَّحِيقِ^(٦)
رجلٌ نَجْدٌ يُسَمَّى زنده رودا خَرَّ سكرًا إذ رأى هذا الوُجودا^(٧)
أرضُكم هذي إليها قد وصلنا نحنُ في الدُّنيا وَلَكِنَّا خرجنا
التَّجَلِّي نَحْنُ عنه الباحثونا والدَّلِيلُ أَنْتَ نرضى أن تُكونا

-
- (١) البيداء : الصحراء .
(٢) الخافقان : المشرق والمغرب . ورقم : كتب . وإرم : تلميح من المؤلف إلى قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ آلَمَمَادِ ﴾ [الفجر : ٧] وقال بعض المفسرين : إنّ إرم ذات العماد مدينةٌ عظيمةٌ قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الياقوت والزُّبرجد .
(٣) جاب البلاد : قطعها .
(٤) تيقن الأمر : علمه وتحققه .
(٥) رعى : راقب .
(٦) الرَّحِيق : الخمر . يقول : إنه سكران ولم يذق خمراً .
(٧) النَجْدُ : الشُّجاع . خَرَّ : سقط .

حكيمُ المِريخِ

مرغدين تلك أرضُ برخيا
فرز مرزَ بالشُرورِ الأمرُ
قال : « أنت هانيءٌ كالعادة
عالمٌ ، ما أنت فيه يُفضَلُ
وعلا حتّى على تلك الجنانِ
أيراه الله ؟ إنني ما دريتُ !
قد خلا حتّى من الربِّ الدّخيلِ
ليسَ فيه من طوافٍ أو سُجودِ
قالَ فانهضْ دبرنً خدعتك
ما بهذا السّخرِ أغوي جدّنا

برخيا جدُّ لأجدادِ ليا^(١)
ولديه في الجنانِ الحاضرُ^(٢)
طالما ألزمتَ سيرَ الجادّةِ^(٣)
يجعلُ الجنّةَ زهراً يذُبُلُ^(٤)
إنّه فوقَ الزّمانِ والمكانِ
مثلهُ حرّاً وحقّي ما رأيتُ !^(٥)
ليسَ فيه من كتابٍ أو رَسولِ !
لا ولا فيه الدّعاءِ لِلحميدِ
اذهبنَّ فيه أفرغِ صَورتكُ^(٦)
فالإلهُ عالمًا أعطى لنا

إنّه من فضلِ ربِّ العالمينا
امضِ فيه وتأمّلْ مَرغدينا

- (١) برخيا : اسم الجدّ الذي يتخيله إقبال لسكان المريخ . ولم يُلقَ سمعاً إلى وسوسة الشيطان .
- (٢) فرز مرز : اسم يتخيّله الشاعر كمرغدين .
- (٣) الجادة : وسط الطريق : وألزمه السير في الجادة كناية عن إلزامه عدم الانحراف إلى الشر .
- (٤) يحدثه عن عالم آخر أحسن مما هو فيه ، وحسنه ربيعٌ دائم ، وكأنّ الجنّةَ قياساً عليه ربيع لا يدوم ، أو زهرة سرعان ما تذبل .
- (٥) يبالغ الشاعر في وصف هذه الشخصية الخيالية بالكفر . والمبالغة من مقومات الشعر وسماته .
- (٦) هذا كلام برخيا .

التَّجْوَالُ فِي مَدِينَةِ مَرْغَدِينَ

البناء في السَّمَاءِ كَانَ طَوَلَا
 سَاكِنُوهَا قَوْلُهُمْ مِثْلُ الشَّهَادِ
 مَا بِيْتَحْصِيلِ وَكَدًّا فِكْرُهُمْ
 مِنْ أَرَادَ الْمِلْحَ فِي نَوْرِ وَجَدَ
 الْعِلْمُ وَالْفَنُونُ تَخْدُمُ
 إِنَّمَا الدِّينَارُ كَانَ كَالصَّنَمِ
 آلَةُ الشَّيْطَانِ لَمْ تَقْهَرِ طَبِيعَهُ
 إِنَّ لِلْفَلَاحِ مِصْبَاحاً أَنَارَا
 آمناً يَرُوي نَبَاتاً يَمْلِكُكُنَا
 هَاهُنَا مَا لَاحَ جَنْدِيٌّ لِرَائِي
 مَرْغَدِينَ لَيْسَ فِيهَا مِنْ قَلَمٍ
 لَيْسَ فِي الشُّوقِ نِدَاءٌ مِنْ تَبَطَّلُ

فِي السُّمُوِّ مَا عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَا
 زَانَهُمْ حُسْنٌ وَطِيبٌ فِي الْفَوَاذِ^(١)
 سَرُّ تِلْكَ الشَّمْسِ أَفْشَى عِلْمُهُمْ
 مِثْلُ مِلْحٍ مِنْ بَحَارٍ يُسْتَمَدُّ
 وَازِنُوهَا بِالنُّضَارِ مِنْ هُمْ؟^(٢)
 أَبْعَدُوا الْأَصْنَامَ عَنْ هَذَا الْحَرَمِ
 مَا الدِّخَانُ فِي السَّمَوَاتِ الْوَسِيعَةِ^(٣)
 مَا لَكَ لَمْ يَخْشَ حَتَّى إِنْ أَغَارَا
 مَا لَهُ فِي مَلِكِهِ مِنْ يُشْرِكُنَا
 لَا وَلَا مِنْ عَاشٍ مِنْ مِصْرَ الدَّمَاءِ
 فِرْيَةٌ لِلْخَادِعِينَ قَدْ رَقَمَ^(٤)
 لَا وَلَا فِي الْأُذُنِ نَوْحٌ مِنْ تَسْوَلُ^(٥)

حَكِيمُ الْمَرِيخِ

لَا مَكَانَ هَاهُنَا لِلسَّائِلِينَ
 وَالْعَيْيُدُ لَا تُرَى وَالْمَالِكِينَ

-
- (١) الشَّهَادُ : جَمْعُ شَهْدٍ .
 (٢) النُّضَارُ : الذَّهَبُ .
 (٣) يَقُولُ : إِنْ الْأَلَةَ شَيْطَانٌ لَا تَقْهَرُ الطَّبِيعَةَ ، وَدِخَانُهَا لَا يَعْكَرُ صَفْوُ السَّمَاءِ الْوَاسِعَةِ .
 (٤) الْفِرْيَةُ : الْكُذْبُ وَاسْتِحْلَاقُهُ . وَرَقَمَ : كَتَبَ .
 (٥) تَبَطَّلُ : تَعَطَّلَ ، وَلَمْ يَعْْمَلْ .

زنده رود

بقضاء الله هذا من حُرْمِ وبأمرِ الله ذاك من حُكْمِ
إنما التقديرُ لله المقلدُ ليس من تذييرِ إنسانٍ مُدبِّرِ

حكيمُ المريخ

القضاءُ إن عَدِمْتَ خَيْرَهُ مِنْ إلهِ الكَوْنِ فاطلبْ غَيْرَهُ^(١)
سُؤالِ اللهِ كُنْ أنتَ الجديرا يملكُ اللهُ الكَثيرَ والكثيرا^(٢)
كلُّ مالِ الذَّاتِ في قَوْمِ هَدَرَ إنَّهُمْ لَمْ يُذِرِكُوا معنَى القَدْرِ^(٣)
رمزُهُ حرفانِ ، هَلْ أذَرَكْتَهُ « إن تَغَيَّرَتْ فَقد غَيَّرْتَهُ »
كُنْ تراباً لِتَطِيرَ في الهِواءِ حجراً كُنْ بِكَ تحطيمُ الإناءِ !
أنتَ طَلٌّ ؟ فالسقوطُ فَوْقَ زَهْرٍ أنتَ بحرٌ ؟ فالخُلُودُ كلُّ دَهْرٍ^(٤)
قد صَنَعْتَ لَكَ دوماً أنتَ لاتا ما ثَبَّتْ ، فَلتَعَلَّمَكِ النَّباتا
أنتَ ما لم تَرَفُضِ الإيمانَ نَفْسُكَ عالمَ الأفكارِ فيه كانَ حَبْسُكَ
قد ينالُ المالَ مَنْ يَلْقَى التَّعَبَ وعديمُ الأيْنِ مَوْفُورُ النَّسَبِ^(٥)
كانَ هذا أصلَ دينِ يا غريرِ !؟ فليزدِ في فَقْرِهِ هذا الفَقِيرِ^(٦)

(١) القضاء : ما يقدره الله للإنسان .

(٢) يريد الشاعر ليقول : إن الإنسان يستطيع أن يسأل الله قدراً آخر ، وكأنه بذلك يستطيع اختيار قدرٍ يوافقهُ .

(٣) هدر الدم : ذهب باطلاً ليس فيه قَوْدٌ . واستعير ذلك للمال إذا ضاع في غيرِ نفعٍ .

(٤) الطل : الندى أو أضعف المطر . وإقبال يلمح إلى قدر الضعيف وقدر القوي .

(٥) الأين : التعب . والنَّسب : المال .

(٦) الغرير : من لا تجربة له . وإقبال ينزه الدين عن الدعوة إلى الكسل ، لأنَّ الغنى والفقير ما قدر الله للمرء بقطع النظر عن كسله أو توفره على عمله .

أَيُّ دِينٍ ! وَالِى نَوْمِ دَعَاكَ فَاطْلَتِ النَّوْمَ لَا تَبْدِي حَرَكَاتِكَ
 أَفَسِحْرٌ ذَاكَ أَمْ دِينٌ لَكَ
 نَشْوَةُ الْأَفْيُونِ تَمْحُو وَغَيْكَ ؟

أَعْلِمْتَ أَنْتَ مِنْ أَيْنَ التُّهَى هَذِهِ الْحَوْرَاءُ أَيْنَ طِينُهَا
 قُوَّةٌ فِي الْفِكْرِ كَانَتْ لِلْحَكِيمِ طَاقَةٌ بِالذِّكْرِ كَانَتْ لِلْكَالِمِ
 ذَلِكَ الْقَلْبُ عَلَيْهِ مَا خَطَرَ وَجَمِيعُ الْمُعْجِزَاتِ مِنْ فَطَرَ (١)
 أَصْبِحْ أَنْتَ ؟ مَا هَذَا بِقَوْلِكَ تُنْجِزُ الْأَعْمَالَ ؟ لَكِنْ مَا بِحَوْلِكَ (٢)
 كُلُّ هَذَا كَانَ فَيْضاً لِلرَّبِّيعِ أَوْ رِبِيعِ فَطَرَهُ اللهُ الْبَدِيعِ
 مَا الْحَيَاةُ ؟ مَعْدَنٌ لِلجَوْهَرِ الْأَمِينُ أَنْتَ ، مُلْكُ الْآخِرِ (٣)
 يَشْرَفُ الْإِنْسَانُ بِالطَّبْعِ الْجَوَادِ خِدْمَةُ الْخَلْقِ لَهُ كُلُّ الْمُرَادِ
 تِلْكَ كَانَتْ شِمَةً لِلْأَنْبِيَاءِ
 تَاجِرٌ مِنْ نَالَ رِبْحاً كَالْجِزَاءِ (٤) !

هَكَذَا تِلْكَ الرِّيَّاحُ وَالْمَطَرُ وَالْبَسَاتِينُ وَكُلُّ ذِي نَمَرٍ
 أَتَقُولُ مَا لَدِينَا مُلْكُنَا ؟ يَمْلِكُ الْمَلِكُ جَمِيعاً رُبَّنَا
 كُلُّ أَرْضٍ أَرْضُ رَبِّي فَاشْهَدُوا فِي الْكِتَابِ قَوْلُهُ ﴿ لَا تَفْسُدُوا ﴾ (٥)
 سَلَّمَ الْمَرَّةَ لِإِبْلِيسَ الْقِيَادَا إِنَّمَا إِبْلِيسُ مَنْ يَسْعَى فَسَادَا

- (١) فطر : أوجد .
 (٢) الحول : القدرة . يقول : إِنَّ الْفَصَاحَةَ لَيْسَتْ لِلْفَصِيحِ وَلَكِنَّهَا هِبَةٌ مِنْ اللَّهِ . وَكَذَلِكَ الشَّانُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى إِنْجَازِ الْعَمَلِ .
 (٣) المعدن : المنجم . يقول : إِنَّ الْإِنْسَانَ أَمِينٌ عَلَى هَذَا الْمَنْجَمِ وَاللَّهُ صَاحِبُهُ .
 (٤) لا ينبغي لمن يخدم الناس أن يتوقع منهم جزاء على خدمتهم ، وإلا كان كالتاجر الذي لا يتوقع إلا الربح .
 (٥) يشير إقبال إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، أي : لا تفسدوا فيها بالمعصية بعد الطاعة ، أو بالشرك بعد التوحيد ، أو بالظلم بعد العدل .

مَنْ أَمِينٌ مُنْجِزٌ أَعْمَالَهُ ؟
 قَدْ أَخَذْتَ أَنْتَ شَيْئاً غَيْرَ مِلْكِكَ
 اْمَلِكَنَّ الشَّيْءَ فِيهِ رَاغِبَا
 إِنَّ مُلْكَ اللَّهِ هَذَا فَلَترَدَّهُ
 ولماذا اليوم نشكو فقرنا ؟
 كُلُّ مَنْ طِيناً وَمَاءً لَازِمَا
 منزلٌ ذا أم طريق ؟ ما عَرَفْنَا
 جوهرٌ هذا لَكِنْ إِنْ مَلَكْتَهُ
 لَيْتَهُ اللَّهُ رَدَّ مَالَهُ
 يا لعمرى ليس هذا شأنُ مِثْلِكَ !
 أو فحاطبٌ مِنْكَ نَفْساً عَاتِبَا^(١)
 كي تَحُلَّ أَنْتَ فِي الأَعْمَالِ عُقَدَهُ
 مالربُّ الكونِ قُلْتُمْ : ذَا لَنَا !
 كَأْسُهُ بِالصَّخْرِ طَوْعاً حَطْمَا
 كلُّ شيءٍ كان يَبْدُو لو نَظَرْنَا
 والحصى إن لم يَكُنْ فِي الكَفِّ دُسْتَهُ^(٢)

قِصَّةُ فِتَاةِ المَرِيخِ التي ادَّعَتِ النُّبُوَّةَ

بِقُصُورٍ وَيَسُوحٍ قَد مَرَرْنَا
 مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ فِيهِ حَشْدُ
 وَأَنَارَ وَجْهَهَا مِنْ غَيْرِ رُوحِ
 لَفْظُهَا صُلْدٌ وَعَيْنُ مَا جَرَتْ
 الشَّبَابَ قَلْبُهَا مَا إِنْ سَعَزَ
 وَعَنِ العِشْقِ أَتَدْرِي مَا الحَبْرُ !؟
 هَكَذَا قَالَ الحَكِيمُ شَيْخُنَا
 جَانِبَ الأَسْوَارِ مَيِّدَانَا رَأِينَا
 وَفِتَاةٌ ، وَلِهَا كَالْبَانِ قَدُ
 وَالكَلَامُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ وُضُوحِ
 بِهَجَّةِ الأَمَالِ قَطُّ مَا دَرَّتْ
 وَلِهَا المَرَاةُ لَا تُبْدِي الصُّورَ^(٣)
 صَغُورَةً وَالعِشْقُ شَاهِينٌ كَسَرَ^(٤)
 « هَذِهِ الحَسَنَاءُ لَيْسَتْ مِنْ هُنَا »

(١) يقول : إذا لم تكن مالكا لشيء من حقك أن تملكه ؛ فعاتب نفسك على ذلك .

(٢) يقول : إذا ملكت الجوهر فأنت تنعم به ، وعليه فقد حققت متعتك بامتلاكه . أما إذا ملكه سواك فأبي متعة وفائدة لك منه ، وكأنه لا يكون الجوهر حقاً إلا إذا كان لك .

(٣) سَعَرَ النَّارَ : أوقدها .

(٤) الصَّعُورَةُ : أنثى الصَّعُو ، وهو عصفورٌ صغير . والشَّاهِينُ : طائر من جنس الصقر . وَكَسَرَ : ضمَّ جناحيه لينقضَّ على فريسته .

فَزُرْمَرُزُ فِي حَدِيثٍ قَدْ صَدَقَ « مِنْ بِلَادِ الْغَرْبِ إِيَّاهَا سَرَقَ
لَقَّنَ الْحَسَنَاءَ أَسْرَارَ التُّبُوَّةِ تُمَّ فِي الْعَالَمِ الْقَاهَا بِقُوَّةِ !
مِنْ سَمَائِي قَدْ هَبَطْتُ الْيَوْمَ قَالَتْ دَعَوْتِي فِي آخِرِ الْأَيَّامِ كَانَتْ
عَنْ نِسَاءٍ وَرَجَالٍ مَا تَقُولُ وَصَرِيحُ الْقَوْلِ مَا عَافَ الْخُجُولُ !
سَأَقُولُ مَا الْمَصِيزُ مَا الْقَدْرُ ،
بِلِسَانِ تَفْهَمُونَ يَا بَشَرُ »

رسالة نبيّة المريخ

يا نساء ، أنتِ يا أمي الجلييلة
عيشُها ما كان إلا ظلمُها
إننا بالمشط نُزخِي شَعْرَنَا
الرِّجَالُ صَائِدُونَ ، حِذْرُكُنْ !
وإذا أبْدَوْا هياماً ماكرونا
كافرون ، ويُقيّمون الحَرَمَ
وعلى العيشِ إذا تمَّ اتِّفَاقُ
الأفاعي ؟ مَنْ تُطِيقُ لَدَغَهُمْ
قُلْنَ لي حَتَّامَ عَيْشِي كَالْحَلِيلَةِ (١)
إنما الحِرْزَمَانُ فِي الدُّنْيَا لَهَا
فِي الرِّجَالِ قَدْ وَجَدْنَا صَيْدَنَا
وَلَأَجْلِ الصَّيْدِ دَارُوا حَوْلَكُنْ (٢)
وَبِشْوَاقٍ وَشُجُونٍ خَادَعُونَا
وَلَكِنْ فِيهِ أَلْوَانُ الْأَلَمِ (٣)
فَالْوَصَالُ السُّمُّ وَالشَّهْدُ الْفِرَاقُ (٤)
لَا تُرْفِقَنَّ فِي الدِّمَاءِ سُمَّهُمْ (٥)

- (١) الحلييلة : الزوجة . والشاعر يجري الكلام على لسان فتاة المريخ موجهاً إلى النساء ،
وإنما أراد بكلامها التلميح إلى تبرُّج فتاة الغرب وصراحة تعبيرها عن مبادئ المرأة
المنحرفة التي تفضل الخليل على الخليل .
(٢) حذركن : احذرن .
(٣) الحَرَمَ هنا : بيت الزوجية .
(٤) الاتِّفَاقُ على العيش : الاتِّفَاقُ على الحياة الزوجية .
(٥) يشبّه الرجال في نظر هذه المرأة بالأفاعي .

كَلُّ أُمَّ سَوْفَ تَضَوِّي فِي ذُبُولِ
طَابَ عَيْشٌ لَيْسَ فِيهِ مِنْ حَلِيلٍ^(١)

إِنَّ هَذَا الْوَحْيَ يَأْتِينِي تَبَاعًا
عَصْرُنَا أَبَدِي لَنَا إِعْجَازَ فَنُ
فَلَدَيْكَ أَنْتَ مِنْ حَقْلِ الْحَيَاةِ
إِنْ وَجَدْتَ غَيْرَ مَرْغُوبٍ لَدَيْكَ
إِنَّ هَذَا الْعَصْرَ تَتْلُوهُ الْعُصُورُ
فَالْجِنِينَ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدِيمٍ
فَلَيْمَتْ ! يَبْدُو كَشَيْطَانٍ مَرِيدٍ
لِلْوُرُودِ الْحُمْرِ مِنْ أَرْضِ طُلُوعِ
وَخُدِّهِ سَرُّ الْحَيَاةِ قَدْ ظَهَرَ
دَعَاكَ مِنْ غَيْثِ الرَّبِيعِ يَا مَحَازَ
غَالِبِي مَا النَّاسُ قَدْ سَمَوْهُ فِطْرَةَ

طَابَ لِي الْإِيمَانُ عُمَقًا وَاتِّسَاعًا
الْجِنِينَ قَدْ نَرَى فِي طَيِّ بَطْنِ
مَا أَرَدْتَ مِنْ بَنِينَ أَوْ بَنَاتٍ
كَأَنَّ دِينًا قَتَلَهُ مِنْ غَيْرِ شَكِّ
وَلِأَسْرَارٍ وَأَسْرَارٍ ظُهُورِ
مَا رَأَى قَطُّ ظَلَامًا فِي الرَّحْمِ
حَيَوَانًا كَانَ فِي الْعَهْدِ الْعَهِيدِ^(٢)
لِلنَّدَى مَا هَمَّهَا قَطُّ الْوُقُوعُ !
مَا لَدَيْهِ مِضْرِبٌ هَذَا الْوَتْرِ^(٣)
وَلْتَمَّتْ ظَمَانًا تَطْوِيكَ الْبِحَازَ^(٤)
وَالْفَتَاةُ فَلْتَكُنْ مِنْ بَعْدِ حُرِّهِ

بِافْتِرَاقِ الْجَسَدَيْنِ وَحُدِّي

كِي تُصَانِي ، عَنْ رِجَالٍ فَابْعُدِي^(٥)

- (١) ضوي : ضَعْفَ وَنَحَلَ . يقول : إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا وَلَدَتْ اعْتَرَاهَا الضَّعْفُ وَالذُّبُولُ .
والحليل : الزوج .
- (٢) المرید : الخبيث . وهذه المرأة تريد للرجال أن يموتوا ويصبحوا حيواناتٍ منقرضةً .
والعهيد : القديم .
- (٣) المضرب : ما يضرب به العود وغيره . وكأنَّ سرَّ الحياة وترٌ يرسل الأنغام من غير
عازفٍ .
- (٤) المحار : صَدَفُ اللؤلؤ . وفي عقيدة القدماء أَنَّ مَطَرَ الرَّبِيعِ إِذَا سَقَطَ فِي الْمَحَارَةِ تَكُونُ
اللؤلؤ بها .
- (٥) يبالغ الشاعرُ في التهكم فيقول : إِنَّ افتراق المرأة عن الرجل في الحياة الزوجية دينٌ
التوحيد عندها ! لأنَّ تلازمَ الجسدَيْنِ أو الشخصَيْنِ في الزواج يعدُّ ثنويةً لا توحيداً !! .

الرُّومِيُّ

مَذْهَبُ الْعَصْرِ الْجَدِيدِ ! قِفْ لِتَنْظُرَ يَا لِعَمْرِي كُلُّهُمْ بِاللَّهِ يَكْفُرُ
إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ شَرَعَ لِلْحَيَاةِ فِي الْحَيَاةِ مَا لَنَا دِينَ سِوَاهُ^(١)
وَهِيَ فِي الظَّاهِرِ نَارٌ تَحْرُقُ وَبِنُورِ اللَّهِ قَاعٌ يُشْرِقُ
نَارُهُ قَدْ أُوْجِدَتْ كُلَّ الْفُنُونِ كُلُّ فَنٍّ كَانَ مِنْ فَرْطِ الْجُنُونِ !
إِنَّ عِشْقًا بَوًّا الْعِلْيَاءِ دِينًا
ذَلِكَ الدِّينُ فَخُذْ عَنْ عَاشِقِينَا^(٢)

-
- (١) المرادُ بهذا العشق عشقُ الصُّوفيةِ للذَّاتِ الإلهيةِ .
(٢) العلياء : المكانُ العالِيُّ وكلُّ ما علا من شيءٍ . والمعنى : أَنَّ العِشْقَ الإلهيَّ يسمو
بالذِّينِ . والعاشقون : عاشقو الذَّاتِ الإلهيةِ .

القسم الخامس

فَتَاوَى الْمُشْتَرِي

أرواحُ الحلاج^(١) وغالب^(٢) وقرّة العينِ الطاهرة^(٣)

لم تجذ لها مستقراً في الجنة
فَجَعَلَتْ تطوف على الدوام وإلى الأبد

قلبي المجنون إنّي قد فدّيتَ كلّ يومٍ منه صحراءَ وجذت^(٤)
إن بلغتُ منزلاً لي قال قُمْ القويُّ بحرّه كوبٌ يضمّ^(٥)
ما لاياتِ لربِّ الكونِ آخِرُ ما انتهى هذا الطريقُ يا مُسافر؟
الحكيمُ من يرى شيئاً ويخُبو والعليمُ ما يراهُ سوف يَزبو^(٦)

(١) الحلاج هو الحسين بن منصور ، ذلك الصوفي المعروف بشدّة الغلو والتطرّف في نزعاته الصوفية التي كان حريصاً على نشرها في الناس . فما ركن إلى الكتمان ، ولا كان منظوياً على نفسه . بل كان يصيحُ في الأسواق ، وهو في حالةٍ من الجذبة والطرب . وقال بالاتحاد مع بقاء كلّ عنصرٍ من عنصريه على ما هو عليه ، وأنهم بالحلول والكفر لقوله : (أنا الحق) فضلبَ عام ٣٠٩ هـ .

(٢) غالبٌ : هو من أعظم شعراء القارة الهندية ، نظم بالفارسية والأوردية ، ويثسّم شعره بيبعد الخيال ، ودقة التصوير ، وهو مفكّر عميق التفكير في تحليل النفوس ووصف الطباع . كانت وفاته عام ١٨٦٩ م .

(٣) الطاهرة : شاعرة إيرانية تُعرّف كذلك بقرة العين . وقد شايحت من يسمّى « الباب » في حركةٍ دينيةٍ تُعدُّ في الإسلام بدعةً مذهبيةً ، فصدر الحكم بقتلها في إيران عام ١٨٥٢ م . وشهرتها بشدّة الجراءة في التعبير عن الرأي ، كما كان من دعوتها إلى الشفور .

(٤) المجنون هنا هو العاشق المشبّه بمجنون ليلي ؛ الذي دلّه الحبُّ ، فهام على وجهه في القفار .

(٥) المتزلُّ هنا : مكانٌ نزول المسافر .

(٦) الحكيم هنا هو العالم . والعليم هو الصوفي . وتخبو النار : تخمد وتنطفئ . ويربو :

يزيد .

الحَكِيمُ طَبِيقٌ فَنُ مَا اخْتَبَزَ لِلْعَلِيمِ كَانَ مِيزَانَ النَّظْرِ^(١)
 الْحَكِيمُ الطَّيْنُ بِالْكَفَّيْنِ جَسًا وَالْعَلِيمُ مَسَّ تِلْكَ الرُّوحَ مَسًّا
 التَّجَلِّي كَانَ هَذَا مِنْ رَأَاهُ
 غَيْرَ أَنَّ ذَاكَ فِي ذَاتِ طَوَاهُ

عن جديدي مِنْ تَجَلَّى قَدْ بَحَثْتُ
 كُلُّ هَذَا كَانَ فِضًّا مِنْ طُهُورِ
 وَصَلَا مِنْ بَعْدِ أَنْ طَالَ الرَّحِيلُ
 ذَلِكَ الْعَالَمُ لِلتُّرْبِ الْمَقْرُ
 كَرُمِهِ مَا فِيهِ مِنْ كَأْسٍ لَنَا
 كَانَ جَوْفُ اللَّيْلِ بِالْقَمَرَاءِ ظَهْرًا
 فِي السَّمَاءِ تِلْكَ عَيْنِي تَنْسَرِبُ
 دَخَلْتَنِي هَيْئَةً مِمَّا أَرَى
 هَذِهِ أَرْوَاحُ طُهُورٍ تَظْهَرُ
 تَرْتَدِي ثَوْبًا جَمِيلًا أَحْمَرًا
 مِنْ ﴿ أَلَسْتُ ﴾ هَزَّهَا فَرَطُ اضْطِرَابِ
 « الزَّمِ الذَّاتِ » بِهَا الرُّومِي حَبَانِي
 مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الشُّوقِ فَاَنْظُرْ
 طَفْتُ بِالْأَفْلَاكِ مِثْلَ النَّايِ نُحْتُ
 أَلْهَبَ الرُّوحِ بِمَسِّ مِنْ سَعِيرِ^(٢)
 وَبِشَطِّ الْمُشْتَرِي كَانَ الشُّزُولُ^(٣)
 حَوْلَهُ شَاهَدْتُ أَقْمَارًا تَمُرُ^(٤)
 أَرْضُهُ مَا أَخْرَجَتْ قَطُّ الْمُنَى
 مَا عَرَفْنَا جَوْهَهُ بَزْدًا وَحَرًّا^(٥)
 وَأَرَى الْكُوكَبَ مِنْي يَفْتَرِبُ
 مَا أَرَاهُ كُلَّ شَيْءٍ غَيْرًا
 قَلْبُهَا بِالنَّارِ دُنْيَا يَضْهَرُ
 وَجْهَهَا ، وَالْقَلْبُ نَارٌ ، نَوْرًا
 سَكِرْتُ ، مِنْ لِحْنِهَا رَشْفُ الشَّرَابِ^(٦)
 « عِشْ بِأَنْفَاسِ لِمَنْ غَنَّى الْأَغَانِي »
 وَعَلَى تِلْكَ الْحُمَيَّا أَيْنَ تَعُشُّ

(١) المراد بالفن أصول العلم .

(٢) الطهور : الطاهر . والشاعر يشير إلى رجل طاهر النفس . والسعير : النار .

(٣) يريد بمن وصلا : العالم والصوفي .

(٤) التُّرْب : التراب . ومن أسماء الدنيا في الفارسية (خاكدان) بمعنى مجمع التراب .

(٥) القمراء : نور القمر .

(٦) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ

أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿

[الأعراف : ١٧٢] .

قَرَّةُ الْعَيْنِ وَمَنْصُورٌ وَغَالِبٌ حَرَمُ الْأَرْوَاحِ مِنْهُمْ شِبْهُ جَالِبٍ^(١)
لَحْنُهُمْ رَوْحاً يَمُدُّ بِالثَّبَاتِ
نَاظِهِمْ مِنْ جَوْفِ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ

لحنُ الحلاج

مِنْ تَرَابِي لِي لَهَيْبٍ مَا رَأَيْتُهُ مِثْلُ هَذَاكَ التَّجَلِّي مَا طَلَبْتُهُ
نَظَرْتِي أَمَعَنْتَ فِي ذَاتِي طَوِيلاً فَتَنَ الدُّنْيَا حَبِيبِي مَا شَهِدْتُهُ !
ذَاكَ شِعْرٌ أَيْنَ مِنْهُ مَلِكٌ جَمٌّ غَيْرُ مَقْتُولٍ بِعَشْقٍ مَا نَسَبْتُهُ^(٢)
عَقَلْنَا إِنْ كَانَ يَغْزُو أَيُّ بَأْسٍ ؟ عَشَقْنَا هَذَا وَحِيداً مَا عَرَفْتُهُ
الطَّرِيقَ وَالْمَقَامَ لَسْتُ تَدْرِي أَي لَحْنٍ لِسُلَيْمَى مَا سَمِعْتُهُ

(١) قَرَّةُ الْعَيْنِ وَمَنْصُورٌ اسمان للظاهرة والحلاج . وجلب : لفظ وصاح وضع .

والجالب : اسم الفاعل من جلب ولكن المراد هو ضجيج الأرواح لا ضجة الحرَم .

(٢) جَمٌّ أَوْ جَمَشِيدٌ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَسِ فِي الْعَهْدِ الْأَسْطُورِيِّ ، وَكَانَ مَشْهُوراً بِعَظَمَتِهِ ، وَاتِّسَاعِ

مَلِكِهِ . وَيُرِيدُ الشَّعْرَ بِالشَّطْرِ الثَّانِي مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَهُوَ لِشَاعِرٍ يُسَمَّى نَظِيرِي عَاشٍ فِي

الهند ، وَأَصْلُهُ مِنْ إِيْرَانِ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عَامَ ١٦١٢ م .

وهذا الشاعر يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ عَشَقاً لَيْسَ مَتاً . وهو يذكرنا بترديد شعراء الصوفية

لهذا المعنى ، ومنهم الشاعر العربيُّ عمرُ بنُ الفارض القائل :

هُوَ الْحُبُّ فَاسْلَمَ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ فَمَا اخْتَارَةَ مُضْنَى بِهِ وَلَهُ عَقْلٌ

وَعَشُّ خَالِيَاً فَالْحُبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سُقْمٌ وَأَخْرَهُ قَتْلٌ

وقيل في شرح هذا : إِنَّ الْمَوْتَ فِي الْحُبِّ عِنْدَهُ حَيَاةٌ تَفْضَلُ الْحَبِيبَ بِهَا عَلَى الْعَاشِقِ .

وَالْوَفَاءُ لِلْحَبِيبِ بِالْوَفَاةِ . وَالْمَوْتُ فِي حَيَاةٍ . وَالْمَيِّتُ خَارِجٌ عَنِ دَعْوَى قَدْرَتِهِ ، وَهَذَا

مَا يَظْهَرُ أَنَّ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ . وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ مَاتَ الْمَوْتُ الْاِخْتِيَارِيَّ قَبْلَ الْمَوْتِ

الاضطراري . وَعَلَيْهِ فَمَوْتُهُ حَيَاةٌ لِانْكَشَافِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْأَزْلِيَّةِ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ

شاعر آخر :

وَلَكِنْ لَدَيْ الْمَوْتِ فِيهِ صَبَابَةٌ حَيَاةٌ لِمَنْ أَهْوَى عَلَيَّ بِهَا فَضْلٌ

صَفْ لَنَا التُّونَ وَبَيِّنْ كَيْفَ صَيَّدَهُ لَا تَقُلْ لِي زُورُقٌ مَا إِنَّ رَكِيبَتَهُ^(١)
 إِنَّ شَيْخِي قَالَ لِي : لَوْلَا صِيعَابٌ صَادَفْتَنِي فِي طَرِيقِي مَا سَلَكَتُهُ !
 أَرَشَفُ الصَّهْبَاءَ فِي حَشْدِ التَّدَامِي
 قُلْ لَنَا شَيْخَ النُّضَالِ مَا اجْتَنَبْتَهُ^(٢)

لحن غالب

السَّمَاءُ مِثْلَمَا شِئْنَا نُدِيرُ والقضاء الكأسَ أزوئنا نُدِيرُ^(٣)
 شِخْنَةُ السُّلْطَانِ نَحْنُ مَا رَهْبْنَا للنَّوَالِ كَفْنَا مِنَّا نُدِيرُ^(٤)
 الْكَلِيمُ لَمْ يَنْلِ جَوَاباً لِلْخَلِيلِ وَجَهْنَا كُنَّا نُدِيرُ^(٥)
 سَارِقَ البُستَانِ مَاذَا أَنْتَ تَبْغِي سَلَّةٌ قَدْ أَفْرَعْتَ إِنَّا نُدِيرُ^(٦)
 نَحْنُ فِي رِفْقِ طَيُورِ الرِّوْضِ صَبْحاً نَحْوَ أعشاشِ لها كُنَّا نُدِيرُ^(٧)

- (١) التُّونَ : الحوت .
 (٢) الحشد : الجماعة من الناس . والشاعر يطرق المعاني الصُّوفِيَّةَ دون سواها . وقد ترجمنا هذه المنظومة ملتزمين أسلوب إقبال في الأصل الفارسي .
 (٣) أدار الكأس : قَدَّمَهَا بالتناوب إلى جماعة الشاربيين . وكلمة ندير هي الرديف في الأصل الذي التزمنا تكراره مع القافية الموحدة التي تسبقه .
 (٤) الشُّخْنَةُ : من يضبط البلد من قِبَلِ السُّلْطَانِ . والنَّوَالِ : العطاء . وإدارة الكفِّ للنوال كناية عن رفضه .
 (٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والشاعر يجنح إلى مبالغة الصُّوفية في معانيهم الرَّمْزية . فهو يقول : إِنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَى موسى إذا كلمه ، ولا يستقبل إبراهيم ضيفاً .
 (٦) يقول : إِنَّ السارق إذا أفعم سلَّته بشمارٍ سرقها من البستان أفرغنا تلك السَّلَّةَ مما فيها ، فعاد بها فارغةً .
 (٧) المعنى في هذا البيت متعلق بالمعنى في البيت الأول ؛ لأنه يقول : إِنَّهُ عَنِيفٌ مع العنيف ، رقيقٌ مع الرقيق .

حَيْدَرٌ جَدُّ لَنَا ، لَا تَعْجَبُوا نَحْوَ غَزْبٍ شَمْسَنَا إِنَّا نُدِيرُ^(١)

لَحْنُ الطَّاهِرَةِ

« آهٍ لَوْ كَانَ اللَّقَاءُ بِالْعُيُونِ

لَكَشَفْتُ لَكَ مَكْنُونَ الشُّجُونِ^(٢)»

كَيْ أَرَاكَ مِثْلَ أَنْسَامِ الصَّبَا

بِالْدَّيَارِ طُفَّتْ تَوَاقِ الْحَيْنِ^(٣)»

مِنْ نَوَاكٍ فِي عَيْونِي ذَابَ قَلْبِي

مَنْ رَأَى بَحْرًا جَرَى بَيْنَ الْجُفُونِ^(٤)»

إِنَّ لِلرُّوحِ شُفُوفًا خَاطَهَا

بِهَوَاكٍ مِخِيطُ الْقَلْبِ الْحَزِينِ^(٥)»

طُفَّتْ بِالْقَلْبِ طَوِيلًا لَمْ أَجِدْ

غَيْرَ مِنْ أَهْوَى ، وَيَخْفَى بِالْكُمُونِ^(٦)»

وَجَدْتُ مَنْ يَغْتَشِقُ بِالْقَلْبِ الصَّدِيعِ تِلْكَ رُوحِي مِنْهُ فِي الْحُزْنِ الْوَجِيعِ^(٧)

مَشْكَلاتٌ لِي تَوَارَتْ قَدْ بَدَتْ كُلَّ فِكْرِي كُلَّ ظَنِّي أَطْبَقْتُ^(٨)

(١) حيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٢) الشُّجون : الأحزان .

(٣) الأنسام : جمع نَسَم ، وهو نَفْسُ الرِّيحِ إذا كان ضعيفاً . والتواق : المشتاق .

(٤) النَّوى : البعاد .

(٥) الشُّفوف : جمع شِف ، وهو الثَّوبُ الرَّقيق الذي يُسْتَشَفُّ ما تحته . والمِخِيطُ :

الإبرة .

(٦) كَمَنْ كُمُونًا : توارى .

(٧) الصَّدِيع : المضدوع ؛ أي المشقوق . الْوَجِيعُ : المؤلم .

(٨) أطبق الشيء : غطاه .

بَحْرُ فِكْرِي فِيهِ مَوْجٌ مُضْطَرِبٌ شَطْهُ مِنْ عَضْفِ هَوْجَاءِ خَرِبٍ^(١)
 لَا تَضْيِغُ مِنْ زَمَانٍ مُدَّةً إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُحْلَلَ عُقْدَةٌ^(٢)
 وَإِلَامٌ أَنْتَ لِلْفِكْرِ الْأَسِيرِ
 وَمِنْ الْبَلْبَالِ فَلْيُخْلِ الضَّمِيرُ^(٣)

زنده رود يعرضُ مشكلاته على الأرواح

عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَعُدْنَا؟
 مِنْ جَنَّاتِ الْخُلْدِ هَلْ طَوَّعَا خَرَجْنَا؟

الحلّاج

مَنْ رَأَى خَيْرًا وَشَرًّا بِالْجَنَانِ مَا اسْتَقَرَّتْ مِنْهُ رُوحٌ بِالْجِنَانِ^(٤)
 جَنَّةُ الزَّاهِدِ حُورٌ أَوْ غَلَامٌ جَنَّةُ الْأَحْرَارِ فِي سَيْرِ دَوَامٍ^(٥)

- (١) الهوجاء : الريح التي تطلع البيوت .
- (٢) هذا البيت هو قول جلال الرومي للشاعر .
- (٣) إلام : أي وقت . والبلبال : الهمُّ وَوَسْوَاسُ الصُّدْرِ .
- (٤) الجنان بالفتح : القلب وبالكسر : الجنّات .
- (٥) يجري إقبال على مألوف شعراء الصوفية من الفرس الذين يتحكمون بالزاهد في شعرهم الرّمزي الذي يحتمل معنيين أحدهما قريبٌ غيرٌ مقصودٍ والآخر بعيد هو المقصود . وإنما أرادوا بذلك أن يقولوا : إنّ العاشق الإلهي ، أو الصوفي يتلقى الحقيقة إلهاماً من ربه ، ونوراً يشرق به قلبه ، ولا حاجة به إلى ترديد النظر في العلم ؛ لأنّ القلب عنده مصدرُ المعرفة . أما الزاهد أو غير الصوفي الذي يأخذ بظاهر النّص ولا يتجاوزُ القشور إلى اللباب فهو يعتمد على العقل وحده مصدرًا للمعرفة . ومن ثمّ كان الخلاف بين الصُوفيّة وغيرهم . وهم يبالغون في التحسين والتقييح محاولين البلاغة ، وكلامهم غير محمولٍ على ظاهره . ويدعون إلى التحرُّر من قيود من يعجز في نظرهم عن إدراك =

جَنَّةُ الزَّاهِدِ نَوْمٌ فِي التَّبَطُّلِ جَنَّةُ الْعَاشِقِ فِي الْكَوْنِ التَّائُلِ (١)
حَشْرٌ مِنْ يَزْهَدُ شَقٌّ لِلْقَبُورِ إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ صُبْحٌ لِلشُّشُورِ (٢)
وَأَسَاسُ الْعِلْمِ خَوْفٌ أَوْ رَجَاءٌ مَا لِعُشَّاقٍ عَلَى هَذَا اتِّكَاءٌ (٣)
يُرْهَبُ الْعِلْمَ مِنَ الْكَوْنِ الْجَلَالِ يُغْرِقُ الْعِشْقَ الرُّوَاءُ وَالْجَمَالَ
مَا مَضَى لِلْعِلْمِ أَوْ مَا قَدْ حَضَرَ وَإِلَى الْآتِي مِنَ الْعِشْقِ النَّظَرَ
مَذْهَبٌ لِلْعِلْمِ كَانَ وَهُوَ جَبْرٌ مَا لَدَيْهِ كُلُّهُ جَبْرٌ وَصَبْرٌ
يَا لِهَذَا الْعِشْقِ مِنْ حُرِّ غَيُورِ وَيَرَى الْكَوْنَ بَعَيْنٍ لِلْجَسُورِ
عِشْقُنَا مَعْنَى الشُّكَاةِ مَا دَرَى دَمْعُهُ فِي نَشْوَةِ لَمَّا جَرَى
كَانَ مَجْبُوراً وَحُرّاً قَلْبُنَا لَيْسَ مِنْ أَجْفَانِ حُورٍ سَهْمُنَا (٤)
الْفِرَاقُ كَانَ نَاراً فِي الْفُؤَادِ رَوْحُنَا يَحُلُّو لَهَا مَرُّ الْبُعَادِ
وَبِلَا وَخْزٍ وَحَرٍّ كَيْفَ تَحْيَا قَفَّ عَلَى نَارٍ كَوَتْ سَاقِيكَ كَيْئَا !
الْحَيَاةُ هَكَذَا ، تَقْدِيرُ ذَاتِكَ وَهُوَ تَعْمِيرٌ لَهَا ، سِزِّ فِي حَيَاتِكَ
ذِرَّةٌ لِلشُّوقِ شَمْسٌ حَاسِدَةٌ صَدْرُهَا فِيهِ السَّمَاءُ رَاقِدَةٌ
إِنْ يَكُنْ لِلشُّوقِ فِي الدُّنْيَا الْهُجُومُ
يَمْنَحُ الْخُلْدَ لِفَانٍ لَا يَدُومُ

- الحقيقة ، ولا يُذركها إلا القلب العامر بعشق الذاتِ الإلهية .
- (١) التبطل : التعطل عن العمل ، والشاعر يرمز إلى ضرورة التائل في الكون لأنه مظهرٌ لِلْقُدْرَةِ الإلهية . وشعرٌ الصوفية من الفرس خصوصاً زاخرٌ بمثل تلك الرموز التي تجد مبالغاتها مساعاً في ذوقهم .
- (٢) نشر الله الموتى نشرأ ونشوراً : أحياهم .
- (٣) يشير إقبال إلى من يعبد الله رغبةً في ثوابه ورهبةً من عقابه ، ويقول إِنَّ الصُّوفِيَّ يَعْبُدُ اللَّهَ وَيُحِبُّهُ لِمَجْرَدِ الْعِبَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ .
- (٤) يقول : إِنَّ قَلْبُنَا كَانَ حُرّاً مَعَ خُضُوعِهِ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ ، وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْقَضَاءُ سَهْمًا ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عَيُونِ الْحُورِ الْعَيْنِ .

زندہ رود

بالرَدَى والعيشِ تقديرٌ جرى
ذلكَ التَّقْدِيرُ مِنَّا مَنْ دَرَى^(١)

الحلاج

مَنْ لَهُ التَّقْدِيرُ سَهْمٌ سُودَا يَفْرَعُ الشَّيْطَانُ مِنْهُ وَالرَّدَى^(٢)
كَانَ جَبْرًا دِينَ أَصْحَابِ الْهِمَمِ وَالْقَوَى عِنْدَ رِجَالِ فِي الْقِمَمِ^(٣)
الْحَصِيفُ زَادَ فِي عَقْلِ بَجْبَرِ وَالغَرِيرُ مِنْهُ فِي أَعْمَاقِ قَبْرِ^(٤)
خَالِدٌ بِالْجَبْرِ هَدَّ عَالِمَا أَسْنَا جَبْرٌ لَنَا قَدْ هَدَّمَا^(٥)
الرُّضَا مِنْ شَأْنِ ذِيكَ الْبَطْلِ وَهُوَ ثَوْبٌ فِيهِ فَسَلٌ مَا رَفَلَ^(٦)

ولمولانا عَرَفْتَ مَا الْمَقَامُ
فَلْيَشْنُفْ أذُنَيْكَ ذَا الْكَلَامِ

المجوسى زمان بايزيد مهتدي قال له جدد سعيد
يا أخى كُنْ كمثلِي مُؤْمِنَا لِتَكُونَ لِلنَّجَاةِ ضَامِنَا
إِنَّمَا الْإِيمَانُ هَذَا يَا مُرِيدَ وَهُوَ إِيْمَانٌ يَرَاهُ بَايَزِيدُ
فَأَنَا عَنْ حَمَلِ ذَاكَ أضعُفُ
وبروحى وهى تُعْبِي يَعْنُفُ

(١) التقدير : قضاء الله .

(٢) يريد بالسهم السِّلَاحُ الذي يتسلَّحُ به ، وهو القَدْرُ الذي يفرع الشيطان والموت .

(٣) المرادُ برجالِ فِي الْقِمَمِ رجالٌ فِي أَوْجِ الْعِظْمَةِ وَعُلُوِّ الْقَدْرِ .

(٤) الحصيف : العاقل . والغرير : من لا تجربة له .

(٥) الأس : الأساس .

(٦) الفسل : الضعيف الذي لا مروءة له . ورفل : جرَّ ذيله وتبختر .

غَيْرُ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ مَا لَدِينَا وَجَمِيعاً سَلَّمُوا ؟ لَا مَا رَأَيْنَا
أَنْتَ قُلْتَ : كُلُّ شَيْءٍ بِالْقَدَرِ وَهُوَ قَيَّدٌ ، يَا تُرَى أَيْنَ الْمَفْرِ
قَدَاسَاتِ الْفَهْمِ يَا هَذَا كَثِيرَا مَا رَأَيْتَ الذَّاتَ وَاللَّهَ الْقَدِيرَا^(١)
بِالدُّعَاءِ الْمَرْءُ كَانَ مُؤْمِنَا « لَكَ نَحْنُ يَا إِلَهِي كُنْ لَنَا »
وَقَضَاءُ اللَّهِ كَانَ عَزْمَهُ
سَهْمُهُ فِي الْحَرْبِ كَانَ سَهْمَهُ^(٢)

زندہ رود

فِتْنَةٌ هَا قَدْ أَثَارَ الْغَافِلُونَ هُوَ ذَا الْمَصْلُوبُ يَبْدُو لِلْعُيُونِ^(٣)
الْوَجُودُ وَهُوَ سَرٌّ قَدْ عَرَفْنَا أَيُّ ذَنْبٍ قُلْنَا كُنْتَ اجْتَرَحْتَ^(٤)

الحلاج

إِنَّ فِي صَدْرِي لَصُوراً لِلنُّشُورِ هُوَذَا شَعْبٌ مَضَى نَحْوَ الْقُبُورِ^(٥)
مُؤْمِنُونَ يُشْبَهُونَ الْكَافِرِينَ مُسْلِمُونَ وَلِذَاتٍ مُنْكَرُونَا
قَوْلُهُمْ : الرُّوحُ شَيْءٌ بَاطِلٌ قِيَدَتْ بِالطَّيْنِ وَهُوَ زَائِلٌ

-
- (١) رأيت هنا بمعنى رأيت بالقلب لا بالعين .
 - (٢) أي أنّ عزمه كان قدراً ، وسهمه سهم الله .
 - (٣) يشير إقبال من طرف خفي إلى صلب الحلاج .
 - (٤) اجترح الذنب : ارتكبه .
 - (٥) الصور : القرون ينفخ فيه يوم القيامة فيجعل الله ذلك سبباً لعود الصور والأرواح إلى أجسامها .

الحِياةُ أَشْعَلَتْ مِنْ نارِ ذاتي
 عالَمٌ مِنْ ذاتِهِمْ ما يصنعونا
 أينَ تبدو الذَّاتُ أو أينَ اخْتَفَتْ
 يَسْتُرُ النِّيرانَ سِتراً نورُها
 قَلْبُنا بِالذَّاتِ كَمَ كانَ الحَفِيّا
 مِنْ لَظَها كُلُّ مَعْدومِ النَّصيبِ
 نارُ فُزَسِ نارُ هِنْدِ هلْ عَرفَنا
 نارُها والنُّورِ إِنِّي قَدِ وَصَفْتُ
 ما فَعَلْتُ قَدِ فَعَلْتُ فَاخَذِرِ
 ودَعَوْتُ مِيتاً لِلْمَخْشَرِ

الطَّاهِرَةُ

مِنْ دُؤُوبٍ وخطايا لِلْعِلاةِ
 إِنَّ فَرِطَ الشُّوقِ سِتراً مَرَقا
 نالَ مِنْ عُوْدٍ وَمِنْ حَبْلِ نَصيبِهِ
 بِالتَّجَلِّي بَيْنَها قَدِ ظَهَرَ
 قَدِ بَدَا ما لَمْ يَكُنْ ، مِنْ كائِناثِ
 وَعَنِ العَيْنِ القَدِيمِ فَرَقا
 لَمْ يَعدُ حَيًّا وَقَدِ وافى حَبيبِهِ^(٤)
 لا تَظُنَّ أَنَّهُ الدُّنيا هَجَزُ
 عَضْرُهُ كانَ ضَميراً وَهُوَ فِيهِ
 عِزْلَةٌ مَهْمَا تَكُنْ لا تَخْتَوِيهِ

(١) بَصَّرَهُ الأَمْرَ : عَرَفَهُ إِياهُ .

(٢) الحَفِيّ : البَرُّ اللطيفُ .

(٣) اللَظَى : النارُ ، أو لَهَبُها .

(٤) وافى : أتى .

زنده رود

أَنْتَ يَا مَنْ جَهَدَ بَحْثِ قَدِ الْفِتْنَةِ اشْرَحَنَّ لِي بَيْتاً أَنْتَ قُلْتَهُ
 « مِنْ رَمَادِ قَبْضَةٍ قُمْرِيَّةٌ ، قَفَصُ اللَّوْنِ الْهَزَائِرُ
 يَا شَكَاةَ فَلَتَجِييِي : أَيِّنَ رَمَزٌ لِفَوَادٍ فِيهِ نَارٌ »^(١)

غالب

يشتكي النيران في القلب الذئف وشكاة عن شكاة تختلف^(٢)
 أحرق القمري منها في اللهب وبدا البلبل في الثوب القشيب^(٣)
 وتضم الموت في حزن الحياة فحياة ، أو لها شأن الممات^(٤)
 يا للون كان منه سفراً ماني أو زوال اللون مسلوب المعاني^(٥)
 أفندري ما للون من مقام ؟ ونصيب القلب مقدار الهيام^(٦)
 أنت باللون تعال ، أو فسر^(٧)
 كي ترى آثار قلب يستعز

(١) يقول المستشرق الإيطالي باوزاني : إنَّ هذا البيت ترجمة لإقبال عن بيت بالأوردية لغالب يكتنف الغموض معناه ، وهو « إذا كانت مظاهر الطبيعة كلها غير جديرة بأن تكون رمزاً للقلب العاشق ، فأى شيء يمكن أن يعد له رمزاً حقيقياً » وفي رواية أخرى لهذا البيت : « قفص الصدا » في موضع « قفص للألوان » .

(٢) الذئف : من لازمه المرض .

(٣) القشيب : الجديد .

(٤) أي أنَّ الشكاة إمَّا حياة أو موت .

(٥) السُّفْرُ : الكتاب . وماني من أنبياء الفرس قبل الإسلام ، وكان عظيم المهارة في الرِّسْم . وارثرتك عنوان كتاب يحوي تصاويره التي خدع بها أتباعه ويعدها من معجزاته .

(٦) يقول : على قدر ما يجذب القلب من لوعة الأسى والهيام يكون ما قدر الله له .

(٧) أي أقدم باللون أو امض بدونه .

زنده رود

ألفُ دنيا في الفِضَاءِ الأَزْرَقِ
وبها كلُّ نبِيٍّ مَتَّقِي

غالب

أَنْظَرَنَّ فِي الوجودِ والعَدَمِ كَمْ دُنْيَى تَأْتِي لَنَا مُنْذُ القِدَمِ^(١)
نَحْنُ دُنْيَا فِي الوجودِ إِنْ رَأَيْنَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قَدْ رَأَيْنَا

زنده رود

وَضَّحَ القَوْلَ فإِنِّي مَا فَهَمْتُ

غالب

أَنَا إِنْ زِدْتُكَ تَوْضِيحاً غَلِطْتُ

زنده رود

لَا يَفِيدُ قَوْلُ أَصْحَابِ الجَنَانِ^(٢)

غالب

مَشْكَلُ قَوْلٍ دَقِيقٌ فِي اللِّسَانِ^(٣)

(١) الدُّنْيَى : جمع دنيا .

(٢) الجنان : القلب .

(٣) أي : يصعب على الإنسان أن يعبر عن قول دقيق عميق .

زنده رود

اشْتَعَلَّتْ أَنْتَ مِنْ نَارِ الطَّلَبِ
لَفْظَةً مَا قُلْتُهَا يَا لِلْعَجَبِ

غالب

إِنْ خَلَقْنَا وَقَضَاءَ ابْتِدَاءِ^(١)
رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ أَنْتَهَاءَ

زنده رود

المعاني عاجزٌ عَنْ فَهْمِهَا
لَكَ نَارٌ؟ قُمْ وَأُخْرِقْنَا بِهَا

غالب

أَنْتَ يَا مَنْ تُبْصِرُ الْأَشْعَارَ مِثْلِي وَعَلَيْهَا لِلْكَلامِ أَيُّ فَضْلٍ
أَمْرَاءُ الشُّعْرِ زَانُوا جَمْعَهُمْ وَالْيَدُ الْبَيْضَاءُ لَيْسَتْ عِنْدَهُمْ
لَيْسَ مَا تَبْغِيهِ مِنِّي غَيْرَ كُفْرٍ إِنَّهُ كُفْرٌ وَرَاءَ كُلِّ شِغْرِ

الحلاج

وَإِذَا أَبْصَرْتَ دُنْيَا لِلشَّيَاتِ فَاَلْمُنَى فِي أَرْضِهَا مِثْلُ النَّبَاتِ^(٢)

(١) يلمح الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ ﴾

[الأعلى : ٢-٣] .

(٢) الشَّيَاتِ : الألوان .

إِنَّ نُورَ الْمُضْطَفَى فِيهِ الْبَهَاءُ أَوْ رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا مَا تَشَاءُ

زندہ رود

النَّبِيُّ الْمُضْطَفَى مَا أَمْرُهُ جَوْهَرٌ ، أَفْصَحَ أَجِبَ مَا سِرُّهُ
فِي الْوُجُودِ آدَمِي أَوْ جَوْهَرٌ ؟ تَارَةً يَخْفَى وَأُخْرَى يَظْهَرُ

الحلاج

عَفَرَ الْعَالَمُ خَدًا عِنْدَهُ نَفْسَهُ سَمَى النَّبِيَّ «عَبْدَهُ»
«عبدہ» فَمَا لَدَيْكَ تَبَهَّرُ إِنَّهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ الْجَوْهَرُ^(۱)
لَيْسَ مِنْ عُرْبٍ وَلَيْسَ الْأَعْجَمَا آدَمٌ بَلْ كَانَ مِنْهُ الْأَقْدَمَا^(۲)
«عبدہ» قَدْ شَكَّلْتَ هَذَا الْقَدْرَ بِالْفَيَافِي الْخَضْبُ مِنْهَا قَدْ ظَهَرَ^(۳)
أَخِيَّتِ الْأَرْوَاحِ وَهِيَ تَقْتُلُ وَالرُّجَاجُ ، وَهِيَ صَخْرٌ يَثْقُلُ
غَيْرُ «عَبْدٍ» «عَبْدُهُ» فَلْتَعْتَبِرْ وَلَهَا طَالَ انْتِظَارُ الْمُتَنْظِرِ^(۴)
عَبْدُهُ الدَّهْرَ وَكَانَ الدَّهْرُ مِنْهَا كُنَّا لَوْنٌ وَيُنَائِي اللَّوْنُ عَنْهَا
وَلَهَا الْبَدْءُ وَمَنْ غَيْرِ انْتِهَاءِ مَا لَدَيْهَا مِثْلُ صُبْحٍ أَوْ مَسَاءِ
مَا دَرَى الْإِنْسَانُ قَطُّ سِرَّهَا سِرُّ «إِلَّا اللَّهُ» كَانَ ذِكْرُهَا
لَا إِلَهَ السَّيْفُ وَهِيَ حِدُّهُ وَلْتَصْرِّخْ وَلْتَقُلْ «هُوَ عَبْدُهُ»
«عَبْدُهُ» كُنْهُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ «عَبْدُهُ» فِيهَا مَعَانٍ مَغْلَقَاتِ

(۱) بهر : غلب .

(۲) فِي الْأَصْلِ الْأَعْجَمُ وَهُوَ الَّذِي فِي لِسَانِهِ لُكْنَةٌ وَعَدَمٌ فَصَاحِي . وَالْمُرَادُ الْأَعْجَمِي أَي غَيْرِ

العربي .

(۳) الفيافي : جمع فيفاء ، وهي الأرض لا ماء فيها .

(۴) اعتبر : نظر في الشيء واختبره .

ولهذا الشُّعْرِ معنَى ما فَهَمْتَ قَبْلَ فَهَمِّ قَوْلِ رَبِّي ﴿ ما رَمَيْتَ ﴾^(١)
 دَعَاكَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ زِنْدَهُ رُود
 امضِ وَلْيُغْرِقْكَ ذِيَاكَ الْوُجُود

زنده رود

إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ شَيْءٌ مَا عَرَفْتَهُ
 أَهْوَى لِلرُّؤْيَةِ ذَوْقٌ مَا عَهَدْتَهُ ؟

الحلّاج

هَذِهِ الرُّؤْيَةُ مَعْنَاهَا النَّبِيُّ يَخْكُمُ النَّفْسَ ، بِذَا وَهُوَ الرَّضِيَ
 أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ عِشٌّ مِثْلَ الرَّسُولِ وَمَنْ الْخَلْقِ سَتَحْظِي بِالْقَبُولِ
 ذَاتَكَ أَنْظُرْ إِنَّ هَذَا رُؤْيَتَهُ سَرُّهُ السَّرُّ الْعَظِيمُ سَتَتَهُ

زنده رود

رُؤْيَةُ اللَّهِ أَفْلَاكاً نَثَرُ ؟
 وَأَدَارَ الشَّمْسِ فِيهَا وَالْقَمَرِ^(٢)

(١) يريد قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] ؛ أي لم تقتلوهم بيد رب قوتكم ولكن الله قتلهم بنصره إياكم . . . وما رميت يا محمد عين القوم إذ رميت بالحصا ، فإن كفاً من الحصا لا يمكن أن تملأ عيون الجيش العظيم إن كان الرّامي من البشر ، ولكن الله رمى ، ليقهر الكافرين .

(٢) أي الله الذي نثر الأفلاك في السماء .

الحلاج

صورة الحق بروح اطرَحَن
 وإذا كانت بروح صُوْرَتْه
 إن جَرَتْ « هو » يا حَظِيظُ مِنْ لِسَانِكَ
 ويلُ درويشِ بفيه قد جَرَتْ
 إنَّه لم يُجِرِ حُكْمَ رَبِّه
 طلبُ الرُّهدِ تحاشى خبيراً
 صورةُ الحقِّ ، هي الدُّنيا لديكَ
 ثمَّ في الدُّنيا إليه انظُرَنَّ (١)
 فلكلِّ العالَمِينَ رؤيته
 طافَتِ الأفلاكِ طوفاً حولَ دَارِكَ (٢)
 ثمَّ ضمَّ شفَّتيه أو صَمَّتْ
 ما الشعيرُ؟ حَيْدَرُ في حَزْبِهِ؟ (٣)
 راهباً أضْحَى ، مليكٌ يا ترى؟ (٤)
 والقَضَاءُ كالزَّمَامِ في يديكَ

القتالُ بُغْيَةُ العَصْرِ المَرِيدِ
 ألْقَهَا في لَوْحِ كَفَّارِ عَنِيذِ

زندہ رود

كان في الدُّنيا لَدَيْنَا رَمِيْهَا
 لستُ أدري كيف كان رَمِيْهَا !

-
- (١) الحق : هو الله تعالى .
 (٢) الحظيظ : السعيد الحظ .
 (٣) أكلُ خبز الشعير رمزٌ إلى شدة التقشف والقناعة من الدُّنيا بأقلِّ قليلها . وحيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المشتهر بالنجدة وشدة البأس في القتال . والشاعر يتهمك بالمسرف في الزهد ، ويفضل عليه المحارب المناضل .
 (٤) يشير إلى ما يروى من عجائب الأخبار عن قوة عليٍّ وشجاعته في غزوة خيبر ، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك . ويتهمك ثانيةً بالزاهد الذي يتوهم نفسه بالزهد أعظم من ملوك الأرض .

الحلاج

يُحْنِنُ كَانَ لِلْوَجْدِ الرَّهِيْفِ أَمْ بَقْسِرِ كَانَ لِلْقَهْرِ الْعَنِيفِ^(١)
إِنَّ فِي الرَّقَّةِ رَبِي أَظْهَرُ هِيَ مِنْ عُنْفٍ شَدِيدٍ أَجْدَرُ

زندہ رود

أَنْتَ يَا مَنْ تَعْرِفُ الْأَسْرَارَ شَرْقَا
بَيْنَ زُهْدٍ هَلْ تَرَى وَالْعِشْقَ فَرْقَا؟

الحلاج

إِنَّمَا الرَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا الْغَرِيبُ
ذَلِكَ الْعَاشِقُ فِي الْعُقْبَى الْغَرِيبُ

زندہ رود

إِنْ عَرَفْتَ فَاَنْتِهَاءَ بِالْفَنَاءِ مِنْ سَعِيدٍ فِي الْفَنَاءِ بِالْبَقَاءِ؟

الحلاج

تُسَكِّرُ الْكَاسُ خَلَّتْ بَعْدَ امْتَلَاءِ وَعَنِ الْعِلْمِ اغْتَرَابُ كَالْفَنَاءِ
فِي الْفَنَاءِ لَكَ شَوْقٌ وَاخْتَدَمَ ذَلِكَ الْمَوْجُودَ لَا يَلْقَى الْعَدَمَ^(٢)

زندہ رود

مَنْ عَلَى آدَمِ أَغْلَى قَنْزَةً لَمْ يَجِدْ فِي قَاعِ دُنِّ خَمْرَةٍ^(٣)

(١) الرَّهِيْفُ : الرَّقِيْقُ .

(٢) اِحْتَدَمَ : اَشْتَدَّ . يَقُولُ : أَنْتَ فِي الْفَنَاءِ تَطْلُبُ شَيْئًا . وَالْعَدَمُ لَا يَصَادَفُ الشَّيْءَ الْمَوْجُودَ .

(٣) الدُّنُّ : جِرَّةُ الْخَمْرِ . وَيَعْلَى قَدْرَهُ عَلَى قَدْرِ آدَمَ : يَدَّعَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ، وَهَذَا مَا ادَّعَاهُ =

يعرفُ الأفلاكَ حقّاً طينُنا أينَ نازُّ للمريدِ هاهنا^(١)

الحلاج

أوجزِ الأقوالَ عَن شَيْخِ الْفِرَاقِ ذِي الْهَيْامِ وَالنَّجِيعِ فِي الدَّهَاقِ^(٢)
وجهلُنَا ، كَلَّ شَيْءٍ قَدْ دَرَى وَيَكْفُرِ كَلَّ سُرّاً أَظْهَرَ
السُّقُوطُ بَعْدَهُ طَابَ الصُّعُودُ بَعْدَ نَقْصِ قَرِّ عَيْنَا مِنْ يَزِيدَ
إِنْ عَشِقْتَ فِي لَهَيْبٍ فَاخْتَرِقْ كَانَ مِنْهُ ، أَوْ فَلَسْتَ الْمُخْتَرِقُ !
إِنَّهُ فِي الْعِشْقِ مَنَّا أَقْدَمُ سِرُّهُ مَا لَيْسَ يَدْرِي آدَمُ
إِنَّ لِلتَّقْلِيدِ ثَوْباً ، مَرْقَقَةً
وَخُذِ التَّوْحِيدَ عَنْهُ وَافْهَمْتَهُ

الحلاج

المَقَامُ لَيْسَ فِي طَوْقِ لَنَا وَنَطِيرُ ، كَانَ ذَا ذَوْقاً لَنَا^(٣)
نَحْنُ دَوْمَا مِنْ رَأَيْنَا أَوْ خَفَقْنَا مَا لَدَيْنَا مِنْ جَنَاحِ ، حَسْبُنَا^(٤)

ظهورُ رأسِ أهلِ الفِراقِ إبليسَ

وحدِيثُ الحِكمَاءِ بُرْهَتَانِ الوجودَ والفناءَ تَصْنَعَانِ

= إبليس أو الشيطان .

(١) المراد بالطين هنا هو الإنسان . والمريد : الخبيث .

(٢) الهيام : الظمأ . والنجيع : الدم . والدهاق من الكؤوس : الممثلة .

(٣) الطوق : الطاقة والقدرة .

(٤) دوماً : دائماً . وحسبنا : كافينا .

أَضْرَمَ العِشْقَ عَلَيْنَا وَأَنْصَرَفَ
 أغمض العينين حتى أملكه
 وظلام كُفِّ منه الناظران
 شعلةٌ لاحتْ بليلى قد وَقَبَ
 وهو شيخ يرتدي سودَ الثياب
 وهَبَ الرُّوْيَةَ عَقْلًا ، مَا وَقَفَ
 فِي فَوَادِي طَابَ لِي أَنْ أَسْلُكَهُ
 فِي الْمَكَانِ وَإِلَى غَيْرِ الْمَكَانِ^(١)
 وَإِذَا مِنْ جَوْفِهَا شَيْخٌ وَثَبَ^(٢)
 وَالذُّخَانَ لَفَّهُ مِثْلَ السَّحَابِ

قال مولانا أرى شيخَ الفِراقِ

يتلظى والتنجيعُ في الدِّهاقِ^(٣)

طَالَ مِنْهُ الصَّمْتُ فِي طَوْلِ الوُجُومِ
 ماجنٌ شيخٌ حَكِيمٌ زَاهِدٌ
 مَا دَرَى طَبَعٌ لَهُ ذَوْقَ الوِصَالِ
 وهو عن هذا الجمالِ ما انْقَطَعَ
 قَفٌّ تَأْمَلُ بُزْهَةً مَا قَدْ عَرَاهُ
 وبه الهيجاءُ ما زالتْ تَدُورُ
 كَمَ نَبِيٍّ قَدْ رَأَى وَهُوَ الكَفُورُ
 وَزَفِيرُ الحُزْنِ مِنْ فِيهِ اصَّعَدُ^(٤)
 مِثْلُنَا مَنْ كَانَ مِيمُونَ العَمَلِ
 وَزَفِيرُ الحُزْنِ مِنْ فِيهِ اصَّعَدُ^(٥)
 وَزَفِيرُ الحُزْنِ مِنْ فِيهِ اصَّعَدُ^(٦)
 وَزَفِيرُ الحُزْنِ مِنْ فِيهِ اصَّعَدُ^(٧)
 وَزَفِيرُ الحُزْنِ مِنْ فِيهِ اصَّعَدُ^(٨)

وبه الهيجاءُ ما زالتْ تَدُورُ

كَمَ نَبِيٍّ قَدْ رَأَى وَهُوَ الكَفُورُ

مِنْ لَظَاهِ الرُّوْحِ فِي جَسْمِي ازْتَعَدُ
 فَتَحَ العَيْنَ وَقَالَ وَاعْتَدَلُ
 وَزَفِيرُ الحُزْنِ مِنْ فِيهِ اصَّعَدُ^(٨)

(١) كُفِّ بَصْرُهُ : ذَهَبَ . النَّاطِرَانِ : العَيْنَانِ .

(٢) وَقَبَ الظَّلَامِ : دَخَلَ عَلَى النَّاسِ .

(٣) يَتَلَطَّى : يَتَلَهَّبُ . التَّنْجِيعُ : الدَّمُ . وَالدِّهَاقُ مِنَ الكَوُوسِ : المَمْتَلِئَةُ .

(٤) الوُجُومُ : الحُزْنُ مَعَ الصَّمْتِ .

(٥) المَاجِنُ : الَّذِي لَا يَبَالِي مَا صَنَعَ . وَالجَاهِدُ : المَجْدُ .

(٦) الذَّوْقُ : الإِدْرَاكُ . وَفِي الأَصْلِ أَنَّ زَهْدَهُ قَطَعَ النَّظَرَ عَنِ الجَمَالِ الخَالِدِ .

(٧) عَرَاهُ : اعْتَرَاهُ ، وَغَشِيَهُ .

(٨) اللَّطْيُ : النَّارُ . اصَّعَدَ : صَعِدَ .

لِلصَّلَاةِ قَلَمًا وَقَتًا وَجَدْتُ (١)
 إِنَّ وَحْيِي لَا يَمُنُّ بِالنُّبُوَّةِ (٢)
 وَالْفَقِيهِ مِنْ دَحْرُتُ فِي الْغِلَابِ (٣)
 جَعَلَ الْكَعْبَةَ آثَارَ الطَّلَلِ (٤)
 مَا لِإِبْلِيسَ انشِقَاقَ الْمَذْهَبِ
 أُرْغُنِي هَذَا عَلَيْهِ قَدْ عَزَفْتُ (٥)
 أَبْصِرِ الْبَاطِنَ وَاتْرِكْ ظَاهِرًا
 كَيْفَ هَذَا ، إِنَّ رَبِّي قَدْ شُهِدَ (٦)
 مَا سَكْتُ ، فَأَنَا خَيْرًا صَنَعْتُ
 وَلِذَاكَ عَنْهُ هَدَاةُ الْحَبِيبِ (٧)
 بَعْدَ جَبْرِ قَدْ هَدَاهُ الْاِخْتِيَازَ
 ثُمَّ قُلْتُ : أَنْتَ فَلَخْتَرْتَ لِنَفْسِكَ
 عُقْدَتِي حُلًّا وَدَبَّرْتَ أَمْرَهَا
 أَنْتَ عَصِيَانًا لِشَيْطَانٍ أَبْخَتَ
 وَلْتَعِشْ يَا مُسْعِدِي عَنِّي غَرِيبًا (٨)
 لَا تَزِدْنِي مِنْ سِوَادِي فِي كِتَابِي

انْهَمَكْتُ فِي سُؤْنِي وَاجْتَهَدْتُ
 مَا لَدَيَّ مِنْ مَدَدْتُ مِنْهُ قُوَّةُ
 لَيْسَ عِنْدِي مِنْ حَدِيثٍ أَوْ كِتَابٍ
 كَالْفَقِيهِ غَزَلَ دِينَ مِنْ غَزَلِ
 مَا عَرَفْنَا مِثْلَ هَذَا الْمَطْلَبِ
 يَا جَهْلًا ، إِنَّنِي مَا إِنْ سَجَدْتُ
 لَوْجُودِ اللَّهِ لَسْتُ مُنْكَرًا
 أَجْهَلْتُ كَيْ أَقُولَ مَا أُوجَدُ
 وَ « نَعَمْ » فِي سِتْرِ « لَا » مَا قَدْ نَطَقْتُ
 آدَمُ مِنْ هَمِّهِ نِلْتُ النَّصِيبَا
 مِنْ مَرُوجِي تَبَّتْ نَارًا وَنَارَ
 إِنَّنِي أَظْهَرْتُ قُبْحِي ، قُمْ بِشَانِكَ
 تِلْكَ نَارِي صَدَّ عَنِّي حَرُّهَا
 أَنْتَ يَا إِنْسَانَ فِي أَسْرِي وَقَعْتُ
 وَهَمَامًا كُنْ وَلَا تَخْشَ الْخُطُوبَا
 دَعَاكَ مِنْ حُلُوي وَمُرِّي وَأَنْسَ مَا بِي

- (١) فِي الْأَصْلِ أَنَّهُ مَا وَجَدَ وَقَتًا لِلصَّلَاةِ الْجُمُعَةِ .
- (٢) مَدَدْتُ مِنْهُ قُوَّةُ : أَخَذْتُهَا مِنْهُ . وَالْمَنْ : التَّعْبِيرُ بِالصَّنِيعَةِ .
- (٣) دَحْرَ : طَرَدَ ، وَهَزَمَ . الْغِلَابُ : مَنْ غَالِبٌ .
- (٤) يَجْرِي إِقْبَالُ عَلَى مَأْلُوفِ الصُّوفِيَّةِ فِي تَهْكِيمِهِمُ الرَّمْزِي بِالزَّهَادِ وَالْفُقَهَاءِ .
- (٥) الْأَرْعَنُ : آلَةٌ يَعْرِفُ عَلَيْهَا .
- (٦) شَهِدَ : رُئِيَ .
- (٧) الْحَبِيبُ : هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا .
- (٨) الْهَمَامُ : الْعَظِيمُ الْهَمَّةُ . الْمُسْعِدُ : الْمَوَاسِي وَالْمَعِينُ .

يَرُضُّدُ الصَّيَّادُ مَا يَزِمِيهِ حَتْمًا إِنَّ بَدَوْتَ فِي مَصَادِي نِلْتَ سَهْمًا^(١) !

ما هوى من طارَ في أوج السماء

يَغْلِبُ الصَّيَّادَ صَيْدٌ بِالذِّكَاءِ^(٢) !

قَلْتُ : « فَاطْرَحِ لِلْفِرَاقِ مَذْهَبًا فِي الطَّلَاقِ لَيْسَ لِي أَنْ أَرْغَبَا^(٣) »

« الْفِرَاقُ لِلْحَيَاةِ مِثْلَ شَطْرِ نَشْوَةٍ فِي يَوْمِهِ لَيْسَتْ لِخَمْرِ

الْوِصَالِ بِلِسَانِي مَا ذَكَرْتَ فَهُوَ فِي الْوَضْلِ امْحَى بِي وَاَمَحَيْتَ^(٤) !

لَفْظُهُ عَنِ نَفْسِهِ كَانَ الْغَرِيبَا ثُمَّ زَادَ الْقَلْبُ بِالْحُزْنِ اللَّهْيَا

وَتَلَوَّى فِي الدُّخَانِ وَاخْتَلَجَ ثُمَّ ضَلَّ وَهُوَ مِنْهُ فِي الْحَرَجِ^(٥)

الشَّكَاةُ لِلدُّخَانِ فِي انْسِكَابِ

تَسْعُدُ الرُّوحُ بِآلَامِ الْعَذَابِ

شكوى إبليس

رَبِّ مَنْ أَخْطَا وَرَبِّ مَنْ أَصَابَا صَحْبَةُ الْإِنْسَانِ لِي كَانَتْ مُصَابَا^(٦)

ذَلِكَ الْإِنْسَانُ حَكْمِي لَمْ يُخَالِفْ أَغْمَضَ الْعَيْنَ وَذَاتَا لَمْ يُصَادِفْ

طِينُهُ لَمْ يَذِرْ ذَوْقًا لِلْإِبَاءِ لَا وَلَا مَعْنَى لِنَارِ الْكِبْرِيَاءِ

(١) المصَاد : موضع الصيد .

(٢) الصَّيْدُ : ما يصاد .

(٣) التلميح هنا بحديث للنبي ﷺ ، وهو قوله : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » . وأورد الشاعر هذا الحديث بتمامه في الشطر الثاني من البيت .

(٤) يريد فناء الصوفي في الذات الإلهية .

(٥) الحرج : مكان ضيق كثير الشجر .

(٦) المصاب : النازلة الشديدة .

وخضوعُ العبدِ أمرٌ لم يرقني^(١)
 بخضوعي لك بالأمسِ اذُكرني
 ويح نفسي واشقائي وابلائي !
 ويخزُّ إن ضربتُ ضرتي^(٢)
 من يُجبلُ الرأي في كلِّ الفكرِ^(٣)
 ليسَ كالأطفالِ من يَعتو عينيَّ^(٤)
 حسبُه مني الشرارُ للفناء^(٥)
 كلُّ تلكِ النارِ عندي هل تُفيدُ ؟
 أعظمُ الأعمالِ حقاً صَهرُ صخر
 وإليكِ لتجازيني قدِمتُ
 رَجُلُ اللهِ الطَّريقَ نحوَهُ افتَح
 وارتياعي منه حينَ ينظُرُ^(٦)
 لا أساوي عندهُ حَبَّ الشعيرِ

ويقولُ الصَّيْدُ للصَّيَادِ خُذني
 وَمِنَ الصَّيْدِ ، إِلَهِي ، خَلِّصْنِي
 مِنْهُ ذُلِّي ورماني من علائي
 وَضَعِيفُ الْعَزْمِ فَجَّ الْفِطْرَةَ
 وجديرُ بي حصيفٌ ذو نظُر
 دُمِيَّةَ الطَّيْنِ اسْتَرَدَّ مِنْ يَدَيَا
 ما هو الإنسانُ ؟ ضِغْثٌ من عُثَاء
 لِلْعُثَاءِ وَخَدُهُ كَانَ الْوُجُودُ
 أَيُّ شَيْءٍ لِلرُّجَاجِ كَانَ صَهْر
 مِنْ فَتُوحِي هَا أَنَا قَدْ سَمِئْتُ
 مُنْكَرَ الذَّاتِ أريدُ مِنْكَ فامْنَحْ
 وأريدُ طليتي من يَغْصِرُ
 من يقولُ : « أَخْرَجَنَّ مِنْ حُضُورِي »

يا إلهي فلتَهَبْ حُرّاً أَيَّامَا
 في انهزامي متعةً كانتَ لَدَيَا

-
- (١) لم يرقني : لم يعجبني .
 (٢) الفج : ما لم ينضح من الثمار . وخر : سقط .
 (٣) الحصيف : العاقل الحكيم .
 (٤) عتا الشيخ : طعن في السن .
 (٥) الضغث : قبضة حشيش مختلطة اليابس بالرطب .
 (٦) الطلية : العتق .

القسم السادس

فَمَّا كُنْتُمْ زُجَّاجًا

الأرواحُ الخبيثةُ التي غَدَرَتْ بِالوَطَنِ ولم تقبلها جهنَّم

كَانَ لِلأحرارِ مولانا الإماما
 السماءَ قالَ يا مَنْ قَدْ طَوَيْتَ
 وكما شاهَدْتَه أنتَ انتَظِقْ
 وبطيءٍ كالشُّكُونِ عِنْدَ سِنيرِ
 جَسَمِه ماءً وطِيناً شَكَّلا
 تَضَعُ النُّارَ بايِدِ لِلْمَلانِكِ
 دِرَّةٌ قَدْ أوجَعَتْ تِلْكَ النُّجومِ
 عالَمٌ مِنْهُ التُّفُورُ لِلْفَلَكَ
 ما لأرواحٍ بِهِ يَوْمَ النُّشُورِ
 إِنَّ شَيْطَانَيْنِ فِيهِ يَسْكُنانِ
 ذاكَ فِي البَنغالِ هذا فِي الدِّكَنِ

كَلَّ حُرّاً بوأَ الشَّيخَ المَقامِ^(١)
 أعلى العالَمِ زُناراً رأيتُ؟^(٢)
 بذِيولٍ لنجومٍ قَدْ سَرَقَ!^(٣)
 خَيْرُهُ ما كانَ إلا كَلَّ شَرِ
 خَطوُهُ فِي الأَرْضِ صَغْبُ أَشْكِلا^(٤)
 فَسَمَتِ سُخْطاً لربِّي مِنْ هُنالِكَ^(٥)
 مَنَعَتْها فِي المَدارِ أَنْ تَحُوما^(٦)
 وَهُوَ مِنْ بُخْلِ الشُّمُوسِ فِي الحَلْكَ^(٧)
 لَمْ تُعَذِّبْها الجَحيمُ بالسَّعيرِ^(٨)
 أَزْهَقَ الرُّوحَ لِقومٍ قاتِلانِ
 وهما لِلدِّينِ عازٌّ وَالوَطَنِ^(٩)

- (١) مولانا هو الصوفي الفارسي جلال الدين الرُّومي .
- (٢) الزُّنار : ما يشدُّ به النصارى وسطهم والإيماء إلى زحل .
- (٣) انتَظِقْ : شدَّ وسطه بالمنطقة .
- (٤) أشكل الأمر : التبس .
- (٥) الملائك : الملائكة ، والنَّار هنا : الصاعقة .
- (٦) الدِّرَّة : السوط .
- (٧) الحلك : الظلام .
- (٨) يوم النشور يوم القيامة الذي تعود فيه الحياة إلى الموتى . والسَّعير : النار .
- (٩) مير جعفر : هندي قبل أن يكون حاكماً للبنغال تحت نفوذ الإنجليز ؛ الذين توطدت =

أَبْغَضًا فِي الْيَأْسِ مِنْ نَيْلِ الْمُرَادِ الْفَسَادَ قَدْ أَشَاعَا فِي الْبِلَادِ
 أُمَّةٌ كُلَّ الصَّلَاتِ قَطَعَتْ مُلْكَهَا وَالذِّينَ حَتْمًا ضَيَّعَتْ^(١)
 وَبِلَادُ الْهِنْدِ هَلْ أَنْسَيْتَهَا؟ وَلَهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ مَا لَهَا^(٢)
 فَتَجَلَّيْهَا أَنْارَ الْعَالَمَا مَا تَزَالُ أَرْضُهَا تَجْرِي دَمًا
 فِي ثَرَاهَا مَنْ رَمَى بِذَرِّ الْعَبِيدِ؟ ذَاكَ فِعْلٌ كَانَ مِنْ رُوحٍ مَرِيدِ

برهةً قف أنت في هذا الفضاء

ما ينال المرءُ شاهدًا من جزاء

بَحْرُ الدَّمَاءِ

مَا رَأَيْتُ ، وَضْفُهُ يُغْيِي اللِّسْنَ يُرْعِبُ الرُّوحَ وَيُنْسِيهَا الْبَدْنَ^(٣)
 إِنَّهُ بَحْرُ الدَّمَاءِ قَدْ جَرَى فَوَقَهُ رِيحٌ وَأُخْرَى أَضْمَرَا
 يُشْبَهُ الْحَيْتَانَ تَيِّبِنٌ يَطِيزُ بَجَنَاحِي زُبُقٍ وَالْكَفُّ قَيْرُ^(٤)
 مَوْجُهُ اللَّيْثُ الْهَصُورُ ذُو الْمَنَاصِلِ مَا تَ رُغْبًا مِنْهُ تَمْسَاحٌ بِسَاحِلِ^(٥)

= أقدمائهم ، واستقامت أمورهم ، وسيطروا على الهند بعد أن هزموا سراج الدولة حاكم البنغال عام ١٧٥٧ . وصادق الدكني خائن خان السلطان تيبو الحاكم المسلم لميسور المتوفى عام ١٧٩٩ .

(١) يريد قطع الصلوات بينها وبين غيرها من الأمم .

(٢) أي لها في كل قلب ما لها من علو المنزلة .

(٣) اللسن : الفصاحة .

(٤) التنين : العظيم من الحيات . يقول إن التنانين في الجو كالحيتان في البحر وجناحاها في لون الزئبق ومخالباها سود في لون الليل . والقير : القار ، وهو مادة سوداء تُطلى بها السفن .

(٥) الهصور : المفترس . والمناصل : جمع منصل وهو السيف . وكان أنياب الأسد سيوف .

لَمْ يَنْلُ مِنْهُ الْأَمَانَ الشَّطُّ قَطُ فِي الدِّمَاءِ تِلْكَ أَعْلَامُ تَغَطُّ^(١)
 هَذِهِ الْأَمْوَاجُ دَوْمًا فِي نِزَاغٍ تُهْبِطُ الرُّوزِقُ مِنْ بَعْدِ ارْتِفَاعِ
 فِيهِ يَبْدُو رَجُلَانِ شَاحِبَانِ
 أَشْعَثَانِ مِنْ ثِيَابِ عَارِيَانِ

رُوحُ الْهِنْدِ تَظْهَرُ

تِلْكَ بِنْتُ الْحَوْرِ فِي شَقِّ السَّمَاءِ تَرْفَعُ الْبُرُوقَ عَنِ وَجْهِ الضِّيَاءِ
 وَلَهَا نَارٌ وَنُورٌ فِي الْجَبِينِ وَسُرُورٌ أَبَدِيٌّ فِي الْعَيْونِ
 تَرْتَدِي ثُوبًا أَرْقًا مِنْ غَمَامٍ نَسَجْتَهُ مِنْ وُرُودٍ فِي الْكِمَامِ^(٢)
 مَعَ هَذَا الْحُسْنِ نَاءَتْ بِالْقِيُودِ تَصْدَعُ الشُّكُوبُ لَهَا قَلْبُ الْحَدِيدِ^(٣)

قال : رُوحُ الْهِنْدِ مَوْلَانَا أَشْهَدَا
 نَوْحُهَا فِي الْقَلْبِ نَارًا أَوْقَدَا

رُوحُ الْهِنْدِ تَنْوُحُ وَتَنْتَحِبُ

أَيْنَ نُورُ الرُّوحِ فِي مِصْبَاحِهَا مِنْ وَعَىٍ مَجْدًا لَهَا مِنْ أَهْلِهَا
 مَنْ عَلَى سِرِّ لَهَا لَمْ يَطَّلِعْ أَلِالْحَنِ مِنْهُ مُشَجِّحٌ نَسْتَمِعُ
 وَيَرَى الْمَاضِي بَعِينٍ جَامِدَةً يَخْرِقُ الْقَلْبَ بِنَارِ حَامِدَةٍ
 وَقِيُودِي مِنْهُ يُعْيِي ثِقْلُهَا وَشِكَايِي لَيْسَ يُجْدِي قَوْلُهَا

- (١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل العالي . وتغط : تغطس في الماء .
 (٢) الكِمَامُ : جمع كِمٍّ ، وهو غلافُ البرعم .
 (٣) ناء بالحمل : نهَضَ به مُثْقَلًا .

ومضى شوطاً بعيداً عن « أنا » من تقاليد له سَجَنَاءُ بَنَى
عَيْشُهُ أَلَمَ حَتَّى قَوْمَنَا
طَهَّرَهُ بِالْحُزْنِ أَضْنَى عَضْرِنَا^(١)

دَعَاكَ مِنْ فَقْرٍ بِهِ عُرِيٌّ وَجِبَ حَبْذَا الْفَقْرُ إِذَا مُلْكاً وَهَبَ^(٢)
دَعَاكَ مِنْ جَبْرٍ وَصَبْرٍ ، الْحَذْرُ فَلَأَهْلَ الْجَبْرِ سُمٌّْ قَدْ بَدَزَ^(٣)
إِنَّ هَذَا مِنْ يُدِيمُ صَبْرَهُ ذَاكَ مَنْ يَرْضَى وَيَهْوَى جَبْرَهُ
يَا لِفَانِ الظُّلْمِ مُرّاً فِي التَّحْسِي
لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، وَيَحَ نَفْسِي

أَلَيْلِ الْهِنْدِ صَبْحٌ قَدْ يَلُوحُ جَعْفَرٌ أودى وَتَحِيّاً مِنْهُ رُوحُ^(٤)
إِنَّ قَيْدَ الْجِسْمِ عَنْهُ قَدْ خَلَعُ وَبِجِسْمِ آخِرِ عَشَاءٍ وَضَعُ
تَارَةً كَانَ أَلُوفاً لِلْكَنَائِسِ وَهُوَ مِنْ فِي الدَّيْرِ أحياناً يُجَانِسُ^(٥)
دِينُهُ مَا كَانَ غَيْرَ الْمُتَجَرِّ عَتَرٌ يَبْدُو كَمِثْلِ حَيْدَرٍ^(٦)
إِنَّهُ عَنْ كُلِّ هَذَا لَا يَحِيدُ طَالَمَا كَانَ لِذُنْيَانَا وَجُودُ^(٧)
وَقَدِيماً لِسَوَى هَذَا سَجْدُ وَطناً فِي عَضْرِنَا مَا قَدْ عَبَدُ
وَعَلَى الدَّيْنِ لَنَا يَبْدُو حَزِينَا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مِثْلُ الْمُلْحِدِينَا
جَعْفَرُ الْأُمَّةِ هَذَا مَنْ قَتَلَ مُسْلِماً وَالْقَتْلُ كَانَ مَا فَعَلَ

(١) يقول : إن وجوده كان ألماً للبشرية كلها . ومما أحزن العصر الحديث أن يحار فيما
طَهَّرَ وَمَا لَمْ يَطَهَّرْ .

(٢) يقول الصوفية (الفقر فخري) والفقر عندهم خيرٌ من مُلْكِ الملوك .

(٣) الْجَبْرُ وَالصَّبْرُ هُنَا هُمَا الْقَدْرُ وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ .

(٤) أودى : هلك .

(٥) الألوف : الكثير الألفة . ويشير إلى ولائه للإنجليز . وجانسه : كان من جنسه .

(٦) المتجر : الأتجار .

(٧) يحيد : يعدل وينحرف .

باسمٌ ، ما شاق يوماً خَلَهُ يسمُ الثُّعبانُ لَكِنْ ما لَهُ؟^(١)
 الشُّقاقُ بَثُّهُ في قَوْمِهِ واللثيمُ شَغْبُهُ من لُؤْمِهِ
 الفسادُ في بلادٍ حينَ يَظْهَرُ صادقٌ أضلُّ له أو كانَ جَعْفَرُ
 جعفرٌ من رُوحِهِ رَبِّي أَغْنانا
 من مَثيلِ جعفرِ رَبِّي أَجْرنا

صِيحَةُ رَاكِبٍ فِي زورِقِ بَحْرِ الدِّماءِ

حائِرٌ بَيْنَ الوُجودِ والعَدَمِ وَيَحِ نفسِي من وُجودِ كَمْ ظَلَمَ
 نَحْنُ من شَرِقِ إلى غَرِبِ عَبْرنا وإلى بابِ الجَحيمِ قَدْ وَصَلنا^(٢)
 ما رَمَتْ هَلْذِينَ حَتَّى بالشَّرَرِ ما لنا كَفُّ رَمادٍ في الشَّعْرِ^(٣)
 ثُمَّ قالَتْ إِنَّ ضِغْثاً أَفْضَلُ
 فهو أنقى ، فيه نارِي تَشْعَلُ
 في السَّمواتِ مضيئاً مُضْعِدِنا ورأينا بَغْتَةً تَلِكِ المَنونا^(٤)
 قالَتْ الأرواحُ : أسرارٌ لَدَيّا حَفْظُ رُوحِ هَذا جِسمِ في يَدَيّا
 إِنَّ رُوحَ الشَّرِّ شيءٌ يُخْفَرُ امضِ عَنّي! ما بموتٍ تَظْفَرُ^(٥)

- (١) شاقٌ : هيج الشوق . أي : أنه كان باسم الوجه إلا أنه لم يعجب خليلاً يصادقه وقد يسم الثعبان ولكن عن نابين يمججان السم .
 (٢) يقول : إنهم لكثرة ما كابدوا من المشقة في سفرتهم وشدة ما لقوا من تعب كأنهم في نهاية المطاف وقفوا بباب جهنم .
 (٣) أي لم تنثر حفنة من الرماد على رؤوسهم .
 (٤) أصعد : مضى في أرض أعلى من الأخرى . والمنون : الموت .
 (٥) يقول : إن قبض الروح أمر يسير وروح الشر شيء حقير ، ومع ذلك لا يريد قبض روحه .

راحة الأرواح لَيْسَتْ فِي الْجِمامِ
لا يُرِيحُ المَوْتُ رَوْحاً لِلثَّامِ

يا رِيحاً ، يا مَحِيطاً لِلدِّماءِ أنتِ يا غَبْرَاءُ ، يا لَوْنَ السَّماءِ^(١)
يا ذُكَّاءً ثُمَّ يا بَدْرُ الظَّلَمِ وَالكِتابُ وَمَعَ اللَّوْحِ القَلَمِ
يا إلهاً أبيضاً يا لَوَزِدِ غَزْبِ تَمْلُكِنا عَالمِاً مِنْ غَيرِ حَزْبِ!^(٢)
ما لِدُنْيانا ابتداءً وانتهاءً

العَبْدِ حانَ بِالمولِى لِقاءً^(٣)

ثُمَّ دَوَى بَغْتَةً صَوْتُ رَهيبِ شَقَّتِ الصِّدْرَ البَحارُ وَالسُّهوبِ^(٤)
تِلْكَ أوصالُ الجِسامِ فُكِّكْتَ وَالصُّخُورُ وَهِيَ تَهوي فُتَّتْ
والجِبالُ كالسَّحابِ فِي المَرورِ هَذِهِ الدُّنيا انْتَهَتْ مِنْ غَيرِ صُورِ
والبروقُ أَضْلُها نازُ الحَفاءِ عَشَّها تَطْلُبُ فِي بَحْرِ الدِّماءِ
جاشَتْ الأَمواجُ وَهِيَ تَسْتَبِقُ فِي الدِّماءِ الطُّورُ كالسَّهْلِ الغَرِقِ^(٥)
لِلنُّجومِ ما بَدَأَ أو غابَ عَنها
لَمْ يُثِرْ أَدنى اِهتمامِ كانَ مَنها

-
- (١) الغبراء : الأرض . يا لون السماء : أي : أيتها السماء الزرقاء .
(٢) في الأصل أيتها الأصنام البيض والوردات الغرب . فذكرنا المفرد مع إرادة الجمع .
ويقول : إن هؤلاء يريدون أن يملكوا العالم بكل يسر وهينة .
(٣) المولى : السيّد .
(٤) السُّهوب : السهول .
(٥) جاشت : ارتفعت ، واضطربت . تستبق : تتسابق .

القسم السابع

مَا وَرَاءَ الْأَفْلَاقِ

منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه (١)

للفناء والبقاء مُعْتَرِكٌ لَيْسَ يَدْرِي الْمَرْءُ سِرًّا لِلْفَلَكِ (٢)
 للحياة يَحْمِلُ الْمَوْتُ الرِّسَالَةَ وَالسَّعِيدُ مِنْ وَعَى لِلْمَوْتِ حَالَةٌ!
 الرِّيحَ أَشْبَهَتْ هَذَا الْحَيَاةَ مَا اسْتَقَرَّتْ ، كُلُّ مَا تَبْغِي الثَّبَاتُ!
 كَمْ دُنَى لِي نَاطِرَانِ شَاهِدَا ثُمَّ حُدُّ الْكَائِنَاتِ لِي بَدَا
 كُلُّ دُنْيَا كَانَ فِيهَا نَوْرُهَا قَطُّ مَا إِنْ أَشْبَهَتْهَا غَيْرُهَا (٣)
 إِنَّ فِيهَا الْوَقْتَ يَجْرِي كَالْبِحَاذِ فَهِيَ تَجْرِي أَوْ لَهَا بَعْضُ الْقَرَاذِ
 عَامُهَا شَهْرٌ وَحَتَّى بُرْهَةٌ قَلَّةٌ طَوْرًا وَطَوْرًا كَثْرَةٌ (٤)

عَقَلْنَا فِي عَالَمٍ كَانَ الذِّكْيَا

فِي سِوَاهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْغَيْبَا

تَغْرُهُ الْقَاصِي بِهِ مَنْ قَدْ ظَهَرَ صَوْتُهُ الْمَحْزُونُ بِالْحَزَنِ انْفَطَرَ
 وَلَهُ الْعَيْنُ كَعَيْسِنٍ لِلْعُقَابِ كَاسَفَ الْوَجْهِ لِأَهْوَالِ الْمُصَابِ (٥)
 وَالتَّبَارِيحُ تَزِيدُ فِي الْجَنَانِ بَيْتُ شِعْرِ مَا طَوَاهُ عَنِ لِسَانِ (٦)

(١) نيتشه : فيلسوف ألماني مستفيض الشهرة ، يُعدُّ بحقٍّ من أهمِّ قادة الفكر الذين كان لتفكيرهم أثرٌ في العصر الحديث . وأكثر كتبه سيرورة كتاب بعنوان : « هكذا قال زرادشت » وإن كان أشدَّ ما كتب غموضاً . وقد تناول المسيحية بالنقد ، واختلط عقله قبل وفاته عام ١٩٠٠ م .

(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد أنَّ الفناء والبقاء في حربٍ إلى الأبد .

(٣) في الأصل أنَّ كلَّ عالمٍ له قَمَرُهُ وَثَرِيَّاهُ ، وهو مختلفٌ عن غيره .

(٤) أي أنَّ القلة في عالمٍ كثيرةٌ في غيره . وهذا مطرَّدٌ في كلِّ تلك العوالم .

(٥) كاسَفَ الْوَجْهِ : عابِسٌ مِنْ هَوْلِ الشَّدَائِدِ .

(٦) تباريح الشوق : توهجه . والجنان : القلب . ولم يطو بيت شعر عن لسانه : لا يكف =

« أجبريلُ أم الله وحوزُ الخُلْدِ ؟ تَنساقُ !

تراب أنت في نارٍ لروح وهي تَشْتاقُ »^(١)

قلتُ للروميِّ ذا المجنون مَنْ ؟ قال : في الألمانِ مشهورُ الرِّكْنِ^(٢)
كانَ بَيْنَ العالمينَ موضِعُهُ وقديمُ اللَّخْنِ مِنْهُ نَسْمَعُهُ
إنَّهُ الحلاجُ لَكِنَ أينَ عُوذُهُ ؟ قال قولاً وسواهُ لا يُعيدُهُ^(٣)
وجريءُ القَوْلِ بِرَأقِ الفِكْرِ قولُهُ السيفُ الفِرْنَجِ قَدْ شَطَرُ
الجليسُ لَيْسَ يَذري جَذْبَتَهُ تَخسِبُ المَجذوبَ جُنَّ نَظَرَتَهُ
من خُمَارِ العِشْقِ معدومو النَّصيبِ نبضُهُ قَدْ أودعوا كَفَّ الطَّيِّبِ^(٤)
عِنْدَ أهْلِ الطَّبِّ خَتْلُ ما وُجِدَ ويَلُ مَجذوبٍ لإفْرَنْجِ وُلْدِ^(٥)
ابنُ سينا في كلامٍ قالَ أَفْصِدُ أو بِحَبِّ مَنْ شَكَا الأوجاعَ أُرْقِدُ

كانَ حلاجاً بأرضِ كالعَرِيبِ

فَرَّ مِنْ قَتْلِ الفَقِيهِ لا الطَّيِّبِ !

الطَّرِيقُ في الفِرْنَجِ مَنْ عَرَفَ ؟ فَعَلَى قِيشارةِ دوماً عَرَفَ^(٦)
الطَّرِيقُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ دَلِيلِ ضلَّ في سِيرِ وفي سِيرِ وَبَيْلِ^(٧)
كانَ مالاً لَمْ يَجِدْ مِنْ عَدَّةِ يُنَجِرُ الأعمالَ لَكِنَ وَخَدَّهُ
عاشِقٌ لَكِنَ طَوْنُهُ زَفَرَتُهُ سَالِكٌ قَدْ تَيْهَتُهُ خُطْوَتُهُ^(٨)

= عن ذكره وترديده .

(١) ترجمنا هذا البيت ببحره في الأصل ، وهو الهزج الذي يستخدمه الفرس ثمانياً .

(٢) الرِّكْنُ : الفطنةُ والذكاء .

(٣) العود هو الذي صلب عليه الحلاج . وقال قولاً لا يعيده سواه : أي لا يشبهه فيه .

(٤) الخمار : الصُّداعُ من شِدَّةِ الشُّكْرِ .

(٥) الختل : الخداع . وما وجد : بمعنى الذي وجد .

(٦) دوماً : دائماً .

(٧) السَّيرُ الوبيل هنا هو السير الذي تخشى عاقبته .

(٨) تَيْهَةٌ : أضلَّهُ ، وضيَّعَهُ .

وَعَنِ اللَّهِ وَذَاتِ مُنْصَلِّ
 الرَّقِيقِ فِي الْعَنِيفِ الْقَاهِرِ
 وَخُرُوجِ الْحَبِّ فِي قَلْبِ قَطْنِ
 وَعَنِ الْعَقْلِ الْبَعِيدِ وَالْبَعِيدِ !
 « لا » و « إِلا » مِنْ مَقَامَاتِ لِذَاتِ
 عَنْ مَقَامِ « عبده » وَهُوَ الْغَرِيبِ
 كَثْمَارِ أَبْعَدُوهَا عَنْ شَجَزِ !
 ثُمَّ صَاحَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ أَيْنَا
 وَكَمْوَسَى لِلْقَاءِ طَالِبَا
 لِيَعِيشَ فِي الْجُبُورِ وَهُوَ سَرْمَدٌ^(١)
 أَنْتَ فِي خَيْرِ طَرِيقِي ، فَلْتَسِرْ
 وَتَقَدِّمَ قَدْ دَنَا هَذَا الْمَقَامِ
 طَالَ فِيهِ ، وَبِلا حَرْفٍ ، كَلَامِ

الرَّحِيلُ إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ

انْطَلَقْتُ مِنْ حُدُودِ الْكَائِنَاتِ
 لَيْسَ فِيهِ مِنْ يَمِينِ أَوْ يَسَارِ
 عِنْدَهُ قِنْدِيلٌ إِذْرَاكِي حَمْدُ
 هَيْبَةً مِنْهُ كَلَامِي قَدْ جَمَدُ
 بِلِسَانِ الطَّيْنِ لِلرُّوحِ الْمَقَالِ ؟!

(١) أحمد : هو الشيخ أحمد السرهندي المتوفى عام ١٥٦٤م ، ذلك الصوفي الهندي الذي
 عاصر أكبر ، وجهانكير من أباطرة المغول في الهند . وقد عرف بمجتهد الألف
 الثاني ، وكان ضد غلاة المتصوفة .
 والحبور : السرور . والسرد : الدائم .

طيران الطير في السجن المحال^(١)

عالمًا للروح حصن بالنظر
ما الفؤاد؟ عالم لا لون له
ساكن والسير منه في ازدياد
حاز هذا العقل في تلك الحقيقه
والخيال غيره عنه اختلف
من يقول إن هذا في السما
أسرور من رأى يوماً حبيباً
أيقظ العينين أو أخذ بالكري

فنبور الذات نور لبصر
ليس فيه الحد فانظر كله
كل حال كل فكر في الفؤاد
سار وهو لا يرى حتى طريقه
ذاك في الجوزا وهذا قد أسف^(٢)
بجوار من على الأرض ارمى
من سرور ناشق كان القربيا^(٣)
فبدون الشمس قلب قد يرى

فضل الدنيا على دنيا الفؤاد

بالقياس جزئ في شرح المراد

«كن فكان» غير تلك نجرها^(٤)
لا يراها الوهم، إن العين تنظر
كل يوم كان لون من جمال^(٥)
تسعة الأفلاك فيها ما يدور
قبل أن يخفق قلب بالشعور
يالها نور الحياة يالها!^(٦)
في الرياض النهار يجري بالخريز

هذه دنياك فيها غيرها
وتدوم، وبها دام التعيز
ولها دوماً جديداً من كمال
لا ترى فيها الشمس والبدر
كل ما في الغيب يبدو في سفور
بلساني هل أصيب وضحها
الجبال أنبتت حمر الزهور

(١) المقال : القول . والمراد بالسجن هنا : قفس الطير .

(٢) الجوزاء : برج في السماء . وأسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

(٣) نشق ريحاً طيبة : شمها . والمعنى أن سرور من يشاهد الحبيب ليس كسرور من يشم
الريح التي تأتي من محلته .

(٤) النجر : الأصل .

(٥) لون : نوع . وكان هنا تامة .

(٦) في الأصل : إن هذه الدنيا هي النور والحضور والحياة .

البَرَاعِيمُ زَهَتْ أَلْوَانُهَا نَفْحَةُ الْأَبْرَارِ مِنْهَا كَوْنُهَا^(١)
 اللَّجِينُ الْمَاءُ وَالْأَنْسَامُ عَنَبْرُ وَالْقَبَابُ لِلْقُصُورِ ، تِلْكَ جَوْهَرُ^(٢)
 الْخِيَامِ مِنْ يَوَاقِيْتِ وَتَبْرِ وَجِبِينُ الْغَيْدِ بِالْمِرَاةِ يُزْرِي
 قَالَ لِي « الرُّومِي » أَسِيرٌ لِلْقِيَاسِ ؟ عَنْكَ دَعُ كَلٌّ اعْتِبَارٍ لِلْحَوَاسِ
 بِالتَّجَلِّيِ الْخَيْرُ كَانَ وَالشُّرُورُ جَنَّةٌ كَانَتْ كَمَا كَانَ السَّعِيرُ
 الْقُصُورُ كَالرَّبِيعِ فِي النَّظْرِ أَصْلُهَا الْأَعْمَالُ لَا ذَاكَ الْحَجَرُ !
 مَا تُسْمِيهِ بِحُورٍ أَوْ بِكَوْثَرٍ لِسُرُورٍ وَلِجَذْبِ كَانَ مَظْهَرُ
 الْحَيَاةِ ، هَاهُنَا هَذَا النَّظْرُ
 وَسِوَاهُ وَسِوَى قَوْلٍ فَنَذَرُ

قَصْرُ شَرَفِ النِّسَاءِ (٣)

عُشٌّ يَاقُوتِ أَرَاهُ فِي عُلاهِ وَمِنَ الشَّمْسِ الْخِرَاجُ قَدْ جَبَاهُ
 ذَاكَ قَصْرٌ ذُو قَبَابٍ عَالِيَاثِ ضَمٌّ حُورًا فِي ثِيَابِ الْمُخْرِمَاتِ
 رَغْبَةُ الْعِلْمِ وَهَبْتَ سَالِكَا مِنْ لِهَذَا الْقَصْرِ كَانَ مَالِكَا^(٤)

(١) البراعيم : جمع برعوم : وهو الزهرة قبل تفتحها . يقول : إِنَّ الْأَبْرَارِ نَفَحُوا نَفْحَةَ أَوْجَدْتَهَا .

(٢) اللجين : الفضة . والأنسام جمع النسم ، وهي الريح اللينة .

(٣) شرفُ النِّسَاءِ : حفيذةُ أحدِ حكامِ البنجابِ على عهدِ الإمبراطورِ المغوليِ بهادرخانِ . ويقالُ : إِنَّهَا أَقَامَتْ فِي قَصْرِهَا مَنْصَةً لِتَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ وَإِلَى جَانِبِهَا سَيْفٌ . وَكَانَ الْمَصْحَفُ وَالسَيْفُ عَلَى تِلْكَ الْمَنْصَةِ دَائِمًا . وَأَوْصَتْ بِدَفْنِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا مَعَ السَّيْفِ وَالْمَصْحَفِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ .

(٤) السَّالِكُ : المریدُ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالتَّصَوُّفِ .

وتغنى طيره بين الملائك^(١)
وفتاة لم تلدها أئتنا
سرّها يخفى على الدنيا خفاء
ولعين حاكم البنجاب نوز
فقرّها ذكرى ستبقى للأبد
برهة في تزكيه ما فكرت
إنّها السكرى وما ذقت مدا^(٢)
حبذا عمر تقضى في التقاة^(٣)
أمها خصت بملتاع النظر
شاهدي ما في يدي أو ما بخصري^(٤)
مخوراً كانا لدوم الكائنات^(٥)
ليس لي يا أم شيء آخر
مصحفي والسيف مني قرّبي
لا تزيني في الثراب مضجعي^(٦)

قال « هذي ، عشها البادي هنالك
جوهراً ، ما إن حواه بحرنا
أرض لاهور بها أضحت سماء
ولما بالذوق والشوق الشعور
وهي نور الأهل في عبد الصمد
تقرأ القرآن ، نفساً طهرت
تحمل المصحف والسيف الحساما
خلوة سيف وقرآن الصلاة
آخر الأنفاس وهي تختصر
ثم قالت إن عرفت الآن سري
قوتان بهما أيد الثبات
في حياتي ، وجميعاً نُقبر
قبل موتي ذاك منك مطلبتي
كل هذا من كلامي فلتعي

الكتاب والحسام حسبنا

بهما يزدان حقاً قبرنا

وقروناً تخت تبر للقباب قد تحلى بالحسام والكتاب^(٧)

(١) أي تغنى الطير الذي حط على سطح هذا القصر مع الملائكة .

(٢) السيف الحسام : القاطع .

(٣) التقاة : التقوى .

(٤) المصحف في يدها ، والسيف معلق بخصرها .

(٥) الأيد : القوة .

(٦) وعى الكلام : حفظه وتدبره . وهي ترغب إلى أمها ألا تقيم لها قبراً يزدان بالقباب

والقناديل .

(٧) التبر : الذهب .

ولنا المَرْقَدُ في دُنْيَا الشَّتَاتِ عَلَّمَ الْمُؤْمِنَ مَعْنَى لِلْحَيَاةِ^(١)
نَفْسَهُ الْمُسْلِمُ حَقًّا قَدْ ظَلَمَ فَالْبَسَاطُ مَا طَوَى دَهْرٌ وَضَمَّ
وهو في غيرِ الإلهِ فَكَّرَا أَضْبَحَ الثَّغْلَبُ ، كَانَ الْقَسُورَا^(٢)
ولهيبُ القلبِ فيه ما اندلَع أَنْتَ في البنجابِ تدري ما وَقَع ؟
مِنْهُ سَيْفٌ وَكِتَابٌ مَا حُمِلَ
ولذا الإسلامُ فيه قَدْ قُتِلَ^(٣)

زيارةُ الأميرِ الكبيرِ سيّدِ عليِ همداني ومُلاًّ طاهرِ غنيِ كشميري^(٤)

حَرَّقَ الأضلاعَ لِلرُّومِيِّ قَوْلُ آه يَا بِنِجَابُ ! يَا أَرْضاً تُجَلُّ
مِثْلَ خِلَانِي اضْطَرَبْتُ فِي الْجَنَانِ وَمِنْ الهمِّ ذَكَرْتُ مَا عَرَانِي^(٥)
وَإِذَا صَوْتُ لآلامٍ وَحُزْنٍ مِنْ ضِفافِ الكَوْتَرِ الصَّافِي بِأَذْنِي
« وَأَرَدْتُ حَزَقَ نَفْسِي وَلِذَا جَمَعْتُ قَشَا

(١) الشَّتَات : التفرق .

(٢) الْقَسُورُ : الأسد .

(٣) يقول : إِنَّ طائفةَ السَّيْخِ هي التي أبعدت القرآن والسيف عن البنجاب . وفي عقيدة السَّيْخِ : أَنَّ كلَّ إنسانٍ جديرٌ بالإجلال والتقدير بقطع النظر عن دينه ومذهبه ، ومَرَّتْ الأيَّامُ وحاربَ السَّيْخُ المسلمين .

(٤) الأمير سيد علي همداني صوفيٌّ مرموقٌ المنزلة عالي القدر . كان صاحب مشورة أمير كشمير ، ولد في همدان ، وعاش طويلاً ، وأفاد الناس بعلمه في كشمير ، وتوفي عام ١٣٨٥ م . ومُلاًّ طاهر غني كشميري ، شاعرٌ من أهل كشمير ، كانت وفاته عام ١٦٦٩ م . كان واسع الخيال ميالاً في شعره إلى التمثيل والتخييل ، وعلى فقره ورقة حاله عُرِفَ بغنى النفس ، فكان اسماً على مسمى .

(٥) عراه : أصابه .

ويظنُّ الوردُ أنِّي في الرياضِ رُمْتُ عَشًّا ! (١)

قال لي الروميُّ « ما يأتي انظرَنَّهُ
هو ذا « طاهر غني » أو خير شاعر
إنَّهُ النَّشوانُ غَنَّى في دوام
سَيِّدُ السَّاداتِ مِنْ سَأَدِ العَجَمِ
الغزالي دزَسَهُ لَمَّا تَلَقَى
في بلادٍ وهي لِلخُلْدِ النَّظيرِ
في البلادِ ذلكَ البَحْرُ المَعينُ
إنَّهُ مِنْ شَأَدِ إیرانِ الصَّغِيرَةِ

يا بُنَيَّ ما مَضَى لا تَذْكُرَنَّهُ
الفقيرُ ، وَغِنَاهُ مِنْهُ ظَاهِرُ
عِنْدَ هذا السَّيِّدِ العالِي المَقامِ
كُفَّهُ مِغْمَارُ تَقديرِ العَجَمِ (٢)
اسْتَمَدَّ آلَهُ فَكُراً وَحَقًّا
مرشِدٌ لِلكُلِّ بَلْ نِغَمِ المُشيزِ
فَضْلُهُ عِلْمٌ وَتَهْذِيبٌ وَدِينِ (٣)
بِصِفاتِ الخَيْرِ والحُسْنِ الكَثيرِ

عقدةً بِالعينِ حَلَّ كالحكيم
قُمْ تَلَقَّ ما لَدِيهِ في الصَّمِيمِ (٤)

في حضرة أميرِ همدان

زندۀ رود

أفهمني سرَّ ربِّي ، أنتَ تَصَدُّقُ
كُلُّ شَرِّ في الوجودِ زَيْنُهُ
يَطْلُبُ الطَّاعَةَ والشَّيطانَ يَخْلُقُ !
وابتغى مِمَّا عَمِلْتَ أَحْسَنَهُ ! (٥)
ما ابتهاجي صاحبي بِنَسِّ المَقامِزِ
ذاكَ سِخْرٍ مِنْهُ لي شَكُّ يَخامِزِ

- (١) هذا البيت لطاهر غني كشميري . وقد ترجمناه طبق وزنه في الأصل .
(٢) كان طاهر غني ينظم بالفارسية ، ويقول : إقبال عنه : إنَّهُ قَرَّرَ مصيرِ الفرس .
(٣) مَعَنَّ الماءُ فهو مَعِينٌ : أي جرى .
(٤) ما لديه : أي ما لديه من فضلٍ وصفاتٍ حميدة .
(٥) أي : أراد مني ألا أعمل إلا خيراً .

مِنْ تَرَابِ حُفْنَةٍ ، وَهُوَ الْفَلَكُ
 مَا عَمِلْنَا ، مَا ذَكَّرْنَا ، وَالْأَلَمُ
 كُلُّ مَنْ يَدْرِي عَنِ الذَّاتِ الْخَبْرُ
 حُبُّ إِنْسَانٍ لِشَيْطَانٍ وَبَالُ
 وَعَلَى الشَّيْطَانِ أَنْتَ فَاخْمِلْنِي
 فَلْتَجَاهِزْ وَلْتَجَالِدْ ، كُنْ وَحِيًّا
 أَطْرِيقُ لَيْتَ شِعْرِي مَا سَلَكُ !
 كَانَ عَضًّا لِلْبَنَانِ مِنْ نَدَمٍ
 يَخْلُقُ النَّفْعَ لَدَيْهِ مِنْ ضَرَزٍ
 هَزَمَهُ الشَّيْطَانُ فِي حَرْبِ جَمَالٍ
 كُنْ حُسَامًا وَلْيَكُنْ نِعَمَ الْمَسْنُ
 لَا تَكُنْ فِي الْعَالَمِينَ ذَا الشَّقِيَّا

زنده رود

كُلُّ إِنْسَانٍ أَخَاهُ يَأْكُلُ
 تَتَلَطَّى الرُّوحُ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ
 شَعْبُهُ بِالْعَقْلِ وَالْحُسْنِ اشْتَهَرَ
 دُخِرَتْ كَأْسٌ وَلَكِنْ فِي دِمَاةِ
 مُنْذُ أَنْ ضَيَّعَ مِنْ ذَاتِ نَصِييَا
 ظِلٌّ فِي أَيَدِي سِوَاهُ أَجْرُهُ
 وَمَضَتْ فِي سَيْرِهَا كُلُّ الْقَوَافِلِ
 مَاتَتْ الْجَذْبَةُ فِيهِ وَهُوَ عَبْدٌ
 لَا تَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ الْمَهِينَا
 لِيَعِيشَ الشَّعْبُ شَعْبًا يَقْتُلُ^(١)
 وَيَسُّ الْقَلْبُ أَضْنَاهُ الْكَمْدُ^(٢)
 وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مَعْرُوفُ الْخَبْرِ
 نَاحَ نَابِي لَلْأَلِيمِ مِنْ أَسَاهِ
 كَانَ فِي أَوْطَانِهِ هَذَا الْغَرِيبَا
 وَشِبَاكَ الْغَيْرِ أَرْضِي نَهْرُهُ
 أَفْسَدَ الْأَعْمَالَ شَأْنُ كُلِّ غَافِلِ
 وَلِنَارِ فِي الْعُرُوقِ كَانَ خَمْدُ^(٣)
 فِي الثَّرَابِ دَائِمًا أَدْلَى الْجَبِينَا^(٤)

إِنَّهُ فِيمَا مَضَى خَاضَ الْحُرُوبَا

وَتَحَدَّى وَهُوَ ذُو الْبَأْسِ الْخُطُوبَا

قَمَةً لِلنَّلْجِ فَاغْمُزْ بِالنَّظْرِ وَكُفُوفُ النَّارِ تَبْدُو فِي الشَّجَرِ

- (١) فِي الْأَصْلِ أَنَّ الشَّعْبَ يَرَعَى شَعْبًا غَيْرَهُ كَمَا تَرَعَى الْمَاشِيَةَ الْعُشْبَ فِي الْمَرَعَى لِتَعِيشَ .
 (٢) يَتَلَطَّى : يَشْتَعِلُ . الْكَمْدُ : أَشَدُّ الْحَزَنِ .
 (٣) الْخَمْدُ : الْخَمُودُ .
 (٤) الْمَهِينُ : الْحَقِيرُ .

اليواقيتُ حصاهُ في الربيع
والسحابُ حولِ أجدالِ يَدُوزِ
ذاكِ قرصُ الشَّمسِ في بحرِ عَرَبِ
في « نشاطِ » سِزْتُ في ركبِ النَّسيمِ
قالَ طيرٌ كانَ في أعلى الغصونِ
نَزجسُ يَزكُو وزَهْرُ أحمَرُ
من قديمِ في الجبالِ قَدْ ظَهَرَ
كم رأينا من وروِدِ أَيْنَعَتْ
كشهابِ أرضنا ما أُنْبَتَتْ^(٥)

بالشكَاةِ نَاحِ غَرِيدُ السَّحَرِ
وأرثُ عَيْنايَ مجنونَ الطَّرَبِ
فأوارُ الوجودِ في رُوحِي اسْتَعَزِ
كلُّ ما جَمَعْتُ من صَبْرِي سَلَبِ

امضِ عَنَّا ، دَعَكَ من نوحِ ثَمَلِ
عن طِلْسَمِ اللَّوْنِ في الأزهارِ مِلِ
قلتُ إنَّ الطَّلَّ في أوراقِ وَرْدِ
من بَكى في الشَّطِّ غِرٌّ أو خَبَلِ^(٦)

- (١) الأجدال : الجبال . والنَّداف : ضارب القطن بالمندف ليرق .
(٢) يقول : إنه شاهد قدرة الله في روعة الطبيعة .
(٣) نشاط : اسم حديقة في كشمير . ونشاط في الفارسية بمعنى سرور . يقول : إنه أشد شعراً مشهوراً لمولانا جلال الدين الرومي نظمه على لسان الناي ومنه بيت يقول فيه إنَّ ما يتردد في الناي ليس هواء بل نازُ العشقِ الإلهي .
(٤) زكا الزهر : نما . ويريد بذلك الثوب الأخضر الذي يشقه النسيم أكامم الزهر .
(٥) أينعت الثمرة : بلغت نضجها . وقد استعير ذلك للزهرة ، وشهاب الدين المتوفى عام ١٣٧٤هـ من سلاطين كشمير ، وقد بلغت بلاده في عصره ذروة التقدُّم في تاريخها .
(٦) الغر : من لا تجربة له . والخبل : المجنون .

أَيْنَ ضِعْفُ الرِّيشِ مِنْ تِلْكَ الْأَغَانِي
 عَيْنَ رُوحٍ لَغْنِي تَنْهَمِلُ^(١)
 إِنْ مَرَرْتَ بِجَنيفٍ يَا صَبَا
 بَلِغِي الْعُضْبَةَ عَنِّي مَا نُقِلُ^(٢)
 يَبِيعُ فَلَاحٌ وَتِلْكَ الْأَرْضُ بِيَعْتُ
 وَأَنَاسٌ ، وَلَهُمْ سَعْرٌ مُذِلُّ^(٣)

أمير همدان

اسْمَعَنَّ الْقَوْلَ لَا يُنْسَى وَيُذَكَّرُ
 ولأجلِ الرُّوحِ جِسْمٌ يُضْهَرُ
 يَا بَنِي ، مِنْهُ إِنْ جِزَاءً قَطَعْنَا
 إِنْ بَدَلْتَ الرُّوحَ لَكِنْ وَهِيَ سَكْرِي
 قُلْ أَجْنَبِي أَيْنَ لِلرُّوحِ النَّظِيرُ
 إِنْ حَفِظْتَ الرُّوحَ مَيْتاً أَصْبَحْتَ
 مَا هِيَ الرُّوحُ وَفِي سُكْرِ التَّجَلِّي
 وَلِرَبِّي قُلْ أَجْنَبِي كَيْفَ تُنْشَرُ
 بِتَجَلِّي السُّكْرِ أَنْتَ الذَّاتُ تَطْلُبُ
 إِنْ فَقَدْتَ الذَّاتَ حَقَّقْتَ الْفَنَاءَ
 مَنْ رَأَى الذَّاتَ ، وَشَيْئاً مَا رَأَاهُ
 الثَّرَابُ جِسْمُنَا وَالرُّوحُ جَوْهَرُ
 مِنْ تَرَابٍ إِنَّهُ لَا شَكَّ أَطْهَرُ
 ذَلِكَ الْجِزَاءُ بِلَا رَيْبٍ أَضَعْنَا
 عَادَتِ الرُّوحُ إِلَيْكَ وَهِيَ حَيْرِي
 فَهِيَ فِي قَيْدٍ وَمِنْ قَيْدٍ تَطِيرُ !
 إِنْ بَدَلْتَ الرُّوحَ نَوْرًا أَشْرَقَتْ
 مَا هِيَ الرُّوحُ وَمَا عَنْهَا التَّحَلِّي
 وَبِهَا الطُّورُ الْعَظِيمُ كَيْفَ يُضْهَرُ
 فِي اللَّيَالِي السُّودِ لَاحَتْ مِثْلَ كَوْكَبِ
 وَالْوَجُودُ ، كَانَ لِلذَّاتِ الْعَطَاءُ^(٤)
 سَجْنَهُ أَخْلَاهُ مِمَّا قَدْ حَوَاهُ

(١) انهملت العين : سال دمعها . وفي الأصل أن روح غني في حداد على أملها .

(٢) العصبية : هي عصبية الأمم وكان مقرها مدينة جنيف بسويسرا .

(٣) أردنا بالسعر المذل : السعر الرخيص للغاية .

(٤) الوجود هنا هو وجود الذات .

ذَاكَ نَشْوَانُ التَّجَلِّي ، وهي مَطْلَبٌ لِسَعَةً مِنْ شَهْدِهِ أَخْلَى وَأَطْيَبَ !
وترى الرُّوحَ رِيحاً نَظَرْتُهُ سِجْنُهُ سِجْنٌ تَهْوُلُ رَجْفَتُهُ (١)
يرفعُ الفَاسَ لِتَحْطِيطِ الصَّفَاةِ لِنَصِيبِ قَدْ يِنَالُ مِنْ حَيَاةِ (٢)
تَرَكَ الرُّوحَ لِتَغْدُو خَلْفَهُ
وَيَغْيِرُ التَّرْكَ كَانَتْ ضَيْفَهُ

زندہ رود

أَنْتَ خَيْرًا نَمَّ لِي شَرًّا شَرَحْنَا يَا حَكِيمُ غَيْرَ هَذَا لَوْ ذَكَرْنَا (٣)
وإلى لُبِّ المعاني قَدْ هَدَيْتَ كَلَّ أَسْرَارِ المُلُوكِ كَمْ وَعَيْتَ
فقراءٌ ، حَاكِمٌ يَبْغِي الخَرَاجَا قُلْ لِمَاذَا مَجَّدُوا عَرْشًا وَتَاجَا (٤)

أمير همدان

أضلُّ هذا المُلْكِ فِي شَرْقٍ وَعَرْبٍ ؟ كَانَ إِزْضَاءً لِشَغْبِ أَوْ لِحَزْبِ
وأقولُ لَكَ يَا عَالِي المَقَامِ لسوى اثْنَيْنِ الخَرَاجُ كَالْحَرَامِ (٥)
لأولي الأمرِ و« منكم » شَأْنُهُمْ فِي الكِتَابِ قَوْلُهُ بَرَهَانُهُمْ (٦)

(١) يشبه الروح بالريح على أن الريح لا تمن لها .

(٢) الصفاة : الحجر الضخم الصلد .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) أي : نحن فقراء .

(٥) أي : أن أداء الخراج حرامٌ إلا إلى اثنين .

(٦) قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

[النساء : ٥٩] ، فالأمر بطاعة أولي الأمر إذا أمروا بطاعة الله ورسوله .

أَوْ نَجِيدٍ مِثْلَ رِيحِ عَاتِيَتِهِ
بِالْقِتَالِ يَفْتَحُ الْبُلْدَانَ فَتَحًا
فَارِسٌ وَالْهِنْدُ مِمَّا يُشْتَرَى
جَامُ جَمَشِيدِ الْعَجِيبِ وَالنَّفِيسِ
الرُّجَاجُ لَكَ مَالٌ إِنْ شَرَيْتَهُ
جَادَ فِي الْحَرْبِ بِنَفْسٍ غَالِيَةٍ^(١)
وَهِيَ تَمَسُّ مُلْكَهُ إِنْ شَاءَ صُلْحًا
لَا يُنَالُ الْمُلْكَُ مِنْ هَذَا الْوَرَى^(٢)
أَيُّبَاعٌ مِثْلَمَا بَاعَتْ كَوْوسُ^(٣)
أَيُّ نَفْعٍ لِلرُّجَاجِ إِنْ كَسَرْتَهُ

غني

مَنْ أَفَادَ الْهِنْدَ تَخْطِيمَ الْقِيُودِ
عَقْلَاءُ يُنْسُبُونَ لِلْبِرَاهِمِ
مَنْ أَوْلِيَ الْعِرْفَانَ أَصْحَابُ النَّظَرِ
أَرْضُنَا كِشْمِيرٌ مِنْهَا أَضْلُهُمْ
إِنْ حَسِبْتَ الْأَرْضَ تَخْلُو مِنْ شَرِّ
أَصْلُ تِلْكَ النَّارِ أَيْنَ؟ لَيْتَ شِعْرِي
أَيْكُونُ الصَّيْدُ يَوْمًا كَالصَّيُودِ^(٤)
عِنْدَهُمْ قَدْ أَحْجَلَتْ حُمْرُ الْبِرَاعِمِ^(٥)
أَيُّ غَرِيبِي رَأَاهُمْ لَمْ يَحْزُ
وَبِهَذَا لَا يَسْوَاهَا نَجْمُهُمْ
قَلْبِكَ افْتَحْ وَأَطْلُ فِيهِ النَّظْرُ^(٦)
وَنَسِيمٌ لِلرَّبْرِيعِ وَهُوَ يَسْرِي^(٧)
فِي الْجِبَالِ عِنْدَنَا خَفَقَ لِرِيحٍ

- (١) النجيد : الشجاع .
- (٢) الورى : الناس .
- (٣) يقال : إن ملك الفرس الأسطوري جمشيد كانت له كأس رسمت في قاعها الأقاليم السبعة . وهذه الكأس في شعر الفرس الصوفي رمز لقلب المتصوف .
- (٤) الصيْدُ : الفريسة التي تصاد . والصيود : الكثير الصيد .
- (٥) البراهم : البراهمة .
- (٦) الشرر : ما يتطاير من النار .
- (٧) سرى : سار عامة الليل .

وبها تختالُ في لونٍ وريح^(١)

هل عَلِمْتَ أَنَّ يَوْمًا فِي وُلُرٍ
طَالَ فِي الْبَحْرِ بِنَا عُنْفُ الصُّرَاعِ
وَابْنَا أَي ذلِكَ النَّهْرُ الْقَدِيمِ
يَضْرِبُ الْأُحْجَارَ فِي عَرْضِ الطَّرِيقِ
مَنْ فَتَى فِي كُلِّ أَرْضٍ قَدْ غَلَبَ
إِنَّهُ بِالْعُنْفِ أَبَدَى الْمَخْشَرَا
مَا الصَّوَابُ عَيْشُنَا فِي حَدِّ سَاحِلِ
إِنَّ إلفَ الشُّطِّ مَوْتٌ لِلأَبَدِ
موجةٌ قالتْ لموجاتِ أُخْرُ^(٢)
لو حوانا البرُّ يوماً في اجتماع^(٣) !
منه في الوادي وفي السَّفْحِ الهَزِيمِ^(٤)
كي يُزِيلَ شَافَةَ الطُّودِ العَتِيقِ^(٥)
أرضعته ألف أم ثمَّ شَبَّ
لم يجدْ عِنْدَ سوانا المَصْدَرَا
في الطَّرِيقِ حَطًّا ما صَخْرًا يُمَائِلُ^(٦)
يا مُدِيمِ السَّبْحِ فِي لُجِّ الرِّبْدِ^(٧)

الحياة السيرُ في غورٍ وَتَجِدِ

يُسْعِدُ الموجهَ جَزْرًا بَعْدَ مَدِّ

أنتَ في وَجهِ الحِياةِ مَنْ قرأتِ
الرِّفِيرَ لَكَ هَذَا القَلْبُ أُحْرَقِ
النُّوَاخُ لِلطُّيُورِ مِنْ رَجِيعِكَ
وَفَتَحْتَ الرُّهْرَ مِنْ طَبَعِ هُنَاكَ
إِنَّ مِنْكَ الصَّوْتُ أَجْرَاسُ القَوَافِلِ
ذلكَ الشَّرْقَ الحِياةِ مَنْ وَهَبَتْ
ضقتَ صَدْرًا وَلَدَيْنَا الصَّدْرُ أَضْيَقُ
وَالوَضُوءُ لِلنباتِ مِنْ دُمُوعِكَ^(٨)
وَالمَنَى فِي الرُّوْحِ كَانَتْ مِنْ مُنَاكَ
ولكشمير أراكَ غَيْرَ آمِلِ

(١) الريح : الرائحة .

(٢) ولر : اسم بحيرة في كشمير .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) الهزيم : صوت الرعد .

(٥) شافة الطود : أصل الجبل .

(٦) أي : أن عيشنا على الساحل ليس صواباً لأنَّ صخر الساحل عقبه في طريقنا . ويمائل : يشبه .

(٧) اللج : معظم الماء .

(٨) الرَّجِيع : كلُّ متردِّدٍ . والمرادُ هنا الكلام والشعر . الوضوء : ماء الوضوء .

فِي الصُّدُورِ لَمْ يُمِثْ يَأْسٌ فُؤَادَا تَحْتَ ثَلَجٍ لَمْ يَصِرْ جَمْرٌ رَمَادَا
 كَيْفَ تَمَهَّلَ لِتَرَى مِنْ غَيْرِ صُورِ كَيْفَ قَامَ الشَّعْبُ مِنْ جَوْفِ القُبُورِ
 وَتَأْوَةٌ يَا فَتَى لَا تَبْتَيْسَنَّ أَحْضِرَا أَحْرِقْ وَأَحْرِقْ مَا يَيْسُنُ^(١)
 كَمْ بِلَادٍ تَحْتَ أَفْلَاكِ السَّمَاءِ أَحْرَقْتَهَا نَارُ قَلْبِ الْأَشْقِيَاءِ^(٢)
 إِنَّ هَذَا الْمُلْكَ أَوْهَى مِنْ حَبَابِ وَهُوَ بِالْأَنْفَاسِ مَحْتَوْمُ الْخَرَابِ^(٣)
 إِنَّمَا الشُّعْرُ الْمَصِيرُ قَدْرًا وَالشُّعُوبَ قَدْ بَنَى أَوْ دَمْرًا
 أَنْتَ إِنْ جَرَّخْتَ هَاتِيكَ الْقُلُوبَا لَمْ تَجِدْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ضَرْبًا^(٤)
 الْغِنَاءَ لَكَ مِنْ شِعْرِ تَلَوْتَهُ مَا وَرَاءَ الشُّعْرِ شِعْرٌ أَنْتَ قُلْتَهُ
 جَدِّدِ التَّخْرِيكَ وَالتَّأْيِيرَ جَدِّدْ
 رَدِّدِ الْأَلْحَانَ فِي الْجَنَّاتِ رَدِّدْ

زنده رود

اغْرِزَنَّ ، نَشْوَةَ الدَّرْوِيشِ هَذِي فَاثْلَفَنَّ
 إِنْ نَضَجْتَ مَلِكَ جَمَشِيدِ الْعَرِيضِ فَاثْلُكَنَّ^(٥)
 ثُمَّ قَالُوا هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَا هَلْ تَرْضِيهَا؟
 قُلْتُ لَا ، لَا أَرْضِيهَا ، قِيلَ هَيَّا هَدِّمَنَّ
 لَيْسَ فِي الْحَانَاتِ كَفَاءٌ بِالرِّضَا مِنَّا جَدِيدُ

(١) ابتأس : حزن .

(٢) الأشقياء : ضد السعداء .

(٣) الحباب : النفاخات التي تعلق الماء والشراب ، وهو يزول حتماً إذا نفخ فيه .

(٤) الضريب : النظير .

(٥) جمشيد : ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

رُسْتُمْ الأبطالِ حارِبَ ، وَمَعَ الساقِي امزَحَنَ^(١)
أنتَ يا زَهْرُ الصَّحارى ، قُلْ أَحَقَّقْتَ احترافاً^(٢)
في قلوبِ لِلناسِي ، هذه النَّارُ اضْرِمَنَّ
كنتَ في قلبِ لهيباً ، ولهيباً في دِمَاءِ
وإذا لم تَقْتَنِغْ بالقولِ ذا الكونِ اشْطُرَنَّ
ألكَ العَقْلُ سِرَاجٌ ؟ في الطريقِ سِزْ تَقَدَّمْ
وَلَكَ العِشْقُ مُدَامَ ، فَمَعَ الحِجْبِ اشْرَبَنَّ^(٣)
فَلذَّةُ القَلْبِ بدمعِ مِنْ عيونِي في انسكابِ
مِنْ يواقيتِ بَدْخْشانِ الفُصُوصِ فاضنَعَنَّ^(٤)

حديثٌ مع الشَّاعرِ الهنديِّ بَرْتري هري^(٥)

تَسْكُنُ الحورُ القصورَ والخياما بشكاتي يُضْبِحُ القَلْبُ الضَّرَاماً^(٦)
هذه مِنْ خيمةِ أبَدَتْ جِئِنَا أختُها مِنْ غرْفَةِ أذَلَّتْ عُيُوناً^(٧)
كلُّ قلبِ في الجِنانِ قَدْ وَجَدْتُهُ بالأسى مِنْ هَذِهِ الدُّنيا غَمَزْتُهُ

(١) رستم : بطل من أبطال إيران في عصر الأساطير .

(٢) يريد الزهر الأحمر الذي يشبه النار .

(٣) الحب : الحبيب .

(٤) بَدْخْشان : مدينة تشتهر بالياقوت .

(٥) برتري هري : شاعر هندي عاش في منتصف القرن السابع الميلادي . وله أشعار باللغة

السنسكريتية في الحبِّ والخلق القويم والزهد .

(٦) الضرام : النار .

(٧) أدلت عيوناً : نظرت .

قَالَ لِي الشَّيْخُ وَبِسْمَاءٍ قَدْ حَجَبَتْ
 شَاعِرُ الْهِنْدِ ! وَهَذِي جِرْفَتُهُ
 (بَزْتَرِي) يَزْدَانُ بِالْعِلْمِ الْعُجَابِ
 بُزْعُومٌ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا رَأَيْنَا
 إِنَّهُ مَلِكٌ عَظِيمٌ بِالْغِنَاءِ
 يَرْسُمُ الشَّكْلَ الْبَدِيعَ بِالذِّكَا
 أَمَرَ هَذَا الْعَيْشِ يَدْرِي كُلَّهُ
 « أَنْتَ سَحَاوٌ » وَهِنْدِي النَّسَبُ (١)
 تَجْعَلُ الطَّلَّ اللَّالِي نَظْرَتُهُ (٢)
 فَطَرَةٌ كَانَتْ لَهُ مِثْلَ السَّحَابِ
 دَفَعَتْهُ مِنْكَ أَنْغَامٌ إِلَيْنَا
 وَهُوَ بِالْفَقْرِ الْعَظِيمِ ذُو الْعَلَاءِ
 يُظْهِرُ الدُّنْيَا بِحَرْفٍ مِنْ خَفَاءِ
 وَهُوَ جَمٌّ شِعْرُهُ جَامٌّ لَهُ (٣)
 قَدْ عَرَفْنَا فَتَنَهُ فَنَاءً عَلَيْنَا
 وَأَدْرَنَا بَيْنَنَا قَوْلًا طَلِيًّا

زنده رود

أَنْتَ يَا مَنْ قُلْتَ قَوْلًا عَبَقْرِيًّا
 قَلْ ، لِهَذَا الشَّعْرِ مِنْ أَيْنَ اللَّهَبُ
 يَغْلَمُ الشَّرْقُ بِهِ سِرًّا خَفِيًّا
 أَضْرَمْتَهُ الذَّاتُ أَوْ رَبٌّ وَهَبُ ؟

برتري هري

شَاعِرٌ أَيْنَ يُقِيمُ ، مَنْ عَرَفَ ؟
 وَلَهُ بَمٍّ وَزَيْرٌ إِنْ عَرَفَ (٤)

(١) السَّحَاوُ : الكثير السحر .

(٢) الطَّلُّ : الندى .

(٣) جم : هو جمشيد من ملوك الفرس الأقدمين . قيل إنه كان يملك كاساً رسمت في قاعها الأقاليم السبعة .

(٤) اليم : أغلظ أوتار العود . والزيرُ : أدقُّها .

قلْبُهُ فِي الصَّدْرِ وَهَاجُ الْأَوَارِ وَأَمَامَ اللَّهِ مَعْدُومُ الْقَسْرَارِ^(١)
 وَيُحِثُّ رَوْحُنَا كَأَنَّكَ تَطْيِيبُ وَطَلْبُنَا ، فَلِذَا الشُّعْرُ اللَّهِيْبُ
 مِنْ كَرُومِ الْقَوْلِ يَا مَنْ قَدْ ثِمَلْنَا مِثْلَ ذِيَاكَ الْمَقَامِ لَوْ بَلَّغْنَا!^(٢)
 وَبَيْتِ قَيْلٍ فِي دُنْيَا الْحَجَزِ فِي الْجِنَانِ تُسْتَبَى ذَاتُ الْحَوَزِ^(٣)

زندہ رود

إِنَّ أَهْلَ الْهِنْدِ كَانُوا فِي الْعَذَابِ
 أَظْهَرَ السَّرِّ مَنْ خَلْفَ الْحِجَابِ

برترى هري

هذه الأربابُ شَحَّتْ وَهِيَ مِنْ طِينٍ وَصَخْرٍ
 « برترى » كان بعيداً عَنْ كَنِيسِ بَلِّ وَدَيْرِ
 سَجْدَةً مِنْ ذَوْقِ أَعْمَالٍ خَلَّتْ لَا خَيْرَ فِيهَا
 عَمَلٌ تِلْكَ الْحَيَاةُ ، وَهَوَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرِّ
 عَالِمٍ أَنْتَ تَرَاهُ لَيْسَ مِنْ آثَارِ رَبِّ
 مِغْزَلٍ بِالْخَيْطِ دَوَّزَتْ وَلَكِنْ لَسْتَ تَذْرِي
 أَسْجُدَنَّ عِنْدَمَا لِلْعَامِلِينَ مِنْ جَزَاءِ
 مَا لَهُمْ هَذَا النَّعِيمُ وَالْجَحِيمُ غَيْرَ أَجْرٍ^(٤)

-
- (١) وهاج الأوار : متأجج النار .
 (٢) لو هنا للتمني .
 (٣) استباه : سباه في الحرب .
 (٤) المراد بالأجر هنا : الجزاء سواءً أكان على الخير أم على الشر .

السَّفَرُ إِلَى قَصْرِ سُلَاطِينِ الْمَشْرِقِ

نادر وأبدالي والسُّلطان الشهيد^(١)

«بِزْتَرِي» قَدْ هَزَّ رُوحِي بِالنِّدَاءِ
قَالَ لِي الرَّومِيُّ «عَيْنُ الْقَلْبِ أَفْضَلُ
بِمَقَرِّ لِلدَّرَاوِيشِ اعْبُرَنَّ
وَمَلُوكُ الشَّرْقِ فِي حَفْلِ كَعَقْدِ
«نَادِرُ» النَّحْرِيرُ رَمَزُ الْإِتِّحَادِ
ثُمَّ «أَبْدَالِي» وَقَدْ كَانَ الْبَطْلُ
وَأِمَامُ شُهَدَاءِ الْعَاشِقِينَ

أُسْكِرْتَنِي مِنْهُ صَهْبَاءُ الْغِنَاءِ
وَالخُرُوجُ عَنْ إِطَارِ الْفِكْرِ أَمْثَلُ^(٢)
وَقَصُوراً لِلسُّلَاطِينِ انْظُرَنَّ
عِزَّةُ الْأَفْغَانِ أَوْ فَرَسِ وَهِنْدِ^(٣)
كَانَ لِلإِسْلَامِ بُشْرَى بِالْوِدَادِ^(٤)
مَنْحَ الْأَفْغَانِ أَسْأَ لِلْعَمَلِ^(٥)
شَرَفَ الْأَقْوَامِ كَانَ أَجْمَعِينَا^(٦)

(١) نادر : هو شاه أفشار الذي كان قائداً في جيش الشاه طهماسب الثاني آخر ملوك الصفويين ، وقد تآتى له أن يدفع غارة الأفغان على إيران ، فترجّع على عرشها عام ١٧٣٦م كان سُنِيّاً ، وبذل وَسْعَهُ في التقريب والتوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي الذي كان المذهب الرّسمي للدولة الإيرانية في عهد الصفويين .
وأبدالي هو أحمد شاه دراني المتوفى عام ١٧٧٣م كان من قادة جيش نادر كما حكم من قبله إقليم مازندران . وبعد مقتل نادر مضى إلى أفغانستان حيث أصبح ملكاً ، واتخذ من مدينة قندهار عاصمةً له . ويعدُّ مؤسساً للدولة الأفغان .
أما السلطان الشهيد فهو تيبو سلطان الذي كان له المُلك في الدّكن . وقد حارب الإنجليز الذين غلبوا على عاصمته ، ثم قتل في حومة القتال عام ١٧٩٩م .

(٢) الأمثل : الأفضل والأدنى للخير .

(٣) يشبه هؤلاء الملوك في مجلسهم بحبات العِقْدِ ، ويقول : إِنَّ عِزَّةَ الْأَفْغَانِ وَالْفَرَسِ وَالْهِنْدِ بِهِمْ . وَأَوْ هُنَا لِلْجَمْعِ .

(٤) النحرير : العاقل الحاذق .

(٥) الأس : الأساس . وفي الأصل : أنه منح الأساس للشعب .

(٦) العاشقون هنا عاشقوا الذات الإلهية من الصُّوفية .

أَيْنَ مِنْ نُورِ اسْمِهِ نُورُ الْكَوَاكِبِ وتراه عَيْشَنَا هَذَا يُوَاكِبُ^(١)
 إِنَّهُ كَشَّفَ سِرَّ الْعَاشِقِ جَادَ بِالرُّوحِ بِشَوْقٍ دَافِقِ^(٢)
 وَبِفَضْلِ مَنْ يَبْدِرُ أَوْ حُنَيْنِ قَدْ حَبَاهُ فَقْرُهُ جَذَبَ الْحُسَيْنِ^(٣)

زايِلَ السُّلْطَانَ قَصْرًا زَائِلًا
 مُلْكُهُ فِي الْهِنْدِ ظَلَّ مَائِلًا^(٤)

ناقصَ العقلِ ، عجزتَ عن كلامي لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ وَصَفِي لِلْمَقَامِ
 بِتَجَلِّيهِ رَأَى أَهْلَ السَّمَاءِ مَا زَهُمَ لَكِنَّ عَجِيبٌ مِنْ ذُكَاةِ
 ذَاكَ قَصْرٌ وَمَنْ الْفَيْرُوزِ بَابِهِ السَّمَاءِ كُلُّهَا تَحْوِي رَحَابَهُ
 فِي السُّمُوقِ مَا لَهُ كَيْفٌ وَكَمْ يَجْعَلُ التَّفْكِيرَ ذَا عَجْزٍ يُذَمُّ
 هَذِهِ الْأَزْهَارُ فِي الْحَسَنِ الْبَدِيعِ صُورَةٌ كَانَتْ تَجَلَّتْ لِلرَّبِّيعِ
 وَالنَّبَاتُ وَهُوَ فَيَاضُ الْبَهَاءِ غَيَّرَ الْأَلْوَانَ مِنْ ذَوْقِ النَّمَاءِ
 وَالصَّبَا دَابُّ لَهَا أَنْ تَسْحَرَا تَجْعَلُ الْأَضْفَرَ تَوًّا أَحْمَرَ^(٥)
 دَفَقَ الْمَاءُ وَكَالِدُرٌّ انْتَشَرُ طَائِرُ الْفِرْدَوْسِ غَنَى فِي الشَّجَرِ
 يَا لِقَصْرِ فِيهِ بَهْوٌ قَدْ سَمَقُ ذَرَّةٌ مِنْهُ ذُكَاةٌ فِي الْوَهَقِ!^(٦)
 سَقْفُهُ كَانَ عَقِيْقًا نُضْدَا أَرْضُهُ يَشْمُ ثَمِينٌ مُهْدَا^(٧)
 وَصَفُوفٌ فِيهِ مِنْ قَامَاتِ حُورِ وَلِهِنَّ التَّبَرُّ حَلِيٌّ فِي الْخُصُورِ

(١) واكب الركب : سايرهم ، أوركب معهم .

(٢) كَشَّفَ : بمعنى كشف .

(٣) فِي الْأَصْلِ بِنظَرَةٍ مِنْ سَيِّدِ بَدْرٍ وَحُنَيْنِ .

(٤) الْمُرَادُ بِالْقَصْرِ الزَّائِلِ هَذَا الْعَالَمِ .

(٥) الدَّابُّ : الْعَادَةُ . يَقُولُ : إِنَّ مِنْ عَادَتِهَا أَنْ تَغَيِّرَ الْأَشْيَاءَ بِالسَّحْرِ .

(٦) سَمَقُ : عَلَا . وَذُكَاةٌ : الشَّمْسُ . الْوَهَقُ : حَبْلٌ فِي طَرْفَيْهِ أَنْشُوطَةٌ يَطْرَحُ فِي عُنُقِ الدَّابَّةِ

لِتُؤَخَذَ بِهِ . يَقُولُ : كَأَنَّمَا كُلُّ ذَرَّةٍ فِي هَذَا الْقَصْرِ صَادَتِ الشَّمْسُ بِهَذَا الْحَبْلِ .

(٧) نُضْدُهُ : وَضَعُ بَعْضُهُ عَلَى الْبَعْضِ . وَالْيَشْمُ وَالْيَشْبُ : حَجَرٌ يَشْبُهُ الزَّبْرَجِدَ .

وعلى العرشِ ملوكٌ يجلسُونا وملوكِ الفُرسِ كانوا يُشبهُونا^(١)
 ذلكَ الرُّوميُّ مرآةَ الأدبِ فرَجَ الغمِّ بما زادَ الطَّرَبِ^(٢)
 « وَمِنَ الْمَشْرِقِ هَذَا شَاعِرٌ لستُ أدري ، شاعرٌ أم سَاحِرٌ
 فِكْرُهُ دَقٌّ وَفِي الرُّوحِ الأَلَمِ
 شِعْرُهُ فِي الشَّرْقِ قَدْ أَذكى الضَّرَمَ »^(٣)

نادر

مرحباً يا شاعرَ الشَّرْقِ العَظِيمَا مِنْ كَلامِ الفُرسِ أنشَدتِ القَويَمَا
 نَحْنُ أَهْلُ السَّرِّ قَل سَرّاً لَنَا ثَمَّ عَن إِيرانَ حَدَّثَ أنبِئنا^(٤)

زندة رود

نَظَرَتِ إِيرانَ فِي ذاتِ مَليّا وَهَوَتْ فِي قاعِ أَشراكِ هُويّا^(٥)
 وَقَتيلُ دَلِّ أَصنامِ الجَمالِ تُشَبهُ الإفرنجِ فِي خَلقِ الكَمالِ !
 فِكرُها فِي مُلكِها أَوْ فِي النَسبِ مَدْحُ سابورِ وَذَمُّ لِلعَربِ^(٦)

(١) ذكر من هؤلاء الملوك جمشيد وبهرام وهما مشهوران بعزة الجانب .

(٢) فرج : فتح . والطرب : خفة تعتري الإنسان من فرح أو حزن .

(٣) أذكى : أوقد . والضرم : الحطب يطرح في النار .

(٤) أنبنا : أنبئنا .

(٥) هوى هويّاً : سقط . والشراك : جمع : شرك ، وهو الحباله .

(٦) سابور : ملك من ملوك الفرس . وهو سابور الثاني المعروف بذي الأكتاف ؛ لأنه في

حربه مع قبائل العرب خلع أكتافهم ، أو ثقب ألواحها وجعل فيها حبلاً إمعاناً في

التشفي منهم .

يَوْمُهَا خَالٍ ، وَمَنْ كُلُّ الْمَهَامِ الْحَيَاةُ طَلَبَتْهَا فِي الرَّجَامِ^(١)
 وَطَنًا رَامَتْ وَذَاتًا لَا تَرَى وَتَنَاسَتْ رُسْتُمَا بَلْ حَيْدَرًا^(٢)
 باطلَ الإفرنج ما قَدْ حَصَلَتْ
 ولها التاريخُ مِنْهُمْ شَكَّلَتْ

كَانَتْ الشَّيْخُ ، وَفِي عَهْدٍ بَعِيدٍ شَا حَبَّ الْوَجْهِ دِمَاهُ مِنْ جَلِيدٍ
 عُرْفُهَا بِالِ لَهَا دِينَ قَدِيمٍ وَكَذَاكَ الصُّبْحُ وَاللَّيْلُ الْبَهِيمِ!^(٣)
 كَرُمُهَا مَا فِيهِ أَمْوَاجٌ لَخْمِرٍ تُزْبِهَا مَا فِيهِ مِنْ وَهْجٍ لَجْمِرٍ^(٤)
 وَمِنْ الصَّحْرَاءِ كَانَ الْمَخْشَرُ فَلَدَيْهَا مِنْهُ عُمْرٌ آخَرُ^(٥)
 رَحْمَةُ اللَّهِ وَمَنْ تَخْنَزِهِ فَارِسٌ ظَلَّتْ وَرُومًا أَيْنَ هِيَ!^(٦)
 مَا مَضَى عَنْ جِسْمِهَا رُوحٌ رُؤُومٍ أَبْغِيرِ الْحَشْرَ مِنْ تُزْبٍ تَقُومُ^(٧)
 رَجُلُ الصَّحْرَاءِ رُوحًا قَدْ مَنَخَ وَإِلَى صَحْرَائِهِ عَنْهَا نَزْحُ^(٨)
 وَمَحَا مِنْ لَوْحِنَا كُلِّ الْقَدِيمِ جَدَّدَ الْعَضْرَ ، وَلَيْسَ بِالْمَقِيمِ

إِنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا فَضْلَ الْعَرَبِ
 وَمَنْ الإفرنجِ ذَابُوا فِي اللَّهَبِ !

- (١) الرجام : جمع رجم ، وهو القبر .
- (٢) رستم : أعظم أبطال الأساطير عند الفرس . وحيدر : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
- (٣) البهيم : الذي لا ضوء فيه إلى الصباح . يقول : إنَّ كل شيء فيها كان قديماً بالياً حتى ليلها ونهارها .
- (٤) التراب : التراب . والوهج : اتقاد النار .
- (٥) يشير إلى فتح العرب لفارس ، ويشبهه بالبعث والحياة الأخرى .
- (٦) التحنان : الرَّحْمَةُ .
- (٧) الرؤوم : الرحيمة . وفي الأصل الطاهرة .
- (٨) نزح : بعد ورحل .

ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها

وإنشاد غزل رقيق^(١)

لِلْحُسَامِ وَالْيَرَاعِ تَجْعَلُ الكِفَّ المَدَارَا
مِنْ جَوَادِ العِجْمِ بَعْدُ ، أَنْتَ لَا تَخْشَى العِثَارَا^(٢)
العِجْمُ وَالْيَرَاعُ مِنْهُمَا فَضْلٌ عَمِيمٌ
يَا أَخِيَّ مَضِدُّرُ الثُّورِ لَدِينَا كَانَ نَارَا^(٣)
عِنْدَ كِفَارِ أَجْنَبِي أَيُّ خَيْرٍ فِيهِمَا
لَهُمَا بِالذِّينِ سِعْرٌ يَشْتَرِي حَتَّى النُّضَارَا^(٤)
عِزَّةُ الذِّينِ بَعْلَمٌ وَبِجَهْلٍ ذَلَّةٌ
دِينُ جُهَّالٍ كَزَهْرِ الثُّورِ قَدْ جَابَ القِفَارَا^(٥)
مِثْلُ كَرْبَاسٍ وَإِيَّاسٍ يَخِيْطُ نِصْفَهُ

(١) ناصر خسرو : من شعراء إيران في القرن الخامس الهجري ، وكان من دعاة المذهب الإسماعيلي ، وجمهرة أشعاره في المسائل المذهبية والفلسفية . ولما قدم مصر ، وكل إليه الخليفة الفاطمي نشر المذهب الإسماعيلي في خراسان ، وجعله رأس الباطنية في تلك الجهات .

(٢) الحسام : السيف . واليراع : القلم . وهذا الشعر نوني القافية في الأصل . ويقول الشاعر : إنك إذا جعلت من كفك ميداناً يجول فيه القلم والسيف ، فإن جواد جسمك لا يكبو من بعد .

(٣) أخى : تصغير أخ . وهو يقول : إنَّ الحسام واليراع مصدر الخير ، كما أن النار مصدر النور .

(٤) النُّضَار : الذهب . وإذا اقترن القلم والسيف بالذِّينِ غلا ثمنهما ، وعظمت قيمتهما .

(٥) يقول : إنَّ الدين يعرُّ بالعلم . والدين عند الجاهل كالزُّهرة عند الثور الذي يتجول في الصحارى .

ويهوديٌّ لكُفْنٍ نِضْفِهِ الثَّانِي اسْتِعَارًا^(١)

أبدالي

وفتَى مُلْكاً عَظِيماً قَدِ أَقَامَا لِلجِبَالِ عَادَ وَاخْتَارَ المَقَامَا
أضْرَمَ النيرانَ فِي تِلْكَ الجِبَالِ أَخْرَقْتَهُ ؟ أَمْ شَجَاعٌ لَا يِيَالِي

زنده رود

الشعوبُ بينها صَفْوُ الإخاء إخوةٌ ، فِي حَرْبِهَا أَوْ فِي المِرَاءِ^(٢)
وحياءُ الشُّرْقِ كَانَتْ مِنْ حَيَاتِهِ ابْنُهُ الجَنْدِيُّ أَمْسَى مِنْ حُمَاتِهِ !
ذاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ جَهلاً سَلَبَ مَالَهُ مِنْ مَمَكِنَاتٍ مَا حَسَبَ^(٣)
ولهُ قَلْبٌ وَعِنْدَهُ غَافِلٌ للجِسْمِ والقُلُوبِ مِنْ فِراقٍ فَاصِلٌ^(٤)
إنَّما الجِوَالُ ضَلَّ كُلَّ غَايِهِ رُوحُهُ مَا إِنْ دَرَّتْ مَعْنَى النِّهَايَةِ

(١) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض ورقيل هو الثوب الخشن . والكفن : تكفين الميت .

وإقبال يومئذ إلى حقيقة تاريخية هي ظهور النبي إلياس في اليهود بعد انقسام مملكتهم قسمين شمالي وجنوبي . وقد أراد أن يهدي اليهود إلى دين قويم أساسه توراة موسى ، وكان يلبس قباء أبيض . وما زال اليهود إلى اليوم يصلون بقباء أبيض لا يجيزون الصلاة إلا به .

وقد تلقينا هذه المعلومات عن الأستاذة منى ناظم المعيدة بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب من جامعة عين شمس ، فلها الفضل وإليها الشكر .

(٢) المراء : الجدال . يقول : إنَّ الشعوب إخوة إلا أنَّها على الدوام تتحارب وتتجادل .

(٣) حسب الشيء : عدّه وأحصاه .

(٤) يقول : إن الفراق حدٌّ يفصل بين الأجسام والقلوب .

يعرف الأفغان حقاً شاعراً قال ما قد قال وهو الساذج^(١)
إنه كان حكيماً شغيباً بذل الوسع يقضد طبهم^(٢)
سز قوم قد دراه ثم قالوا ما رآه الحق لم يخش الوبالا^(٣)
فتى الأفغان لو يلقي البعيرا
يحمل الجوهراً والذرّ الوفيرا
ما تملأ ذلك الوسق الكبير^(٤)
وأراد جُلجل الهادي الصغيرا^(٥)

أبدالي

إن من قلب لنا الطنبع اتقد وصحاً منه التراب أو رقد
وبموت القلب جنم غيراً ودماً أمسى النضیح أحمر^(٦)
بفساد القلب ما هذا الجسد؟ وخده كُن من على القلب اعتمد
آسيا جسم ومن ماء وطين قلبها الأفغان خفاق الوتين^(٧)
ولها منه الفساد إن فسد وانطلاق منه يا نعم المدد^(٨)
بانطلاق القلب فالجسم الطليق أو لريح كان بالقش الخفوق^(٩)

(١) السادر : الذي لا يبالي .

(٢) طبهم : علاجهم من المرض .

(٣) الوبال : سوء العاقبة .

(٤) تملأ الشيء : تمتع برؤيته . الوسق : الجمل .

(٥) الجلجل : الجرس الصغير . والهادي : العنق .

(٦) النضیح : العرق .

(٧) الوتين : عرق في القلب .

(٨) المدد : العون .

(٩) يقول : إن الجسم إذا لم يتطلق بانطلاق القلب ، كان شبيهاً بالقشة إذا اشتدت بها الريح

في يوم عاصف .

وله كالجسم بالعرف القيود دينه أحياء والموت الحُقود^(١)

بمقام وَخُدَّةٍ قَد عَزَّ دِينِ

ذَلِكَ الشَّعْبُ بِهَا شَعْبٌ يَكُونُ

ذَاتَهُ يَفْقَدُ ذَا الشَّرْقِ الْمُقَلَّدُ لَيْتَهُ النَّقَادُ لِلْغَرْبِ الْمُفَنَّدُ^(٢)

عَزُّ هَذَا الْغَرْبِ لَا بِالْمَطْرِبَاتِ لَا وَلَا رَقْصِ الْغَوَانِي الْعَارِيَاتِ

لَمْ يَهْبَهُ قَوَّةٌ وَزُدَ الْخُدُودِ وَقَصِيرُ الشَّعْرِ أَوْ مَيْسُ الْقُدُودِ^(٣)

مَجْدُهُ مَا كَانَ مِنْ تَرْكٍ لِذَيْنِ لَيْسَ مِنْ خَطِّ لَدَيْهِ بِالْمَكِينِ^(٤)

الْعِلْمُ وَالْفَنُونُ سَوْرَةٌ وَمَصْبَاحٌ لَدَيْهِ نَوْرَةٌ

لَسْتَ بِالثَّوْبِ حَكِيمًا كَالْأَعَاظِمِ أَيْضًا الْعِلْمُ مِنْ لُبْسِ الْعِمَائِمِ^(٥)

تُذْرِكُ الْعِلْمَ بِعَقْلِ أَنْتَ مَالِكٌ لَا بِثَوْبٍ تَسْتَعِيرُ مِنْ هُنَالِكَ^(٦)

لَيْسَ فِي هَذَا السَّبِيلِ غَيْرُ عِلْمٍ مَا عَلَى رَأْسِكَ مِنْ غَيْرِ الْمُهِمِّ

إِنْ مَلَكَتِ الْفِكْرَ هَذَا الْفِكْرُ حَسْبُكَ

كُلُّ شَيْءٍ عَنْهُ مَا يُغْنِيكَ ، طَبْعُكَ

السَّنَاجَ فِي اللَّيَالِي إِنْ أَكَلْتَهُ فَإِلَى الْعِلْمِ السَّبِيلُ قَدْ وَجَدْتَهُ^(٧)

مَنْ رَأَى يَوْمًا حُدُودَ مُلْكٍ مُعْتَى؟ يَطْلُبُ الْمَطْلُوبَ مَجْهُودًا وَأَيْنَا^(٨)

(١) الحقود : الأحقاد .

(٢) فَنَّدَهُ : كَذَّبَهُ وَخَطَّأَ رَأْيَهُ .

(٣) الميس : التبخر .

(٤) هذا الخط في الأصل هو الخط اللاتيني . والمكين : صاحب الحظوة .

(٥) ضاره : ضره .

(٦) يريد بهذا الثوب زي أهل الغرب .

(٧) السناج : أثر دخان المصباح . وأكل سناج المصباح في الفارسية كناية عن سهر الليالي

في طلب العلم .

(٨) الأين : التعب .

فَقَدَ الْأَتْرَاكَ ذَاتَا بِالْمُدَامِ فَالْفَرَنْجُ أُسْكِرُوهُمْ بِالسُّمَامِ^(١)
 إِنَّ تَرْيَاقَ الْعِرَاقِ مَا لَدَيْهِمْ رَحْمَةً يَا رَبِّ فَاَنْسُطْهَا عَلَيْهِمْ^(٢)
 وَعَيْبِدُ الْعَرْبِ يَبْغُونَ الظُّهُورَا إِنَّهُمْ يُرْضُونَ بِالرَّقْصِ الْغُرُورَا!
 رُوْحَهُمْ فِي اللَّهْوِ كَانُوا يَفْقِدُونَا يَضْعُبُ الْعِلْمُ ، بِلَهْوٍ لَنْ يَكُونَا
 يَطْلُبُونَ السَّهْلَ لَكِنْ مِنْ كَسَلٍ طَبَعُهُمْ مَا يَبْتَغِي سَهْلَ الْعَمَلِ
 الْيَسِيرُ السَّهْلُ لَكِنْ إِنْ طَلَبْنَا أَنْتَ رُوْحَا لَكَ مِنْ جِسْمٍ فَقَدْنَا

زندہ رود

الْفِرَنْجُ بِالرَّقِيِّ مَا أَرَادُوا؟ أَلَفَ فَرْدُوسٍ مِنَ الْأَلْوَانِ شَادُوا^(٣)
 ظَاهِرٌ مِنْهُمْ دِيَاراً حَرَقَا وَالْغُصُونَ بِالْعِشَاشِ مَرَقَا^(٤)
 ظَاهِرٌ يَبْدُو لِعَيْنِ لَامِعَا وَهَنَّ الْقَلْبُ لِعَيْنِ خَانِعَا^(٥)
 يَزَلِقُ الْقَلْبُ وَلِلْعَيْنِ النَّظْرُ وَأَمَامَ الْمَعْبَدِ الْخَفَّاقُ خَر^(٦)
 وَمَصِيرَ الشَّرْقِ هَذَا مَنْ دَرَى؟ أَيُّ تَسْدِيرٍ وَتَبْغِي مَطْهَرَا

(١) يقول : إن الأتراك سكروا بخمرة الغرب ، وهي كناية عن افتتانهم به . والسُّمَامُ : جمع سم .

(٢) الترياق : دواء السُّموم . وفي أشهر كتاب من كتب الأدب الفارسي ، وهو كتاب كلستان لسعدي الشيرازي عبارة مشهورة مأثورة ، وهي : (يُسْلِمُ الْمَلْدُوعُ الرُّوحَ قَبْلَ أَنْ يُحْضِرُوا لَهُ التَّرْيَاقَ مِنَ الْعِرَاقِ) .

(٣) شاد البناء : رفعه .

(٤) العشاش : جمع عش .

(٥) الخانع : الخاضع في ذل .

(٦) الخفّاق : القلب .

أبدالي

وعلى تغييرِ ذاك القادرِ
بهلوي ملكُ قُباذِ ناله
ومن الدّرّانيين كانَ نادرُ
إنه للدينِ يَأْسَى والوطنِ
بطلُ الهيجاءِ حقّاً والأميزُ
من رأى ذاتاً له إنسي فدَيْتُهُ
بهلوي إيران قُلْ أو نادرِ
كلُّ معقودٍ لديه حَلَّه^(١)
وهو للأفغانِ ذخرٌ مَنْ يُكابِرُ؟
قَادَ جيشاً في جبالِ قَدْ كَمَنْ^(٢)
والحديدُ عند قومِ والحريزِ^(٣)
وازنَ العَصَرَ بحذقٍ مَنْ هَوَيْتُهُ
كم لأهل الغربِ من فَنِّ سَحَرُ
إن نَسِيتَ الذَّاتَ كُنْتَ من كَفَرُ!

السُّلطانُ الشَّهيدُ

عَنْ بلادِ الهندِ حَدَّثني طويلاً
مسجداً فيها خلا مِنْ صوتِ حَشْدُ
قلبنا حزناً على الهندِ انْفَطَرُ
قَشُّها يَفْضُلُ بستاناً جميلاً^(٤)
ديرُها ما فيه نارٌ بَعْدُ خَمْدُ
روحنا شيئاً سِواها ما اذْكَرُ^(٥)

(١) بهلوي : هو رضا شاه بهلوي المتوفى عام ١٩٤٤م الذي أسس الأسرة المالكة في إيران بعد أن أسقط الأسرة القاجارية عام ١٩٢١م ورضا شاه مؤسس إيران الحديثة وعلمٌ عظيمٌ من أعلام تاريخها . وقباذ هو كيقباذ أول ملوك الأسرة الكيانية في إيران ، وفي عهده هزم البطل رستم التورانيين أي الأتراك هزيمة ماحقة .

(٢) يَأْسَى : يَخْزُنُ .

(٣) الهيجاءُ : الحَزْبُ .

(٤) فضله : كان أفضل منه .

(٥) اذْكَرُ : ذَكَرُ .

حزنها قسه بأحزان لنا ليس يدري من نحب حائلنا

زنده رود

الهنود أنكروا قانون غزب كل سحر رفضوه كل خلب^(١)
إن غزف الغير روحاً يُثقل من سماء إنه لا ينزل!

السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ

وإذا الإنسان من طين خرج قلبه من رغبة فيه اختلج
لذة العصيان كانت مُتَعْتَهُ رؤية الذات رآها بهجتته
هذه الذات بعصيان تُنال وانعدام الذات معناه الوبال^(٢)
أنت في أرضي وفي داري حللتا وبعين قبري البالي مسختا
وعرفت حد كل الكائنات في الجنوب أين آتار الحياة^(٣)

زنده رود

في الجنوب قد نثرت الدَّمْعَ حَبًا فاكست أرض به وزداً وأباً^(٤)
نهر «كاويري» يسير في جموحة ورأيت وقدة أخرى بروحة^(٥)

(١) الخلب : الخداع .

(٢) الوبال : سوء العاقبة .

(٣) اخترنا هنا كلمة جنوب عوضاً من « دكن » وهو اسم إقليم في جنوب الهند . وكلمة دكن في الأوردية بمعنى جنوب .

(٤) الأب : المرعى .

(٥) اسم النهر الذي تقع عليه مدينة سرنجاباتم .

السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ

قَوْلِكَ التُّورُ بِهِ ضَاءتْ قُلُوبُ
عَالِمِ الْأَسْرَارِ دَوْماً مِنْ ظَفَرِ
وَنَشِيدِ الرُّوحِ إِنْ أَنْشَدْتَهُ
عِنْدَ مَوْلَى الْكُلِّ كُنْتَ حَاضِراً
وَعَلَى الْقَوْلِ هُنَاكَ مَا شَجَعْتَ
وَأَنَا مِنْ أَحْرَقْتَنِي نَارُ شِعْرِكَ
قَالَ « بَيْتٌ قَلْتَهُ مَنْ قَالَه ؟
بَيَانٍ لَكَ فِي الرُّوحِ اسْتَعَزَّ
لَكَ دَمْعُ نَارِهِ مِنْهَا أَذُوبُ^(١)
مِنْ عُرُوقِ الْعُودِ أَنْهَاراً حَفَزَ^(٢)
اللَّهيبُ فِي الْحِشَا أَوْقَدْتَهُ
مَنْ سِوَاهُ كَانَ يَهْدِي سَائِراً
رُؤْيَةً بِالرُّوحِ كُلُّ مَا اسْتَطَعْتَ
وَلِسَانِي لَا يَنِي عَنْ ذِكْرِ فِكْرِكَ^(٣)
ضَجَّةُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَهُ
نَهْرَ كَاوِيرِي فَصِفْ وَازِرِ الْحَبْرِ

زندہ رود آنست وهو زندہ رود

إِنَّ لِحْنًا مَعَ لَحْنٍ مَا يَجُودُ^(٤)

رسالة السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ إِلَى نَهْرِ كَاوِيرِي

حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْإِسْتِشْهَادِ

إِنَّ هَذَا النَّهْرَ قَدْ سَارَ الْهُوَيْنِي
نَائِحاً بَيْنَ الْجِبَالِ ، كُنْتَ تَغْبِرُ
أَنْتَ مِنْ جِيحُونَ خَيْرٌ وَالْفِرَاتِ
يَا لِأَرْضِي أَنْتَ قَدْ عَانَقْتَهَا
وَدَوَامُ السَّيْرِ مَا أَضْنَاهُ أَيْنَا^(٥)
وَطَرِيقاً لَكَ بِالْأَهْدَابِ تَحْفُزُ!
لِلْجَنُوبِ كُنْتَ وَهَّابَ الْحَيَاةِ
بِرَوَاءِ كَانَ فِيكَ زِنْتَهَا

(١) ضاء : أثار وأشرق .

(٢) عروق العود هنا هي أوتاره . وفي الأصل من دماء تلك العروق .

(٣) يني : يفترو ويضعف .

(٤) وجود : يحسن .

(٥) الأين : التعب .

شِخَتْ لَكِنْ أَنْتَ فَيَاضُ الشَّبَابِ والبهاءُ لك كالسحرِ العُجابِ
 بِنْتُ مَوْجَاتٍ لَدَيْكَ دُرَّةٌ فلتُشرِ موجاً عليك طُورَةٌ^(١)
 حُرْقَةُ العَيْشِ تَغْنِيهَا نَشِيدَا أَعْلِمْتَ مَنْ لِيذَا كَانَ البَرِيدَا^(٢)
 إِنَّهُ مِنْ طُفَّتِ حَوْلَ سَطْوَتِهِ لَكَ مَرَاةٌ لِوَجْهِ قُوَّتِهِ^(٣)
 الصَّحَارَى جَنَّةٌ مِنْ قُدْرَتِهِ بَدْمَاهُ كَانَ رَسْمُ صُورَتِهِ
 الأمانِي مِنْ ثَرَاهُ تَقْتَرِبُ مِنْ دِمَاهِ فَيْنِكَ مَوْجٌ يَضْطَرِبُ

كَانَ فَعَلًا كُلُّ قَوْلٍ قَالَهُ

لَمْ يَنْسَمْ ، وَالشَّقْزُ نَامَ لَيْلَهُ

إِنَّمَا الأَمْوَاجُ فِي نَهْرِ الحَيَاةِ إِنَّمَا التَّبْدِيلُ شَأْنُ الكَائِنَاتِ
 مَا الحَيَاةُ غَيْرَ تَجْدِيدٍ تَجَدَّدُ عَالِمًا تَطْلُبُ فِي شَوْقٍ تَمَهَّدُ
 الذَّهَابُ وَالمَجِيءُ مَا هُمَا الكَيَانُ لِلوُجُودِ مِنْهُمَا
 الطَّرِيقُ رَاحِلُونَ فِي سَفَرِ سَفَرٍ يَخْفَى لَكِي يَبْدُو الحَضَرُ
 النِّيَاقُ وَالصَّحَارَى وَالنَّخِيلُ تِلْكَ أَشْجَاهَا وَأَبْكَاهَا الرَّحِيلُ
 بَرَهَةٌ حَلَّتْ وَرُودُ الرِّوَضِ ضَيْفَا لِاِخْتِبَارِ عُرْضَتِ حَسَنًا وَعَزْفَا^(٤)
 مَا تَمَّ فِي الرِّوَضِ أَمْ أَفْرَاحُ سُوْرٍ؟ بَرَعَمٌ فِي الحِضْنِ ، نَعَشٌ لِلرُّهُوزِ^(٥)
 أَحْمَرُ الوَزْدِ لَهُ قُلْتُ اخْتَرِقُ قَالَ سَرِّي مَا عَرَفْتَ يَا لَيْتُ!

مِنْ هَشِيمٍ لِلوُجُودِ ذَا البِنَاءِ

لِلظُّهُورِ حَسْرَةٌ كَانَ الجَزَاءِ

مَا مَضَى أَوْ مَا يَكُونُ ، إِمْضٍ عَنْهُ المَجِيءُ لِلوُجُودِ ، دَعَاكَ مِنْهُ

(١) الطرة : شعر مقدم الرأس . يشبه الأمواج بالشعر النائر .

(٢) البريد : الرسول .

(٣) في الأصل : أنت حامل المرأة لوجه سطوته .

(٤) العرف : الرائحة الذكية .

(٥) السور : كلمة فارسية تستخدم في العربية ، وهي بمعنى الوليمة والضيافة .

لا تَضِغْ مِثْلَ الشَّرَارِ إِنْ قَدِمْتَ
وإذا أَشْبَهْتَ شَمْساً فِي الصُّفَاتِ
الرِّيَاضِ أَخْرَقْ وَأَكَامِ الصَّحَارَى
وإذا عَوَّدْتَ جُزْحَ السَّهْمِ صَدْرَا
السُّكُونُ فِي الْحَيَاةِ لِلثَّبَاتِ

دِينُنَا وَالْعُرْفُ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ

بِرَهْمَةٍ كَاللَّيْثِ لَا عَاماً كَشَاةٍ (٣) !

الْحَيَاةُ بِرِضَاكَ أَحْكَمَتْ
الرَّوْدَى طَبِيٍّ وَهَذَا الْمَرْءُ ضَيْغَمٌ
إِنَّمَا الْكَامِلُ يَحْتَاجُ الْحِمَامَا
وَيَمُوتُ الْعَبْدُ خَوْفاً مِنْ حِمَامٍ
لَكِنِ الْحَرَّ هَذَا شَأْنُهُ ؟
لَيْسَ يُجْرِي ذِكْرُ مَوْتٍ بِنَّةٍ
دَعَاكَ مِنْ مَوْتِ الْقُبُورِ وَالثَّرَابِ
مَا يُرْجِي مُؤْمِنٌ مِنْ رَبِّهِ
لَطَرِيقِ الشُّوقِ هَذَا الْمَوْتُ غَايَهُ

اَطْلُبْنَ بَيْدراً إِمَاماً مَضِيَّتاً (١)
فَارْتَفِعْ بَيْنَ الشَّمُوسِ الْمَشْرِقَاتِ
وَالسَّمَاءِ أَضْلِ بِقَاعِ الْيَمِّ نَاراً (٢)
فَلتَعِشْ صَقِراً وَكُنْ فِي الْمَوْتِ صَقِراً
مَا سَأَلْتُ اللَّهَ طَوَلاً فِي حَيَاتِي !

قَتَلْتِكَ أَخْذَةً قَدْ دُبِّرَتْ (٤)
مِنْ مَقَامَاتِ حِمَامِ الْمَرْءِ فَاعْلَمْ (٥)
كَالشَّوَاهِينِ إِذَا صَادَتْ حِمَاماً (٦)
لَمْ يَكُنْ عَيْشٌ لَهُ غَيْرَ الْحَرَامِ !
رُوحُهُ الْأَخْرَى لَدَيْهِ حَيْنُهُ (٧)
وَيَمُوتُ الْحُرُّ لَكِنِ بَغْتَةً (٨)
إِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَكِنْ فِي الثَّرَابِ
مَوْتُ إِطْلَاقٍ لَهُ مِنْ تُرْبِهِ
وَهُوَ لِلتَّكْبِيرِ فِي حَرْبِ نَهَائِهِ

(١) البيدر : الموضع الذي يدرس فيه القمح .

(٢) السماء : جمع سمك .

(٣) أي عيش برهمة كالأسد ولا تعيش عاماً كالشاة .

(٤) الأخذة : الرقية تأخذ العين كالسحر .

(٥) الضيغم : الأسد .

(٦) الكامل : الرجل الكامل . يجتاح : يقهر . الحمام : الموت . الشواهين : جمع

شاهين ، وهو طائر كالصقر .

(٧) الحين : الهلاك ، والمراد هنا الموت .

(٨) بنة والبنة : بمعنى لا رجعة فيه .

ليس للمؤمن غير الأطيب
الملوك حاربوا من أجل سلب
وبها يمضي إلى دار الحبيب
قال للقوم النبي ذو المحامد
أئي موتٍ مثل موتِ ابنِ النبي^(١)
كالنبيِّ مؤمنٌ في خوضِ حرب^(٢)
يهجرُ الدنيا لِوَضَلِّ من قَرِيب
راهبُ الإسلامِ من كان المجاهد^(٣)
الشَّهِيدُ وَخُدَّهُ هَذَا دَرَاه
بدمِ أَجْرَاهُ فِي الْحَرْبِ اشْتَرَاه

زندہ رود یغادرُ الجَنَّةَ العَالِيَةَ وطلبَ حورِ الجِنَانِ

كأسُ صبري أَضْبَحَتْ بعضَ الفُتَاتِ
يا حديثَ الشُّوقِ يا جَذَبَ اليقينِ !
دامي القَلْبِ إِلَيْهِ قَدْ وَصَلْتِ
قالتِ الحورُ تَعَالَ زِنْدَهُ رُودِ
قال لي الروميُّ قُمْ قَبْلَ الفَوَاتِ^(٤)
يا لإيوانِ على الأَسِّ المتينِ^(٥)
وعلى أعتابِهِ حُوراً رَأَيْتِ
لكَ عَذْبُ اللَّحْنِ يشجي ، والوقود^(٦)
زندہ رود اجلسُ قليلاً بيننا
خفقاتُ من ضَجِيجِ حَوْلِنَا

-
- (١) ابن النبي هنا هو الإمام الحسين رضي الله عنه سيد الشهداء .
 - (٢) أي أن المؤمن يشبه النبي ﷺ ، ويقتدي به في الجهاد .
 - (٣) الإشارة إلى قوله ﷺ : « الجهاد رهبانية الإسلام » .
 - (٤) الفتات : ما تفتت من الشيء وكسارته . والفتوات : فوات الأوان .
 - (٥) يا هنا للتعجب . والأسُّ : الأساس .
 - (٦) الوقود : النار .

زنده رود

كُلُّ مَنْ يَغْرِفُ سِرًّا لِلسَّفَرِ يَزْهَبُ الْمَنْزِلَ لِالِصِّ الْمَمْرُ^(١)
 الْوِصَالُ مَا أَرَاخَ قَطُّ عَشَقَا بَلْ أَرَاخَ سَرْمَدِي الْحُسْنِ حَقًّا
 وَابْتِدَاءً عِنْدَ حَسْنَاءِ سُجُود بَانَتْهَا حُطَّمَتْ تِلْكَ الْقِيُود
 سَادِرٌ مَا كَفَّ يَوْمًا عَنْ رَجِيل وَهُوَ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ ابْنُ السَّبِيلِ^(٢)
 دِينُنَا يُشْبِهُ مَوْجًا أَسْرَعَا
 مَا أَقَامَ بَلْ أَرَادَ الْمَهْيَعَا^(٣)

حُورُ الْجَنَّةِ

لَكَ دَلٌّ مِثْلَ دَلِّ لِلزَّمَانِ
 فَعَلِينَا لَا تَقْضِنَ بِالْأَغَانِي

غزل زنده رود

أِلَى الْمَرْءِ وَصَلْتِ ؟ لَكَ رَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ وَمِنَ الذَّاتِ فَوَزْتِ أَنْتِ صَخْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ
 شَاخِبَ الْوَجْهَ تَعَلَّقَ بِالْعُصُونِ الطَّلَّ وَازْشُفَّ لَكَ شَيْئًا مِنْ نَسِيمِ هَبِّ هَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ
 قَطْرَتَانِ مِنْ دَمَاءِ ذَاكَ مَا سَمَّوْهُ مِسْكَأ يَا غِزَالَ الْمِسْكِ مِسْكَأ مِنْكَ عُجْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ^(٤)
 إِنَّ عِزَّ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ مِعْيَارٌ لِفَقْرِ الْحِطَامَ مَا طَلَبْتِ الْمُلْكَ وَهَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ

(١) في الأصل : أن رهبة من المنزل أشد من رهبة من قاطع الطريق .

(٢) السَّادِرُ : الذي لا يبالي بما صنع ، والمراد به : العِشْقُ .

(٣) المهيع : الطريق الواسع .

(٤) يعتقد القدماء أن المسك من دم الغزلان ، وفي ذلك يقول المتنبي :

وإن تَفَقَّ الأنَامَ وَأَنْتِ مِنْهُم فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغِزَالِ

والعجب : التيه والخيلاء . وفي الأصل يا غزال الحرم في الخطا ماذا تطلب .

والخطا : اسم لشمال الصين ، وهذا الإقليم يشتهر بغزلان المسك .

عَرَفُوهُ فِي الْوُرُودِ الْحُمْرِ بِالْبِسْتَانِ يَتَدَوُّ لِحُنَّا الدَّامِي الْحَزِينُ قَدْ قَلْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ
 مِنْ لَهُ قَلْبٌ مُنِيرٌ زَادَ نُورًا كُلَّ عَيْنٍ لَيْتَ شِعْرِي لِعَيْسَى الْعَيْنَيْنِ طَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ
 زَاهِدُونَ ، رُؤْيَا الدُّنْيَا كِرَامَاتٌ لَنَا
 نَظْرَةً مِنَّا ، وَمَا يَغْوِيكَ خَلْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ

فِي الْحَضْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ

مِنْ تَجَلَّى اللهُ كَانَتْ جَنَّتُهُ لَا يَرِيحُ الرُّوْحَ إِلَّا رُؤْيَتُهُ
 نَحْنُ قَوْمٌ قَدْ جَهَلْنَا أَصْلَنَا نَحْنُ طَيْرٌ وَأَضَعْنَا عُشَّنَا^(١)
 عَلَّمْنَا إِنْ كَانَ سَاءَ جَوْهَرًا كَانَ لِلْعَيْنِ الْحِجَابَ الْأَكْبَرَا
 وَإِذَا بِالْعِلْمِ حَقَّقْنَا النَّظْرُ فَالسَّبِيلُ وَالذَّلِيلُ يُعْتَبَرُ
 وَيُرِيكَ لِلْوَجُودِ قِشْرَهُ وَيَقُولُ سَأَلَ تَبَيَّنَ سِرَّهُ
 رَامَ تَمْهِيدَ الطَّرِيقِ دَائِمًا أَيْقَظَ الشُّوقَ وَكَانَ نَائِمًا
 وَهَبَ النَّارَ لِقَلْبٍ وَالْوَجِيبَا وَبِجَوْفِ اللَّيْلِ قَدْ أَهْدَى النَّحِييَا^(٢)
 إِنَّهُ مَا فَسَّرَ الدُّنْيَا لَنَا عَيْنَنَا رَبِّي وَرَبِّي قَلْبَنَا
 وَإِلَى جَذْبٍ وَشَوْقٍ يَرْفَعُكَ مِثْلَ جَبْرِيلَ أَرَاهُ يُبْدِعُكَ^(٣) !
 هَلْ يُتِيحُ الْعِشْقُ يَوْمًا عَزْلَةً إِنَّهُ يَخْشُدُ مِنْهُ مُقْلَةً^(٤) !

كَانَ فِي الْبَدءِ الرَّفِيقَ وَالطَّرِيقَا

ثُمَّ يَمْضِي بَعْدَ أَنْ يَنْسَى الرَّفِيقَا

عَنْ قَصُورٍ سِزْتُ عَنْ حُورٍ بَعُدْتُ زُورَقِي رُوحِي وَفِي نُورٍ فَقَدْتُ

(١) الطير : الطيور .

(٢) الوجيب : خفقات القلب . والنحيب : رفع الصوت بالبكاء .

(٣) يبدع : يخلق .

(٤) أي إن العشق لا يتيح للعاشق خلوة مع الحبيب .

والغريقَ كُنْتُ فِي هَذَا الْجَمَالِ
وَفَقَدْتُ فِي ضَمِيرِ الْكَائِنَاتِ
إِنَّمَا أوتَاها كَانَتْ رَبابا
أَسْرَةٌ نَحْنُ بِهَا نَارٌ وَنُورٌ
وَأَمَامَ الرُّوحِ مِرْآةٌ أُقِيمَتْ
وَصَبَاحُ الْيَوْمِ مَلَأَ الْعَيْنِ نُورٌ
وَبِأَسْرَارٍ لَهُ رَبِّي بَدَأَ
وَأَزْدِيادٌ لَا يَحُورُ أَنْ يُرَى
رَدَدَ الْعَبْدُ وَمَوْلَاهُ النَّظْرُ

طَلَبْتُ تِلْكَ الْحَيَاةَ حَيْثُ كَانَتْ

أَيْنَا الصَّيْدُ؟ رَمَوْزٌ مَا اسْتَبَانَتْ

لَذَةُ الرُّؤْيَا كَانَتْ فِي جَنَانِي
« أَنْتَ نَوْرَ الْعَالَمِينَ قَدْ وَهَبْنَا
مَا رَأَى الْإِنصَافَ مِنْهَا الْحُرُّ مَرَّةً
غَالِبٌ فِي الْعَيْشِ مَسْرُورٌ طَرِبُ
إِنَّ الْاسْتِعْمَارَ مِنْهُ كُلُّ نَكْسٍ
وَعِلْمُ الْغَرَبِ نَهْبٌ يُذَكَّرُ

وَمِنَ الْعِشْقِ جَرُّوتٌ فِي لِسَانِي^(٥)
فإلى دُنْيَا الثَّرَى هَلَّا نَظَرْتَا
غَيْرَ شوكٍ لَمْ يَجِدْ فِي كُلِّ زَهْرَةٍ
وَاللَّيَالِي عَدَّهَا مَنْ قَدْ غَلِبَ!
يَا لَه لَيْلًا يُرِيدُ حَجَبَ شَمْسٍ
وَبِلا حَيْدَرَ دَيْرٍ خَيْرٍ^(٦)

(١) الرباب : من آلات الطرب .

(٢) شابه : مزجه .

(٣) يحور : ينقص .

(٤) الحسر : التعب .

(٥) الجنان : القلب .

(٦) المراد ببيذكر أَنَّ هَذَا النَّهْبَ مَعْرُوفٌ لِلنَّاسِ يَذْكُرُونَهُ جَمِيعاً . وإقبال يشير إلى ما كان مِنْ

أمر عليٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ .

إِنَّمَا الْمَسْكِينُ قَالَ : لَا إِلَهَا فِكْرُهُ نَدَّ وَمِنْهُ الْعَقْلُ تَاهَا^(١)
 نَحْنُ فِي الدُّنْيَا نَمُوتُ أَرْبَعًا اذْكُرْنَا مِنْهَا الْمُرَابِي الْأَجْشَعَا^(٢)
 أَيْلِيْتُ بِكَ هَذَا الْعَالَمُ
 مِنْهُ فِي ذَنْبِكَ طِينٌ أَقْتَمُ^(٣)

نداء الجمالِ الأبدِيّ

مِنْ جَمِيلٍ وَقَبِيحٍ رَيْنَا مَا الْوَجُودُ هَلْ عَرَفْتَ يَا نَجِيبُ ؟
 كَانَ هَذَا الْخَلْقُ نَشْدَانًا لِعَشْقٍ وَضَجِيحٌ مَا يَكُونُ أَوْ غَبْرُ الْفَنَاءِ لِلْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ
 أَنْتَ حَيٌّ ؟ حَنَّ شَوْقًا وَاخْلُقْ مَا تَرَاهُ لَا يَوَاتِي فَلْتُحَطِّمْ كَلُّ حُرٍّ كَانَ مَكْرُوبًا حَزِينًا
 أَعْلَى الْإِبْدَاعِ أَنْتَ غَيْرُ قَادِرٍ ؟
 خَطٌّ نَقْشًا ، إِنَّ هَذَا نَقْشُنَا مِنْ جَمَالِ اللَّهِ أَنْ يُلْفَى النَّصِيبُ^(٤)
 وَالظُّهُورُ بِالْجَمَالِ عِنْدَ خَلْقِ^(٥) بِجَمَالِ عِنْدَنَا يَبْدِي الْأَثَرُ^(٦)
 إِنَّهَا خَلَقَتْ وَشَوْقٌ لِلْقَاءِ كَلٌّ أَفْقٍ مِثْلُنَا فَلْتَطْرُقِ عَالَمًا مِنْكَ إِلَيْكَ فَلْتَقْدَمُ^(٧)
 أَنْ حَوَاهُ عَالَمٌ لِأَخْرِينَا لَسْتُ فِي رَأْيٍ لَدِينَا غَيْرَ كَافِرٍ

(١) نَدَّ : نَفَّرَ وَشَرَّدَ .

(٢) أَي نَمُوتُ أَرْبَعَ مَرَاتٍ . وَفِي الْأَصْلِ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ الْمُرَابِي ، وَالْوَالِي ، وَشَيْخُ الطَّرِيقَةِ ، وَالشَّيْخُ .

(٣) الْأَقْتَمُ : الَّذِي يَعْלוهُ اللَّوْنُ الْقَاتِمُ .

(٤) يُلْفَى : يَوْجَدُ .

(٥) النَّشْدَانُ : الْطَلْبُ . وَالْخَلْقُ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي بِمَعْنَى النَّاسِ .

(٦) غَبْرٌ : مَضَى .

(٧) يَوَاتِي : يُوَافِقُ .

وعدمت حسنا حتى الأثر من نخيل العيش ما ذقت الثمر
 من رجال الله؟ كن سيفاً حساماً
 عالم التقدير فاخلق، والمراماً^(١)»

زندہ رود

عالم الألوان عنه ما الخبر هل يعود الماء يجري في النهز؟
 سرُّ تكرارِ عَنِ الدُّنْيَا غَرِيبٌ وهو في طبع لها أمرٌ عجيبٌ
 لا تجوز رَجْعَةً تحت السماء لم يَقم قومٌ تلاشوا في الفناء
 لا يَقومُ الشَّعْبُ مِنْ أعماقِ قَبْرِ ما لَهُ مِنْ بَعْدُ قَبْرٌ غَيْرَ صَبْرٍ

نداء الجمال الأبدى

الحياةُ أهي تَكَرُّارُ النَّفْسِ؟ أصلُها مِنْ قولِ « يا حيُّ » انبجس^(٢)
 إِنَّ قُزْبَ الرُّوحِ مِنْ ﴿إني قريب﴾ مِنْ حياةِ الخُلْدِ للمرءِ النَّصِيبِ^(٣)
 يرفعُ التَّوْحِيدُ فرداً بالتَّقاةِ يَجْعَلُ الشَّعْبَ أحاديثَ الرُّوَاةِ^(٤)

(١) السيف الحسام : القاطع .

(٢) انبجس الماء : تفجر .

(٣) قال جل وعلا في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] والله قريب
 علماً وإجابةً لتعالیه عن القرب مكاناً . قيل : إن أعرابياً سأله ﷺ : أقرب ربنا فتناجيه
 أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت الآية . والإيمان والعمل الصالح شرط في قبول الدعاء .

(٤) التقاة : التقوى . وأردنا بجعل الشعب أحاديث الرواة أن هذا الشعب مشهورٌ عند الناس
 رفيع القدر .

وَعَنِ الشُّبْلِيِّ سَمِعْتُ أَوْ أَبِي ذَرٍّ طغرلٌ كَانَ لِشُعْبٍ ثُمَّ سُنَجَرٌ^(١)
 بِالتَّجْلِيِّ كَانَ لِلْمَرْءِ الثُّبَاتِ إِنَّهُ لِلْفَزْدِ وَالشُّعْبِ الْحَيَاةِ
 وَلَقَدْ نَالَا بِتَوْحِيدِ كَمَالَا حَقَّقَا هَذَا جَلَالًا ذَا جَمَالَا
 وَهَمَا سَلْمَانُ فِي الْفَقْرِ التَّقِيَّ وَسَلِيمَانُ لَهُ الْمُلْكُ الْعَلِيِّ^(٢)

ويرى الواحد هذا ، ذاك واحد

جالسُن هذا وذاك فلتعاضد

= ويتقسم التوحيد أقساماً عدة : أولها التوحيد الإيماني الذي يمكن أن يسمى التوحيد الامتثالي والتقليدي والتعبدي ، وهو توحيد العوام والمقلدين ، والثاني التوحيد الاستدلالي والعقلي ، وهو توحيدٌ علميٌ تحقيقيٌ . وهذا توحيد علماء الكلام والحكمة الإلهية . وثالثها توحيدُ الواصلين من الصُوفية ، وهو توحيدٌ حاليٌّ وكشفيٌّ . وعندهم أنَّ حال التوحيد وصفٌ لازم لذات الموحِّد ، وللتوحيد نورٌ يكشف الظلمة عن الصُوفي ، وبذلك يشاهد الجمال الإلهي ، ويفضي به الأمر إلى أن يعدَّ التوحيد صفةً له ، ويصبح أشبه شيءٍ بالقطرة التي تسقط من ذلك التوحيد في بحر .

(١) في الأصل بايزيد والشبلي وأبو ذر . وبايزيد هو بايزيد البسطامي من أهل القرن الثالث الهجري ، من كبار الصوفية ، وأول من نسبت إليه الشطحات . والشبلي صوفي بغدادي ، يقال : إنه أول من صعد المنبر لينشر في الناس مبادئ التصوف ، وكان يعظم الشرع ، ومات عام ٣٣٤هـ . وأبو ذر صحابيٌّ جليلٌ مشهور بالزهد والورع ، وأحد الأركان الأربعة عند الشيعة . طغرل بك : أول سلاطين السلاجقة ، وقد اتسع في الفتوح ، واستولى على بغداد ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتزوج ابنة الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وكانت وفاته عام ٤٥٥هـ . وسنجر : آخر عظيم من سلاطين السلاجقة ، وفي عهده أغار الأتراك على مملكته ووقع مع زوجه في أسرهم وتوفي عام ٥٥٢هـ .

(٢) سلمان الفارسي أعلى صحابة الرسول ﷺ قدراً ، وله شهرةٌ مستفيضة بالعلم ، والزهد ، والورع ، وهو مذكورٌ في الشعر الفارسي خصوصاً على أنه المثل الأعلى للمسلم التقى الذي رفعته تقواه إلى منزلةٍ ما بعدها من منزلة . أما سليمان فهو سليمان بن داود عليه السلام ، وكان عظيم الحكمة ، وسخر الله الرياح له يصرفها بأمره ، وله بساطُ الريح يطير به ، كما كان له من الجنِّ جنودٌ وملكٌ عظيم .

انت يا مَنْ « لا إله » قُلْتَ مَرَّةً أَيُّ شَيْءٍ أَلْفُ عَيْنٍ خَلْفَ نَظْرَةٍ ؟
 ولأهلِ الحقِّ دَعْوَى وَحَدَّثَتْ وَلَهُمْ قَلْبٌ وَدَوْرٌ أَبَعَدَتْ
 تُضْبِحُ الذَّرَّةُ شَمْساً بِالنَّظَرِ نَظْرَةٌ كُنْ ، وَالإِلَهُ مَا اسْتَتَرَ !
 نَظْرَةٌ بِاللَّهِ كَيْفَ تَزْدْرِيهَا وَالتَّجَلَّى كَانَ لِلتَّوْحِيدِ فِيهَا

وَإِذَا التَّوْحِيدُ شَعْباً أَسْكُرَا

فَمَكَانُ الشَّعْبِ فِي أَعْلَى الذَّرَى (١)

إِنَّ رُوحَ الشَّعْبِ بَيْنَ النَّاسِ كَانَتْ لِللُّحُلُولِ قَطُّ جَسَماً مَا أَرَادَتْ
 بِاجْتِمَاعِ الْقَوْمِ لِلرُّوحِ الْبَقَاءِ وَالشَّتَاتُ فِيهِ لِلرُّوحِ الْفَنَاءُ (٢)
 نَظْرَةٌ شَرَّدَ بِهَا نَوْمَ اللَّحُودِ عِشْ طَوِيلاً دَعَاكَ مِنْ هَذَا الشُّرُودِ (٣)

وَخِدَّةُ الْأَفْكَارِ وَالْأَعْمَالِ حَقَّقْ

خَاتَمَ الْمُلْكِ إِلَيْهِ الْيَوْمَ فَاسْبِقْ

زندہ رود

مَنْ أَنَا مَنْ أَنْتَ أَيْنَ الْعَالَمُ طَالَ بُعْدُ بَيْنِنَا ! لَا أَعْلَمُ
 قُلْ لِمَاذَا كُنْتَ فِي أَسْرِ الْقَدَرِ لَا تَمُوتُ وَأَمُوتُ مَا الْخَبْرُ ؟

نداء الجمالِ الأبدِي

أَنْتَ فِي دُنْيَا الْحُدُودِ الْأَرْبَعِ كُلُّ مَنْ فِيهَا يَلَاقِي مَضْرَعَةَ
 إِنْ تَرِدْ عَيْشاً فَتلكَ الذَّاتُ أَسْبَقُ بَعْضُهَا فِي بَعْضِهَا الدُّنْيَا لِتَغْرُقَ (٤)
 مَنْ أَنَا مِنْ بَعْدُ تَدْرِي بَلْ وَأَنْتَا كَيْفَ فِي دُنْيَاكَ عِشْتَ ثُمَّ مَتَّأ

(١) الذرى : جمع ذروة ، وهي أعلى الشيء .

(٢) الشتات : التفريق .

(٣) أردنا بالشُرود هنا ما أراد إقبال بعدم المركزية ، أي : الخروج على الجماعة .

(٤) أسبق هنا بمعنى أفضل ، وقبل كل شيء .

زندہ رود

أَعَذِرِ الْجَاهِلَ بِالْجَهْلِ اغْتَدَزَ وَالنُّقَابَ اِزْفَعُهُ عَن وَجْهِ الْقَدَزِ
ثَوْرَةٌ لِلرُّوسِ وَالْأَلْمَانِ كَانَتْ خَفَقَةُ الْأَرْوَاحِ فِي الْإِسْلَامِ بَانَتْ
دَبَّرَ الشَّرْقُ وَهَذَا الْعَرَبُ دَبَّرَ قُلْ أَجْنَبِي مَا الَّذِي كَانَ الْمُقَدَّرُ

ظهور تجلی الجلال

بَعْتَةٌ دُنْيَا لِدَاتِي مَا رَأَيْتَ إِنَّ أَرْضِي وَسَمَاوِي قَدْ شَهِدَتْ
غَرِقَتْ دُنْيَايَ فِي نَوْرِ الشَّفَقِ وَعَلَيْهَا الْأَخْمَرُ الْقَانِي أَنْطَبَقَ
بِالتَّجَلِّي مَا جَ عُنُقُ مُهْجَتِي كَالْكَلِيمِ بِالتَّجَلِّي نَشُوتِي (١)
نُورُهُ أَبَدِي الْخَفِيِّ لِلْعِيَانِ مِنْهُ قَدْ أَضْبَحْتُ مَسْلُوبَ اللِّسَانِ

مِنْ ضَمِيرِ عَالَمٍ لِلْكَيْفِ وَالْكَمِ
أَطْرَبَ السَّمْعَ مَشْبُوبُ النَّعَمِ
« إِنْسَ شَرْقًا لَا تَكُنْ مِنْ سِخْرِ غَرْبِ كَالْأَسِيرِ
فَالْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ مَا هُمَا غَيْرَ النَّقِيرِ (٢)
عِنْدَ شَيْطَانٍ قُمرتَ وَفَقَدْتَ خَاتَمًا (٣)
وَلدى جَبْرِيلَ رَهْنٌ أَعَسَرَ الْأَمْرَ الْعَسِيرُ !
الْحَيَاةُ زَانَتِ الْجَمْعَ وَصَانَتْ ذَاتَهَا
أَنْتَ فِي الرِّكْبِ وَحِيدًا كُنْ وَوَاكَبْ فِي الْمَسِيرِ (٤)

- (١) الكليم : موسى عليه السلام .
(٢) النقير : النكتة في ظهر النواة ، وهي مضرب المثل في الحقارة . يقال لا يملك شروى نقير ، أي : مثل نقير ، بمعنى : لا يملك شيئاً .
(٣) قَمَرَ : غلبَ في القَمَارِ .
(٤) الرِّكْبُ : أصحاب الإبل في السفر ، والمراد هنا : القافلة . وواكب : سائر ، وركب =

فُقَّتْ شَمْساً فِي ضِيَاءِ تَغْمُرُ الْآفَاقَ نُوراً
 عِشْ وَكُلَّ ذَرَّةٍ فِي الْكُونِ فَاغْمِزْهَا بِنُورِ
 كَهَشِيمِ حَمَلْتَهُ بِالْجَنَاحَيْنِ الصَّبَا
 انْقَضَتْ أَيَّامُ خُسْرُو ، دَالَ عَصْرٌ لِلْجَهِيرِ ^(١)
 ضَيْقُ كَاسٍ فِي يَدَيْكَ كَانَ لِلْحَانَاتِ عَاراً
 ازْتَشَفْ كَاسَ الْحُمِيَا وَلِتُكُنْ ذَاتَ الْخَرِيرِ ^(٢)

= مع الراكبين .

(١) خسرو : هو خسرو برويز الذي أوفد النبي ﷺ إليه رسولا في العام السادس للهجرة يحمل كتاباً فيه الدعوة إلى الإسلام . ولكن خسرو غضب ، ومزق الكتاب ، فمزق الله ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذي قتله . وقد تطاولت الحروب بينه وبين الروم ، ويعدُّ آخر عظيم من ملوك الساسانيين .

ودال الزمان : انقلب من حالٍ إلى حال . والجهير : الخليق بالخير والمعروف . وقد أردنا به الملك دارا ، وذلك لأنه حين قدم إلى مصر عام ٥١٧ قبل الميلاد ؛ أظهر لرجال الدين من المصريين كلَّ آيات التسامح والتبجيل ، وأمر بترميم المعابد ، وعرف كيف يجذب قلوب المصريين إليه حتى عدوه من فراعينهم . وقد أصلح نظم الري . وجلب الكتب من إيران لتزويد المكتبات في مصر بها ، وبسط رعايته على العلوم ، وعلم الطب خاصة .

(٢) الحميا : الخمر . وإقبال في هذا من كلامه نزعاً صوفيةً جليةً ؛ لأن الخمر في شعر الصوفية رمزٌ إلى نشوة العشق الإلهي .

القسم الثامن

كلمة

إلى الجيل الجديد

وفي الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً ، شبابه طاهر نقي ، وضربه موجع قوي ، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقاً رقيقاً ، وإذا جد في الطلب كان شديداً حفيماً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، أماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيور في العسر ، رؤوف كريم عند اليسر ، يظماً إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلاً وندى ، تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً كان شلالاً ، وإن مر في طريقه بحدائق كان ماء سلسالاً ، يجمع بين جلال إيمان الصديق ، وقوة علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر ، الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، شعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعنديل في حسن صوته^(١) .

إِنَّ تَمَيُّقَ الْكَلَامِ غَيْرُ مُجْدٍ فَالْفَوْادُ مَا احتَوَاهُ لَيْسَ يُبْدِي

(١) مقتبس من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ص ٧٣ - ٧٤ .
 طبع دار ابن كثير بدمشق .

قَلْتُ قَوْلًا مَا عَلَيْهِ مِنْ حِجَابٍ مَا تَبَقَّى مِنْهُ يُبُو عَن كِتَابِ !
 بِالْكَلامِ كُلِّ مَعْنَى لِي تَعَقَّدُ وَبِزَيْدِ اللَّبْسِ مِنْ صَوْتِ تَرَدَّدِ
 نَظَرْتِي مِنْهَا أَفْهَمَنْ مَا اسْتَعَزَّ (١)

أَوْ أُنِينِي وَصَدَاهُ فِي السَّحَرِ

دَزَسَكَ الْأَوَّلَ أَمْ لَقَّنْتَ بِالنَّسِيمِ بُرْعُمًا قَدْ فَتَحْتَ
 وَنَسِيمُ الْأَمِّ هَذَا عَطَّرَكَ فَعَزَزْتَ ، وَبِحَسَنِ صَوْرَكَ
 دَوْلَةٌ لِلْخُلْدِ مِنْهَا نَلْتَهَا عَلَّمْتُكَ « لَا إِلَهَ » قُلْتَهَا
 يَا بُنَيَّ أَنْتَ خُذْ عَنِّي النَّظْرَ وَاحْتَرِقْ مِنْ « لَا إِلَهَ » فِي الشَّرِّ
 « لَا إِلَهَ » قُلْ وَمِنْ رُوحِ عَمِيْقٍ لِيَكُونَ الْجِسْمُ كَالْمِسْكِ الْفَتِيْقِ (٢)
 إِنَّهَا شَمْسًا وَبَدْرًا قَدْ أَدَارَتْ شَعْلَةً فِي الْقَشِّ وَالْأَطْوَادِ صَارَتْ (٣)
 يَالَهَا حَرْفَيْنِ لَيْسَا فِي الْكَلَامِ بَلْ هُمَا فِي كَفِّ مِضْرَابِ حُسَامِ (٤)

نَاؤُهَا نَضْرُ مَبِينٌ عِشُّ بِهَا

إِنَّهَا ضَرْبٌ أَفْذُ مِنْ ضَرْبِهَا

مُؤْمِنٌ دَابُّ لَهُ عَقْدُ النَّطَاقِ مُؤْمِنٌ بِالْغَدْرِ يَرْضَى وَالنُّفَاقِ !
 وَيَفْلَسُ شَعْبَهُ وَالذِّينَ بَاعَا أَخْرَقَ الدَّارَ فَضَاعَتْ وَالْمَتَاعَا
 فِي صَلَاةِ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ وَهُمَا كَانَا دَلَالًا فِي الدَّعَاءِ (٥)
 إِنَّ نَوْرًا مَا تَبَقَّى فِي صَلَاتِهِ وَالتَّجَلَّى قَدْ نَأَى عَن كَائِنَاتِهِ
 كُلُّ مَنْ يَغْبُدُ فِي الدُّنْيَا الْحُطَامَا عَشِقَ الْمَالَ كَمَا خَافَ الْحِمَامَا

(١) استعر : اشتعل .

(٢) المسك الفتيق : المخلوط بشيء أدخل عليه ؛ لتسطع رائحته .

(٣) كاه في الفارسية بمعنى قش ، وكوه بمعنى جبل . وقد أراد الشاعر أن يتلاعب بهذين اللفظين .

(٤) المضراب : الكثير الضرب . والحسام : السيف .

(٥) يقول : إن لا إله هي البقاء والفناء في صلاته ، كما أنها دلالٌ في دعائه .

ما انتشى ما ذاق شيئاً من حُبوز وكتابُ الدينِ في جَوْفِ القُبُوزِ^(١)
 ويقولُ ما يظنُّ اليَوْمَ حقا عن نَبِيِّن تَلَقَّى ما تَلَقَّى
 من بلادِ الفُرسِ هذا ، ذاكَ هِندي « حَكْمُ حَجِّ وَجِهَادِ لَيْسَ عِندي »^(٢)
 إِنَّ حَجَّاً وَجِهَاداً وَاجِبَانِ لصلَاةٍ أَوْ لَصَوْمٍ كَالجَنَانِ^(٣)
 إِنَّ رَوْحاً فِي الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ إِنْ نَأَتْ فَالشَّعْبُ مَخْتَلُ النُّظَامِ
 ليس للقرآنِ في القلبِ الأثر فيهما الآمالُ خابِت لِلبَشَرِ^(٤) !

مسلّمٌ عن ذاتِه تلكَ انْفَرَدُ

قد طغى الماءُ فيا خضرُ المَدَدِ^(٥) !

سَجْدَةٌ ، والأَرْضُ منها زُلزَلَتْ وأرادتْ ، فالشَّموسُ أُجْرِيَتْ
 والصُّخُورُ إِنْ دَرَّتْ عَنْهَا الحَبْرُ فهي في الجَوِّ دُخَانٌ وانْتَشَرُ^(٦)
 ذاكَ عَضْرٌ كان فيه خفضُ هام دَبَّ ضَعْفُ الشَّيخِ منه في الحُطَامِ^(٧)
 « ربي الأعلى » أكانتْ عِنْدنا ! ذَنْبُهُ هَذَاكَ أَوْ ذَنْبُ لَنَا ؟
 في سبيلِ كُنَّا قد أسرعَا له النَّاقَةُ جافَتْ مَهْيَعَا^(٨)

صاحبُ القرآنِ ما ذاقَ الطَّلَبُ !

العَجَبُ ثُمَّ العَجَبُ ثُمَّ العَجَبُ

إِنْ بِفَضْلِ اللهِ فاضَ عِلْمُكَ فسيأتي للزَّمانِ عَيْرُكَ

(١) الحبور : البهجة .

(٢) ما بين قوسين كلام هذين الرجلين .

(٣) الجنان : القلب ، وفي الأصل : الروح .

(٤) أي أن أمثال هذين الرجلين الذين لم يذكر إقبال اسماً لهما .

(٥) انفراد : تنحى ، واعتزل . وهو يستنجد الخضر بعد أن طغى الماء وخيف الغرق .

والخضر هو الذي دل الإسكندر على ماء الحياة وقد أسلفنا الإشارة إلى خبره .

(٦) أي إن عرفت الصخور خبر تلك السجدة .

(٧) الهام : جمع هامة وهي الرأس .

(٨) جافت : أبعدت . والمهيح : الطريق الواسع .

لم يَخَفْ عقلٌ وَقَلْبٌ لَمْ يَذُبْ
 كُلُّ عِلْمٍ كُلُّ فَنٍّ كُلُّ دِينٍ
 آسِيَا أَرْضُ الشُّمُوسِ الْمُشْرِقَاتِ
 لَا جَدِيدَ جَدًّا لِلْقَلْبِ الْغَرِيرِ
 وَحَوَاهَا ذَلِكَ الدَّيْرُ الْقَدِيمِ
 صَيِّدُ شَيْخٍ أَوْ لِسُلْطَانٍ مَلِكٍ
 عَقْلُهَا وَالِدَيْنُ بَلْ حَتَّى الشَّرَفِ
 فَعَلَى أَفْكَارِهَا كُنْتُ الْمَغْيِرَا

فَاضَ قَلْبِي بِالِدِّمَا مِنْ فَرْطِ جَهْدِي
 ثُمَّ دُنِيَاهَا أَنَا غَيَّرْتُ وَخُدِي

وَيَطْبَعُ الْعَضْرُ قُلْتُ لَفْظَتَيْنِ
 لَفْظَةٌ تَلْتَفُّ أُخْرَى تَلْسَعُ
 لَفْظَةٌ كَانَتْ بِمِقْيَاسِ الْفِرْنَجِ
 أَصْلُ هَذِي الذِّكْرُ تِلْكَ بِنْتُ فِكْرِ
 إِنِّي نَهَرٌ وَمِنْ تَبَعٍ لِأَصْلِي
 طَبَعُ عَصْرِي ذَاكَ لَمَّا أَنْ تَغْيِرَ

إِنَّ لِي بَحْرَيْنِ فِي قَارُورَتَيْنِ
 وَالْعَقُولُ فِي شِرَاكِي أَجْمَعُ^(٣)
 نَعْمَةٌ سَكْرَى وَمِنْ أَوْتَارِ صَنْجِ^(٤)
 قَدْ وَرِثْتُ ذَا وَهَذَا ، لَسْتُ تَدْرِي^(٥) ؟
 إِنَّ فَصْلِي كَانَ فَصْلًا وَهُوَ وَصْلِي^(٦)

- (١) الغرير : من لا تجربة له . والشعير مضرب المثل في رخص القيمة . يقول : إنه لا يظفر منها إلا بالريح والشعير ، فكأنه لم يظفر منها بشيء .
- (٢) رام : فارق المكان .
- (٣) يشبه إحدى هاتين اللفظتين بالأفعى التي تلتف ، والأخرى بعقربٍ تلسع ، وهو يشير بذلك من طرفٍ خفي إلى كتابٍ له بالإنجليزية بعنوان «إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام» كما يريد بجمع العقول والقلوب في شراكه : إقناعها ، وجذبها .
- (٤) الصنج : معزف ذو أوتار .
- (٥) أي : لتكن وارثاً للذكر والفكر .
- (٦) يريد بهذا المنيع هذين البحرين اللذين أسلف الإشارة إليهما .

غَيَّرَ الْأَصْدَاءَ صَوْتٌ لِي تَحَرَّرَ

ظَمِيءَ الْفَتْيَانُ مَا فِي الْكُوبِ قَطْرَةٌ
شَكُّهُمْ يَرْبُؤُ وَيَجْتَاحُ الْيَقِينَا
يُنْكِرُونَ الذَّاتَ ! إِيْمَانٌ بِيَغْيِرِ !
لَيْسَ يَدْرِي الْقَضَدَ مِنْهُ الْمَكْتَبُ
وَمِنْ الْأَرْوَاحِ يَمْحُو نُورَ فَطْرِهِ
صَفًّا أَحْجَارَ الْبِنَاءِ لَيْسَ يَدْرِي
وَعَلَى وَقْدٍ إِذَا لَمْ يَعْتَمِدْ
وَبِهِ شَرْحُ الْمَقَامِ كَانَ غَايَةً
وَبِنَارِ الْحَسَنِ طَوْعاً فَاخْتَرَقَ

بَادِيَءَ بِالْحَسَنِ يُنْهَى بِالْحَضْرُورِ

آخِرُ الْعِلْمِ أَيْقَى فِي الشُّعُورِ !

كَمْ كِتَابٍ فِيهِ أَغْشِيَتْ الْبَصَرُ
إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ صَبُّ خَمْرَةٍ
تُطْفِئُ الْمَصْبَاحَ أَنْفَاسٌ لِفَجْرِ
لَا تُطِلُّ فِي الْقَوْلِ وَأَقْنَعُ بِالْغِرَازِ
مَنْكَرُ اللَّهِ لَدَى شَيْخٍ كَفَرُ
خَيْرُ عِلْمٍ مَا عَرَفْتُ بِالنَّظَرِ^(٤)
يَا لَهَا مِنْ بَعْدُ رَشْفُ سَكْرَةٍ !
وَرْدَةُ الْبِسْتَانِ مِنْهَا كَأْسُ خَمْرِ^(٥)
حَوْلَ ذَاتِي كُنْ كَفِرْ جَارٍ مَدَازِ^(٦)
مَنْكَرُ الذَّاتِ لَدَيَّ مِنْهُ شَرٌّ^(٧)

(١) التراب : التراب . والبنيان : الجدار .

(٢) الوقد : النار . والواردات : ما يرد على القلب من خواطر .

(٣) اللجين : الفضة . والصفير : النحاس الأصفر . انفرق عنه : انفصل .

(٤) أعشاه : جعله أعشى ، أي لا يرى ليلاً .

(٥) يقول : إن نسيم الفجر يطفئ نور المصباح ، كما يفتح البرعم ، فيصبح زهرة ينسكب فيها الندى ، فكانها كأس خمر .

(٦) الفرار : القليل من النوم . والفرجار : آلة ذات ساقين ترسم الدوائر .

(٧) أي : أن منكر الذات أشدُّ كفرًا ، وأكثر شرًّا من منكر الله .

منكرُ الله بإنكارِ عَجُولٍ وعلى الإخلاصِ شَدَّدَ قَبْضَتَكَ
 وعلَى الإخلاصِ شَدَّدَ قَبْضَتَكَ ارضَ عَن عَذْلِ القوي لا تَبْتَعُدْ
 ارضَ عَن عَذْلِ القوي لا تَبْتَعُدْ يَضْعُبُ الحُكْمُ؟ حذارِ لا تَوَوَّلْ
 يَضْعُبُ الحُكْمُ؟ حذارِ لا تَوَوَّلْ يحفظُ الأرواحِ ذِكْرُ نُفْسٍ فِكْرُ
 يحفظُ الأرواحِ ذِكْرُ نُفْسٍ فِكْرُ كلُّ حِكْمٍ في انخفاضِ وارتفاعِ
 كلُّ حِكْمٍ في انخفاضِ وارتفاعِ لَذَّةٌ لِلسَّيْرِ غاياتُ السَّفَرِ
 لَذَّةٌ لِلسَّيْرِ غاياتُ السَّفَرِ ويدورُ البَذْرُ يحظى بالمَقامِ
 ويدورُ البَذْرُ يحظى بالمَقامِ أن تَطْيِرَ ، للحياةِ متعةً
 أن تَطْيِرَ ، للحياةِ متعةً

الغُرَابُ رزقُه في جَوْفِ قَبْرِ

عِنْدَ شَمْسِ رزقُ شاهين ، وَبَدْرِ

إِنَّ سِرَّ الدِّينِ أَكْلُ لِلحَلالِ وهو صِدْقٌ وَالتَّمَلِّي لِلجمالِ (٥)
 كُنْ قوياً وابغِ بالدِّينِ اليقينا واربطِ القَلْبَ بِرَبِّ العالَمينا (٦)
 بعض سر الدين مما ليس يظهر يابنيَّ اسمعِ حَدِيثِي عَن مُظَفَّرِ (٧)

(١) جنب شميته رهبة السلطان : أي أبعد طبعه عن الخوف من السلطان .

(٢) عول عليه : اعتمد عليه .

(٣) يقال في الفارسية : خاط عينه بكذا : أي حدَّق فيه ، ولم يبعد عنه نظره . وفي الأصل : إن كانت لك نظرة على العش .

(٤) المقام : هو المرحلة في الطريق الذي يسلكه الصُّوفي . وينبغي أن يمر بسبعة مقامات هي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا . ويريد إقبال بالمقام هنا مطلق المنزلة العالية . أما المقام بضم الميم فبمعنى الإقامة .

(٥) التَّمَلِّي : التمتع .

(٦) في الأصل : كُنْ صلباً كالماس وأبعِدْ عن نفسك الوسواس .

(٧) مُظَفَّرٌ : من سلاطين كجرات ، وهو ابن السلطان محمود الذي يسميه مسلمو الهند : بيكره .

وهو في أعماله فزُدْ فريد
فرساً كان يُعزُّ كالولَد
أذهمُّ من خيرِ أفراسِ العَرَب
ولدى المؤمنِ عزٌّ أو نفْس
أيُّ وصفٍ؟ إنَّه خَيْرُ الجياد
في الحُرُوبِ مُشْبِهٌ لَمَحِ البَصَرِ
عَدُوُّهُ مَوْزٌ وفَوْزٌ يَوْمَ حَشَرِ
أشبهَ الإنسانَ فاعتلَّ الجَواد
أحضَرَ البيطارُ دَنًّا من شراب
غَضِبَ العاهلُ قالَ لا أريد

في عُلُوِّ لِلْمَقَامِ بايزيد
من حروبٍ خاضَ أَمسى في كَبْدٍ^(١)
ونجيبٌ وكريمٌ في النَّسبِ^(٢)
الكتابُ والحُسامُ والفَرَسِ^(٣)
مرَّ ريحاً بالغديرِ والنَّجادِ!^(٤)
أو كريحٍ زَلْزَلَتْ طَوْدَ الحَجَزِ
يَسْحَقُ الحافرُ مِنْهُ كُلَّ صَخْرِ
ذاتِ يومٍ ، قيلَ أضناه الكُبادِ^(٥)
وسقاه فانثى داءِ العَذابِ^(٦)
ذا الجوادِ ، فالتقى مِنِّي بعيد

نِلْتَ مِنْ رَبِّكَ قَلْباً مُنِخْتَةً

مَسْلَمٌ هَذَا تَأْمَلُ طَاعَتَهُ

إنما الدِّينُ احتراقٌ في الطَّلَبِ
وبلسونِ عزٍّ ووزدٍ أو يعطُر
إن رأيتَ الشَّابَّ هذا قَدْ فَقَدَ
وتزيدُ حُرْقَةً كانتِ بِصَدْرِي
وأَتوبُ مِنْ زَمَانِي الحاضِرِ

وهو عَشِقٌ نُمَّ يتلوهُ الأدبُ
أدبٌ إن غابَ كانَ شرًّا إضِرَّ^(٧)
فنهاري ضاعَ في لَيْلِ الأَبَدِ
فَلأَيامِ النَّبِيِّ كانَ ذُكْرِي
لأغيبَ في الزَّمانِ الغابِرِ

(١) في كبد : في تعب .

(٢) الأدهم : الأسود . وقد يكون هذا السواد شديداً أو هيناً .

(٣) عز : صار عزيزاً ، ونفس : صار نفيساً . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

(٤) الغدير : النهر . والنجاد : جمع نجد ، هو ما ارتفع من الأرض .

(٥) اعتلَّ : مرض . والكباد : داء الكبد .

(٦) البيطار : طبيب الخيل . دَنُّ الشراب : جَرَّةُ الخمر . انتفى : طرد .

(٧) الإصر : الذنب .

يَسْتُرُ الْمَرْأَةَ زَوْجٌ أَوْ تُرَابٌ وَالرِّجَالُ حِذْرَهُمُ كَانَ الصَّحَابُ^(١)
تَنْطِقُ الْعَوْرَاءُ؟ ذَا كُلِّ الْخَطَا كَافِرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ رَبِّي بَرَأ^(٢)
أَنْتَ إِنْسَانٌ؟ أَحَاكَ فَاخْتَرِمُ لَيْسَ مِنَّا غَيْرَ هَذَا مَنْ عَلِمَ^(٣)
تَرْبِطُ النَّاسَ جَمِيعاً عُزُوةٌ مِنْكَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ خُطُوةٌ؟
وَلِعَبْدِ الْعِشْقِ مِنْ رَبِّ طَرِيقِ وَعَلَى الْكَافِرِ وَالْبَرِّ الشَّفِيقِ^(٤)
ضَمَّنَ الدِّينَ وَكَفَرَا قَلْبَكَ وَإِذَا مَا الدِّينُ فَرَّ وَيَلْكَ!

لَيْسَ شَذَا الْقَلْبُ إِلَّا سَجْنُ طِينِ

إِنَّ فِيهِ كُلَّ أَفْوِ كَالْوَضِيِّنَ^(٥)

إِنْ رَأَسْتَ الْقَوْمَ أَوْ صِرْتَ الْغَنِيًّا فَعَلَى الْفَقْرِ اخْرِصَنَّ يَا بُنَيَّا^(٦)
إِنَّهُ فِي الرُّوحِ مِنْكَ يَتَّقِدُ عَنْ أَبِي خَمْرًا وَرِثَتْ بِلْ وَجَدًا^(٧)
لَا تَوْمَلْ غَيْرَ قَلْبِ ذِي أَلْمِ ادْعُ رَبًّا وَأَنْسَ كُلَّ مَنْ حَكَمَ

(١) يقول : إنَّ المرأةَ يسترها أن تتزوج أو تموت . كما يستر الرجل أن يأخذ حذرَه من أصدقاء السوء .

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة . وبرأ : خلق .

(٣) أي لا يعد إنساناً منّا من تناسى وجوب احترام أخيه في الإنسانية .

(٤) البرُّ : من يطيع الله .

(٥) الوضيين : ما انطوى وانثنى .

(٦) الفقر من مقامات الصُّوفية . وهو ليس فقدان الغنى ليس إلا ، بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه ، فينبغي للصُّوفي أن يكون خالي اليد والقلب جميعاً ، وعلى هذا المعنى لا يتعارض الفقر مع جاه بعض الصُّوفية ، ورفعة قدرهم ، وقد يكون لهم قدرٌ من المال ، ولكن الله يخفي حقيقتهم عن أهل الظاهر . قيل : إنَّ الفقير هو الذي لا يملك ولا يملك ، والذي استصفى نفسه في فقره تقريباً . كما قالوا : إن الفقر لباس المرسلين ، وزينة الصالحين ، وتاج المتقين ، وغنيمة العارفين ، ورغبة المريرين ، ويؤثر عن الصوفية قولهم « الفقر فخري » .

(٧) يشبه الفقر بالخمرة المعتقدة . والخمر في مصطلح الصُّوفية نشوة العشق الإلهي .

كَمْ حَصِيفٍ وَهُوَ بِالْحَقِّ الْبَصِيرِ غَمْرَتُهُ نِعْمَةٌ فَهُوَ الضَّرِيرُ (١)
 فِيهَا تَلُكُ الْقُلُوبُ أَضْلَدَتْ ودعاء العبدِ عنها أُنْعَدَتْ (٢)
 فِي الْبِلَادِ جُلْتُ أَعْوَاماً طَوَالاً لَغْنِي مَا رَأَيْتُ الدَّمَاعَ سَالاً (٣)

أَهْلَ فَقْرٍ مِنْ فَدَيْتُ ، طَبْتُ نَفْسَا
 وَيَلُ مَنْ بِالنُّعْمَةِ الرَّحْمَنَ يَنْسَى

أَتَرَوْمُ الذُّوقَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَتُرِيدُ الشُّوقَ فِيهِمْ وَالْيَقِينَ
 إِنَّ لِلْقُرْآنِ عِلْمًا لَيْسَ يُغْرَفُ وَالذَّنَابُ إِنَّهُمْ أَهْلُ التَّصَوُّفِ !
 الصَّيَاحُ وَالْعَجِيجُ فِي الْخَوَانِقِ أَيَنْ حَمِيرٌ لِحُسْنِ اللَّهِ عَاشِقُ (٤)
 قَلَدَ الْإِفْرَنْجَ مَنَا الْمَسْلَمُونَ مِنْ سَرَابٍ كَوَثْرٌ مَا يَطْلُبُونَا
 وَيَسِرُّ دِينَنَا مَا عِلْمُهُمْ ؟ أَهْلُ حِقْدٍ وَعِدَاءٍ كُلُّهُمْ
 كُلُّ خَيْرٍ لِلْخَوَاصِّ كَالْحَرَامِ مَا رَأَيْتُ الصَّدَقَ إِلَّا فِي الْعَوَامِ
 التَّقِيَّ مِنْ غَوِيٍّ مِيَّزَنُ مَعَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْفَضْلِ اجْلِسُنُ

إِنَّمَا الشُّرُّ تَقَالِيداً أَلْفُ

سَطْوَةُ الشَّاهِينِ طَارَ ، تَخْتَلَفُ

رَجُلُ اللَّهِ يَلُوحُ مِثْلَ بَرْقِ حَطْباً يَجْعَلُ مِنْ غَرْبٍ وَشَرْقِ
 نَحْنُ كُنَّا فِي ظِلَامِ الْكَائِنَاتِ وَهُوَ ذُو حِدْقٍ يَحُلُّ الْمُغْضَلَاتِ
 وَالْكَلِيمُ وَالْمَسِيحُ وَالْخَلِيلُ وَالنَّبِيُّ وَالْكِتَابُ ، جَبْرَيْلُ (٥)
 إِنَّ أَهْلَ الْقَلْبِ شَمْسُ الْكَائِنَاتِ نَوْرُهَا وَهَبُ هَاتِيكَ الْحَيَاةِ

(١) الحصيف : العاقل .

(٢) أصلدت الأرض : صلبت .

(٣) يريد ليقول : إنه لم يصادف غنياً رقيق القلب يحزن لمصاب غيره .

(٤) الخوانق : جمع خانقاه ، وهو المبنى الذي يقيم فيه الصوفية معتزلين متعبدين .
 والخميرُ : مدمن الخمر . والمراد به الصوفي .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والكتاب هنا : هو القرآن الكريم .

وهي في نورٍ لها قَدْ أَحْرَقَتْكَا
نَحْنُ بِالنَّارِ لَهَا أَصْحَابُ قَلْبِ
أَنْتَ فِي عَضْرِ وَلَكِنْ أَيُّ عَضْرِ
قَطُ رُوحِ سِعْرِ جِسْمِ أَنْقَصَا
إِنَّ هَذَا مَا دَرَى مَعْنَى الطَّلَبِ
ذَوْقُ ذَاكَ الْبَحْثِ لَا تَتْرُكُهُ مَدَّةُ
صُخْبَةِ النَّذْبِ اللَّيْبِ إِنْ عَدَمْتَا
اجْعَلِ الرُّومِيَّ رَفِيقاً فِي الطَّرِيقِ
يَعْرِفُ الرُّومِيَّ لُبَاباً مِنْ قُشُورِ
فَسَّرُوهُ مَا دَرَى الْمَعْنَى أَحَدُ
رَقِصَ جِسْمٍ مِنْهُ كَانُوا يَفْهَمُونَا
رَقِصَةُ الْجِسْمِ تَدُورُ بِالتُّرَابِ
رَقِصَةُ الْأَرْوَاحِ عِلْمٌ وَهِيَ حُكْمٌ

ذَلِكَ السُّلْطَانَ بَعْدُ عَلِمْتَكَا
أَوْ فَمَا مَاءٌ وَطِينٌ مِثْلَ شَوْبِ! (١)
غَارِقٌ فِي الْجِسْمِ ، رُوحاً لَيْسَ يَدْرِي
رَجُلٌ لِلَّهِ لَذَاتٍ نَكَّصَا (٢)
وَهُوَ بِالْعَيْنِ يَرَى يَا لِلْعَجَبِ
وَلْتَوَاجِهْ فِي الْحَيَاةِ أَلْفَ عُقْدَةَ
مَا لَدَيَّْ عَنْ أَبِي هَلَّا أَخَذْتَا
يُنْعِمُ اللَّهُ بِمَشْبُوبِ الْخُفُوقِ (٣)
فِي الطَّرِيقِ كَانَ مَوْضُوعَ الْمَسِيرِ
إِنَّ مَعْنَاهُ غَزَالٌ قَدْ شَرَّذُ
رَقِصَةَ الرُّوحِ تَنَاسَى الْغَافِلُونَا
رَقِصَةُ الرُّوحِ لَهَا نَجْمُ السَّحَابِ
وَالْيَنَا الْأَرْضُ وَالْخَضْرَا تَضَمُّ (٤)

(١) الشوب : القطعة من العجين . والمراد بها جسم الإنسان .

(٢) نكص : رجع . وفي الأصل : أنه اختفى في ذاته .

(٣) المشبوب : المشتعل .

(٤) الحكم : الحكمة . والخضراء : السماء . وإقبال هنا يحدثنا عن رقص الدراويش

المولوية أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي المتوفى بقونية في الأناضول عام ٦٨٣ هـ . فقد كان مريدو جلال الدين الرومي يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . وجزت عادتهم بالاجتماع فيما يعرف بسماع خانه أي بيت السماع ، وهو بهو متراحب الأرجاء في صدره مجلس للعازفين . ويدخل الدراويش بالطويل من قلائسهم والضيق من سراويلهم . وبعد التسليم على شيخهم تبدأ رقصتهم ، فيرفعون أذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى إلى أعلى وراحة اليسرى إلى أسفل . ويدورون بعض أطراف أصابعهم دوران الرحي حول قطبها بينما ينفخ في الناي وتقرع الطبول ثم يصلون على النبي ﷺ واضعين أيديهم على صدورهم ، ويحنون قامتهم ، وبذلك تنتهي رقصتهم .

جذبةٌ لِلْفَرْدِ مِنْهَا كَالْكَلِيمِ كُلُّ شَعْبٍ كَانَ ذَا الْمَلِكِ الْعَظِيمِ ^(١)
 إِنَّ هَذَا لَيْسَ سَهْلًا فِي التَّعَلُّمِ وَلَغَيْرِ اللَّهِ فِي الْقَلْبِ التَّضَرُّمُ ^(٢)
 وَنَارِ الْحَرَصِ إِنْ قَلْبًا حَرَقْنَا فَبُرُوحٍ مِنْكَ قَطُّ مَا رَقَصْنَا ^(٣)
 يُضْعِفُ الْإِيمَانَ فِي الْإِنْسَانِ هَمٌّ يَا بَنِيَّ إِنَّهُ نِصْفُ الْهَرَمِ ^(٤)
 هَلْ عَلِمْتَ ؟ الْحَرَصُ فَقَرُّ حَاضِرٌ إِنَّ مَوْلَايَ لَذَاتِ قَاهِرٍ ^(٥)
 بِكَ يَا « جَاوِيدُ » لِي رُوحٌ تَطِيبُ آه لَوْ وَافَاكَ مِنْ هَذَا نَصِيبٌ ^(٦)

لَشَرَحْتُ دِينَ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
 وَأَطَلْتُ لَكَ فِي قَبْرِي دَعَائِي

= وفي رأي الصوفية أنَّ السماع وما يفضي إليه من رقص يرقق القلوب وينتزعهم من عالم
 الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي ، كما يشير الطرب في النفوس والخوف عند
 التائبين ، ويضرم نار المشتاقين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي (إذا ما ذكرت
 البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين ، لأن أمواج البحر هي البحر نفسه ، ولكن
 في ارتفاع وانخفاض . والموجُ بعد هبوطه إلى البحر يعود . وما مثل البحر إلا مثل بني
 الإنسان ، لأنهم أمواج الله . وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .
 ومن مستطرف ما يروى عن السلطان سليم العثماني ، أنه مرَّ بإقليم قونية وعاصمته
 قونية ، فتعجب من كثرة الأعاصير ، وقال له أحد رجاله متبسّطاً : إنَّ ما في تلك
 الأرض من تلال وأحجار وغبار يرقص رقصة المولوية .

- (١) الكليم : هو موسى عليه السلام .
- (٢) التضرمُ : اشتعال النار .
- (٣) حرق : بمعنى أحرق .
- (٤) قال النبي ﷺ : « الهمُّ نصف الهرم » .
- (٥) يشير إقبال إلى قوله ﷺ : « إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر » وفي الأصل : إني عبدٌ
 لمن قهر ذاته .
- (٦) جاويد : اسم ابن إقبال الذي أهدى إليه المنظومة ، والمراد بهذا في قوله هو رقص
 الروح . ووافاك : بمعنى أتاك .

الدِّيَّوَانُ الثَّامِنُ

وَالآنَ... مَاذَا نَصْنَعُ؟
يَا أُمَّ الشَّرْقِ ..

بس چه باید کرد ای اقوام مشرق

نقله إلى العربية
الأستاذ أحمد الغازي

صاغه بالعربية شعراً
الشيخ صاوي سلمان المصري

أصدر محمد إقبال هذا الديوان في آخر حياته باللغة الفارسيّة ، صاغه على وزنٍ مثنويٍّ مولانا جلال الدّين الرّومي من بحر الرّمل المسدس ، وهذا مجموعة قيمة جميلة من شعره ، نشرها في سنة ١٩٣٦ م ، بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، مع أن مثنويات هذا الكتاب موجزة تحتوي على صحائف محدودة ، ولكنها مليئة بأموّاج فكره العالي ، تتلاطم فيها بحار فلسفته البديعة التي اقتبسها من الكتاب والسنة وآثار العلماء .

وإذا أمعنا النظر في هذا الديوان تبين لنا أنّ مزاياه تفوق جميع دواوينه الأخرى لما يحويه من حالة ممتازة من النشاط والجدب والإخلاص والعشق ، تقطر من كلّ بيتٍ فيه قطراتُ الشّوق والحبِّ والاضطراب الرّوحي ، كما نلاحظ ذلك في مثنوي مولانا جلال الدّين الرّومي .

قد تناول محمد إقبال في هذا الديوان بعض الموضوعات الهامّة ، نشير إليها باختصار :

الموضوع الأول من هذه الموضوعات الهامّة التي عني بها شاعرنا العظيم في دواوينه بعامة وفي هذا الديوان بخاصّة ، موضوع نهضة الشّرق ، يقول : إنّ الشّرق هو الذي هدى الغرب إلى التّقدم والرّقيّ العالي ، وإلّا فلقد كان أهل الغرب متخلّفين عنّا في كلّ ناحية من نواحي المدنية والحضارة ، وحين كانت أوربة غارقة في لَجّةٍ من التعصّب ، والجهل ، والحروب الدّاخلية الدّائمة : كنا - أهل الشّرق - في أرقى منزلةٍ من منازل العلم ، والفنِّ ، والمدنيّة ، والحضارة . وهذا هو الشّرق الذي هدّب الأمم الغربيّة بمختلف الفنون ، والعلوم ، والكيمياء ، والطبِّ وغيرها .

والموضوع الثّاني في هذا الديوان هو تطهير الفكر وتجديده ، يقول : « إذا أمكن تطهير الفكر في أمتٍ استطاعت أن تنهض ، وتخطو إلى المجد قدماً ، ولو

أمعناً النظر في سيرة الرسول ﷺ العطرة علمنا أنه بدأ تربية الأمة بتطهير الفكر ، ثم استطاع بعد ذلك أن يقيم بناء التعمير .

فيريد شاعرنا العظيم أن نركز أولاً على إصلاح الفكر ، فبإصلاحه يصلح الإحساس ، وتستقيم العواطف .

وبعد ذلك أجلُّ ما عني به محمد إقبال في هذا الديوان هو موضوع فقر المؤمن ، ويتبادر إلينا في المعنى اللغوي أنه يعني فراغ اليد من الأموال ، ولكن صوت الحقيقة يدوي في كيان الحقيقة كلها ، بأن كل موجود فقير إلى الله ، فقير إلى إدراك ما لا يعرفه ومعرفة ما لا يعلمه ، فقير إلى محبة الأصدقاء ومعاونة العشراء .

وقد اصطلحت الصُّوفية على أن الفقر يعني : إخلاص العمل لله ، وتخصيص الاحتياج إلى الله وحده ، والاستغناء به عمّا سواه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس لما بين هذه الصورة من التشابه ، وظنَّ البعض أن فقر الصُّوفية هو بعينه الفقر اللغوي .

ويقول محمد إقبال : إنَّ الفقر قد يعني ترك الدُّنيا ، ولكن ذلك لا يعني الإهمال ، والعزوف ، والرُّهد الغالي ، وإنما يعني تسخير الدنيا أولاً ، ثم العزّة ، والعقّة ، والاستغناء ، كما سخَّرها أجدادنا ، واستفادوا من نعمها ، لكنَّهم لم ينغمسوا في قعرها انغماس الماديين وأهل الهوى .

وليس من شأن المسلم أن تستعبده مادّة الحياة الدنيا وحطامها ؛ لأنه أرفعُ قدرًا ، وأعزُّ مكانًا ، وأنبُلُ هدفًا لأنَّه له خلافةُ الأرض ، فالمؤمنُ الفقير - المؤمن الكامل - هو الذي يُزلزلُ بعزيمته هذه الكرة المسكونة بيَّرها وبحرها ، والفقير النَّبيلُ العفيفُ هو احتقار زهو الدُّنيا ، ودواعي الغرور فيها ، وإلى ذلك يُشير محمد إقبال في موضوع فقر المؤمن في هذا الديوان .

وقد كتب محمد إقبال هذا الديوان باللُّغة الفارسيَّة ، فنقله منها الأستاذ
أحمد غازي إلى العربيَّة نثراً ، فصاغه الشاعر الإسلاميُّ المعروف الشيخ صاوي
شعلان المصري شعراً بالعربيَّة ، وهو الآن بين أيديكم .

التمهيد

ذكر الشاعر في هذه الأبيات حبه لمرشده الرُّوحِي مولانا جلال الدين الرُّومي ، مجدّد التصوّف وإمام الرُّوحانية في عصره ، ثمّ يُلقِي الضوء على المكانة العالية التي يحتلّها الرُّوميّ في نظر الشاعر .

ويركّزُ في الأبيات الأخيرة على أهمية الصراع بين الحق والباطل ، وكلُّ ذلك على لسان مرشده وأستاذه الرُّومي ، يقول :

كن مثل إبراهيم في الإيمان
الشَّعبُ بيني عزّه بكفاحه
ولقد يُظنُّ به الجنون إذا بدا
ما فوق أرضِ الله شعبٌ ظافرٌ
إلّا إذا عقل الجنون وإنّما
المؤمنُ المقدامُ يمضي قاهراً
وإذا ارتضى للذلّ أمسى كافراً
من كان يدري فزق ما ينتابه
وبأنّ الاستعمارَ أسرعُ بالردى
وبأنّ للأحرارِ بعد فنائهم
وهناك يَرْفَعُ سهمه نحو العلا
شُمُّ الجبالِ تذوب في خطواتها
كم ثورةٍ للمجدِ طيُّ ثيابه
لا يتركُ الدُّنيا تعيشُ وشعبه
العِطرُ مستترٌ ويسري ظاهراً
لا تخدعَنَّك في الرُّبى ألوانها

حتى تزيلَ معابدَ الأوثان
ليشيد مجدداً ثابتَ الأركان
يوماً تمرّدهُ على الطغيان
يبلوغِ آمالٍ ونيلِ أمانِي
يحلّو جنونُ الحبِّ للأوطان
بالعزِّ والإقدامِ دونِ توانِي
باللهِ أو بكرامةِ الأوطان
في دهرِه من عزّةٍ وهوان
للناسِ في الدُّنيا من الحدّثان
عمرأً على الأيامِ ليس بفانِي
ويقيمُ رايته على كيوان
حتى تفوقَ الماءَ في الجريان
كالتارِ تَقْذِفُ ثورةَ البركان
فيها قتيلُ الذلِّ والجُزْمان
كن أنتِ مثلَ العِطرِ في البُستان
كن خالياً فيها من الألوانِ

قد ضلَّ أهلُ القصرِ عن أرواحهم
 فالدينَ إرضاءَ الدَّخيلِ وليس
 فقلوبهم وجيوبهم وعقولهم
 لا تصحبن في شربِ كاساتِ المنى
 لا ترجُ في نُدْماءِ غديرِ نشوةٍ
 لا تُفشِ للأنعامِ أسرارَ الأسو
 مَنْ شابَ في نسجِ الحَصيرِ فما له
 والدُّبُّ يأكلُ يوسفاً خيرٌ له
 مرشدُ الأرواحِ مولانا جلال^(١)
 مشرقُ الإيمانِ قدسيُّ الضَّميرِ
 قد علا منزلةَ الشمسِ مقاماً
 قلبه في مُحْكَمِ الذِّكْرِ صفا
 لو رأى مرآته بين الملا
 رأيه المرسلُ بالعِشْقِ نَداه
 قالَ شيئاً سَمِعْتَهُ فطرتي
 أممُ الدُّنيا صَحَّتْ بعد سبات
 وأفاقَ الشُّرْقِ من نومِ طويل
 جَذْبَةٌ واتته مِنْ دَفْعِ القَدْرِ
 أممُ الغربِ تبينتَ مداها
 كُنْ كإبراهيمَ سُكْرًا وهَيَّاماً
 اجْعَلِ الأصنامَ في الأرضِ هَشِيماً
 مِنْ ضميرِ الشَّعبِ من إيمانه
 هي نورٌ يجتليه المُضْلِحونَا

لم يهتدوا إلا إلى الأبدان
 مرضاةَ الإلهِ الواحدِ الدَّيَّانِ
 للأجنبيِّ تقزُّبٌ وتفانٍ
 إلا وفيأ صادقِ السَّوْجِدَانِ
 ولو أن فيهم قيصَرَ الرُّومانِ
 دِ ولا حديثَ الصَّفْرِ للغزبانِ
 يوماً إلى نسجِ الحريرِ يَدَانِ
 من أن يُباعَ لتاجرِ العُبدانِ
 شيخنا الروميُّ علويُّ المِثالِ
 وهو في قافلةِ العِشْقِ أميرِ
 ضارباً في مسبحِ النُّجْمِ خِيَاماً
 بهدئِ القرآنِ أضْحَى مُضْحِفاً
 جام (جمشيد) تواری خَجَلَا
 أشعلَ الثورةَ في قلبي صداه
 وَتَجَلَّى نغماً في فكرتي
 واستبانَت كُنْهَ أسرارِ الحياةِ
 يكسرُ الأغلالَ والقَيْدَ الثقيلِ
 فأزاحَ العِيبَ عنه وانتصر
 ما اكتوى مثلكَ حيٌّ بلظاها
 لتصيرَ النَّارُ برداً وسلاماً
 لا تغادرُ هيكلاً منها قديماً
 تنبتُ الثورةَ في وجدانه
 قاصرُ العَقْلِ يسميها جنونا

(١) قد سبقت ترجمته .

لَمْ يَقُمْ فِيهِمْ جَنُونَ ذُو فَنُونَ
 مَا لَهُمْ فِي سَاحَةِ الْمَجْدِ مَكَانٌ
 لَمْ يُجَاهِذْ فَكَأَنَّ لَمْ يُخْلَقِ
 فَتَوَكَّلْ وَاعْتَزِمِ نَحْوَ الْمُرَادِ
 حَيْثَمَا هُمْ بِأَمْرٍ حَقَّقَهُ
 لَا أَرَى الْيَائِسِينَ إِلَّا كَافِرًا
 فَهُوَ بِالْخَيْرِ وَبِالشَّرِّ بَصِيرٌ
 تَارِكًا مَا عَمَّرَ الظُّلْمُ خَرَابًا
 وَالْجِبَالَ الشُّمَّ قَاعًا صَفْصَفًا
 وَهُوَ لِلْأَجْيَالِ بَعَثٌ وَنُشُورٌ
 يُرْسَلُ الْإِلَهَامُ وَالْقَوْلَ الرَّصِينِ
 ثَمَلًا مِنْ خَمْرِهَا فِي حَانَتِي
 لَمْ تَعُدْ تَحْفَلُ بِالْوَهْمِ الْقَدِيمِ
 كَالشُّذَا يَسْرِي خَفِيًّا بِأَدْيَا
 وَمِنَ الْأَلْوَانِ ^(١) طَرًّا خَالِيَا
 وَبِدُونِ الْكَلِّ لَا تَرْجُو سِوَاهُ
 أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ عَنْهَا فِي احْتِجَابِ
 وَلِغَيْرِ اللَّهِ ذَلُّوا صَاغِرِينَ
 فِيهِمَا حَيْرَةٌ أَهْلِ الْفَلَسَفَةِ
 لَمْ يَجَاوِزْ فِكْرُهُمْ مَاءَ وَطِينَا
 وَمَعِينُ الْعِشْقِ مِنْهُمْ فِي نُضُوبِ
 أَزْرَقًا أَوْ أَحْمَرًا أَوْ أَصْفَرًا
 مِنْ سِرَاجِ الْقَلْبِ ضَلَّتْ فِي ضَحَاهَا

إِنَّ قَوْمًا لِلْهَوَى يَسْتَسْلِمُونَ
 لَنْ يَقِيمُوا نَهْضَةً تَمْحُو الْهَوَانَ
 كُلُّ مَنْ تَحْتَ الْفَضَاءِ الْأَزْرَقِ
 ثِقَةُ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ عَتَادُ
 شِيمَةُ الْمُؤْمِنِ عِزْمٌ وَثِقَةُ
 بِهِمَا يَسْتُمُو وَيَمْضِي قَاهِرًا
 نَظْرَةُ الْمُؤْمِنِ مِصْبَاحٌ مَنِيرٌ
 عِزْمُهُ الْوَثَابُ لَا يَخْشَى الصَّعَابَا
 حَوْلَتْ ضَرْبُهُ صُمَّ الصَّفَا
 يَدْرِكُ الْأَمَالَ بِالْفَقْرِ الْغَيُورِ
 وَمَضَى عَازِفٌ نَائِي الْعَاشِقِينَ
 حِينَ أَذْرَكَتَ الْمُنَى فِي صَحْبَتِي
 حَالٌ فِي نَشْوَتِكَ الْعِزْمُ الصَّمِيمِ
 كُنْ مِنْ الرَّوْضِ قَرِيبًا نَائِيَا
 بَيْنَ أَلْوَانِ الرَّوَابِي وَاعْيَا
 كُنْ مَعَ الْكَلِّ عَلَى هَذِي الْإِلَهِ
 قُوَّةُ الرُّوحِ هِيَ السَّحْرُ الْعُجَابِ
 فَلَدِيهِمْ حُبٌّ غَيْرِ اللَّهِ دِينِ
 ذَلِكَ السَّرُّ وَهَذِي الْمَعْرِفَةُ
 مُنْذُ بَدَأَ الْخَلْقِ فِي مَاضِي السَّنِينَا
 حُرِمَتْ أَعْيُنُهُمْ نَوْرَ الْقَلُوبِ
 لَمْ يَرَوْا فِي الْكُونَ إِلَّا مَنْظَرَا
 وَإِذَا الْأَبْصَارُ لَمْ تُدْرِكْ هُدَاهَا

(١) المذهب .

فَاز حَرْزٌ جَعَلَ الْحَقَّ مُصِيرَهُ
 مَنْ وَفَى لِهَ رُوحاً وَدَمًا
 إِنَّ سِرَّ الْأَسَدِ فِي حِضْنِ الْأَجْمِ
 لَيْسَ كُلُّ الْخَلْقِ أَهْلًا لِلْعَهْدِ
 إِنَّ تَعَاطَيْتَ مَعَ الصَّخْبِ الْمُدَامَا
 هَبَهُ كَسْرَى هَبَهُ أَيْضًا قَيْصِرَا
 لَوْ غَدَا يَوْسُفُنَا يَوْمًا طَعَامَا
 فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ خَسِيسٍ يَحْتَوِيهِ
 أَهْلُ دُنْيَانَا تَمَادَوْا فِي غُرُورِ
 بَهْرَتْنِي نَكْتَةً مِنْ شَاعِرِ
 ذَاتُ مَعْنَى نَوْرُهُ مُؤْتَلِقُ
 إِنَّهُ الْعَاشِقُ فِي أَهْلِ الْجُحُودِ
 فَهُوَ يَخْكِي مُسْلِمًا بَاتَ يُعَانِي
 قُلْ لِأَهْلِ الْحَقِّ مَا يَشْفِي الْقُلُوبِ
 اقْبَلِ الْهَمَّ وَلَا تَأْكُلْ طَعَامَا
 إِنْ يَكُنْ عَيْشُكَ مِنْ طَوْلِ الْكَدْزِ
 الدَّوَاءُ الْمُرُّ لِلْعَقْلِ الْكَبِيرِ
 خِرْقَةُ الرَّاهِدِ عَبءٌ لِلْفَقِيرِ
 وَاسْأَلِ الْأَنْسَامَ فِي الرَّوْضِ النَّضِيرِ
 إِنْ تُكُنْ بَحْرًا قَوِيًّا غَامِرَا
 أَوْ تَكُنْ طَالًا فَعِشْ بَيْنَ الْوَرُودِ
 أَنْتَ فِي الْحَرْبِ نَشِيدٌ مِنْ دِمَاءِ
 إِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ أَرْبَابُ الْوَفَاءِ
 نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي كُلِّ حِينِ
 وَتَأْمَلُ قَطْرَةَ الطَّلِّ النَّدِي

لَمْ يَبِغْ يَوْمًا لِمَخْلُوقٍ ضَمِيرَهُ
 صَانَ عَنْ قَيْدِ سِوَاهِ الْقَدَمَا
 لَا تَعِيهِ فِي مِرَاعِيهَا النَّعَمُ
 لَا تَبْخُحُ بِالسَّرِّ إِلَّا لِلْأَسْوَدِ
 أُبْعِدِ السَّفْلَةَ عَنْ حَقْلِ النَّدَامِي
 لَنْ تَرَى فِيهِ النَّدِيمَ الْخَيْرَا
 فِي فَمِ الذُّئْبِ وَأَفْئَاهِ التَّهَامَا
 وَيَبْخُسُ الْمَالِ يَوْمًا يَشْتَرِيهِ
 لَمْ يَبَالُوا بِمَقَايِيسِ الْأُمُورِ
 بَارِعِ الْفِكْرِ نَقِيَّ الْخَاطِرِ
 كَادَتْ الرُّوحُ بِهِ تَحْتَرِقُ
 لَمْ تَزِدْ أَسْمَاعَهُمْ غَيْرَ الْجُمُودِ
 فِي قَرَى الْإِفْرَنْجِ تَرْدِيدَ الْأَذَانِ
 قُلْ عَنِ الدِّينِ وَأَنْبَاءِ الشُّعُوبِ
 مَنْ يَدٍ تُطْعِمُكَ الْهَمَّ دَوَامَا
 فِيهِ مَرُّ الْجُوعِ فَالذُّلُّ أَمْرُ
 فَاتْرِكِ الْحَلْوَاءَ لِلطِّفْلِ الْغَرِيرِ
 كُنْ عَفِيفَ الْقَلْبِ وَأَنْعَمَ بِالْيَسِيرِ
 مَا الَّذِي تَحْمِلُهُ غَيْرَ الْعَبِيرِ
 فَاجْعَلِ الصَّحْرَاءَ سَيْلًا هَادِرَا
 وَابْتَعِثِ الْعِطْرَ سَلَامًا فِي الْوُجُودِ
 أَنْتَ فِي السَّلْمِ رَسُولٌ لِلْإِخَاءِ
 لَيْسَ سِرُّ الْحَقِّ عَنْهُمْ فِي خَفَاءِ
 لِيَعْمَ الْخَيْرُ كُلَّ الْعَالَمِينَ
 مِنْ دَجَى اللَّيْلِ إِلَى فَجْرِ الْعَدِ

حَفِظْتُ فِي الْكُونِ ذَاتَيْتَهَا
 وَبَنَى عُنْصُرَهَا شَوْقُ الْحَيَاةِ
 وَمَضَتْ تَجْتَازُ فِي صَمْتِ الْفُضَاءِ
 جَانِبْتُ أَنْ تَجْعَلَ الْبَحْرَ الْهَدَفَ
 بَلْ أَقَامْتُ بَيْنَ أَحْضَانِ السَّحْرِ
 فَتَحَ الْوَرْدُ بِهَا أَجْفَانَهُ
 هَكَذَا الْمُؤْمِنُ رَمَزُ التَّضْحِيحَاتِ
 ثُمَّ حَلَّتْ فِي الدُّجَى عُقْدَتَهَا
 وَاسْتَقَرَّتْ حَيْثُ أَحْيَاهَا الْإِلَهِ
 خَلْوَةُ الْأَفْلَاكِ فِي جَوْ السَّمَاءِ
 لَمْ تُرِدْ أَنْ تَتَوَارَى فِي الصَّدَفِ
 لَمَحَةٌ كَانَتْ حَيَاةً لِلزَّهْرِ
 وَسَقَى مِنْ عَطْرِهِ أَغْصَانَهُ
 يَتَفَانَى فِي اقْتِنَاءِ الْبَاقِيَاتِ

مناجاة الشمس

جَرَتْ فِي حَيَاةِ الشُّعْرَاءِ سَنَةٌ أَدْبِيَّةٌ سَلَكَهَا الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ فِي مَخَاطَبَةِ
 الشَّمْسِ ، وَلَعَلَّ أَقْرَبَ مِثَالِ إِيْلَانَا فِي الْجَدِيدِ قَصِيدَةُ أَحْمَدَ شَوْقِي (قَفِي يَا أُخْتِ
 يَوْشَعِ خَبْرِينَا) فَالشُّعْرَاءُ خَاطَبُوا الشَّمْسَ ، وَتَحَدَّثُوا عَنْهَا ، وَتَفَنَّنُوا فِي ذَلِكَ ،
 وَأَبَدَعُوا ، وَهَذَا نَحْنُ نَرَى إِقْبَالَ يُخَاطَبُهَا قَائِلًا :

يَا مَبْعَثَ الْإِشْرَاقِ وَالثُّورِ الَّذِي
 فِي كُلِّ مَوْجُودٍ ضَمِيرٌ مُشْرِقٌ
 مِنْكَ الْحَرَارَةُ لِلْحَيَاةِ وَبِعْثُهَا
 أَوْدَعْتَ كُلَّ مُحَجَّبٍ شَوْقَ الظُّهُورِ
 كَيْدِ الْكَلِيمِ أَرَى جَلَالِكَ سَابِحًا
 يَطْوِي الْمَسِيرَ عَلَى جَدَاوِلِ فِضَّةٍ
 أُرْسَلَتْ بِدَرِّ التَّمِّ بَعْدَكَ فِي الدُّجَى (١)
 أَهْدَيْتِ لِلْيَاقُوتِ وَمَضَّ بِرِيقِهِ
 عَمَّ الْبَرِّيَّةَ مِنْ ضِيَاءِ الْبَارِي
 مِنْ ضَوْئِكَ الْفِيَاضُ كُلُّ نَهَارٍ
 وَنَضَالُهَا فِي مَوْجِهَا الْمَوَارِ
 رَ عَلَى هَدْيٍ مِنْ حِكْمَةِ الْأَقْدَارِ
 فِي مَوْكِبٍ مُتَجَدِّدِ الْأَسْفَارِ
 فِي زُورِقٍ مِنْ عَسْجِدٍ وَنُضَارِ
 يَجْلُو مُحَاسِنَهُ عَلَى الْأَنْظَارِ
 وَلَعَلَّ بَيْنَ بَوَاطِنِ الْأَحْجَارِ

(١) الدُّجَى : سَوَادُ اللَّيْلِ وَظَلْمَتُهُ .

وسكبت في قلب الشقيق حرارة
 بعروقه تجري الدماء وقد غدا
 والنزجس^(١) الغض استفاق من الكرى
 لinal من هذا الشعاع نصيبه
 مزحى لقد وافى قدومك بالسنا
 حتى تجلى نخل سينا مائلاً
 أنت الصباح المرتجى لكتني
 فهبي لوجداني سراجاً مشرقاً
 وليس ضوءك في ترابي شعلة
 وصلي حياتي واجعلي هذا السنأ
 لأنيل فكرر الشرق أوضاح الهدى
 وأثير ناراً في الصدور جديدة
 إني سأسمعهم نشيد المجد من
 وأحيل خام الطبع وعباً صارخاً
 وأصوغ للآيام دوراً مقبلاً
 ليحرروا الأرواح والأفهام من
 لا يستقي نبض الحياة حرارة
 ومجال تحرير النفوس أمانة
 والشعب حين يضل في آماله
 وتحول فضته النقية بهرجاً
 ويموت داخل صدره القلب السليم

صَبَغَتْ مَلَاسَهُ بِلَوْنِ النَّارِ
 يَخْتَالُ بَيْنَ عَرَائِسِ التُّوَارِ
 وَأَزَاحَ عَنِ جَفْنَيْهِ أَلْفَ سِتَارِ
 بَيْنَ الْغُصُونِ الْخُضِرِ وَالْأَشْجَارِ
 وَسَمَا بَطْلَعَةَ وَجْهِكَ اسْتَبْصَارِي
 فِي كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَشْجَارِ
 ظَلُّ الْمَسَاءِ الْغَارِبِ الْمُتَوَارِي
 يَهْدِي خُطَايَ إِلَى عِلَا وَفَخَارِ
 تَصْفُو بِهَا نَفْسِي مِنَ الْأَكْدَارِ
 مِنْ حَوْلِهَا سِتْرًا مِنَ الْأَنْوَارِ
 كَيْمَا يُبَدِّلَ لَيْلَهُ بِنَهَارِ
 مَشْبُوبَةً بِعِزَائِمِ الْأَخْرَارِ
 قَيْثَارَةً أَوْتَارُهَا أَشْعَارِي
 مَتَحَفُّزًا لِلتَّبَقِ فِي الْمِضْمَارِ
 غَيْرَ الَّذِي شَهِدَتْ مِنَ الْأَدْوَارِ
 لَغْوِ الْفِرْنَجِ وَزَيْفِ الْاسْتِعْمَارِ
 إِلَّا بِذِكْرِ مُقَدَّرِ الْأَقْدَارِ
 مَوْصُولَةً بِنِزَاهَةِ الْأَفْكَارِ
 عَنْ قَضِيهِ لَمْ يَلْقَ غَيْرَ بَوَارِ^(٢)
 مَنْ ذَا يَسْوِي بِهَرْجًا بِنُضَارِ
 وَيَنْطَوِي فِي ذَلَّةٍ وَصَغَارِ

(١) النرجس : نبت من الرياحين ، وهو من الفصيلة النرجسية ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته ، وزهرته تشبه بها العين .

(٢) بوار ، أي : هلاك .

حَتَّى تَرَى الْمُعْوجَّ فِي نَظْرَاتِهِ
وإذا رأى في الكائنات صرَاعها
فإذا الحياة هي السَّلامَةُ والسُّكُورُ
في بَخرِهِ موجُ الأمانِي راسِبُ
الخطوةُ الأولى لِنَهْضَةِ أُمَّةٍ
لو أمكنَ التَّطهيرُ أمكنَ بَعْدَهُ
يبدو سليماً عالي المقدر
طَلَبَ الشَّوْطِيءَ خَشِيَةً الإِعْصَارِ
نُ وفوزه مِن حَرْبِهَا بِفِرَارِ
ما فِيهِ مِن لُجٍّ ولا تِيَّارِ
تَحْرِيرُهَا بِالْعَزْمِ والإِضْرارِ
أَنْ يَسْهُلَ التَّعْمِيرُ للافكارِ

حكمة الكليم - سياسة الأنبياء

استخدم إقبال كثيراً من مصطلحاته الخاصّة ، فوجّه منها سهاماً نافذةً إلى صدر الاستعمار ، وهو هنا في هذه الأبيات يرقى على معراج الفكر إلى تفهّم جلال النبوّة ، ثم يعرض صفات المؤمن الصادق ليشحذ من عزمته وينفخ فيه روح التحرُّر ، ويوقظ في فطرته معاني القوّة ، فما كان يستسلم لطغيان طاغية ، وجبروت جبار ، وإنما تكون خشيته من الله وحده والتجاؤه إليه دون سواه ، فنراه يتخذ من صفات النبيّ أسلحةً للأمم العزلاء لتناضل بها ، وتدوّد عن حياضها ، وتدفع العدوّ عن حماها :

عندما يَضدَعُ النبيُّ بأمرِ الله جَهراً في مَسْمَعِ الأكوانِ
يتحدّى بوحيه كلَّ حُكْمٍ لأميرٍ في الأرض أو سُلطانِ
لا يرى قُضْرَهُ سِوَى رَسْمِ دِيرٍ من بقايا هياكلِ الأوثانِ
لا يَسِيغُ المَقامِ في مَوطِنِ السَّدْلِ ولا يَزْتَضِي بِعَيْشِ الهَوانِ
تَتَذَكَّرُ بنورِ صحبته النَّفْسُ ويهدي الرَّشادَ للحيرانِ
يُخِذُ الصَّبْجَةَ الرَّهِيبةَ في الأيامِ حتّى تَسِيرَ طَوْعَ الأمانِي
مُغْلَناً في الوجودِ لا رَبَّ غَيْرَ الله يُخَشِي وَيُزْتَجى كُلُّ آنِ
كَيْفَ يَرْضَى إِذْلالَ عَبْدٍ لِعَبْدٍ وامتهانَ الإنسانِ للإنسانِ

قطرةً من نَدَاهُ تُشْعِلُ ناراً في عروقِ الكُرومِ والأغصَانِ
ويُجَلِّي في قبضةٍ من تراتٍ بَغَثَ روحِ اليقينِ والإيمانِ
حارسُ الفطرةِ التي فَطَرَ اللهُ عليها الأرواحَ في الأبدانِ
لا يسامي جلالُ حكمته العقلَ ولا عبقريةُ الفَنانِ
حكمةٌ في غنى عن الحَشْدِ والجَمْعِ وزهورِ العُروشِ والتَّيجانِ
مِن جُمُودِ الشِّتَاءِ يحيي ربيعاً باسمِ الرِّوَضِ ناصِرِ الأفنانِ
وئسألُ الرِّيحَ المُعْتَقِ أَشْهَى مِنْ رَجِيقِ مُصَفَّقِ فِي الدَّنَانِ^(١)
ابتهالاتُ صُبْحِهِ توقظُ الكونَ فيصحو من ليله الوَسنانِ^(٢)
وله نظرةٌ من الحقِّ فيها نبأٌ يُغْلِنُ انقلابَ الزَّمانِ
ولديه وثيقةُ الأَمَنِ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في مُخْكَمِ القُرْآنِ
وَخِيهِ يَغْمُرُ الصُّدُورَ الخِوَالِي بِقُلوْبِ جَدِيدَةِ الإِيْمَانِ
دَرْسُهُ العَزْمُ والرِّضَا المحضُ والتَّسْلِيمُ مِنْهُ فِي السَّرِّ والإِعْلَانِ
كسراجٍ يشقُّ قلبَ الدِّياجِيرِ^(٣) باهرَ الضُّوءِ ساطِعِ البُرْهَانِ
قدرةٌ حارتِ النَّوَاطِرُ فيها أيُّ سرِّ بها خفي المعاني
يَضْبَعُ الرُّوحَ فِي الجُسُومِ بِلَوْنِ غَيْرِ كَلِّ الرُّسُومِ والألوانِ
حَوَلَتْ كيميَاؤُهُ الصَّدَفَ البالي عِقْداً من الدَّراري الحِسانِ
يتولَّى ملءَ الفراغِ بحزمٍ يَفْهَرُ المُستحيلَ بالإمكانِ
وينادي العَبْدَ المُصَفَّدَ^(٤) هَيْأَ لا تحاكُ القيودُ للإنسانِ
فإلى المَخْوِ والبِلَى كُلِّ مَعْبُودٍ قديمٍ مَعَ الحُطامِ الفاني
مَنْ يُحَارِبُ وَسيفُهُ رَبِّي الأعلى يُدْمِرُ قِوَاعِدَ الأوثانِ

(١) الدَّنَانُ : وهي جِزَارِ الخمرِ .

(٢) الوَسنانُ : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه .

(٣) الدِّياجيرُ : واحدها الدَّيجورُ، وهو الظلمة، وصفوا به فقالوا: ليل ديجور، وليلة ديجور .

(٤) المصَفَّدُ ، أي : المشدود .

إِنَّ أَرَدْتَ الْفَقْرَ الْغَيُورَ فَلَا تَفْقِدْ مَعَ الْعُدْمِ ثَزْوَةَ الْإِيمَانِ
 فَمِنْ الْحَالِ لَا مِنْ الْجَاهِ وَالْمَالِ دَوَامُ الرِّضَا وَالْأَطْمِئْنَانِ
 رَأْسُ مَالِ الْأَخْرَارِ صِدْقٌ وَإِخْلَاصٌ وَوَجْدٌ وَحُزْقَةٌ وَتَفَانٍ
 لَيْسَ فِي الْحَلِيِّ وَالْمَظَاهِرِ وَالثُّؤْبِ الْمَوْشَى وَالْأَصْفَرِ الرَّئِيَانِ
 لَا تَحَاوُلْ دَرَكَ الْمَعَالِي بِكَأَوْسٍ وَخَسِرُوا فِي غَابِرِ الْأَزْمَانِ
 طُفٌ إِذَا شَتَّتَ حَوْلَ ذَاتٍ : حَزًّا لَا تَطُفُ بِالسَّرِيرِ وَالْإِيْوَانِ
 قَدْ تَبَاعَدَتْ عَنِ مَقَامِكَ حَتَّى صِرْتَ فِي ذِلَّةِ الْأَسِيرِ الْعَانِي
 لَا تَسِرْ وَاهِنَ الْخُطَى كِبَغَاثِ الطَّيْرِ بَيْنَ الطَّلُولِ وَالْجُذْرَانِ
 كُنْ نَظِيرَ الشَّاهِيْنَ فِي الْقِمَمِ الشَّمَاءِ لَا فِي مَسَارِبِ الْوُذْيَانِ
 تَتَحَرَّى الطَّيُورُ عِنْدَ بِنَاءِ الْعُشِّ أَعْلَى الْفُرُوعِ فِي الْبُسْتَانِ
 لَسْتَ دُونَ الثُّسُورِ بِأَسَافَاحًاوُلْ دَارَةَ النَّجْمِ أَوْ ذُرَى كِيْوَانِ
 مِنْ مِهَادِ الثَّرَى إِلَى التَّشْعَةِ الْأَفْلَاقِ فَوْقَ الزَّمَانِ فَوْقَ الْمَكَانِ
 غَيْرِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَعَمَّرَ فِيهِ دُنْيَا جَدِيدَةَ الْبُنْيَانِ
 وَالَّذِي يَنْشُدُ الْجِهَادَ فَنَاءً فِي رِضَا الْحَقِّ وَهُوَ مَاضِي الْجِنَانِ
 هُوَ سِرُّ الْأَقْدَارِ وَهُوَ قَضَاءُ الْحَقِّ فِي الْمُمْكِنَاتِ وَالْإِمْكَانِ
 فَتَمَثَّلْ نِضَالَ أَسْلَافِكَ الْأَمْجَادِ نَحْوَ الْعُلَى بِغَيْرِ تَوَانِي
 وَتَدَبَّرْ كَيْفَ اسْتَهَانُوا بِبَذْلِ الرُّوحِ وَالْمَالِ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ
 أَظْهَرَ الْجَوْهَرَ الْكَرِيمَ مِنَ الْأَصْدَافِ وَاجْعَلْهُ بَادِيًا لِلْعِيَانِ
 وَتَحَرَّرْ مِنْ هَيْكَلِ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الْهَوَى وَالْهَوَانِ
 وَاجْعَلِ الْفَطْرَةَ النَّقِيَّةَ نِبْرَاسًا لِعَيْنِكَ بَيْنَ قَاصِي وَدَانِ
 كُلُّ مَنْ ضَاعَ حَظُّهُ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ بَيْنَ الْجُحُودِ وَالنَّسِيَانِ
 لَمْ يَنْلُ طَوْلَ عُثْمَرِهِ مِنْ جَمَالِ الْحَقِّ غَيْرَ الْإِبْعَادِ وَالْحِزْمَانِ
 مَبْدَأُ الْعِشْقِ وَالصَّبَابَةِ قَهْرٌ وَخُطُوبٌ مُوَصُولَةٌ الْأَشْجَانِ^(١)

(١) الأشجان : الهموم والأحزان .

وهو من بعدها دلالٌ وتيةٌ بين طيبِ المُنَى وَصَفْوِ الأمانِي
 ويعودُ المحبُّ بالقُربِ محبوباً وَيَتَسَّى لواعجِ الهِجرانِ^(١)
 الوجودُ الأسمى هو المؤمنُ الحرُّ الأبِي الوفيُّ في كلِّ آنٍ
 وبقايا الوجودِ فيما سِوَاهُ مَظْهَرٌ حائلٌ وظلٌّ فانٍ
 حينَ يَدْعُو أن لا إلهَ سِوَى الله القديرِ المهيمِ الدِّيَّانِ^(٢)
 يُذعنُ الكونُ والمكانُ ولا يُشْرِقُ إلا بفوزِهِ القَمَرانِ

حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

إنَّ إقبالاً قال في هذه الأبيات والتي قبلها ما يكون في حياة الناس من إقامة العدل بينهم أو من الجور عليهم في الحكم ، وقد استخدم كلمة (الحكمة) لهذا العنوان ، (حكمة الكليم) ثمَّ (حكمة فرعون) ، وهو إنما يُريد بياناً لسياسة الحكم في إطارٍ من مصطلحاته الخاصة قصداً إلى بيان دسائس الاستعمار وتدميره لحياة الإنسان والقضاء على حرّيته ، وهو في هذه الأبيات يقول :

قدمتُ حكمةَ النَّبِيِّ لِلْعِيَانِ والمكرُ والخداعُ حِكْمَةُ الطُّغَاةِ
 تبقى على الإنسان جِسْمَ الحيوانِ وَتَسْلُبُ الروحَ كرامةَ الحياةِ

حِكْمَتُهَا حَرِيَّةٌ مَارِقَةٌ^(٣) تَعِيشُ في الدُّنْيَا بها من غَيْرِ دينِ
 والتَّفْسُ في أوهامها شاردةٌ لم تَعْرِفِ الشُّوقَ إلى عَيْنِ اليقينِ

-
- (١) الهِجرانُ : هو الترك أو الإعراض عن شيء .
 (٢) الدِّيَّانُ : هو اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ .
 (٣) مارقة : خارجة عن دينها .

وسائل التهذيب من هذا النظام
كما يرى السيّد ينفادُ الغلام
سلاسلُ الأسرى وأغلالُ العبيد
فلا يرى ولا يعي ولا يُريد

وذلك البارغ في مهنته
قد شطرَ الوحدَةَ في أمّته
يُضطنِعُ التّجديدَ في الدّين القويم
فماله ندّ سوى عصا الكليم

متى يفيقُ القومُ من وهنتهم
قد هدموا بناءً ذاتيّتهم
وهُم لحكم الغيرِ زرعٌ وحصاد
وغيرهم في أرضهم سادٌ وشاد

كَم مِنْ غَرِيرِ اسْتِطْطالٍ وادّعى
قد خَبَرَ الوُجودَ والدُّنيا معاً
حَصافَةَ الفِكرِ ودِقّة النّظرِ
وما لَدَيْهِ عَن وُجودِهِ خَبَرُ

أزالَ نَقشَ الحقِّ من خاتمه
قد وُلِدَ الرّجاءُ في عالمه
وكلُّ خَيْرٍ عَن ضَميرِهِ اسْتَنَز
لكنّه في المهدِ ولّى وانْدَثَرُ^(١)

ما تَصنَعُ الأيَّامُ بالقومِ الألى
قد أَضَبَحَتْ أرواحهم رَهَنَ البلى^(٢)
لم يُرزقوا حِظًّا مِنَ العزمِ الغيورِ
وما سوى أجسامهم لها قُبُور

ومزّقَ الكبارُ أَسْوارَ الحياءِ
وقلّدَ الشّبابُ صنَعَ الغانيّاتِ^(٣)

(١) انْدَثَرُ : دثر واطحى وفنى .

(٢) البلى : الفناء ، ومنه بلى الميت أفنته الأرض .

(٣) الغانيّاتُ : النّساء الغنيّات بحسنهنّ وجمالهنّ عن الزينة .

كَأَنَّهُمْ بَيْنَ عَوَامِلِ الْفَنَاءِ يَأْتُونَ مَوْتِي مِنْ بَطُونِ الْأَمَّهَاتِ

وهذه الحسناءُ تَقْضِي يَوْمَهَا فِي مَنْظَرِ عَارٍ وَصَبْغِ مُسْتَعَارِ
سَاعِدُهَا الْفِضِّيُّ يُبْدِي جِسْمَهَا بِمَنْظَرِ الْأَسْمَاكِ فِي لُجِّ الْبِحَارِ^(١)

جمودُ هذا الشَّعْبِ عَنْ كِفَاحِهِ يَحْكِي رَمَاداً لَيْسَ تَحْتَهُ شَرَّرَ
مَسَاؤُهُ رَانَ عَلَى صَبَاحِهِ بِظَلْمَةٍ فِي لَيْلِهَا زَاغَ الْبَصَرُ^(٢)

كُلٌّ يَعِيشُ فِي إِطَارِ نَفْسِهِ وَالْعَيْشُ وَالْمُتَعَّةُ فِي الدُّنْيَا مَنَاهُ
يَخْشَى الْبَلَى قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِهِ^(٣) فَاعْجَبْ لِمَيِّتٍ لَمْ يَزَلْ قَيْدَ الْحَيَاةِ

وذو الْغِنَى فِي الشَّحِّ يَحْكِي جَلْمَدَا وَمَالُهُ فِي اللَّهْوِ يُغْرِقُ السَّحَابَ
حَيَاتُهُ ضَاعَتْ عَلَى الْغِيِّ سُدَى تَشْغَلُهُ قَشُورُهَا عَنِ الْبُتَابِ

يَبِينُ دِينَهُ لِدُنْيَا غَيْرِهِ وَفِي رِضَا غَاصِبِهِ يَسْتَشْهَدُ
وَيَوْمُهُ الْحَاضِرُ كُلُّ عُمْرِهِ فَلَيْسَ فِي تَارِيخِ دُنْيَاهُ عَدُّ

وَكَمْ تَرَى فِي الْقَوْمِ حَمَالَ كُتُبٍ ثَقِيلَةٍ يَعِيَا بِحَمْلِهَا جَمَلُ

(١) لُجُّ الْبِحَارِ ، أَي : عَرْضُهَا .

(٢) زَاغَ الْبَصَرُ ، أَي : مَالَ عَنْ مَسْتَوَى النَّظَرِ حَيْرَةً وَشُخُوصاً ، وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ .

(٣) الرَّمْسُ : هُوَ التُّرَابُ الَّذِي يُحْتَمَى عَلَى الْقَبْرِ .

يدورُ في النَّاسِ كحَمَّالِ الحَطَبِ وَيُزْسَلُ الأَقْوَالِ مِنْ غَيْرِ عَمَلِ

ولاؤهُ لِلغَيْرِ كُلِّ هَمِّهِ حَتَّى بَنَى الدَّيْرَ بِأحجارِ الحَرَمِ
ماتَ ولكنَّ ما دَرَى بِمَوْتِهِ قَدْ عاشَ وَهَمًا ثُمَّ وِاراهُ العَدَمِ

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ

(رباعيات)

إنَّ لهذه الكلمة تأثيرها البالغ في حياة الأمم ، فإنَّها للفرد والمجتمع عقيدة
القوَّة ، وركيز التقدُّم والانطلاق ، وإفراد العبودية للخالق ، ورفضُ كُلِّ عبودية
لما سواه ، فالمؤمن لا يخضع الجبين إلاَّ لله الذي يقول له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

تلك هي كلمة التوحيد التي تُجدِّد الصُّورة الإنسانية في القلب الترابيِّ هيكلًا
من النور ، تحمل كلمة التوحيد أهوال يوم النُّشور ، يقول محمد إقبال :

في مقام التوحيد يَشْدُو خيالي بصدى الحقِّ مِنْ رِجالِ الحَالِ
إنَّما تُذركُ القلوبُ هداها بِصَفاءِ الأحوالِ لا الأَقْوَالِ

حرف (لا) مُظهِرٌ لِسِرِّ الجلال وهو لِلجَوْرِ منذرٌ بِالزَّوَالِ
بَعْدَ نَفِي الظُّلامِ وَالظُّلمِ يَبْدُو عند (إِلاَّ) إِشراقُ صُبْحِ الجَمالِ

لا وإلاَّ فَتَحْ لِبابِ الحَيَاةِ واحْتسابُ الوُجودِ والكائِناتِ

بِهِمَا تَقَهَّرُ الْمَهَانَةَ وَالضَّيْمَ وَتَمْضِي الْأُمُورَ فِي الْحَادِثَاتِ

حِينَ يَتَقَوَّى مَعَ الرَّجَاءِ الْيَقِينُ فَجَوَابُ الْأَقْدَارِ كُنْ فَيَكُونُ
يَذْفَعُ النَّفْيَ لِلتَّحَرُّكِ وَالْجِدَّ وَعِنْدَ الْإِبْتَاتِ يَأْتِي السُّكُونُ

كُلُّ شَعْبٍ يَرُومُ عِرَّ حَمَاهُ فَبِنُورِ التَّوْحِيدِ لَا بِسِوَاهُ
لَيْسَ يَحْمِي بِلَادَهُ غَيْرُ حَرِّ سَيْفِهِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

حَرْفٌ (لَا) آيَةٌ لِبَدْءِ الْمَسِيرِ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ نَحْوَ الْمَصِيرِ
إِنَّهَا أَوَّلُ الْمَنَازِلِ طَرًّا لِرِجَالِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَادِرِ

كُلُّ شَعْبٍ يَمْضِي بِخَطْوِ سَدِيدٍ لِلْعُلَى فِي حَرَارَةِ التَّوْحِيدِ
يَبْتَنِي مِنْ تُرَابِهِ صَرَخَ دُنْيَاهُ وَيَحْيَا فِيهَا بِخَلْقِ جَدِيدِ

قَوْلٌ (لَا) ثَوْرَةٌ أَمَامَ الطُّغَاةِ هُوَ عِنْدَ الْأَحْرَارِ مَعْنَى الْحَيَاةِ
ثَوْرَةٌ مَنْ نَضَّالَهَا يُضْنَعُ الْمَجْدُ وَيَبْدُو تَجَدُّدُ الْكَائِنَاتِ

لَيْسَ فِي ذَلِكَ الْجَنُونَِ الْعَرِيقِ كَلُّ ثَوْبٍ يَفُوزُ بِالتَّمْزِيقِ
لَا أَرَى فِي الْغُثَاءِ^(١) وَالْقَشِّ^(٢) يَوْمًا حَطْبًا صَالِحًا لِهَذَا الْحَرِيقِ

(١) الْغُثَاءُ : هُوَ مَا يَحْمِلُ السَّبِيلَ مِنْ رَغْوَةٍ وَمِنْ فُتَاتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

(٢) الْقَشُّ : هُوَ مَا يَتَخَلَّفُ مِنَ الْقَمَحِ وَالرِّزِّ وَنَحْوِهِمَا بَعْدَ اسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ .

لو يَمَسُّ التَّوْحِيدُ فِكْرًا نَقِيًّا وضميراً حَيًّا وَقَلْبًا أَيْبَا
لأَحَالِ الخُمُولِ وَالضَّغْفَ إِيْمَانًا وعزماً يَغْزُو نُجُومَ الثُّرَيَّا^(١)

حرف (لا) صَيْحَةً تَشِيرُ العَيْدَ ليزولوا ما لَمْ يُزِيلُوا القِيُودَا
ويقيموا في الدَّهْرِ عَصْرًا مَجِيدَا لا تَرَى فِيهِ سَيِّدًا وَمَسُودَا

لو سَرَتْ شَعْلَةُ الهَدْيِ فِي الصُّدُورِ وتمشَّى وميضُها في الضمير
لأَقَامَ الأَحْرَارُ لِلهَؤُولِ يَوْمًا يتحدَّى أهوالَ يومِ النُّشُورِ

صوتٌ (لا) مِنْ دَوِيِّ صوتِ الرُّعودِ ليس شكوى نايٍ ولا لحنَ عُوْدِ
لَوْ يَضِيقُ الفِضَاءُ يَوْمًا عَلَى الحَرِّ تَخْطَى بِهِ نِطَاقَ الوُجُودِ

يا لها من ذِكْرِي لِأَمْجَادِ العَرَبِ آيَةٌ كُبْرَى وَتَارِيخٌ عَجَبُ
حَرَّرُوا أَقْدَارَهُمْ بِالْعَزَمَاتِ فِي جَمِيعِ الكَوْنِ مِنْ كُلِّ الجِهَاتِ
فازدَهَى مِنْ نورِهِمْ كُلُّ مَكَانٍ وَتَغْنَى بِاسْمِهِمْ كُلُّ زَمَانٍ
لَمْ تَدُمْ عُرَى^(٢) وَلَمْ تَبْقَ مَنَاةُ^(٣) هَوَاتِ الأَصْنَامِ تَحْتَ الضَّرْبَاتِ
حِينَ نَادَى المُؤْمِنُونَ (اللهُ أَكْبَرُ) زَالَ كِسْرِي وَأَنْطَوَتْ أَعْلَامُ قَيْصَرِ
أَيُّ سَيْلٍ هَادِرٍ عَمَّ الصَّحَارِي أَيُّ طُوفَانٍ جَرَى يَغْزُو البَحَارِ

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم .

(٢) عُرَى : صنم كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من السَّمُرِ كانت لغطفان بنوا عليها بيتاً

وجعلوا يعبدونها، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيتَ وأحرق السَّمْرَةَ .

(٣) أحد أصنام العرب في الجاهلية .

وَحَدُوا الْخَلْقَ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ
 مِنْ تَحْدَى نَارِهَا أَضْحَى هَبَاءً
 وَأَزَالُوا كُلَّ جِبَارٍ عِنْدَ
 كُلِّ هَذَا كَانَ مِنْ أَنْوَارِ (لا)
 فِي سَهَابِ الْأَرْضِ أَوْ دَيْرٍ قَدِيمٍ
 وَأَقَامُوهَا عَلَى النَّهْجِ الرَّشِيدِ
 فَجَرَى الْحَقُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ
 كُلُّ نَوْرٍ يُجْتَلَى مِنْ شَمْسِهِمْ
 فَهُوَ مِنْ شَاطِئِ نَهْرِ الْعَرَبِ
 نَقَشَ غَيْرَ (اللهُ) ، عَلَامِ الْغُيُوبِ
 ثَوْرَةَ الْإِيمَانِ فِي كُلِّ الشُّعُوبِ
 حَطَّمُوا الْقَيْدَ بَعْزَمٍ مِنْ حَدِيدٍ
 وَاسْتَرَدُّوا أَمْنَ حَرِّيَّاتِهِمْ

هؤلاء العربُ الصَّيْدُ الأَبَاهُ
 شَعْلَةٌ مِنْ نَوْرِهَا الْحَقُّ أَضَاءُ
 قَدْ أَبَادُوا كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ
 وَسَمَوْا فَوْقَ الدَّرَارِيِّ مَنْزِلًا
 بَيْنَمَا الْعَالَمُ كَالْعَظْمِ الرَّمِيمِ
 أَنْشَأُوا دُنْيَاهُ فِي خَلْقِ جَدِيدٍ
 أَيْقَظُوا الدُّنْيَا بِتَكْبِيرِ الْأَذَانِ
 كُلُّ خَيْرٍ يُرْتَجَى مِنْ غَزْسِهِمْ
 كُلُّ رَوْضٍ بِالْمَعَالِي مُخْصَبُ
 قَدْ أزالَ الْعَرَبُ مِنْ لَوْحِ الْقُلُوبِ
 فَأَقَامُوا فِي شَمَالٍ وَجَنُوبِ
 فَتَرَى فِي أُمَّمِ الْغَرْبِ الْعَبِيدِ
 أَعْلَنُوا الْحَرْبَ عَلَى سَادَاتِهِمْ

بِاسْمِ (لا) حَتَّى أَثَارُوا الْأَمَمَا
 وَأَطَاخُوا بِمَعَايِيرِ الشُّنَنِ
 لَمْ يَرُومُوا نَحْوَ (إِلَّا) مَنْزِلًا
 بَعْدَ حِينٍ يَفْهَرُونَ الْعَاصِفَهُ
 نَحْوَ (إِلَّا) يَذْفَعُونَ الْمَوْكِبَا
 كُلُّ نَفْسٍ دُونََ إِبْثَاتٍ عَدَمٍ
 هَاتِفًا يَدْعُو لِتَوْحِيدِ الْقَدِيرِ
 دُونََ (إِلَّا) فَهِيَ لِلصُّدُقِ دَلِيلُ
 يَخْشُدُ الْأَلْفَاظَ حَشْدَ الْمَكْتَبَاتِ
 أَسْمِعِ النَّمْرُودَ تَوْحِيدَ الْجَلِيلِ

صَارَ شَعْبُ الرُّوسِ نَارًا وَدَمَا
 فَاسْتَهَانُوا بِتَقَالِيدِ الرِّمَنِ
 وَقَفَّ الرِّكْبُ بِهِمْ فِي بَابِ (لا)
 سَتَرَاهُمْ كَجِيُوشٍ زَاخِفَهُ
 وَتَرَى لِلْقَوْمِ أَمْرًا عَجَبًا
 لا و (إِلَّا) بِهِمَا الْعَدْلُ انْتِظَمَ
 إِنَّ لِلْفِطْرَةِ فِي كُلِّ ضَمِيرٍ
 لَمْ يَبْنِ فِي حَرْفِ (لا) صَدَقَ الْخَلِيلُ
 يَا مَقِيمًا فِي زَوَايَا الْحُجُرَاتِ
 إِنَّ تَكُنْ فِي مِثْلِ نِيرَانِ الْخَلِيلِ

لا يساوي قَدْرُهُ وَزْنَ الْهَبَاءِ (١)
 ثُمَّ لَا يَقْبَلُ عَنْهُ حَوْلًا
 أَمْرُهُ النَّافِذُ فِي كُلِّ الْوُجُودِ
 وَهُوَ فِي عَزَلَتِهِ نَاءٌ مُقِيمٌ
 قُمْ وَأَبْلُغْهُ الْبَرَايَا أَجْمَعِينَ

والذي تبصره حول الفضاء
 كلُّ حرٍّ في يديه سيفٌ (لا)
 فهو للعلياء دوماً في صُعود
 أيها الشادي بقرآن كريم
 قم وأسمِغه لكلِّ العالمين

فَقْرُ الصَّالِحِينَ

خصراً إقبال موضوع فقر الصالحين بهذه الأبيات على أسلوب خاص من
 التعبير تعريفاً بقيمة الفقر ومراميه ، يقول :

مَا هُوَ الْفَقْرُ الْغَنِيُّ الْأَزْفَعُ
 وَارْتَوَاءُ الْقَلْبِ مِنْ عَيْنِ الْيَقِينِ
 هَامَةٌ الْجَوَازِءِ مِنْ أَدْنَى خُطَاهِ
 وَيَرَى التَّوْحِيدَ نَبْرَاسَ هُدَاهِ
 لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ إِلَهَ
 لَمْ يَكُنْ ثُمَّ سِوَى حُبْزِ الشَّعِيرِ
 وَإِلَيْهِ خَاشِعاً يَسْعَى الْأَمِيرُ
 ثُمَّ تَسْلِيمٌ لِمَا اللَّهُ قَضَى
 فَهُوَ مِيرَاثُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
 يَضْنَعُ الْجَوْهَرَ مِنْ أَدْنَى زُجَاجِ
 فَهُوَ إِنْسَانٌ وَفِي النُّورِ مَلِكٌ

يَا عَيْدَ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ اسْمَعُوا
 هُوَ عِرْفَانٌ طَرِيقَ الْعَارِفِينَ
 ذَلِكَ الْفَقْرُ عَزِيزٌ فِي غِنَاهِ
 يُخَكِّمُ الْإِبْدَاعَ فِي صِنْعِ الْحَيَاةِ
 يَزْعَشُ الْكَوْنَ إِذَا دَوَّى صَدَاهِ
 خَيْرٌ حَرَّرَهَا ذَاكَ الْفَقِيرُ
 خَاشِعٌ لَلَّهِ ذِيكَ الْقَدِيرُ
 حَالُهُ ذَوْقٌ وَشَوْقٌ وَرِضَا
 يَا لَهُ كَنْزاً بِهِ الْعَيْشُ صَفَا
 لَيْلَهُ الْمُظْلِمَ لِلْمَجْدِ سِرَاجِ
 يَفْهَرُ الْمُؤْمِنُ نَامُوسَ (٢) الْفَلَكِ

(١) الْهَبَاءُ : التُّرَابُ الَّذِي تُطِيرُهُ الرِّيحُ وَيَلِزِقُ بِالْأَشْيَاءِ .

(٢) نَامُوسُ : الْقَانُونُ أَوْ الشَّرِيعَةُ .

فَلَقَدْ تَنقَّلُ دُنْيَاكَ إِلَى
 فِي هُدَى الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ
 ذَلِكَ الْمَسْكِينُ فِي رُقْعَتِهِ
 صَامِتٌ لَيْسَ يُطِيلُ الْكَلِمَا
 وَلَهُ مِنْ طَاقَةِ الرُّوحِ جَنَانٌ
 حَوَّلَ الْعَصْفُورَ نَسْرًا فِي الْفِضَاءِ
 بِنَسَاءِ الْحَقِّ يُحْيِي مُدْنَا
 مُسَلِّمٌ دَوْلَتُهُ فَوْقَ الْحَصِيرِ
 لَيْسَ يَرْضَى الْعَيْشَ إِلَّا فِي مَقَامٍ
 لَا يِبَالِي مِنْ لَهُ هَذَا السُّلُوكِ
 يَتَلَاشَى الْجَمْرُ فِي نِيرَانِهِ
 صَوْتُهُ فِي الشَّعْبِ يَذْكَي لَهَا
 لَا تَرَى الْأُمَّةَ تَخْشَى مِنْ مُغْيِرٍ
 نَحْنُ بِاسْتِغْنَائِهِ نَلْقَى الْغِنَى
 فَاْمْتَحَنُ وَجْهَكَ فِي مِرَاتِهِ
 تَكْتَسِبُ مِنْهُ مَزَايَا الصَّادِقِينَ
 تَتَجَلَّى حِكْمَةُ الدِّينِ جَمَالًا
 قُوَّةُ الدِّينِ وَتَشْيِيدُ عُلَاهِ
 كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْأَحَدِ
 إِنْ يَكُنْ فِي صُورَةِ النَّمْلِ خَفَاءِ
 قَالَ خَيْرُ الْخَلْقِ تَاجُ الْمُرْسَلِينَ
 كَيْفَ يَعْلُو مِنْبَرًا لِلْمُسْلِمِينَ
 يَا لَهَا كَارِثَةٌ فِي الْعَالَمِينَ

حَالَةَ أَسْمَى وَشَانَ أَفْضَلَا
 دَائِمَ الْإِسْعَادِ مَوْضُوعَ النَّعِيمِ
 يَسْعُ الْعَالَمَ فِي مُهْجَتِهِ (١)
 وَهُوَ بِالصَّنْمِ يَرْبِّي أُمَّمَا
 يَمْنَحُ الْحَامِلَ ذَوْقَ الطَّيْرَانِ
 فَبَدَا لِلْأَرْضِ تَفْسِيرُ السَّمَاءِ
 وَبِصِدْقِ الْعَزْمِ يَنْبِي وَطْنَا
 كَانَ يَخْشَى بِأَسَّهُ أَلْفَ سَرِيرِ
 يَسْتَوِي الشَّاهِينَ فِيهِ وَالْحَمَامِ
 أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ فِي وَجْهِ الْمُلُوكِ
 وَيَخَافُ الْبَحْرُ مِنْ طُوفَانِهِ
 وَتَخَافُ النَّارُ مِنْهُ الْحَطْبَا
 وَلَدَيْهَا مِثْلُ ذِيَاكَ الْفَقِيرِ
 وَعَلَى أَشْوَاقِهِ نَزَجُوا الْمُئِنَى
 وَأَنْشُدِ الْحِكْمَةَ مِنْ آيَاتِهِ
 وَتَقُزْ مِنْهُ بِسُلْطَانٍ مُبِينِ
 حِينَ يُبْدِي الْفَقْرُ عِزًّا وَدَلَالَا
 فِي تَسَامِي الْفَقْرِ عَنْ ذُلِّ الْحَيَاةِ
 لَا يُذِلُّ النَّفْسَ يَوْمًا لِأَحَدِ
 لَيْسَ يَرْجُو مِنْ سُلَيْمَانَ عَطَاءِ
 كُلُّ أَرْضٍ مَسْجِدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
 فَوْقَ أَرْضٍ فِي يَدِ الْمُسْتَعْمِرِينَ
 مَسْجِدُ الْهَادِي بِأَيْدِي الْغَاصِبِينَ

(١) الْمُهْجَةُ : الرُّوحُ .

حَرَّرَ الْأَرْضِ مَعاً وَالْمَسْجِدَا
أَيُّهَا النَّاصِحُ لَيْلاً وَنَهَارَا
إِنَّ مَعْنَى تَرْكِهَا تَسْخِيرُهَا
وَالَّذِي يَغْلُو عَلَى صَهْوَتِهَا
فَاتَّخِذْهَا مِنْ مَطَايَا الْأَخْرَةِ
هِيَ صَيِّدُ الْمُؤْمِنِ الْحَرِّ الْجَسُورِ
كُلُّ زُهْدٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَاجِدٍ
أَنَا مِنْ مُشْكَلَتِي طَالَ اِكْتِسَابِي
أَيُّهَا الشَّاهِنُ^(١) مَا هَذَا الْجُمُودِ
يَائِسٌ أَمْ أَنْتَ مَقْضُوصُ الْجَنَاحِ^(٢)
مَا شَكَا مِخْلَبِكَ النَّسْرُ وَلَا
الْجِبَالُ الشُّمُّ وَالْآفَاقُ لَكَ
طَزَّ إِلَى النَّجْمِ وَحَلَّقَ مِنْ جَدِيدٍ
فَقَرْنَا تُمْلِيهِ آيَاتُ الْكِتَابِ
فَقَرْنَا مَعْنَاهُ تَسْخِيرُ الْجِهَاتِ
يَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ فَوْقَ الشُّبُهَاتِ
فَقَرُّ أَهْلِ الْكُفْرِ هَذَا لِلْفِطْرِ
عَيْشُهُ بَيْنَ الْمِرَامِيِّ وَالْكَهْفِ
لَمْ يَكُنْ فِي الدَّهْرِ مِنْذُ الْمَوْلِدِ
لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ بِالْفَقْرِ اعْتِزَالُ
بَيْنَمَا الْأَوَّلُ فِي صَمْتِ الْجُمُودِ
ذَاكَ يَطْوِي الْعُمُرَ فِي تَرْكِ الْبَدَنِ

لَا يَكُنْ غَيْرُكَ فِيهَا سَيِّدَا
دَاعِيَاً أَنْ تَتْرَكَ الدُّنْيَا احْتِقَارَا
فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ لَا تَذْمِيرُهَا
يَأْمَنُ الْمِخْنَةَ مِنْ عَثْرَتِهَا
تَنْجُ مِنْ تِلْكَ الْعَجُوزِ السَّاجِرِ
قَبْلَ أَنْ يَصْطَادَهُ فِيهَا الْعُرُورُ
فَهُوَ سَلَوِي لِعَدِيمِ فَاوِدِ
حَلُّهَا أَعْيَا عَلَى الْجُهْدِ صَوَابِي
أَيْنَ مِنْكَ الْبَاسُ أَوْ أَيْنَ الصُّعُودِ
أَمْ خَشِيتَ الْوَتْبَ فِي هَوَاجِ الرِّيحِ
فَرَّ مِنْ عَزْمِكَ طَيْرٌ فِي الْفَلَاحِ
أَيُّهَا الْهَارِبُ مِنْ أَوْجِ الْفَلَكِ
فِي الْفَضَاءِ اللَّازُورِدِيِّ الْبَعِيدِ
لَيْسَ فِي رَقْصِ وَسُكْرِ وَرَبَابِ
وَاحْتِسَابِ لَجْمِيعِ الْكَائِنَاتِ
مَظْهَرًا أَعْلَى لِقُدْسِي الصِّفَاتِ
وَمَجَافَاةً لِعُمُرَانِ الْبَشَرِ
لَا تَرَى مَوْضِعَهُ بَيْنَ الصُّفُوفِ
غَيْرَ صِفْرِ فِي يَسَارِ الْعَدَدِ
هُوَ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ نِضَالُ
سَارَ هَذَا نَحْوَ تَعْمِيرِ الْوُجُودِ
طَالِبًا لِلرُّشْدِ أَوْ تَرْكِ الْوَطَنِ

(١) الشَّاهِنُ : طائر من جوارح الطَّيْرِ وسباعها ، من جنس الصقر .

(٢) مقصوص الجناح : مقطوع الجناح .

يُنْشُدُ الْحَقُّ بِذَاتِيَّتِهِ
وسراجاً في الليالي هادياً
يُزْهَبُ الشَّمْسَ وَيَخْتَلُّ الْقَمَرَ
قد نأى المُسْلِمُ عن هذا الجلال
إنَّه زلزالُ تكبيرِ الحُسَيْنِ
وأرى غَمْدَكَ منه قَدْ خلا
زَلَزَلْتُ إِيمَانَهُ فِيهَا المِخْنَ
حَرَّرُوا مِمَّا سِوَى اللَّهِ القُلُوبَ
فاخْلُقُوا دُنْيَا سِوَاهَا فِي الأَمَمِ
غَيْرَةُ الأَحْرَارِ لِلدِّينِ القَوِيمِ
ما أرى المَوْتَ سِوَى هذِي الحَيَاةِ
ثُمَّ يَبْنِي ذَاتَهُ صَرْحاً عَلَيَّا
وسجايَا المُصْطَفَى مِيزَانَهُ
فمَتَى يُوَلِّدُ فِي القَوْمِ قَئِيرَ
أَسَكَتِ الدَّمْعُ عَنِ الوَصْفِ اللِّسَانَا
هُوَ فِي قَلْبِي كَأَهْوَالِ القِيَامَةِ
فليَقْدَمَ فِي الصِّدْرِ مَطْوِيّاً دَينَا
فكَأَنَّ القَوْمَ فِي شِكِّ مُرِيبِ
قَطَعُوا عَمْداً طَرِيقَ القَافِلَةِ
لا وَلا لِلصَّصِ مَنَّا مَطْلَبُ
وتراثُ المَالِ قَدْ وَلَّى ضِيَاعَا
ذو رِيَاءٍ هُوَ لِلوَرْدِ مُرِيدِ
وَكأَنَّ الدُّلَّ فِي دُنْيَاهِ نِعْمَةٌ

وترى المُؤْمِنَ فِي أُمَّتِهِ
نحو إدراكِ المعالي سَاعِيَا
فقرْنَا الحرَّ إِذَا نَاجَى القَدْرَ
فقرْنَا العاري تِوَالَهُ الزَّوَالِ
إنَّه إِيمَانُ بَدْرِ وَحُتَيْنِ
أَسْفَا لَمْ يَبْقَ عِنْدِي سَيْفُ (لا)
أَسْفَا ، إِنِّي أرى دُنْيَا الفِتَنِ
يا شِبَابَ الحَقِّ ، يا دُخْرَ الشُّعُوبِ
إِنَّ دُنْيَا اليَوْمِ أَبْلَاهَا القِدَمِ
أَيْنَ مِنْكُمْ يا ذَوِي المَاضِي الكَرِيمِ
طَالَ هَذَا التَّوْمُ عَنِ صَوْنِ حَمَاةِ
يَسْدَابُ الحرِّ غُدُوّاً وَعَشِيّاً
وَجِهَادُ المُصْطَفَى بَرهَانَهُ
يا لِقَوْمِ ، أَنْجِبُوا كَلَّ أَمِيرِ
لا تَسَلْ عَنِ قِصَّةِ القَوْمِ بِيَانَا
أَلَمْ أَغْمَدَ فِي صَدْرِي سِهَامَهُ
هُوَلُ هَذَا الحَشْرِ أَعْيَا الوَاصِفِينَا
قُوَّةُ الدِّينِ فِي النَّصْرِ القَرِيبِ
أَيْنَ مَسْعَاهُمْ وَهُمْ فِي العَاجِلَةِ
ليسَ لِلشَّيْطَانِ فِينَا مَأْرَبُ
فتراتُ الدِّينِ قَدْ طَارَ شُعَاعَا
كَمْ تَغْنَى بِمَزَايَا بَايَزِيدِ^(١)
فيري في دولَةِ الأَغْيَارِ رَحْمَهُ

(١) لا أدري من يرئد الشاعر به .

وينادي أَنَّ حُكْمَ الدُّخْلَاءِ
 أَيُّهَا المَحْرُومُ مِنْ وَجْدَانِهِ
 أَوْ تَذْرِي أَنَّنَا مِنْ عَضْرِنَا
 كُلُّ حَيٍّ مَعْرُضٌ عَن ذَاتِهِ
 عِشْ وَلَوْ يَوْمًا عَزِيزَ المَطْلَبِ
 مَنْزِلُ الشَّاهِينِ فِي أَوْجِ السَّحَابِ
 لَمْ يَزَلْ فِي الرِّوَضِ ظِلٌّ وَتَمَرٌ
 كُنْ كَحَدِّ السَّيْفِ فِي صِدْقِ المَضَاءِ
 إِنَّ فِي رُوحِكَ سَيْلًا كالعُجَابِ
 انْدِفَاعُ السَّيْلِ إِثْبَاتُ البَقَاءِ
 أَنَا لَمْ أَسْلُكْ إِلَى الفِئَةِ سَبِيلًا
 لَمْ أَكُنْ فِي الفَقْرِ ذَا فِهْمٍ دَقِيقِ
 فِكْرَةٌ جَاشَ بِهَا القَلْبُ اضْطِرَابًا
 كُنْتُ فِي الدِّينِ حَدِيدَ البَصْرِ
 وَانجَلتْ وَاحِدَةٌ بَيْنَ مَنَاتِ
 فَاعْتَنَيْتُمْ مِنْ فَاقَتِي حَظًّا يَسِيرًا
 أَيُّهَا الشَّادِي بِقِرَانِ كَرِيمِ
 قُمْ وَأَبْلِغْ نَوْرَهُ للعَالَمِينَ
 إِنْ نَكُنْ فِي مِثْلِ نِيرَانِ الخَلِيلِ
 مِنْ لَهُ مِنْ ثَرْوَةِ الهَادِي نَصِيبِ
 يَا غَرِيبًا عَن مَقَامِ المُصْطَفَى

فِيهِ لِلدِّينِ ازْدِهَارٌ وَازْتِقَاءُ
 وَمِنَ الشُّوقِ وَمِنَ أَشْجَانِهِ
 غَرِيبًا فِيهِ عَن أَنفُسِنَا
 فَقدَ الجَوْهَرَ مِنْ مِرَاتِهِ
 أَجْنِيبًا عَن طَرِيقِ الأَجْنَبِيِّ
 مَا لَهُ يَسْكُنُ فِي وَكْرِ العُرَابِ
 فَالتَّمَسْ عَشْكَ فِي أَعْلَى الشَّجَرِ
 وَاحْتَسَبْ نَفْسَكَ فِي كَفِّ القَضَاءِ
 يَنْسِفُ الشَّمَّ وَيَهْوِي بِالهَضَابِ^(١)
 وَسَكُونُ اللَّيْلِ مَعْنَاهُ الفَنَاءُ
 أَتَحَرَّى الحُكْمَ فِيهِ وَالدَّلِيلَا
 فِي سَلُوكِ بَيْنَ رُؤَادِ الطَّرِيقِ
 ثَمَّ لَمْ أَمْلِكْ عَنِ القَوْلِ اخْتِجَابًا
 رَغَمَ مَا بِي مِنْ قَصُورِ النَّظَرِ
 بَعْدَ لَأَيِّ مِنَ الوَفِّ المُشْكِلَاتِ
 فَعَسَى أَلَا تَرَى مِثْلِي فَقِيرًا
 وَهُوَ فِي رَكْنِ مِنَ البَيْتِ مُقِيمِ
 قُمْ وَأَسْمِعْهُ البَّرَايَا أَجْمَعِينَ
 أَسْمَعَ النَّمْرُودَ تَوْجِيْدَ الجَلِيلِ
 فَهُوَ مِنْ جَبْرِيلَ فِي الدُّنْيَا قَرِيبِ
 عُدْ إِلَى الحَقِّ تَجِدْ نُورَ الصَّفَا

(١) الهَضَابُ ، جمع هَضْبَة : جبل منبسط ممتد على وجه الأرض .

الرجلُ الحرُّ

قدّم إقبالُ في أبياته السَّابقة صفات الفقير المؤمن بالله ، إلا أنه شاء أن يخصَّ المسلمَ الحرَّ بهذه الأبيات نظراً لما للحرية من مكانة ، وما للرجل الحرِّ من مقام ، ولذا نجد إقبالاً يكرّر في هذه الأبيات بعضَ المعاني كصاحبِ رسالةٍ نظراً إلى ذلك الارتباط الوثيق بين حرّية الفقير وفقر المؤمن ، يقول :

فَوْقَ مَسْرِ النَّجْمِ لِلْحَرِّ هَدَفَ	وَزَدَهُ فِي كُلِّ حِينٍ لَا تَخَفَ
أَمِنٌ فِي سِلْمِهِ فِي حَزْبِهِ	رَأْسُهُ فِي الْكَفِّ لَا فِي جَيْبِهِ
عَرَفَ اللَّهُ فَلَمْ يَزْهَبْ سِوَاهُ	كَيْفَ يَخْشَى الْخَلْقَ مِنْ خَافِ الْإِلَهِ
لَا يَرَى قَطُّ مَعَ الْبُؤْسِ الْمَرِيرِ	عَبْدَ سُلْطَانٍ وَلَا ظِلَّ أَمِيرِ
جَمَلٌ فِي الْبَيْدِ مَوْصُولِ الصِّيَامِ	يَحْمِلُ الْأَثْقَالَ وَالشُّوكَ طَعَامِ
هُوَ تَبَضُّ فِي عُروِقِ الْأَمَلِ	وَهُوَ سَعْيٌ فِي طَرِيقِ الْعَمَلِ
مِنْ عِلَا تَكْبِيرِهِ مِنْ غَيْرِ تَاجِ	يُلْزَمُ التَّيْجَانَ تَقْدِيمَ الْخَرَجِ
قَدْ ذَكَتْ نِيرَانُنَا مِنْ جَمْرِهِ	وَجَرَتْ أَنْهَارُنَا مِنْ خَمْرِهِ
جَنَّةُ الْوَزْدِ شَذَا مِنْ سِخْرِهِ	شَعْلَةُ الْمَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ
وَتَرَى فِي قَصْرِ رَبِّ السَّرِيرِ	رَاعِشاً مِنْ سَهْمِ عُزْيَانِ فَقِيرِ
شَأْنُنَا فِي الدِّينِ لَا يَعْدُو الْخَبْرِ	وَهُوَ فِي الدِّينِ شُهُودٌ وَنَظْرُ
نَحْنُ عِنْدَ الْبَابِ نَسْتَجِدِي الْأَمَانِي	وَهُوَ فِي الدَّارِ وَفِي طَيْبِ الْمَجَانِي
أُضْبِحَ الدَّيْرُ لَدِينَا مَقْصِداً	نَحْنُ لِلْغَيْرِ نَبِيْعُ الْمَسْجِدا
وَهُوَ يُسْقَى مِنْ يَمِينِ الْمُضْطَفَى	كَوْثِراً عَذْباً بِهِ الْوَرْدُ صَفَا
فِي ضَمِيرِ الْحَرِّ تَكْبِيرُ الْإِلَهِ	فِي جَيْبِ الْحَرِّ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
نَحْنُ لِلْإِفْرَنْجِ أَسْلَمْنَا الْقِيَادَا	وَاتَّخَذْنَاهُمْ لَدَى الْجُلَى عَتَادَا
وَابْتَغَيْنَا عِنْدَهُمْ عِزَّتَنَا	وَجَعَلْنَا وَدَّهْمَ قِبَلْتَنَا
وَشِعَارُ الْحَرِّ عِزْمٌ وَإِبَاءٌ	رِزْقُهُ مِنْ يَدِ جَبَّارِ السَّمَاءِ
فَلْغَيْرِ اللَّهِ مَا مَدَّ الْيَمِينِ	لِغَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَخُنِ الْجَبِينِ

ثُمَّ يَأْسُ ثُمَّ قَبِرٌ وَظِلَامٌ
 مَوْتُهُ إِحْدَى مَقَامَاتِ الْحَيَاةِ
 وَنَرَى الْمُمَكْنَ فِي حُكْمِ الْمُحَالِ
 لَا يُضِيعُ الْعَمَرَ فِي زَيْفِ الْخَيَالِ
 حَوْلَ الصَّخْرِ بِحَاراً جَارِيَهُ
 إِنْ تُرِدْ خَيْراً فَكُنْ مِنْ صَاحِبِهِ
 أَهْدِمِ الدَّارَ وَكُنْ صَاحِبَ دَارِ
 هِيَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَلْفِ كِتَابِ
 وَلَقَدْ تَخَلَّقَ مِنْهُ آدَمُ
 لَكَ فِي الْبَحْرِ غِنًى عَنِ جَدْوَلِ
 آيَةُ التَّغْيِيرِ فِي عُمْرَانِهِ
 مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضَ عِطْرِهِ
 ثَوْرَةُ الْبُرْكَانِ فِي نِيرَانِهَا
 أَوْ يَتِمُّ اللهُ فِيهَا نَصْرَهُ
 هِيناً إِلَّا لِأَصْحَابِ الْيَقِينِ
 فَالْتَزِمْ فِي الدَّهْرِ حُرّاً هَادِيَا

مَتَعَةُ الدُّنْيَا لَنَا كُلُّ الْمَرَامِ
 هُوَ فِي الْحَقِّ جِهَادٌ وَثَبَاتٌ
 إِنَّا نَبْنِي قَصوراً فِي الْخِيَالِ
 وَهُوَ بِالْأَعْمَالِ فِي كُلِّ مَجَالِ
 لَوْ رَمَى شُمَّ الْجِبَالِ الْعَاتِيَهُ
 اجْتَنِبْ صُخْبَتَنَا وَاسْعُدْ بِهِ
 الزَّمِ الْحَرَ وَدَعْ أَهْلَ الْبَوَارِ (١)
 صَحْبَةُ الْحَرِّ إِلَى الْعَلِيَاءِ بَابِ
 صَحْبَةُ الْحَرِّ تَنْبِيهُ الْعَالَمِ
 قُرْبُهُ لِلْعَزِّ أَصْفَى مَنَهْلِ
 هُوَ يَوْمَ السُّلْمِ فِي أَوْطَانِهِ
 بِجَدِيدِ الْفِكْرِ يَحْيِي عَضْرَهُ
 وَهُوَ يَوْمَ الْحَرْبِ فِي مَيْدَانِهَا
 سَيْفُهُ يَحْفِرُ فِيهَا قَبْرَهُ
 لَيْسَ زَرْعُ الْقَلْبِ فِي مَاءٍ وَطِينِ
 إِنْ أَرَدْتَ الْعَيْشَ حُرّاً صَافِيَا

رُبَاعِيَّاتٌ (٢)

أَقْبَلَ الْحَرُّ عَلَى يَوْمِ الْفِدَاءِ وَمَضَى يَرْمِي عَلَى النَّجْمِ الْهَدَفِ
 وَكَأَنَّ السَّوْخِيَّ لَقَاءَ النَّدَاءِ مِنْ سَمَاءِ اللَّهِ أَقْدِمَ لَا تَخَفْ

(١) أهل البوار: أهل جهنم.

(٢) ولقد أعاد المترجم صياغة هذه المنظومة في رباعيات.

أشْرَقَ التَّوْحِيدُ نَوْرًا فِي هِدَاةِ وَسَرَى التَّحْرِيرُ مِنْهُ فِي الضَّمِيرِ
أَثْرَى مَنْ لَمْ يَخَفْ غَيْرَ الْإِلَهِ يَزْهَبُ السُّلْطَانُ أَوْ يَخْشَى الْأَمِيرِ

رَوْحُهُ تَكْشِفُ أَسْرَارَ الْخُلُودِ عَنِ حَيَاةِ مَا لَهَا فِي الدَّهْرِ مَوْتُ
يُرْسِلُ التَّكْبِيرَ مِنْ قَلْبِ الْوُجُودِ لُغَةً تُغْنِيهِ عَنِ حَزْفِ وَصَوْتِ

سَلْ مَلُوكَ الْأَرْضِ عَنِ دُنْيَا الْغُرُورِ فِي الْمَلَاهِي خَلْفَ أَسْتَارِ الْحَرِيرِ
زَلْزَلْتَهُمْ بَيْنَ أَبْرَاجِ الْقُصُورِ ضَرْبَةً مِنْ سَهْمِ عُرْيَانِ فَقِيرِ

ضَرَبَ الْبَخْرَ كَمُوسَى بِعَصَاهِ وَرَمَى الصَّخْرَ حُطَامًا مِنْ زَجَاجِ
ذَلِكَ الْأَوَابُ فِي ثُوبِ تَقَاهِ أَلْزَمَ التِّيْجَانَ تَقْدِيمَ الْخَرَاجِ

قَدْ جَرَتْ أَنْهَارُنَا مِنْ بَخْرِهِ وَأَضَاءَتْ نَارُنَا مِنْ خَمْرِهِ
بِسْمَةِ الْوَزْدِ شَذَا مِنْ عَطْرِهِ شَعْلَةُ الْمَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ

شَأْنُنَا فِي الدِّينِ لَا يَعْدُو الْحَبْرُ وَهُوَ فِي الدِّينِ شُهُودٌ وَنَظْرُ
نَحْنُ عِنْدَ الْبَابِ فِي ظِلِّ الشَّجَرِ وَهُوَ فِي الدَّارِ وَفِي مَجْنَى الثَّمَرِ

لِبْنِي الْإِفْرَنْجِ فِي الدُّنْيَا عَيْنِدِ فِي قِيُودِ مَنْ حَرِيرٍ أَوْ حَدِيدِ
كَمْ تَغْنَى بِمَزَايَا بَايَزِيدِ ذُو رِيَاءٍ وَهُوَ لِلْوَرْدِ مُرِيدِ

فِي حَدِيثِ الْمُصْطَفَى شَمْسُ الْهُدَى كُلُّ أَرْضٍ مَسْجِدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

كَيْفَ تَبْنِي فَوْقَ أَرْضِ مَسْجِدَا إِنَّ تَرَكْتَ الْأَرْضَ لِلْمُسْتَعْمَرِينَ

لَيْسَ حَيًّا مَنْ يُرَى مُسْتَعْبَدَا لِسَوَى مَنْ فِي يَدَيْهِ رِزْقُهُ
سَيِّدَ مَنْ لَيْسَ يَرْضَى سَيِّدَا مَا خَلَا رَبِّي فَكُلُّ عَبْدُهُ

فِي ضَمِيرِ الْحَرْزِ تَكْبِيرُ الْإِلَهِ فِي جَبِينِ الْحَرْزِ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
مَوْتُهُ أَعْلَى مَقَامَاتِ الْحَيَاةِ تَزْفَعُ الدُّنْيَا لِذِكْرِهِ الْعَلَمِ

هُوَ يَوْمَ السَّلْمِ فِي نَهْضَتِهِ يَبْدُ الْإِصْلَاحِ يَبْنِي عَضْرَهُ
وَيَذِيغُ الْخَيْرَ فِي أُمَّتِهِ مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضَ عِطْرَهُ

وَهُوَ يَوْمَ الْحَرْبِ فِي سَاحَتِهِ سَيْفُهُ يَخْفِرُ فِيهَا قَبْرَهُ
يَتَحَدَّى الْمَوْتَ فِي وَثْبَتِهِ أَوْ يُتَمُّ الْعَزْمُ فِيهَا نَصْرَهُ

إِنَّ عَرْسَ الْحَقِّ فِي نَوْرِ الْقُلُوبِ غَيْرُ شَأْنِ الزَّرْعِ فِي مَاءٍ وَطِينِ
فَالْتَمَسْ لِلْمَجْدِ أَحْرَارَ الشُّعُوبِ إِنَّهُمْ فِي الدَّهْرِ أَعْلَامُ الْيَقِينِ

فِي أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ

لم يتحدث إقبال فقط عن أسرار العبادات وحكمة الدين فيها ، ولكنه من جهة أخرى يحاول أن يكشف أسرار الحياة في المال ، وفي مجال التعامل به ، وما انتهجه المادّيون من الأساليب في هذا السبيل ، فيقول للمؤمن : إنّي وعيت

عن جلال الدين الرُّومي حكمة نبهني فيها إلى أمرٍ جَلَلٍ ، ما كِدْتُ أَنَاْمَلُهَا حتَّى
أصابني المقيمُ المقعدُ من التفكير ، فيقول :

حِكْمَةٌ قد وعيتها عن جلال الدِّينِ فيها أدركتُ معنى الجَلالِ
أَنَّ حِفْظَ الأموالِ مِنْ أَجْلِ حِفْظِ الدِّينِ زادٌ وعدَّةٌ للنُّضالِ
قد أبانَ الرُّسُولُ أَنَّ صلاحَ المالِ يزكو به^(١) صلاحُ الرِّجالِ
إِنْ يَكُنْ هُمْكَ الغِنَى لم تكن له عبداً بَلْ أنتَ عبدُ المالِ

كَمْ شَهِدنا الإِصلاحَ من فارغي الأيدي وأهلِ الخِصاصةِ المُعَدِّمينِ
كَمْ وَجَدنا الكِسادَ مِنْ خازِنِ المالِ وأهلِ الأهواءِ والمُتشرِّفينِ
هُمُ يَضيقونَ بالعدالةِ في الأرضِ ليقضُوا حياتَهُم ناعمينِ
لا يخافونَ في المَصيرِ حساباً بَلْ يخافونَ غُضَبَةَ الثَّائرينِ

يأكلون التِراثَ جَمعاً وبُخْلاً تُمَّ هم يأكلونَ خُبْزَ الأجيرِ
وتزيد المأساةَ رُغْباً وهولاً عندما يَسْرِقونَ حقَّ الفقيرِ
يقفُ العاملُ المُسِنَّ^(٢) لديهم خاشعَ الطَّرْفِ خافِضَ التَّعبيرِ
يصلُ الليلُ بالنَّهارِ أنيناً دُونَ جَدوى^(٣) في بؤسِ عيشِ مريرِ

ليس في بيتِه الرغيفُ ولا يَشْتُرُ مِنْ عُزِيهِ سوى الأسمالِ^(٤)
يبتني القُضْرَ وهو يَلْتَمِسُ الأكوأخَ بين الرُّبوعِ والأطلالِ

(١) يَزْكُو به : يزيد به .

(٢) المُسِنَّ : كبير السن .

(٣) دُونَ جَدوى : دون فائدة .

(٤) الأسمال : الأثواب الخَلِقة البالية .

نال ربح الدَّارين من جَعَلَ المَالَ سبيلاً إلى كريمِ الفِعالِ
هم حيارى لا يَنْظرون بنورِ الله بل يَنْظرون رأسَ المالِ

يستوي الحلُّ والحرامُ لدى القَوْمِ وأين الدُّجى مِنَ الأنوارِ
فأساليهُم مخادعة الخلق وتعميرهم خرابُ الدِّيَارِ
دولةٌ تعتدي على دولةٍ ظلماً وقطرٍ يبغي على أقطارِ
كادحٌ يزرعُ الحقولَ فيأتي غيرُهُ عاجلاً لجَنِي الثمارِ

مِن صميمِ الحياة . من فطرةِ الله ، من القلبِ ، من لقاء الضميرِ
يشرقُ الدِّينُ بالهداية والرُّشد كما يشرقُ الضُّحى بالنُّورِ
فلو أن الحرام يبدو حرماً يَخْجُزُ النَّاسَ عنه وعي الضميرِ
يصبح العدلُ شاملاً كلَّ أرضٍ في الحياة الدُّنيا ليومِ النُّشورِ

حكمةُ الدِّين أن تُسَلِّمَ للشَّرعِ وترضى بكلِّ حكمٍ قَضَاهُ
مِن ضميرِ الرِّسولِ أينع هذا الدِّين في غزيبه وطابَ جناهُ
إنَّ هجر الحبيبِ يستلبُ اللبَّ ويُذكي في القلبِ نارَ جَواهٍ
لو أزيل الحِجَاب لم تبقَ حياً خلُّ أمر الوصالِ واطلبِ رضاهُ

عِشْ بأحكامه تَرَّ العيشَ صفواً ورخاءاً أو نضرةً ونعيماً
وأطع أمراً تُطغىك البرايا وترى الأمنَ حيثَ كُنْتَ مُقيماً
قد حباك الإله أحسنَ تقويمٍ لتحيا خلقاً سوياً كريماً
إنَّ إزث^(١) الخليل إيمانه الصادقُ فاحفظ ميراثَ إبراهيم

(١) إزث : الميراث أو الأمر القديم توارثه الآخرُ عن الأول ، كما جاء في الحديث : =

كُلُّ قَلْبٍ لَه مِنْ الْحَقِّ نَوْرٌ وَلَه مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ نَصِيبٌ
 لَا يُشَابُّ الْيَقِينُ^(١) مِنْهُ بَرِيبٌ وَهُوَ مِنْ جَبْرِيلَ الْأَمِينِ قَرِيبٌ
 يَا مَقِيمًا فِي حُجْرَةِ الدَّاءِ رَ يَتْلُو وَهُوَ عَمَّا يَتْلُوهُ نَاءُ
 فَمُ وَأَنْذِرْ بِهِ الْخَلَائِقَ طَرًّا تَجِدِ الْكُونَ كُلَّهُ يَسْتَجِيبُ

وَتَقَبَّلْ أَوْامِرَ الدِّينِ بِالرَّغْبَةِ وَالشَّوْقِ وَالرِّضَا كُلِّ وَقْتٍ وَأَنْ
 كَبَلٌ فَرَضِ تَقْضِيهِ جَبْرًا وَقَهْرًا لَا تَرَى فِيهِ نَشْوَةَ الْإِيمَانِ
 حِكْمَةُ الدِّينِ فِي الْعَدَالَةِ وَالْحَبِّ لَيْسَتْ فِي الْبُغْضِ وَالطُّغْيَانِ
 وَبَأَنَّ لَا يَحْتَاجُ فِي الْأَرْضِ إِنْسَانٌ لِيَحْظَى بِالرِّزْقِ مِنْ إِنْسَانٍ

قَدْ خَبَزَتْ الدُّعَاءُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَالْمُدَّعِينَ لِلْإِلَهَامِ
 أَطْفَؤُوا جَذْوَةَ الْإِرَادَةِ فِي الشَّعْبِ وَزَادُوهُ حَيْرَةً فِي الظُّلَامِ
 وَأَصَاغُوا التَّأْوِيلَ فِي كُلِّ نَصٍّ حِيلَةً لِلْغِنَى وَجَمَعَ الحُطَامِ
 لَا أَرَى فِي مَنْابِرِ الْقَوْمِ إِلَّا سَلَّةَ الْكَعْكَ أَوْ خِوَانَ الطَّعَامِ

كَمْ أَطَالُوا الْجِدَالَ فِي الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَأَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي الْمِرَاءِ
 أَيُّ بَابٍ مِنَ الْهَدَايَةِ يُرْجَى مِنْ كَلِيمٍ^(٢) بَلَا يَدٍ بِيضَاءِ
 أَيُّ أَمْرٍ يَفِيدُهُ مِنْ كَلَامٍ فِي صَبَاحٍ مُرَدِّدٍ وَمَسَاءِ
 صَاحِبِ الْحَقِّ أَنْتَ فَاطْلِبِهِ بِالسَّغْيِ وَلَا تَنْتَظِرْهُ بِالْإِعْطَاءِ

= « إِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » .

(١) لَا يُشَابُّ : لَا يَخْتَلِطُ .

(٢) كَلِيمٍ : يَرِيدُ بِهِ الشَّاعِرُ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

دمعة على افتراق

الشعب في شبه القارة

نظم إقبال هذا المثنوي في العهد الأخير من حياته سنة ١٩٣٦ ميلادية ، وكانت عوامل الفرقة قد بلغت حدّتها ، وضعف الأمل في جمع الصفوف بعد أن قامت وخذةً وقتية بين الهنادك والمسلمين تعمل على إبعاد المستعمر البريطاني الذي حلّ منذ سنين طويلة في شبه القارة ، وإجلائه عن البلاد ، إلا أنّ المستعمر لم يفقد أمله الدائب في بث عوامل الفرقة بينهم ، كما حدث منه أدوار متعددة من تاريخ كفاح البلاد من أجل الحرية .

كان المستعمرون الإنجليز يثيرون حرباً ضروساً بين طوائف الشعب باسم الدّين تارةً وباسم اللغة تارةً أخرى ، يحرضون فرقة مسلمة على أخرى ، وجماعة الشيخ على جماعة المسلمين ، ويطلقون في حربهم أيدي السّفاكين على الأبرياء الآمنين ، ويزجون بالمجاهدين في أعماق السجون والمعتقلات ، جرياً على معهود سياستهم (فرق تسد) .

وقد نظم إقبال هذه القصيدة من كتابه (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق) في ظروف ما قبل التقسيم . ولكنّ المسلمين فيما بعد كانوا قد وصلوا إلى حالة وجدوا فيها أنفسهم مضطرين إلى توحيد جبهتهم للمطالبة بالتقسيم الذي انتهى إلى قيام باكستان دولة مستقلة على مسرح التاريخ حفاظاً على كيان المسلمين وحقوقهم المشروعة .

وتعد هذه القصيدة من أجمل القصائد في مثنوي إقبال ، رغم ما حوته من بعض المبالغات ، وفيها يحضّ المسلمين على ثورة عارمة بأسلوب دينيّ مثير ، وأن تكون لهم القلوب الواعية ، والآمال النابضة بمعاني الحرية والانطلاق .

يوجه إقبال خطابه إلى جميع سكان شبه القارة الهندية قائلاً :

همالايَا ونهرَ الكنجِ إنِّي أرى صُورَ الحياةِ بِغَيْرِ معنى
فلم أدركْ لها في الذوقِ رأياً ولم أعرفْ لها في الحسنِّ لونا

شعوبُ الشَّرْقِ والغربِ استقلَّتْ وضاقَ بنا على الأرضِ الفضاءُ
فلأغيارِ ثروتنا متاعاً وَمِن لِبَنَاتِنَا لَهُمُ الْبِنَاءُ

وأيُن حياتنا والغَيْرُ فيها يَصُولُ كما يشاءُ ويستطيلُ
وليس النَّوْمُ ما صِرْنَا إليه فذاك الموتُ لا النَّوْمُ الثَّقِيلُ

وإنَّ بذورَ هذا الموتِ جاءتِ من الأعماقِ مُنْذُ الْإِبْتِدَاءِ
وَمُنْذُ الْمَهْدِ كانَ القومُ صَزَعَى^(١) وهذا الموتُ ليس من السَّماءِ

وليس فقيدُ هذا الموتِ أهلاً لَغُسْلٍ أو لَقَبْرِ أو بُكَاءِ
ولا شقُّ الثَّيابِ عليه حزنأً ولا سعيِ الوفودِ إلى عَزاءِ

جهنمُه سوى ما قد عرفنا فليسَ لها إلى الفَلَكِ انتسابُ
ويومُ حسابِ كلِّ الخلقِ يأتي بلا عملٍ فليس له حِسَابُ

حصادُ الزَّارعينِ غداً وهذا بلا زرعٍ فمن أين الحَصَادُ
ومدَّةُ عمره في الدَّهرِ يومٌ وكلُّ حياتِه يومٌ مُعَادُ

(١) صَزَعَى ، جمع الصَّرِيح : وهو المصروع . يقال : بات صريع الكأس - والمجون .

وأية أمة ترجو الأمانى بلا جهدي وتمضي في ركود^(١)
يكون مصيرها عدماً ومحواً وينسى نقشها سفر الوجود

وكم فتني تمادي^(٢) الغرب فيها وأحكم حولها السخر المينا
فما أبقى على الكفار كفراً ولا أبقى لأهل الدين دينا

وأغطش ليلها الداجي^(٣) ظلاماً فما تدري الشراب من السراب
هي الغمرات ما منها نجاةً ولا حلٌ بغير الانقلاب

فيا من هام بالدنيا متاعاً وأصبح همُّه شعباً ورياً^(٤)
تطلبُ في حضور الحق قلباً وفيأ صادق الإيمان حياً

فهذا القلبُ للدنيا سراجٌ له أممُ الخليفة في انتظار
وهذا القلبُ مغدنه ترابٌ وجوهه فريدٌ في الدراري^(٥)

يفوق السبعة الأفلاك قدراً بهمته ولا يألورقياً

(١) الركود : الهدوء ، والسكون .

(٢) تمادي : ليج ودام عليه .

(٣) ليلها الداجي ، أي : حالك .

(٤) رياً : مصدر روي ، أي : شرب .

(٥) الدراري ، جمع الدرّي : نسبة إلى الدر في حسنه وبهانه .

يَقِيمُ عَلَى الثَّرَى وَلَهُ أَمَانٌ إِلَى الْعِلْيَاءِ أَدْنَاهَا الثَّرِيًّا^(١)

وَفِي حَرْبِ ضَرُوسٍ^(٢) كُلَّ حِينٍ مَعَ التَّارِيخِ مُتَّصِلِ النَّضَالِ
بِضَرْبَتِهِ الْجِبَالُ تَصِيرُ عَنْهَا وَتُرْهَبُهُ الضَّرَاغِمُ فِي الْجِبَالِ

تَرَى لِشَعُورِهِ الْمَشْبُوبِ نَاراً تُوَقَّدُ مِنْ حَرَارَتِهَا ذُكَاءً
لَهُ مِمَّا سِوَى التَّنُورِ خَبْزٌ وَمِنْ غَيْرِ الطَّعَامِ لَهُ غِذَاءٌ

حَضُورُ الْحَقِّ يَمَلُؤُهُ يَقِيناً فَمِنْهُ الْخَوْفُ مَخْضاً وَالرَّجَاءُ
شُهُودُ الْحَقِّ إِنْ هُوَ غَابَ عَنْهُ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الدُّنْيَا بَقَاءُ

طَيْفِ الْجَلُوتِ وَالْخَلُوتِ طُرّاً يَضِيءُ الْكُؤْنَ بِالرَّأْيِ الْمُنِيرِ
وَمَالِ الْعِشْقِ فِي سُكْرِ وَصَحْوِ دَلِيلٌ غَيْرَ أَوَابٍ فَقَيْرِ

فصاحب من له قلب عظيمٌ لعلك تدرك الأمر العظيم
ولدت على مهاد الذلّ عبداً فجاهد ثم مت حراً كريماً

(١) الثَّرِيًّا : مجموعة من النجوم .

(٢) حَرْبِ ضَرُوسٍ ، أي : شديدة مهلكة .

السِّيَاسَةُ الْحَاضِرَةُ

إنَّ إقبالاً كشف الأقنعة المزيفة عن وَجْه السِّيَاسَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَوَجَّه أُمَّم الشَّرْقِ إِلَى تَجَنُّبِ أَحْطَارِ دَوْلِ الْعَرَبِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَقَدَّمَ حَقَائِقَ وَصُوراً عَنِ التَّدَهُّورِ الْخُلُقِيِّ فِي قَادَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُوجَّهِينَ لَشُعُوبِهِمْ لِاسْتِيْمَا فِي شِبْهِ الْقَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ الَّتِي كَتَبَ عَلَى أَرْضِهَا هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ الْكَبِيرَى قَبْلَ الْإِسْتِقْلَالِ . وَمِنْ أَرْوَعِ مَا نَشْهَدُهُ مِنْ رَوَائِعِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ ذَلِكَ الْإِسْتِدْرَاكُ الْعَجِيبُ الَّذِي صَرَّحَ فِيهِ إِقْبَالٌ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُسْتَعْبَدَ الذَّلِيلَ يَكَادُ يَفْقَدُ حَقَّهُ فِي أَنْ يَذَكَرَ اسْمَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى لِسَانِهِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَالْمَحْ إِلَى الْحَالَةِ الْمَوْسُفَةِ الَّتِي شَهِدَهَا فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَلا سِيَمَا فِي شِبْهِ الْقَارَّةِ ، وَبَيَّنَّ بِجَلَاءٍ أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ وَالذُّلَّةَ لَا تَلْتَقِيَانِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فِي قَلْبِ إِنْسَانٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يَقُولُ إِقْبَالٌ :

صَوَّرَ الْغَاصِبُ عَدْلًا ظَلَمَهُ مَا هُوَ التَّفْسِيرُ لِلْعَدْلِ الْجَدِيدِ
زَادَ فِي التَّحْرِيرِ مَعْنَى أَنَّهُ يُخَكِّمُ الْقَيْدَ لِتَحْرِيرِ الْعَبِيدِ

قَالَ لِلطَّيْرِ إِذَا رُمْتَ الْأَمَانَ فَاتَّخِذْ فِي مَنْزِلِ الصَّيَادِ وَكُرَا
لَيْسَ فِي الْأَجْوَاءِ لِلطَّيْرِ مَكَانٌ لَا وَلَا تَأْمَنُ فِي الصَّحْرَاءِ نَسْرَا

حِينَ يَلْقَى الْحَبَّ فِي أَشْرَاكِهِ يَسْقُطُ الطَّيْرُ وَيَهْوِي ثَمَلًا^(١)
وَيَغِيبُ الرُّشْدُ عَنِ إِذْرَاكِهِ سَاعَةً يَفْقَدُ فِيهَا الْأَمَلَا

سَدَّدِ الرَّأْيَ وَحَاذِرْ كَيْدَهُ كُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ زُورٌ وَمَيْنٌ^(٢)

(١) الثمل : النشوان من السكر .

(٢) المين : الكذب .

إِنْ سَقَاكَ الْمَاءَ فَاتْرُكْ وَزِدْهُ وَلْتُمُتْ ظَمَانَ حُرّاً كَالْحُسَيْنِ

لَا تُصَدِّقْ مِنْهُ مَا تَسْمَعُهُ فَهُوَ تَخْدِيرٌ مَبِيدٌ لِلْبَشَرِ
وَاحْذَرِ الْكُخْلَ الَّذِي يَصْنَعُهُ إِنَّهُ الْكُخْلُ الَّذِي يُعْمِي الْبَصَرَ

ضَاقَ صَدْرِي بِأَمِيرِ الْقَافِلَةِ لَيْسَ فِيهِ وَمُضَّةٌ^(١) مِنْ لَا إِلَهَ
عَابِدُ الْمَالِ يَحِبُّ الْعَاجِلَةَ عَبْدُ جَسَمٍ عَبْدُ نَفْسٍ عَبْدُ جَاهِ

كَانَ بِالتَّوْحِيدِ مَرْفُوعَ الْعِلْمِ يَنْشُدُ الْمَجْدَ طَرِيفاً وَتَلِيداً
ذَلِكَ الْمَوْلُودُ فِي ظِلِّ الْحَرَمِ مَا لَهُ أَضْبَحَ لِلْغَيْرِ مُرِيداً

أَيُّنَ مَنْ كَانَ بِهِمْ يَسْتَرْشِدُ كُلُّ مَرْتَابٍ فِيحْظَى بِالْيَقِينِ
وَتَرَى الْأَرْضَ إِذَا مَا سَجَدُوا رُزِلَتْ مِنْ جَبَّهَاتِ السَّاجِدِينَ

فِي دَوِيِّ الْهَوْلِ كَانُوا يُعْلِنُونَ تَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ تَوْجِيدُ الْإِلَهِ
بِمِدَادِ مَنْ دُمَاءٌ يَكْتَبُونَ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَا نَخْشَى سِوَاهُ

أَيُّنَ ذَاكَ الشَّوْقُ وَالْقَلْبُ الصَّبُورُ وَمَرَايَا الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ
قَدْ طَوَّنَهَا فِي تَوَالِيهَا الْعُصُورُ وَتَوَارَتْ فِي اللَّيَالِي الْخَالِيَاتِ

(١) وَمُضَّةٌ : لَمْعَةٌ خَفِيفَةٌ .

قَدْ بَلَّوْتُ الرِّقَّ^(١) مُنْذُ الْإِبْتِدَاءِ لَمْ يَكُنْ مَهْدِي فِي أَرْضِ الْحَرَمِ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ يَغْرُونِي الْحَيَاءُ^(٢) حِينَ يَدْعُو بِاسْمِهِ الْغَالِي فَمِي

لَكَ قَلْبٌ وَمَعَ الْقَلْبِ ضَمِيرٌ أَمْ غَدَا صَدْرُكَ لِلْأَصْنَامِ دَيْرًا^(٣)
أَنْتَ لِلْغَاصِبِ مُحْكُومٌ أَسِيرٌ تَحْتَ حُكْمِ الْغَيْرِ لَنْ تَصْنَعَ خَيْرًا

تَدَّعِي الْحُبَّ لِخَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْذَبُ الْأَقْوَالِ مَا لَمْ يَبْدُ فِعْلًا
وَإِذْ لَمْ يَتَّبِعِ الْقَوْلَ اقْتِدَاءً لَمْ يَكُنْ لِلْحُبِّ أَوْ لِلْقُرْبِ أَهْلًا

لَذَّةُ الْإِيمَانِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ قَلَّ أَنْ يُذْرِكَهَا عَبْدٌ ذَلِيلٌ
مُسْلِمٌ مُسْتَسْلِمٌ لِلطَّامِعِينَ آزْرِي^(٤) حَادٌّ عَنِ دِينِ الْخَلِيلِ

صَلَوَاتُ الْحَرِّ بَعَثٌ لِلشُّعُورِ فَهِيَ مِغْرَاجٌ إِلَى الْعَيْشِ الْكَرِيمِ
وَصَلَاةُ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ حُضُورِ عَادَةٌ جَوْفَاءُ فِي رَسْمِ قَدِيمِ

إِنَّ لِلْأَحْرَارِ فِي الْعِيدِ السَّعِيدِ مَظْهَرُ الْعِزَّةِ فِي دُنْيَا وَدِينِ
وَلَدَى الْأَسْرَى وَفِي عَيْشِ الْعَبِيدِ يُضْبِحُ الْعِيدُ هَجْوَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) الرِّقُّ : العُبودِيَّةُ .

(٢) يعروني الحياءُ : يُصيبني الحياءُ .

(٣) دَيْرًا ، مصدر من دَارَ يَدُورُ ، أَي : طَافَ حَوْلَهُ .

(٤) آزْرِي : نسبة إلى آزر والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إلى الأمة العربية

خَصَّصَ محمد إقبال قصيدةً من أبداع قصائده للحديث مع الأمة العربية ، ليسجل فيها فضلها وسبقها في حمل الرسالة الإسلامية ، والأخذ بيد الإنسانية ، وافتتاحها لتاريخ جديد وفجر سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدها نهضة هذه الأمة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسلُ على عادته النفسَ على سجيته ، ويعطي القلب والعاطفة زمامه ، ويسترسلُ في الحديث ، فيقول :

« أيتها الأمة العربية ! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، مَنْ الذي سَمِعَ العالم منه نداء « لا قيصر ولا كسرى » لأول مرة في التاريخ^(١) ، ومن الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن ؟ مَنْ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد ، فنادى بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فئاتٌ مائدتكم ، وهل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْمُ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] إلا وصف حالكم ، إِنَّ نَفْسَ ذَلِكَ الأُمِّي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو ، فأنبئت الأزهار والرياحين ، إِنَّ الحرية نشأت في أحضانه ، وَإِنَّ حاضِرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسه ، إِنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح ، فأعطاه القلب والروح ، وكشف اللثام عن جمال وجهه ، إِنَّهُ حَطَمَ كُلَّ صنمٍ قديم ، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان

(١) يشير إلى الحديث المشهور : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادةً مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارةً يدوي الأذان في ساحة الحرب ، وتارةً يتجلى الأذان بقراءة « الصافات »^(١) بين صليل السيوفِ وصهيل الخيول ، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة .

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإنَّ ذكرَ جلال الدين الرومي ، وفكرَ فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إنَّ العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسةً من نوره ، وليست « الحمراء » في غرناطة ، وقصر « التاج » في آكره^(٢) ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزاهدين ، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته ، ومظهرًا من مظاهر عبقرية أمته ، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سموِّ ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبار العارفين .

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب ، وقبضةً من أشلاء وعظام ، لا يدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء .

يذكر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همَّ لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مثلهم كمثل السيف المفلول يترأى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له طَبَّة فهو لا يُنتفعُ به ، فيقول الشاعر :

(١) يشير إلى سورة الصافات .

(٢) يعني « التاج محل » الذي بناه الإمبراطور المغولي « شاه جهان » ، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد .

« أيها العرب قد منَّ الله عليكم ؛ إذ جعلكم مثل السيف البتار أو أحدَّ منه ، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من مالكي أعتَّها ، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم ، وهنالك دوت تكبيراتكم وصلواتكم ، وزمزت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافقين ، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلك المغامرات ، وما أجمل تلك الغزوات . »

وبعدما يمدحهم الشَّاعر ، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية ، وغضبَتهم المضرية في الله ورسوله ، ويبيدي فرحَه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفُرقة بعد الوَحدة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدَّمت وسبقت ! أما أنتم فما قدَّرْتُم قدَّرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمةً واحدةً ، أمةً الإسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم جمعكم ، ومزقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسكم . »

اعلموا أيها السادة ! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ، ومُحي من الوجود ، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفَّل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشقاء ، والطَّرْد والجلاء ، ألا إنه لم يجنِ عدوُّ على عدوِّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يُسء أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمتكم ، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألِّمة متوجَّعة شاكِبةٌ مستغيثةٌ . »

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ، وحبائل

منصوبة ، وهو شديد المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ، ودرّسهم وخبّرهم ، فهو يتألّم إذ يرى في الأمة العربية من يُحسن الظنّ بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفضّ المشكلات ، فيرسل صيحته ، وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إياكم والركونَ إلى الإفرنج ، والاعتمادَ عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلةَ لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إنّ حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سلبية حزينّة لا تملك شيئاً ، إنّها مزقت وخذت العرب ، واقتسمت تراثهم ، إنّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكّر لهم كلُّ شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يحدوا من يرثي لهم ، ويرفّق بهم ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وضاعت عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذّر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم يُقبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« إنّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزال فيكم الشرارةُ كامنةً ، فقوموا أيها العرب ! وردّوا فيكم روحَ عمر بن الخطاب مرّةً أخرى ، إنّ منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمانةً للسرّ الإلهي ، فيا عمارَ البادية ! أنتم الحراسُ للدين ، وأمناءُ الله في العالمين .

إنّ غريزتكم العربية الإسلامية ميزانٌ للخير والشرّ ، وأنتم ورثةُ الأرض ، إذا تألّق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجومُ الآخرين ، وطوّي بساطهم ، لن تسعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة ، وأقوى من السّيل ، حتى تُسرّع ركائبكم في مضمار الحياة ، وتسبق الريح .

ليت شعري ! مَنْ خَلَّفَكُمْ فِي الْحَيَاةِ ؟ إِنَّ الْعَصْرَ الْحَاضِرَ وَلِيدُ نَشَاطِكُمْ ،
وكفاحكم ، وصنيعُ جهادِكُمْ ودعوتِكُمْ ، وما زلتم سادته ، وولاته حتى أَفَلَّتْ
زمامه منكم ، فتنبأه الغربُ وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فَقَدَ هذا العصر وهذا
المجتمعُ الإنسانيُّ شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، نائراً على
الدين .

فيا رجلَ البادية ! ويا سيّدَ الصَّحراء ! عُدْ إِلَى قَوَّتِكَ وَعِزَّتِكَ ، وامتلك ناصية
الأيام ، وخذ عِنانَ التاريخ ، وخذ قافلةَ البشرية إلى الغاية المثلى .

وهنا نبذةٌ أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ ضياعَ الأمة
الإسلامية ، وانطفاءَ شعله الحياة والإيمان في نفوس العرب ، ويشكو وَخَدَّتُهُ
وغربته في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد ، ويناجيه مناجاةً من قام بين
يديه ، وأذِنَ له في الكلام ، ويقول :

« لَقَدْ تَشَتَّتَ شَمْلُ أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ ! يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِلَى أَيْنَ يَلْجَأُ الْمُسْلِمُ
الْحَزِينُ ، وَإِلَى مَنْ يَأْوِي ؟ لَقَدْ سَكَنَ بَحْرَ الْعَرَبِ الْمَضْطَرِبَ الْمَائِجَ ، وَفَقَدَتِ
الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ ذَلِكَ اللَّوْعَ ، وَذَلِكَ الْقَلْقَ ، الَّذِي عُرِفَتْ بِهِ ، فَإِلَى مَنْ أَشْكُو أَلْمِي ،
وَأَيْنَ أَجِدُ مَنْ يَسَاعِدُنِي عَلَى آلامِي وَأَحْزَانِي ؟ وَمَاذَا يَفْعَلُ حَادِي أُمَّتِكَ ، وَكَيْفَ
يَقْطَعُ الطَّرِيقَ الشَّاسِعَ ، وَيَطْوِي السَّفَرَ الْبَعِيدَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ وَالْمَهَامِهِ ، وَقَدْ ضَلَّ
سَبِيلَهُ ، وَفَقَدَ زَادَهُ ، وَانْقَطَعَ عَنِ الرِّكْبِ ، بِاللَّهِ ! قُلْ لِي مَاذَا يَصْنَعُ حَامِلُ
دَعْوَتِكَ ، الْمُؤْمِنُ بِرِسَالَتِكَ ، وَأَيْنَ يَجِدُ زَمَلَاءَهُ وَرُفَقَتَهُ ؟ » .

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرون إلى الأوربيين الإنجليز
والأمريكيين كأصدقاءٍ مخلصين ، وأعوانٍ مُتجددين يحلُّون لهم مشكلةَ
اللاجئين ، ويردُّون إليهم أرضَ فلسطين ، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود
ونفوذهم السياسيِّ والاقتصاديِّ والصحافيِّ ، يقول :

« أَنَا أَعْلَمُ جَيْدًا يَا إِخْوَتِي الْعَرَبُ ! أَنَّ النَّارَ الَّتِي شَعَلَتْ الزَّمَانَ ، وَبَهَرَتْ

التاريخ ، لم تزل ولا تزال تشتعلُ في وجودكم ، صدّقوا أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ، ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أنّ اليهود لا يزالون يتحكّمون في سياسة أوربة ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إنّ الأمم لا تذوقُ طعم الحرية والاستقلال حتى تربى فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرفُ لذة الظهور .

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلطّف واعتذار :

« معذرةٌ يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهندي^(١) أن يخاطبكم ، ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندي ، ونصيحةٌ للعرب ؟ إنكم كنتم يا معشر العرب ! أسبقُ الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدّين ، وإنه لا يتمُّ الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاع عن « أبي لهب » ، وإنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطّاغوت ، كذلك لا تتمُّ الفِكرَةُ الإسلاميّة إلا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إنّ العالم العربيّ أيها السادة ! لا يتكوّن ، ولا يظهر إلى الوجود بالشغور والحدود ، وإنما يقومُ على أساس هذا الدّين الإسلاميّ وعلى الصلة بمحمد ﷺ »^(٢) .

وإليك هذه القصيدة المُصاغة شعراً بالعربية ، يقول إقبال :

شعبَ العُروبةِ والمجدِ المؤنَّثِ^(٣) في بدوٍ وفي حَضْرٍ حتّى ضُحى المحشرِ
مَنْ الَّذِي حَرَّرَ الدُّنْيَا لخالقها وأسمَعَ الخلقَ لا كِسْرَى ولا قَيْصَرَ

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ١٢٤ - ١٣٥ .

(٣) المؤنَّثِ : المبني الأصيل .

من قبلكم أبلغ الآياتِ ناطقةً بوحى من خلق الدنيا وسواها
من غيركم رفع المِصباحِ مؤتلقاً ووحد الخلقَ لما وحد الله

لم يطعم الناسُ إلا في موائدكم علماً شهياً وتهذيباً وعِزفانا
في شأنكم أرسل الله الكتابَ فأصد سبحتم بنعمته في الخيرِ إخوانا

من حوّل البيدَ روضاً والحصى دُرراً وأنبت الوردَ في الصحراءِ للعربِ
أستغفرُ الله ما غيرُ النبيِّ بها أغنت مكارمه فيها عن الشُّحْبِ^(١)

فكلُّ معبودٍ قديمٍ في الشعوبِ هوى بعزمه ساجداً لله إكبارا
وكلُّ غصنٍ هشيمٍ من نداه غدا يُجددُ الحُسنَ أوراقاً ونوَّارا

واهاً لها جذبات طالما حَفَزَتْ منّا الخطأ وأثارت للعلا همما
قد أبدلتنا الليالي من سعادتها ياساً مريراً ومن أنوارها ظلماً

كلُّ الشعوبِ أعدت من مواردها حِصْنَ الرِّخاءِ وصارت للمنى قَدَما
وملء صحرائكم لو تعلمون غنى وثورةً وكنوزٌ تُغديقُ النِّعما

كيف انقضى حفلكم وانفضَّ سامركم^(٢) وكان بالأمس مثل العَقْدِ منتظما

(١) سُحْب ، جمع السحاب : هو الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن .

(٢) سَامِر : هو من يتحدث مع زميله في الليل .

تَوَحَّدَتْ مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ أُمَّتُكُمْ مَا بِأَلْهَا انْقَسَمَتْ فِي أَرْضِكُمْ أُمَّمَا

قَدْ خَادَعْتَكُمْ مِنَ الْمُسْتَعْمِرِينَ يَدٌ سُمُّ الْعِقَارِبِ فِي أَكْمَامِهَا اسْتَتَرَا
كَمْ أَهْدَرُوا مِنْ شُعُوبٍ آدَمِيَّتَهَا كَمْ أَيْقَظُوا فِتْنًا ، كَمْ أَفْسَدُوا فِطْرَا

تَوَارَتْ الْعَرَبُ الْأَحْرَارُ وَخَدَّتْهُمْ مَدَى عَصُورٍ وَأَجْيَالٍ وَأَزْمَانِ
حَتَّى إِذَا جَاءَ الْاسْتِعْمَارُ قَسَمَهَا إِلَى شُعُوبٍ وَأَقْوَامٍ وَأَوْطَانِ

اضْرِبْ خِيَامَكَ فِي دُنْيَا وَجُودِكَ لَا تَقِفْ بِهَا عِنْدَ رَسْمِ الدَّارِ وَالِدَمَنِ (١)
وَادْفَعْ بِنَاقَتِكَ الْمِيدَانَ أَسْبَقُ مِنْ رِيحِ الصَّحَارَى وَأَنْفِذْ وَخْدَةَ الْوَطَنِ

يَا أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ انظُرْ لِعَصْرِكَ فِي دُنْيَا يَفُوزُ بِهَا مِنْ أَحْكَمِ النَّظَرَا
بِالسَّلْمِ بِالْعَدْلِ تَبْنِي مَا تُؤَمِّلُهُ إِنْ شِئْتَ لِلْأَرْضِ عُمرَانًا فَكُنْ عُمرَا

تُعَادُ هُنَا نَفْسُ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ فِي صِيَاغَةٍ أُخْرَى ، يَقُولُ :

(١)

أُمَّةَ الصَّحْرَاءِ يَا شَغَبَ الْخُلُودِ مَنْ سِوَاكُمْ حَلَّ أَغْلَالَ الْوَرَى
أَيُّ دَاعٍ قَبْلَكُمْ فِي ذَا الْوُجُودِ صَاحٍ لَا كَسْرَى هُنَا لَا قِصْرَا

(١) الدَّمَنِ ، جمع الدَّمْنَةِ : وهي آثار الدَّارِ .

من سواكم في حديثٍ أو قديم
هاتفاً في مسمعِ الكونِ العظيم
أطلعَ القرآنَ صُبْحاً للرَّشادِ
ليسَ غيرَ اللهِ ربّاً للعبادِ

حدُّوني اليومَ عن أيِّ حيوانٍ
يا مصابيحَ التَّأخِي^(٢) والتَّفاني
قدَّمَ الحِكْمَةَ قوتاً للْفِطْنِ^(١)
أنزَلَ اللهُ فأضْبَحْتُمْ لِمَنْ

(٢)

وابلٌ من فيضِ أمِّي اللَّقْبِ
أنبتَ الزَّهْرَ بِصُخْرَاءِ العَرَبِ
الكريمُ الفَزْدُ في كُلِّ الكِرامِ
بل سقى في القَفْرِ بُسْتَانَ الوِثَامِ

يُهْدِي الحَرِّيَّةَ العلياً أنار
يومها الحاضرُ في كلِّ الدِّيَارِ
فهي روضٌ مُونقٌ من غزِيسه
لَمْ يُنْزِ إِلا بِذِكرِ أمْسِه

كلُّ صَدْرٍ من بقايا آدمَ
منَحَ الإنسانَ مُلكَ العَالِمِ
صاغَ فيه لِلْعُلا قلباً جديداً
بَعْدَ ما عَلَّمَهُ النُّهْجَ الرَّشِيدَا

كلُّ ربٍّ غيرَ خلاقِ النَّسَمِ
كلُّ عُضْنٍ كانَ في يَبْسِ العَدَمِ
صارَ من عَزَمَتِهِ تَحْتَ الثَّرَى^(٣)
بِنَدَاه اخْضَرَ حَتَّى أُنْمَرََا

(١) فِطْنٍ : الفهم الذكي .

(٢) التَّأخِي ، مصدر من تَأَخَى فلاناً : اتَّخَذَهُ أَخاً .

(٣) الثَّرَى : التُّراب التُّدِي .

(٣)

لا تسلني الآن عن ثورته إنها ميدان بذرٍ وحنين
في أبي بكرٍ وفي صاحبه في عليٍّ ثمَّ في صبرِ الحسين

سيفُ أيوبَ وتقوى بايزيد فيهما مفتاحُ كنزِ العالمين
أسكرَ الدنيا بجامٍ واحدٍ فحوى الدنيا وضمَّ المشرقين

ها هنا الحكمةُ والدين القويم وهناك الحكمُ للدنيا يُقام
كلُّ قلبٍ فيه للمجدِ الصميم ثورةٌ تعلو به فوق المرام

(٤)

لا تقلُ أين ابتكارُ المسلمين وسلِ الحمراءِ واشهدُ حُسنَ تاج^(١)
دولةً صارَ ملوكُ العالمين نحوها طوعاً يؤدُّون الخراج

دولةٌ تقرأ في آياتها مظهرَ العزةِ والمُلْكِ الحصين
وكنوزُ الحقِّ في طياتها دونها حارتُ قلوبِ العارفين

(١) تاج : يُريد به الشاعر « تاج محل » الذي بناه جهانكير ، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم .

(٥)

أرسل الشُّكْرَ إلى غير انتهاء لِنَبِيِّ اللَّهِ قُدْسِيِّ الْجَنَابِ^(١)
أشعل الإيمان ناراً بالعراء أوقد الثُّور بكفٍّ من تُراب

وجباهُ الله مِنْ عَلَيَّائِهِ عَزْمَةٌ فَلْ بِهَا سَيْفَ الْغَيْرِ
راكبُ النَّاقَةِ فِي صَخْرَائِهِ سَارَ فِيهَا رَاكِباً خَيْلَ الْقَدَرِ

كَبَرُوا لِلَّهِ فِي ظِلِّ الْحُرُوبِ وِصْفُوفاً تَحْتَ ظِلِّ الْمَسْجِدِ
ضَجَّةٌ دَانَتْ لَهُمْ فِيهَا الشُّعُوبُ وَارْتَقَوْا فِيهَا مَكَانَ الْفَرْقَدِ^(٢)

(٦)

وَيِ كَأَنَّ لَمْ تُشْرِقُوا فِي الْكَائِنَاتِ يَهْدِي الْإِيمَانَ وَالنَّهْجَ الرَّشِيدَ
وَنَسِيْتُمْ فِي ظِلَامِ الْحَادِثَاتِ قِيَمَةَ الصَّحْرَاءِ فِي الْعَيْشِ الرَّغِيدِ^(٣)

كُلُّ شَعْبٍ قَامَ بَيْنِي نَهْضَةٌ وَأَرَى بَيْنَانَكُمْ مُنْقَسِمًا
فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كُنْتُمْ أُمَّةً لَهْفَ نَفْسِي كَيْفَ صِرْتُمْ أُمَّةً

-
- (١) الْجَنَابُ : النَّاحِيَةُ .
(٢) الْفَرْقَدُ : نَجْمٌ قَرِيبٌ مِنَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ثَابِتُ الْمَوْقِعِ تَقْرِيْبًا وَلِهَذَا يُهْتَدَى بِهِ . وَهُوَ الْمَسْمُومُ بِـ « النَّجْمِ الْقُطْبِيِّ » .
(٣) الرَّغِيدُ : الْعَيْشُ الطَّيِّبُ الْوَاسِعُ .

كُلُّ مَنْ أَهْمَلَ ذَاتَيْتَهُ فهو أولى النَّاسِ طُرّاً بِالْعَنَاءِ
لَنْ يَرَى فِي الدَّهْرِ قَوْمِيته كَلُّ مَنْ قَلَّدَ عَيْشَ الْغُرَبَاءِ

فَكَّرُوا فِي عَضْرِكُمْ وَاسْتَبَقُوا طَالَمَا كُنْتُمْ جَمَالاً لِلْعَضْرِ
وَامْلُؤُوا الصَّحْرَاءَ عِزْماً وَاخْلُقُوا مِرَّةً أُخْرَى بِهَا رُوحَ عُمَرِ

والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق^(١)

يندّد إقبال في هذه الأبيات بمغامرات الإفرنج ، ومؤامرات الغاصبين ،
وسخريتهم بحقوق الشعوب ، وتمزيقهم للدُّول الصغيرة غنائم فيما بينهم ،
ولكن التطوُّر السَّريع والثورات المتوالية في الشرق والغرب ، غيَّرت الكثير من
الأوضاع التي يشكو منها إقبال ، يقول مخاطباً للأمة العربيَّة - بعد أن وجَّهَ إليها
خطابه - :

تِيسُّ الخلائقُ في الأرض طُراً وقد سامها الغزبُ عَسفاً وَجُوراً^(٢)
فيا أممَ الشَّرْقِ فيمَ التَّواني لقد آن أن يُضْبِحَ الشَّرْقُ حُرّاً

أكادُ أرى ثورةً في التُّفوس تشدُّ الحياةَ إلى المَجدِ جَراً
مضى الليلُ وانجابَ عَهْدُ الظَّلامِ وبَعَدَ الدُّجى يَعْقُبُ الليلَ فَجْراً

وما بَرِحَ الغزبُ يَخْتالُ تِنها^(٣) وَيَخْتَرِفُ الكَيْدَ لِلعَالَمِينَ
لينشَرَ في الكونِ إلحادَهُ وَيُنشِئُ دُنيا على غَيْرِ دِينِ

وَيَسْتَبْطِنُ الدُّثْبُ في جِلدِ شاةٍ بأنيابِهِ العُضْلِ^(٤) خَلْفَ الكَمِينِ

(١) بهذه الجملة وضع إقبال العنوان لهذا الكتاب .

(٢) جُوراً : ظلماً .

(٣) تِنها : ضلالاً .

(٤) العُضْلِ : المعوجة .

أرى مشكلات بني آدم يزيدُ بهم شرُّها كلَّ حين

فَمَا قَدْرُ إِنْسَانٍ هَذَا الْوُجُودِ لَدَيْهِمْ سِوَى هَيْكَلٍ مِنْ تُرَابٍ
تَشَكَّلَ فِي الْخَلْقِ مَاءٌ وَطِيناً وَبِنَائِهِ صَائِرٌ لِلْخَرَابِ

وَقَافِلَةُ الْكَوْنِ ضَلَّتْ خُطَاهَا بِحِكْمَتِهِمْ عَنِ طَرِيقِ الصَّوَابِ
لَأَطْمَاعِهِمْ كُلُّ شَرٍّ مُبَاحٍ وَمَا لِلضَّمِيرِ عَلَيْهِمْ حِسَابِ

وَلِلْحَقِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ دَلِيلٌ وَمِنْ نُورِهِ كُلُّ مَا تُبْصِرُونَ
وَفِي كُلِّ مَعْنَى لَهُ حِكْمَةٌ يَفُوزُ بِأَسْرَارِهَا الْعَارِفُونَ

إِذَا شَهِدُوا آيَةَ اللَّهِ عَاشُوا أَبَاةً عَلَى الضَّمِيمِ^(١) لَا يَزْهَبُونَ
لَقَدْ نَظَرُوا فَاسْتَبَانُوا الْهُدَى بِإِدْرَاكِهِمْ أَفْلا يَنْظُرُونَ

وَلِلْمُؤْمِنِ الْحَرِّ مِنْ رَبِّهِ هُدَى فِي الْحَيَاةِ وَنُورٌ مَبِينٌ
وَفِي قَلْبِهِ لَوْعَةٌ^(٢) وَاشْتِيَاقٌ وَعَظْفٌ عَلَى مِخْنَةِ الْآخِرِينَ

(١) الضَّمِيمُ : الظلم أو الإذلال ونحوهما ، جمعه : ضُيُوم . قال المثقَّب العبدِي :
ونحني على الثغر المخوفِ ونَتَقِي بغارتنا كيدَ العِدَا وضُيُومَهَا
(٢) لَوْعَةٌ : حرقه في القلب وألم يجده الإنسان من حب أو هم أو حزن أو نحو ذلك .

إذا العِلْمُ حَلٌّ بِقَلْبِ الْفَتَى أحلّ به خَشْيَةَ الْمُتَّقِينَ
ويزدادُ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ حَتَّى يردُّ الأمانَ إلى الخائِفينَ

هو العِلْمُ لنا فيه كيميَاءُ إلى قدرةِ اللَّهِ يَهْدِي البَصَرَ
فيا أسفا لَيْسَ لِلْغَرْبِ مِنْهُ سوى حيرةٍ في دياجي الْفِكْرِ

فَلَمْ يُجِبْهُ العِلْمُ عَقْلاً سَوِيًّا يُفَرِّقُ ما بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرٍّ
فلا يَنْبِعُ الطُّلُّ مِنْ جَفْنِهِ وفي صَدْرِهِ قِطْعَةٌ مِنْ حَجَرٍ

فبالعِلْمِ كانَ رَقِيَّ الحِياةِ تضيءُ القُرُونُ به وَالعَصْرُ
فَحَوَّلَهُ الْغَرْبُ سِيفاً رَهِيباً لِمَخْوِ البِوادي وَقَتْلِ الحَضَرِ

تصيرُ الملائكُ لو جَاوَزَتْهُم معاولٌ^(١) هَدمَ لِمَخْوِ البَشَرِ
ولو كانتِ الأَرْضُ جَنَّةً عَدْنٍ لِسُكَّانِها جَعَلَوْها سَقَرِ

غدا مَظْهَرُ العِلْمِ في عَضْرِهِم بَكلِّ الشُّعوبِ خِداً عَاصِراً
معاذَ الحَقيقَةِ ، ما ذاكِ سِخْرٍ لَقَدْ بَدَّلُوا نِعمَةَ اللَّهِ كُفْراً

لَهُمْ فِتْنٌ تَجْعَلُ الوَرْدَ شَوْكاً وتُوقِدُ في رَوْضَةِ الأمانِ جَمراً

(١) المَعاولُ جمع المِغُولِ : آلة من الحديد يُنقر بها الصخر ، ويُهدم بها البيوت .

خُذِ السَّيْفَ مِنْ عُصْبَةِ الْمُعْتَدِينَ إِذَا كُنْتَ تَتَشَدُّ لِلْحَقِّ نَصْرًا

لَقَدْ آَنَّ لِلرُّوحِ أَنْ تَسْتَفِيقَ وَلِلشَّرْقِ أَنْ يَسْتَبِينَ الدَّلِيلَا
لِيَجْعَلَ أَنْقَاشَ هَذَا الْبِنَاءِ عَلَى الظَّالِمِينَ كَثِيبًا مَهِيلاً

إِذَا الْعَقْلُ أذْعَنَ لِلْقَلْبِ حَكْمًا وَإِنْ لَمْ يُجِبْ دَاعِيَ الْقَلْبِ أَضْحَى
رَأَى طَاعَةَ اللَّهِ أَهْدَى سَبِيلَا كِبَابِلِسَ مَكْرًا وَشَرًّا وَيَيْلَا^(١)

يَرَى الْعَرَبَ يَسْتَعْلُ الْبَرَايَا^(٢) كَمَا يَشْتَهِي دُونَ قَيْلٍ وَقَالَ
يَرَى الْآدَمِيِّينَ مِثْلَ الْقَطِيعِ فَهُمْ لَفَمِ الذَّنْبِ رِزْقٌ حَلَالٌ

لَقَدْ حَانَ تَغْيِيرُ دُنْيَا بِهَا نَرَى الْعَدْلَ أَمْرًا بَعِيدَ الْمَنَالِ
وَسُرَّاقِ أَكْفَانِ مَوْتَى الْقُبُورِ عَلَى يَدِهِمْ أَيُّ خَيْرٍ يُنَالُ

صَوَارِي السَّبَاعِ التَّقَتْ فِي جَنيفِ^(٣) لَطْمَسِ الْهُدَى وَالتَّهَامِ الْعِبَادِ
قَدْ اقْتَسَمُوا كُرَّةَ الْأَرْضِ نَهْبًا^(٤) وَهُمْ نَحْوَ تَقْسِيمِهَا فِي اتِّحَادِ

(١) وَيَيْلًا : شديداً .

(٢) بَرَايَا : جمع البرية ، وهي الأرض .

(٣) جَنيف (Geneva) : مدينة في سويسرا .

(٤) نَهْبًا : غصباً .

يقولون هذي بلادي لَكُمْ ونحنُ لنا كلُّ تلك البلاد
هنا ثورةٌ وهنا فتنةٌ بهم نارُها أبدأ في ازدياد

لكَ الأرضُ أم هذه أرضه وأيُّكم في حِمَاها نزيل
بنفسك كن واثقاً مؤمناً وعِشْ كافرأ بالعدوِّ الدَّخِيل

فَمِنْكَ إِلَيْكَ العُلا والهَوَان وَمَجْدُكَ فِي الشَّرْقِ عَالٍ أَصِيل
كرامةٌ أجياله في يديك فأنتَ له أو عَلَيْهِ الدَّلِيل

على قوة الحقِّ تحيا الشعوب وتجتازُ في المَجْدِ حدَّ المَجَال
فلا شعبَ يقوى بلا وَحدةٍ تَضُمُّ الصُّفوفَ لِنيلِ المَعَالِي

ومهما سَمَا الرَّأْيُ إن لم يَقُمْ على قوةٍ فَهوَ زَيْفُ الحَيَالِ
وفي قوةٍ دونَ رأْيٍ جُنُونٌ وَجَهْلٌ وَطِيْشٌ وَعُقْبَى وَبَالٌ

بنا لَيْسَ العِشْقُ ثوبَ الدَّلَالِ وفاضَ على الكونِ طيباً وَحُسْنَا
وفطرةُ آدمَ في كلِّ حَيٍّ رَوَتْهَا الخلائقُ في الدَّهْرِ عَنَّا

تَعَلَّمَتِ الأُمَمُ النَّاهِضَاتُ مَنْ الشَّرْقِ دِيناً وَعِلْماً وَفَنّاً
رفعنا الحِجَابَ عَنِ الكائناتِ فَنَحْنُ مِنَ الشَّمْسِ وَالشَّمْسُ مِنَّا

إِذَا لَاحَ فِي صَدَفِ جَوْهَرٍ فَذَلِكَ مِنْ قَطْرِ نَيْسَانَا
وَإِنَّ هَذَرَ الْمَوْجِ فِي بَحْرِهِ فَذَلِكَ مِنْ قَيْضِ طُوفَانِنَا

حَرَارَةُ شَذُو الْهَزَارِ الطَّرُوبِ عَلَى غُضْنِهِ بَعْضُ نَيْرَانِنَا
سَقَيْنَا دَمَ آدَمَ قَلْبَ السُّورُودِ فَأَهْدَى رَسُولَهُ إِيمَانِنَا

فَتَى الشَّرْقِ أَنْتَ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ فَأُظْهِرُ يَدَ الْعَزْمِ لِلنَّاسِ جَهْرًا
لِتَخْرُجَ بِيضَاءَ مَنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَتُبْطِلَ مَنْ فِتْنَةَ الْغَرْبِ سِحْرًا

عِلَامَ اذْتَبَطَّتْ بِرُزْنَارِهِ وَكَيْفَ اسْتَطَعْتَ عَلَى الْقَيْدِ صَبْرًا
فَوَحَّدَ بِلَادَكَ صَوْبَ الْعُلَا بِإِيمَانِهَا تَلَقَّ عِزًّا وَنَضْرًا

لَقَدْ نَشَرَ الْغَرْبُ أَسْوَاقَهُ وَمَنْ حَوْلِهِ الْجُنْدُ أَقْوَى سِيَاغِ
وَسِلَعْتُهُ شَرَكٌ لِلشُّرَاءِ وَمَتَجَرُّهُ ظِلُّ عَرْشِ وَتَاجِ

لَهُ فِي التِّجَارَةِ رِبْحٌ وَنَفْعٌ وَبِالْحُكْمِ يَأْتِيهِ كَنْزُ الْخِرَاجِ
وَيَلْقَاكَ بِالْكَلِمَاتِ الْعِذَابِ وَفِي قَلْبِهِ الْحِفْدُ خَلْفَ الرِّتَاجِ

فَكُنْ فِي مِتَاجِرِهِ زَاهِدًا فَفِيهَا الْحَسَارَةُ وَالْمَغْرَمُ
نَسِيحُ بِلَادِكَ أَقْوَى خِيوطًا وَقَطْنُكَ مِنْ خَزِّهِ ^(١) أَنْعَمُ

(١) خَزٌّ : نوع من الثياب ينسج من صوف .

جهاز المنايا بدولابه يدور وأنت به أعلم
يميتك بالغش من غير حرب وأنت له الربح والمغرم

إذا جاء يغرّض نقش البساط فدغه وعش راضياً بالحصير
وإن وصلتك به رفعة فلا تعطه بيدقاً^(١) بالوزير

جواهره بهرج^(٢) زائف لجمع النقود ويبيع الضمير
ونافجة^(٣) المسك في سوقه من الكلب لا من غزال غريب

تنبه لهذا الدخيل الذي تفرّ الثعالب من مكبره
ولا تتعمّم بمنسوجه ولا تغمض العين عن غديره

وإما مرزت على حانة تعوذ برؤك من شره
فمن ذاق خمرته لم يعد إلى داره بل إلى قبره

بأصباغه وبألوانه تضل البصيرة قبل البصر
يسلّغته قد غدونا سكارى وصاحبها بالغنى قد سكر

(١) البيدق : الدليل في السفر ، والجندي الراجل . ومنه : بيدق الشطرنج .

(٢) البهرج : الباطل .

(٣) النافجة : وعاء المسك في جسم الظبي .

فَمِنْ جَهْدِ كَسْبِكَ مَا يَجْتَنِيهِ
وَمِنْكَ الْغِذَاءُ مَعاً وَالْكِسَاءُ
وَمَا يَقْتَنِيهِ وَمَا يَدَّخِرُ
لَهُ فِي نَعِيمٍ وَعَيْشٍ نَضِرُ

وَأَنَّ ذَوِي الْفَضْلِ فِي كُلِّ شَعْبٍ
فَهُمْ بِسِوَاعِهِمْ يَعْمَلُونَ
عَلَى مَجْدِ أُمَّتِهِمْ سَاهِرُونَ
وَهُمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ يَزْرَعُونَ

وَمَنْ أَرْضَهُمْ كُلُّ مَا يُتَجُونَ
فِيَا مَنْ غَدَا مُنْكَرَا ذَاتَهُ
وَمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَلْبَسُونَ
إِلَى أَيْنَ يَمْضِي بِكَ الْمَاكِرُونَ

وَكَمْ يَغْتَمَخُصُولَ زَرْعٍ لَهُ
يَعُودُ بِأَضْعَافٍ مَا نَلْتَهُ
رَخِيصاً وَأَنْتَ غَدَا مُشْتَرِيهِ
بِرَبْحٍ سَخِيٍّ لِمُسْتَوْرِدِهِ

كَأَنَّكَ لَمْ تَشَقَّ مِنْ أَجْلِهِ
أَفِي الْبَحْرِ لَوْلَوْهُ
وَلَا كُنْتَ فِي الْأَرْضِ مِنْ زَارِعِيهِ
كَامَنْ وَمَنْ يَدُ غَوَاصِهِ يَشْتَرِيهِ

شكوى ومُنَاجَاة

كان محمد إقبال كثير الاعتداد بالإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأنَّ أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في

بيت :

« إن الفقير المتمرد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلفنا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدة أجنبية ، أو أن يروي غُلته من معين غريبٍ يقول : « رفقا يا رسول الله بفقيرٍ غيورٍ أبيّ النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجنب » .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال^(١) (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتمهور إلى الفكرة الغربية ومثلها وقيَمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتورٍ بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول :

« أشكو إليك يا رسول الله ! هذه الأمة التي تسلط عليها خوفُ الموت ، إنك حطمت الأصنامَ القديمة كاللاتِ ومناة ، وجددت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمدُّ من الشهادة التي لقتته إيَّاهَا الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

(١) اسم مدينة تقع في ولاية « مدهيا برديش » وهي عاصمتها كذلك .

إننا - وإن ولدنا في بلادٍ عريقةٍ في الوثنية - رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأ طيء رؤوسنا أمام الكهّان والسّدنة ، فلم نخزّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نطّف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء . والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على الشُّفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلّ حديثك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبيّةً في الفقر ، عفيفةً في الحاجة ، ولكنّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيّمته .

لقد تجوّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرْتُ بلاد العرب وديار العجم ، فرأيتُ من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان . إنّ الشباب الإسلاميّ قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضماؤهم ، إنهم في شبابهم ناعمون رفاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلاً بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطبقونها .

إنّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النّزعة الدّينية حتى أصبحوا خبير كان ، إنهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز ، أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرة ، فأصبحت الضُّقور التي تحلق في السماء عصفائر صغيرة لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إنّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مُزجاةٌ لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إنّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سرّ الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه « لا غالب إلا الله » ، لقد مات قلبه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكّر إلا في المنام والطعام ، إنه حكّم الغرب في

نفسه ليتلقى منه رغيماً ، وقبل مئة مئة إنسانٍ من أجل بطنٍ واحد ، إنَّ محطّم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنَّه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إنَّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بعثٍ جديد ، وإلى أن نقولَ له مرّةً ثانية : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يَكْتُلُوا عروش كسرى وقیصر ، والعالم ينتظر من جديدٍ نائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسّم هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسی فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العنان ، وقف بي لحظةً أبث إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنَّني في صراعٍ بين سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إنَّ الشوق يقول لي : تَشَجَّعْ وتكلّم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إِيَّاكَ والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكنَّ الشَّوْقَ عصيٌّ نائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زَهَدَ فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت في أحضانك ، إنَّ صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإنَّ اللهب عاد لا يتجاوز صدري ، وإن أنفاسي قد تجرّدت من لوعة القلب ولهب الصدور ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر .

إنَّ الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر كالعاني الأسير ؟ إنه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من عللٍ يعانيتها جسدي وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إليّ من طرف خفي ، إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء الأطفال ، إذا جرّعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى

تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليّ ذلك اليوم الذي فقدته ، إنّ العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأمّ الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنني مع عباد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إنّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضنّ عليّ بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنّ قيمة الجسم بالروح ، وإنّ قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنّ مهمتي أصعبُ وأدقُّ من مهمة « فرهاد » الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أحدّ ، وقوى أشدّ ، حتى أتم مهمّتي ، وأحقّق رغبتني ، إنني مؤمنٌ لا أكفر بشخصيتي ومواهي فضعتني على المسنّ ، فإنني حديدٌ من معدنٍ كريم .

إنني وإن كنت قد ضيّعتُ شبابي ، وأتلفتُ حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه « القلب » ، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافر جوادك الأصيل ، إنّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا ، إنما يتسلّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكرديّ لوعة العرب ، اسمح للهنديّ أن يمثّل بين يديك ، ويتحدّث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاءه ما يعانیه من حزنٍ وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطب في الصحراء مرّ به ركبٌ فأشعل فيه النار ، وأعجلَ الركبَ السّير ، فمضى وخلفه ، وبقي الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمرُّ به ركبٌ

جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة^(١) ؟ .

وإليك هذه القصيدة المصاغة بالعربية شعراً يقول إقبال :

يا رأسَ مالِ البائسينَ ويا مَنْارَ انحاءَ
ادعُ الإلهَ يَهَبْ لأمَّتِكَ : الشجاعةَ واليقينَ

ويعيذُهم من شرِّ خوفِ الموتِ من قَبْلِ المماتِ
الخوفُ يفني اليائسينَ وهم على قيدِ الحياةِ

يا من هَدَمَتِ اللَّاتَ والعُرَى وحرَّرتِ الحَرَمَ
وبنيتِ أعلى أمةٍ تَهدي بِسيرَتِها الأُمَّمَ

ذكرُ الإلهِ وَيَقْظَةُ الوجودانِ في إنسٍ وجانِ
من فيضِ وحيكِ يا صلاةَ الصُّبْحِ يا صوتَ الأذانِ

فحرارةُ الإيمانِ في القلبِ المَشُوقِ إلى النُّضالِ
وسراجُ ليلِ الفِكرِ (لا معبودَ إلا ذو الجلالِ)

لَمْ نَتَّخِذْ في الكونِ ربّاً من رُخامٍ أو حَجَرٍ

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ص ٢٠١-٢٠٦ .

كلا ولم تَسْجُدْ لنجمٍ أو نباتٍ أو بقر

لم نلقِ جبهتنا لدى الكُهَّانِ في ذُلِّ حقير
لم نحنِ هامتنا لسلطانٍ قويٍّ أو أمير

من فيضِ روحِكَ كلُّ هذا الفضلِ والعزِّ المكين
وبناءِ صَرحِ المَجدِ في توحيدِ ربِّ العالمين

ذكراركِ وردُّ سائغٍ يحلو به العيشُ المرير
وبِغَيِّرةِ الإيمانِ صارَ الدِّينُ كنزاً للفقير

يا منتهى كلِّ المنازلِ في طريقِ السَّالِكينِ
يا مَنْ إلى أنوارِهِ تَهْفُو قلوبُ العاشقينِ

قِيَّارَتِي^(١) ثَقَلْتُ وَأَغْيَاها التَّجَاوُبُ والرَّزِينِ
أوتارها لا تستجيبُ إذا عَزَفْتُ ولا تبين

فإذا نصحتُ فإنَّني ناديتُ من لا يسمعون
وإذا نهيتُ فإنَّما أسمعُ من لا يَنْتَهون

(١) القِيَّارة : آلة طرب ذات أوتار .

طَوَّفْتُ فِي أَرْضِ الْأَعَاجِمِ ثُمَّ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ
لَمْ أَلْقَ فِيهَا الْمَصْطَفَى وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَبَا لَهَبٍ

عَجِبِي لِهَذَا الْمُسْلِمِ الْمَزْهُوِّ بِالْعَصْرِ الْمَنِيرِ
لَا هَمَّةٌ تَحْدُو خُطَاهُ وَلَا سِرَاجٌ فِي الضَّمِيرِ

وَأَرَى شَبَاباً وَاهِنَ الْعِزْمَاتِ فِي لَيْنِ الْحَرِيرِ
وُلِدَتْ أَمَانِيهِ فَكَانَ الْمَهْدُ مِصْرَعَهَا الْأَخِيرِ

ذَاكَ الْغُلَامُ بِنُ الْغُلَامِ بِنِ الْغُلَامِ بِنِ الْغُلَامِ
فِي شَرْعِهِ تَحْرِيرُ أُمَّتِهِ مُحَالٌّ أَوْ حَرَامٌ

الِدَّيْنُ لَيْسَ لَهُ بِدُنْيَاهُ زَمَانٌ أَوْ مَكَانٌ
كُلُّ الَّذِي أَذْرِيهِ عَنْهُ أَنَّهُ بِالْأَمْسِ كَانَ

عَنْ ذَاتِهِ أَضْحَى غَرِيباً مُسْتَهَاماً بِالذَّخِيلِ
بِذُلِّ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ ثَمناً لِمَطْعَمِهِ الذَّلِيلِ

كَالطَّيْرِ غَايَتُهُ التَّقَاطُ الْحَبِّ فِي ظِلِّ الْقُصُورِ
هُوَ طَائِرٌ لَكِنَّهُ لَمْ يَذِرْ تَحْلِيْقَ الشُّسُورِ

فَذَابَ فِي نَارِ الْفِرْنَجِ فَمَا لَهُ عَنْهَا مَحِيدٌ^(١)
وَأَتَتْهُ نَارُ جَهَنَّمَ لَكِنَ بِأَسْلُوبِ جَدِيدٍ

هُوَ مُؤْمِنٌ لَكِنَّهُ مِنْ جَنَّةِ الشُّهَدَاءِ هَارِبٌ
لِيَسْتَقَرَّ بِقَلْبِهِ أَنْ (لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ غَالِبٌ)

ذَلِكَ الَّذِي فَقَدَ الْيَقِينَ وَقَلْبُهُ فَقَدَ الْحَيَاةَ
وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَنَامُهُ أَغْلَى مَنَاهِ

وَتَرَاهُ بِالْمِنَنِ الثَّقَالِ مَقِيداً وَمُكَبِّلاً
مَمَّنٌ يَقُولُ : (نَعَمْ) وَمَمَّنٌ لَا يُجِيبُ بِنَعْيٍ (لَا)

فَلْيُضْحُ مِنْ غَفَلَاتِهِ لِيَعُودَ حَيًّا قَلْبُهُ
وَيَعِيشَ فِي أَوْجِ الْكِرَامَةِ هَاتِفاً (اللَّهُ هُوَ)

مَدِينَةُ الْإِفْرَنْجِ مَاضِيَةٌ بِنَا نَحْوِ الزَّوَالِ
قَتَلْتُ مَوَاهِبَنَا بِلَا حَرْبٍ تَدَوُّرٌ وَلَا قِتَالِ

فَاكْشِفْ لِقَوْمِكَ عَنْ كَرِيمِ النَّفْسِ مُتَّقَدَ الْحَيَاةِ
ثَمَلٌ يَحِبُّ اللَّهَ لَا يَزُجُّوْهُ وَلَا يَخْشَى سِوَاهُ

(١) فَمَالَهُ عَنْهَا مَحِيدٌ ، أَي : مَالَهُ مِنْهَا مَفْرُ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ مُسَلِّمٌ فِي ذَاتِهِ شَرَفَ الْمَكَانَةِ
أَخْلِقُ بِهِ فِي الدَّهْرِ أَنْ يَخْتَارَ فِي الدُّنْيَا مَكَانَةَ

أُيْهِدَا الْفَارِسُ الْمِغْوَارُ أَهْلُ فِي الْمَسِيرِ
وَإِحْسَنُ عِنَانِكَ لِمِحَّةٍ تَسْتَقْبِلُ الْقَمَرَ الْمُنِيرِ

أَمَلِي عَلَى شَفَتِي مُخْتَبِسٌ عَنِ النَّطْقِ اخْتَجَبَ
وَالشُّوقُ يَقْتَحِمُ الْمَقَامَ فَلَيْسَ يَحْكُمُهُ الْأَدَبُ

هَذَا يَقُولُ أَبْنُ عَن الشُّكْوَى وَلَا تَكْتُمُ أَسَاكَ
وَيَقُولُ ذَاكَ انظُرْ وَلَا تَهْمَسُ بِحَرْفٍ عَن جَوَاكَ

أَنْتَ الْهَدَايَةُ وَالذَّلِيلُ وَأَنْتَ عِزْفَانِي وَفِكْرِي
وَسَفِينَتِي فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَطُوفَانِي وَبَحْرِي

زَادَتْ بِي الْأَنْثَا وَالْعَبْرَاتُ حَتَّى عَيْلِ صَبْرِي
فَالِي مَتَى هَذَا اللَّهَيْبُ يَظَلُّ مَطْوِيًّا بِصَدْرِي

فَلَمْ يَبْقَ لِلْأَرْوَاحِ فِي شَوْقِ الْعِبَادَةِ مِنْ أَثَرٍ
لَمْ يَبْقَ لَطْفُ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ

قَدْ كُنْتُ يَا شَمْسَ الْخَلِيقَةِ مَنْقُذًا فِي النَّائِبَاتِ

وأبرَّ بالعاصين رفقاَ من قلوب الأمهات

في حَرْبِ عِبَادِ الظَّلامِ أَصَارُغُ الدَّاءِ العِيَاءِ
فامنخ سراجي منك زيتاً قبل ما يخبو الضياء

كلُّ الخمائل^(١) في رياض الكونِ أنتَ ربُّعُها
مِنكَ الفواضِلُ كُلُّها والمكرُماتُ جميعُها

الجِسْمُ في بُنيانه بالروحِ يكتسبُ الحَياءَ
لكن حياةَ الروحِ في قُربِ الحبيبِ وفي رِضاءِ

انظُرْ إليَّ فانتَ بالجدوى وبالإحسانِ أوفى
إن لم أكن بهُداك مِفْتاحاً ، أكن بحماك سيفاً

لي محنةٌ من دُونها قطعُ الصُّخورِ مِنَ الجِبَالِ
فاجعل لفاسي مِنكَ حدّاً ماضياً عِنْدَ النُّضالِ

إن كانَ عُمري قد بدا خِلواً مِنَ المَخْصُولِ جَدْباً
ما زلتُ أملكُ مضغَةً^(٢) يدعونها في الحُبِّ قلباً

(١) الخمائل ، جمع خَمَيْلة : كل موضع كثر فيه الشجر .

(٢) المَضْغَةُ : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره ، لكن هنا يريد بها الشاعر « القلب » .

أخفيته لأكونَ فرداً في هوائكَ وفي رِضَاكَ
وعليه خاتمُ حُبِّكَ الغالي فليسَ به سِوَاكَ

إنَّ الذي لا يبتغي من هذه الدُّنيا متاعاً
إن لم يَنَلْ قُربَ الحبيبِ تكونُ دُنياه ضياعاً

كمَ ذا يُعاني القلبُ من نارِ اللِّواعجِ والشُّجونِ^(١)
ويَتسَّنُّ مِثْلَ النَّايِ بالشُّكوى لِمَن لا يَعْلَمُونَ

قَدْ خَلَفْتُهُ عَلَى رُبَى الصَّخْرَاءِ قَافِلَةٌ الرِّفَاقِ
كَهَشِيمِ غُضَنِ يَضْطَلِي بِالْجَمْرِ فِي نِصْفِ اخْتِرَاقِ

يَزْنُو إِلَى البَيْدَاءِ وَالمُذْنِ الرَّحِيبةِ وَالفَضَاءِ
فَعَسَى تَمَرُّ قَوافِلٍ أُخْرى تُعِيدُ لَهُ الرِّجاءِ

يا مَنْ خَلَعْتَ عَلَى صِلاحِ الدِّينِ حُلَّةَ خالِدِ
فَمَضَى بِعِزِّ دائِمٍ يَبْقَى وَمَجْدِ خالِدِ

(١) الشُّجون : الهموم والأحزان .

الدِّيَّانُ التَّاسِعُ

هَدِيَّةُ الْحِجَازِ
أرمغان حجاز

نَقَلَهُ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور حسين مجيب المصري

نُشِرَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وهو عبارة عن الشعر الفارسيّ والأردويّ معاً ، وهو يتألّف من قسمين ، أولهما يحتوي الرباعيات الفارسية التي ترجمها الدكتور حسين مجيب المصري ، والثاني يحتوي منظومات وقصائد قصيرة باللغة الأردوية ، الذي ترجمه نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، وفيه قصيدة بديعة عنوانها « برلمان إبليس » وصف فيها الشاعر وصوّر جلسة برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ، ووكلاء النظام الإيليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسيّة والعصرية التي تهدّد مهمتهم في العالم ، وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » فحكّم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبُعِدَ نظره الذي لا يُشاركه فيه أحد من تلامذته ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخّص في أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحوّل ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأي أن يركّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه ، وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة (من القسم الثاني) من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسيّة .

وأما القسم الأول المتعلق بالرباعيات الفارسية فهو يحتوي على ثلاثة أبواب ، ومنها الباب الأول يتعلق بالله عز وجل ، وفيه يستنهج سبيل المتصوفة في تضرّعهم إلى الله ومناجاتهم له والإبانة عما تموج به قلوبهم من عشق إلهي هو غاية الغايات في سمو الروحانية . بيد أنه يعارض المتصوفة في تهافتهم على توكلهم واستكانتهم وقطع الأسباب بينهم وبين دنياهم ، ويرى في هذا ما ينافر واقع الحياة ، ويحيد عن القصد ، ويتجافى عن الصواب ، ويصد عن فهم

صريح القرآن . فالمؤمن الموقن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبداً ، وينهض
بالبشرية إلى ذروة المثالية ، ويوائم بين دنياه وآخرته .

وهو يحب الله بقلب صوفيٍّ واصل دلّهُه الشوق والتوق ، فيقول معبراً عن
وجدته وكمده :

هياجُ ماجٍ في ماءٍ وطينٍ بلاءُ العشقِ من قلبِ حزينِ
قَراري برهةً حقاً حرامٍ فرققاً ، شأن قلبي من شؤوني

كما يتشبه بهم بعض الشيء في انصرافهم تمام الانصراف إلى الاستغراق في
عشقِ الذات الإلهية بقطع النظر عن كل ما عداها ، ولا غرو فهم القائلون إنهم
يحبون الله ، ولكن لا رغبةً في الجنة ولا رهبةً من النار ، وهذا هو الحبُّ الحقُّ
بالمعنى الأصحَّ الأدقُّ ، لأنه الروحانية في شفافيتها التي لا تعلق شائبة من
المادية بصفتها :

لي الدارين إنِّي لا أريدُ وحسبي فهم ما روحُ تنفيذِ
فهني سجدتي فيها احتراقي ومنها الكون في وجدٍ يميذ

غير أن إقبالاً حتى وهو في نشوته الروحية الغامرة يعبر عن عاطفته الدافقة
لا ينسى القوم من حوله ، ولا يقتلع نفسه من الناس يموج بهم معترك الحياة ،
فالغيرية مهيمنة عليه وإن استبدت الأنانية بسواه ، لأنه يتفجّع ويتوجّع للخلق وقد
تردّوا في ضلالهم وتحيروا في طريقهم ، وعزّ عليه ألا يذكرهم وهو في مناجاة
ربه ، فجأر بشكواه من حالهم ، داعياً من طرفٍ خفيٍّ بالخير لهم ، بعد أن نصب
نفسه داعية حقٌّ يبيّن لهم ليضع أمرهم في نصابه :

على قومٍ إلهي فلتعنّني كراعِي الضانِ عالمهمُ بفنِّ
رأت عيناي ما يقذي عيوناً ألا يا ليت أُمي لم تليدني

وبعد أن تأذى بمناقص الناس ومعائبهم في رأيه ، كان على ذكر من
الإنسانية ، ولم يفتَهُ أن يجري قولها على لسانه لأنه الجزء الذي لن يتجزأ منها ،

وتكشف عن شخصيته الإيجابية وعبقريته المتفتحة المنطلقة التي طوّعها لخدمتها ، فدعا ربه لها وأمله أن يستجاب ، وتضمن دعاؤه جوهر فكرته وأساس نزعته وملامح كيانه العقلي والروحي وهو يقول :

إلهي زُنْ لنا خيراً وشراً هب الدنيا نعيماً مستمرا
وشاهدنا خلقنا من تراب لنجعل عالم الغبراء نظرا

أما في الباب الثاني من الكتاب فلا يوجه خطاباً ولا دعاءً إلى كائن من كان ، أو على التحديد لا يصرح واضح التصريح بمن يخاطبه كما كان شأنه في الباب الأول . وهو يجنح إلى رمزية حالمة يستشف منها أنه سعى إلى بيت الله حاجاً ، وأن فؤاده مشوق إلى أرض الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وله ولع بوصف سفرته الطويلة ولعله يتأثر في ذلك بشعراء المتصوفة وهم يتمثلون التصوف طريقاً يشكو سالكها من طولها ووعورتها . غير أنه أرق منهم قلباً وأجمل وصفاً وأدق تصويراً في نحو قوله :

مساءً مثل صبحٍ قد تبسّم تمطى صبحها والليلُ أظلم
تمهّل إن خطوت على رمالٍ كقلبي كلها قلبٌ تألم

ويفرغ من تصوير عاطفته ليولّي عقله شطر حال المسلمين ، فلا جرم لقد ذكره مهد الإسلام بها ، فتساءل عن عاقبة أمرهم ورفع كربهم ، وساءل أن يكون للمسلم قلبٌ أفقر من حبيب ، وهو يلتمح بذلك إلى أنّ صلاح حال المسلمين لن يكون إلا بالوقوف عند حدود الدين ، ولزام أن يرقّ قلبهم للتقوى .

غير أنه لا يرتضي من علماء الإسلام إلا أن يمعنوا النظر في الدين ليفهموه حق الفهم ، ويكره منهم أن يغفل بعضهم عن دعوة الدين إلى الكفاح من أجل غدٍ أسعد ، والعمل لخير الناس كافة ، وطرح العداة والشحناء والعيش في ظل الإخاء والصفاء ، كما ربأ بهم أن يتوهموا الدين جموداً وخموداً ، فالدين قوام الحياة يصلحها في كلّ أمورها ، ويسمو بها في كل مناحيها . كما يكره للمؤمن الحق أن يكون متواكلاً منظوياً .

والباب الثالث خاص بالمجتمع أو الشعب ، وقد صدّره بقوله « صل قلبك بالله واسلك طريق المصطفى » وتدرج تحته عدة فصول وعناوين .

وهو في حديثه عن الجماعة يريد لبيصّها بمبادئه المثالية ونزعتة الإنسانية ، ويذلل النصح مهيباً بها ألا تتخلف عن ركب التقدمية ، وأول ما يحبه للشعب أن يتآخى أفراده ويعرف كل منهم قدر نفسه دون أن يتعدى على حق غيره ، وبشما الشعب يخضع فيه فرد ويذل لمن يطغى ، ويذل وينتزع الثمرة بغير حق من يد من لقي ما لقي من تعب في زرع شجرتها ، فهذا ما يغضب الله على الشعب كله وقد كبير مقتاً عنده تعالى :

ولاة الأمر من ربّي لشعبٍ زماماً يملكون لكلّ أمرٍ
ولكن لا يحب الله شعباً به الفلاح يزرع كني يلبّي

ويخصّ الذاتية بالذكر لأنّه من يجلّ ذات الإنسان إلى أبعد مدى ، وهو بذلك مخالف للصوفية الذين أرادوا المحو التام لها والقضاء المبرم عليها إلى أن تنفي في الله ، كما أن بعض المدارس الفلسفية والدينية تحط من قيمتها وتنفي عنها كل قوة وقدرة . وها هو ذا يعلي من قدرها ويستعير من المجاز لوصف حقيقتها :

لذاتك لا إله فضم مرّه لتُخرج من ترابٍ مات نظره
ولا تقبض يمينك عن وجودٍ له القمران في وهق يجزّه

ومن فصول هذا الباب فصل بعنوان « الصوفي والملا » ، بمعنى الصوفي والشيخ . وإقبال يرمز بهما إلى موقفين لبعض المسلمين لا يقعان في نفسه موقع الرضا ، وهما موقف السليبين الخاملين ، وموقف المتزمتين الجامدين . وهو من بعد يعرض الصوفي والشيخ في صورة المضحوك منه المسخور به ، مبالغة في توكيد الحقيقة التي يريد تناولها بالإيضاح . وما من ريب في أنه متأثر في هذا بمألوف شعراء التصوف في تهكمهم بالشيخ غير المتصوف ، غير أنه صاحب الرأي المخالف والمجدد غير المقلد حين يغلظ اللائمة على الصوفي والشيخ في

وقت معاً . فعنده أن الشيخ آخذ بالمظهر لا يتجاوزهُ إلى الجوهر ، أما الصوفي في عزله وسليته فيشاهد حرمة الإسلام تنتهك ولا يحرك لساناً ولا يداً . وإقبال يدعو إلى تدبُّر آيات الكتاب الكريم التي تهدي سبيل الرشاد وتقطع الشك باليقين وتصلح بها حال العالمين . أما الشرط الذي يفرضه ، فهو ضرورة فهمها على الحقيقة التي ليس فيها من وراء :

لُملاً أو لصوفيٍّ أسير ! وفي القرآن للعيش الكثير
من الآيات ما أدركت شيئاً ومن ياسين بُغيتك الحفير !

وفي فصل عن الخلافة والملك ، يدلي الشاعر برأيه فيهما ويدعو إلى الأخذ بتعاليم الإسلام في الحكم وسياسة الملك . ثم أفضى به القول إلى ذكر الأتراك في نهضتهم الحديثة . غير أنه عاب عليهم أن يتهافتوا على تقليد الأوربيين ورأى ذلك زراية بهم وتجريحاً لعزة أنفسهم ، لأنه الداعي على الدوام إلى احترام ذات الفرد والجماعة ، الموصى بالغوص على أعماقها للكشف عن قدراتها وملكاتهما وهباتها ، وهو لا يرتضي للتركي أن يظل من الفرنجة في قيود ويبقى أسيراً لسحر طلسمهم ، كما يحزنه أن يكون المسلم عن تراثه المجيد من الغافلين ، وأن يعصب عينه ليقوده الأجنبي إلى المصير . وبذلك يلتمس إقبال ما استطاع إليه سبيلاً من أمثلة لإشاعة رأيه وإذاعة مبدئه .

وتتجلَّى دعوته إلى التأدب بأداب الإسلام والأخذ بأوامره ونواهيهِ حين يوجه الخطاب إلى فتاة المجتمع ويزعها عن أن تتزين وتبرج ، كما يذكرها بعظم فضلها أماصالحة ، ويرغب إليها أن توصى بالنظر في القرآن ، ثم يبين لها كيف أن ذلك يمكنها من تسوية النفوس ، إلى أن يضرب لها المثل بما كان من أمر أخت عمر بن الخطاب حين شاهد القرآن بين يديها فدفعته إليه ليقرأ حتى رُق للإسلام قلبه .

وإقبال ساخطٌ على ما آلت إليه الأمور في العصر الحاضر ، فهو القائل فيه :

وعصرٌ منه للدين الشكاة وحرّياتِه وأدّ الطفّسة

كما أنه يقدر في شبابه لأنهم ليسوا على بينة من أمر دينهم ، ويغمز فيهم لأنهم يقلدون الفرنجة في رقصهم ، فمن أقبح العيب عنده أن يقلدوا ، وتلك منه دعوة ضمنية إلى شدة التمسك بالذاتية .

ويريد ليحرك مسلماً من ركوده وجموده فيذكره بالبرهمي الذي يضع ما يعبد من صنم تحت بصره تبركاً وتعظيماً وإعزازاً ، على حين خلا طاق بعض المسلمين من مصحف يزدان به ، كما يظهر الإعجاب ببرهمي لا يكل عن العمل الدائب ساعده القوي ، وينحت له به صنماً من الصخر الصلود . ثم يضرب أمثلة عدة وغايته من هذا كله أن يشحذ من همم المسلمين ليلتمسوا الوسائل إلى الغايات ويتفوا بالعمل وجوه النجح .

ويتصدى للتعليم ، وفي نظره أن العلم يرسو على أساس من الحس ، وهو يمد الإنسان بقوة تتبع الدين ولا بد ، وإلا فلن تكون إلا قوة شيطانية . كما أن العلم مقطوع الصلة بالعشق ، ثائر متمرد كالشيطان . أما إذا زاوج العشق فهو إلهي الصفات . وبهذا العشق تكتسب الحياة مالها من معان ، ويصبح العلم بفضل منه نعمة للبشر .

القسم الأول

(بالفارسيّة)

أَلَا يَا حَبَّذا تِلْكَ الطَّرِيقُ تَطوُّوْا وَلَا يُوَآنِسُهَا الرِّفِيقُ
لِهَا الزَّفْرَاثُ، فَافْتَحْ مِنْكَ قَلْباً لَتَحْرُقَ فِيهِ حَزْناً لَا تَطِيقُ

القسم الأول^(١)

(المترجم من الفارسية)

مَنَاجَاةٌ

(١) القسم الأول والثاني والثالث لهذا الديوان نقله من الفارسية إلى العربية
شعراً الدكتور حسين مجيب المصري .

في الحضرة الإلهية

لقد سلبوا لنا قلباً ومزوا وكانوا شعلةً خمدت ومزوا
عوام القوم عايشهم زويداً فإن خواصهم ثملوا ومزوا

أطالوا القولَ شكاً في وجودي وقد أقصرتُ عن قولٍ سديد^(١)
لحي القلب هل تدري سجوداً عليّ احكم بهذا من سجودي

فؤادي كان قيدَ الكيفِ والكمِّ يرى لكن وراءَ البدرِ إن تمَّ
خلاء هبه حتى في سعيِّ بخلوته كفوراً فهو يهتم
هياجُ ماجٍ في ماءٍ وطين بلاءُ العشقِ من قلبِ حزين
قراري برهةً حقاً حرام فرفقاً ، شأنُ قلبي من شؤوني

أجبنني من عن الدنيا تخلي لها حسن ، لمن حُسنٍ تجلَّى^(٢)
تقولُ احذِر من الشيطان لكن أتعرف موجدَ الشيطانِ أم لا ؟

ولي قلبٌ طليقٌ في عذابِ نصيبي من عتابِ أو خطابِ

(١) أقصر عن القول : سكت عنه .

(٢) تخلى عن الدنيا : زهد فيها وقطع ما بينه وبينها من أسباب .

لإبليسَ أنا ما سؤت قلباً خطيئة كل حين من صواب
صنبتِ الكأسَ عنا أمَّ عمرو وكان الكأسُ مجراها اليميناً^(١)
إذا ما كانَ هَذَا دَابَّ عشقِ بكأسك فاضربِ البيتَ المصوناً^(٢)

أسيرُ هوى ، على النفس انطواءً به ألمٌ ومَا يجدي دَوَاءُ
عجيبٌ أَنْ تُكَلِّفَنِي سُجُودًا خراجُ الأرضِ والأرضُ الخلاءُ ؟!

بلا أمدٍ تراخى بي طريق نثرُ الحبِّ ، أين لي الوريق^(٣)
من الآلامِ لا أخشى ولكن بهذا القلبِ هبَّ ألماً يليق
سريع السكر لا تُرشِف شرابي وأبعد عن غريرٍ في ارتياب^(٤)
عن القصباءِ يحسن بُعد نارٍ خواصَّ القومِ وحدثهمُ فحَابِ^(٥)

أنت لقيتَ في طلب لغوبا وما أصليتُ في شوقٍ لهيباً^(٦)

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وصنبت : بمعنى صددت وصرفت . ومن شعراء الفرس من ضمّنوا شعرهم الفارسي أبياتاً عربية . وتعرف أشعارهم بالملمععات . وأصل التلميع أن يكون في جسم الفرس أجزاء من لون يخالف لون جسمه فسمي هذا الشعر ملمعاً على التشبيه .

(٢) الداب : الشأن والعادة وفي الأصل فاضرب بكأسك جدار الحرم . وحقيق بالذكر أن الخمر هنا هي خمر الصوفية التي يرمز بها إلى العشق الإلهي . ولعمري الفارض خمريّة مشهورة مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٣) الأمد . الغاية . الوريق : الكثير الورق من الشجر .

(٤) الغرير : من لا تجربة له .

(٥) القصباء : منبت القصب . وهو كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً .

(٦) اللغوب : التعب .

وَأَنْتِي هَارِبٌ مِنْ لَامَكَانِي فَنَوُحُ الْوَهْنِ لَمْ يُشْجِ الْقُلُوبَا^(١)

أَثْرُ دُنْيَاكَ خَذَ مَنِي الْمَثِيرَا بِهَا التَّغْيِيرُ فَاجْعَلْهُ الْكَبِيرَا
لَكَ الْإِنْسَانُ فَاخْلُقْ مِنْ ثَرَاهَا أَيْزُ مَنْ كَانَ لِلْمَالِ الْأَسِيرَا^(٢)

بَنُورِ الشَّمْسِ دُنْيَانَا ظَلَامٌ وَلَيْسَ الْحَقُّ مَا أَدَى كَلَامٌ
إِلَى كَمٍ ، إِنَّ دُنْيَانَا خَرَابٌ سَيَكْسُوهَا دِمَاءُهُمُ الْأَنَامُ^(٣)

(١) الوهن : منتصف الليل . ويتردد ذكر المكان واللامكان والجهات في شعر إقبال مما يعيننا على الإشارة إلى تلك المقولة عند الفلاسفة . فيرى أفلاطون أن المكان يستحيل عليه الفناء وإليه مأوى المخلوقات . ويقول أرسطو إن وجود المكان متعلق بوجود العالم المتناهي ، وقد تابعه على ذلك الفارابي وابن سينا من فلاسفة المسلمين . والمكان في نظر الرواقيين فراغ متوهم تشغله الأجسام ولا وجود له في ذاته فليس بحقيقة . وقد بين الأشعري إلى أي حد اختلفت الآراء في المكان فعند بعضهم أنه ما يقل الشيء ويكون الشيء ممكناً فيه . وقال غيرهم إنه ما يماس الشيء ، وإذا ما تماس الشيطان فكل منهما مكان بصاحبه . وعند غيرهم أنه ما يعتمد عليه الشيء أو لا يعتمد ويمتنع من السقوط . كما قيل إنه الجو وقيل هو ما يتناهى الشيء إليه . أما المتكلمون فيرون أنه الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ منه أبعاده . ويضيف أحد فلاسفة الإسلام إلى بعد الطول والعرض للمكان بعداً ثالثاً هو العمق . ويوضح ذلك بالإناء والدار ، فيقول إن الإناء قد يمتلئ بالشراب ويخلو منه ، كما تعمر الدار بساكنيها ويهجرها من فيها فليس ذلك الممتلئ الخالي هو السطح الباطن بل هو العمق بأسره .

ولقد دلتني الدكتورة سهير فضل الله مدرّسة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات من جامعة عين شمس على بحث لها في هذا الموضوع ، فشكرها من أوجب الواجب [الأستاذ

المترجم] .

(٢) أبار : أهلك .

(٣) الأنام : الناس .

رضاك ، فإنني عبد ذليل
إذا ما قلت سَمَّ العَيْر طرفاً
بأمر منك يمضي بي السبيل
فهذا القَوْل حقاً لا أقول^(١)

فؤادي ليس فيه من حُبُور
صلاتي تلك خذ منها ثواباً
ومن لهب خلا من تُربي ونور^(٢)
صلاتي ليس فيها من حضور!^(٣)
أعن دينٍ وعن وطنٍ كلامي
فلا تغضب ، جَفَوْتُ وَمِنْ جَفَاءِ
وهذا السرّ يُطوى بالتمام
بيتَ الديرِ يبدو كالخطام^(٤)

من الإفرنجِ إن ضاقت قيودُ
على عتباتٍ غيرِ الله وجهُ
فقلُّبك لا يحقُّ ما يريد
تَعَفَّرَ لا يليق به السجود^(٥)

لي الدارين إنني لا أريد
فهبني سجدتي فيها احتراقي
وحسبي فهمُ ما روحٌ تفيئذ
ومنها الكون في وجدٍ يميز^(٦)
أنا المكسألُ ما تبغيه منِّي
أهبتُ هبوةً لم تقتلِعني^(٧)

(١) العير : الحمار . الطرف : الجواد الكريم .

(٢) الحبور : السرور . الترب : التراب .

(٣) الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي لديه كالحكم العيني .

(٤) يطلق الدير على الدنيا في الشعر الصوفي . يقول شاعر فارسي ما ترجمته (كنت ملكاً ولي في الجنة العالية مستقر ، إلا أن آدم جاء بي إلى هذا الدير الخرب) .

(٥) تعفر الوجه : تمرغ في التراب .

(٦) يميز : يتحرك ويضطرب .

(٧) الهبوة : الغبرة وهي الغبار . والمقصود هنا الريح التي تحمل الغبار وتثيره .

رأيت ابني يصلي في صباحٍ مسائي فليقل بالصبحِ زني^(١)

على قومٍ إلهي فلتعني كراعي الضانِ عالمهم بفن^(٢)
رأث عيناي ما يقذي عيوناً ألا يا ليت أمي لم تلذني^(٣)

إلامَ بعينِ عتبك أنتَ تنظر وأصناماً لديك إلام تحضر
لأبناء الخليل رأيت داراً ونمرودُ يرثهم ويكفر^(٤)

أيرجعُ من نعيمي ما تولى ومن أرضِ الحجازِ الريحُ؟ كلاً
وهذا العمرُ يالهفي تقضى فهلاً عادَ من أحببتُ هلاً؟

إذا ما جاء من ذا السرِّ يعرف بلحنِ القلبِ أسماعاً فشنف^(٥)
وروحِ القلبِ من أبقى ونقى كليماً أو حكيمٌ وهو يعزف^(٦)

(١) يشير إلى ابنه المسمى (جاويد) . وزني : من زان يزين .

(٢) راعي الضان مضرب المثل في الجهل .

(٣) أذى العين : أوقع فيها القذى . وهو ما تتأذى به من غبار أو نحوه

(٤) الخليل : سيدنا إبراهيم عليه السلام . يرب : يربي .

(٥) شنف في الأصل بمعنى جعل له شنفاً أي قرطاً ، وشفن كلامه : زينته وحلاه وشفن السمع : زينته وأطربه .

(٦) يتردد في الشعر الصوفي ذكر العزف والغناء على أنهما رمز لنشوة العشق الإلهي .

ويمكن القول إن الحسناء والصهباء والغناء تؤلف وحدة قلما نجد انفصاماً بين مقوماتها الثلاثة .

أرجي لي فؤاداً قد توجع
بزهري قانيء يزدان قبري
شكوتُ فمن شكاتي سوف يسمع
عديم النطق دامي اللحن موجع^(١)

أسيرُ القلبِ لا يفدي الأسيرا
وينفخُ في الثرى الأنفاس دوماً
وليس يزيدُ من ألمٍ كثيراً
ورامَ الأكلِ أو سكنَ الحفيرا^(٢)

من الأضلاع لي قلبٌ يفزُّ
طريدُ البابِ يفضلني كثيراً
تبقى صورةٌ معناهُ سرّاً
رأه الله ، لي في السمعِ ذكراً

نداءُ جبرئيل ليس يدري
وهذا عبدك المسكينُ سلهُ
ففي طلبِ مقامٍ طيِّ سِرّاً
وجُد لي من سنائي بالمروم^(٣)
صفاتُ هب لخسرو أو لرومي

(١) القانيء : الشديد الحمرة .

(٢) دوماً : دائماً . الحفيرا : القبر .

(٣) خسرو : هو أمير خسرو دهلوي المتوفى عام ٧٠٥ هجرية . شاعر عظيم من شعراء الفارسية في الهند . وله شعر صوفي يتميز بخصائص ليست لشعر غيره من شعراء الفارسية في تلك البلاد . وشعره كثير البديع . وقد نظر إليه الشعراء كمثال يحتذى ، كما أوجد أسلوباً عرف بالأسلوب الهندي .

والرومي هو جلال الدين الرومي أشهر وأكبر شعراء التصوف من الفرس ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأب من خيرة العلماء والفضلاء ورحل به إلى الأناضول التي كانت تعرف آنذ ببلاد الروم ولذلك عرف بالرومي . وقد تصدر للوعظ والإرشاد وعقد الأسباب بينه وبين المتصوفة وأشهر مؤلفاته كتاب المشوي الذي استمد اسمه من نظمه على القافية المزدوجة . وهو يتضمن حكايات لها مغزى صوفي وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فسرت وأولت ولكن لا على ظاهرها ولا يداني هذا الكتاب غيره من كتب التصوف . وجلال الدين صاحب طريقة صوفية أساسها وحدة الوجود وقد أشاعها بين الترك في =

ألفَتْ صفاتَ عبدٍ منذ دهرٍ فليس لكل هذا من لزوم
فقيراً عفاً عن لبسِ المرقعِ لهذا منه جبريلٌ توجّع
لدينا أمةٌ أخرى لنخلقُ بها كلاً عن الدنيا لنرفعُ

وشعبٌ منه جهدٌ في التآني ومن إبسرٍ ترآه الشهدُ يُجنى
وذاك بعالمٍ من ليسَ يزضى فتحت العالمين الظهرُ يُخنى

وقومٌ وخذوا عندَ ابتهالٍ أناروا الفجرَ من جوفِ الليالي
رأوا في الشمسِ صباحاً مستقراً فأبدت نهجَ نجمٍ من رمالٍ^(١)
لحفلٍ في الليالي كنتُ زينا نقضتُ وكنتُ بدرأ ذاقَ أيننا^(٢)
وفي هذا التغافلِ كم أفاضوا ولكنني تركتُ الجمعَ وهننا^(٣)

= الأناضول ، واضطره هذا إلى محاولة النظم بالتركية ليفهم عنه سواد الناس . فكان ذلك سبباً في نشأة الشعر التركي العثماني . وكانت وفاته عام ٦٧٢ هجرية .
أما سنائي الغزنوي المتوفى عام ٥٤٥ هـ . ففي ديوانه تتردد الشكوى ممن يأخذون بالقشور دون اللباب ويتمسكون بالظاهر دون الباطن ، كما يصرح بما آلت إليه حال القوم لتناسيهم أوامر الدين ونواهيهِ ، ويثن تالماً من جفاء الخلان وصروف الزمان . غير أن شهرته بشعره الصوفي ، ويعد أول شاعر صوفي بحق في إيران وأول من ضمن شعره مصطلحات التصوف .

(١) النهج : الطريق . وفي الأصل أن الشمس تزيج الرمال عن طريق المجرة وهي نجوم تسمى الطريق اللبنيّة في الإنجليزية وحاملة التبن أو نائرتة في الفارسية ، وتسمى في الريف سكة التبانة لأنها تشبه طريقاً تناثر فيه التبن ، وانعكس عليه نور القمر بعد أن مر به التبان الذي يحمله .

(٢) الزين : الزينة . الأين : التعب يشبه نفسه بالقمر ، وكأنه ينقص من هزال يصيبه لطول سيره في السماء .

(٣) الوهن : نصف الليل .

كهذا العصرِ عصراً ما رأينا حزينُ القلبِ جبريلُ علينا
هُنا قَدْ شَيَّدوا ديراً عَجيباً يزيدُ لمؤمنٍ كُفراً لدينا!

أرى دنيَاكَ في أيدي اللثام ولأحرارٍ في أسِرِّ مَقَام
فَظِيلُ بَيْنَ مَنْ فَفَهُوا أموراً يعيشُ كمثلِ نسرٍ لا الأنام^(١)

مريدٌ قال عندَ الشيخِ يوماً إلهي لِمَ يحِطُ بالناسِ عِلْماً؟
كَمِثْلِ العرقِ في عنقِ قَريبٍ وليسَ كبطِننا في القُربِ حتماً

لأرضِ الهنْدِ حالٌ بَعْدَ حالٍ وهذا الكونُ أَمسى في اختِلالٍ
إِلينا كيفَ تَطلبُ أن نَصلي برأسِ الجيشِ عبدٌ كالمَحالِ
ويَحْكُمُ مسلمٌ فالنفسَ باعاً وآذاناً وعيناً قَدْ أَطاعا
وهتَ أجسادنا مِن إضِرِّ حُكْمِ فآدِ الشُرْعِ متناً والذِّراعَا^(٢)

إلهي زِنَ لَنَا خَيْراً وشِراً هبِ الدنيا نعيماً مستمراً
وشاهَدنا خُلِقْنَا مِن ترابٍ لنجعلَ عالمَ الغبراءِ نُضراً^(٣)

خُلُودُ المرءِ في الدنيا عَرِفْنَا وعن مَوْتِ الفجاءةِ ما سمعنا
ووقتكَ لِنُ تُعَرِّضَهُ لنقصِ إن خلدتَ قالوا قد ضُررتا!؟

(١) الفضيل : ذو الفضل .

(٢) الإصر : الثقل . آد : أثقل . المتن : الظهر .

(٣) الغبراء : الأرض .

إِن الدنیا دنت مِن منتهآها أبان الدهرُ أسراراً طواها^(١)
فلا تفضخ لدى الرحمنِ أمرِي حسابي صفحةً ما إن رآها!

بقيتُ هنا ولى روحٌ تسيّر إلى البطحاءِ أشواقِي تطير^(٢)
خواصَّ القومِ عایشهم ، تلبثُ بشوقي دارَ مَنْ أهوى أزور^(٣)

-
- (١) أبان : أظهر .
(٢) البطحاء : مكة المكرمة .
(٣) عایشهم : عش معهم . تلبث : ابق .

القسم الثاني

الرَّسَالَة

تمهل لا تُقِمْ تلكَ الخياما دليلُ الركبِ في البيداءِ هاماً^(١)
وهذا العقلُ نعدمه دليلاً لذا أسلمتُ للقلبِ الزماما

سويدائي بها أقيتُ نظره بحضنِ القلبِ فاستروحتُ فتره^(٢)
بريحٍ للمدينةِ ضقتُ ذرعاً لقلبي من نسيمِ اليدِ خطره

ولي قلبٌ لمنْ كانَ الشهيداً هو الخفاقُ يالفُ أنْ يميداً^(٣)
إلى الصحراءِ أحملهُ فيأسى على شطِّ الغديرِ بكى وليداً^(٤)
ولا تسألُ عنِ الركبِ السُّكاري فما يرضونُ تلكَ الدَّارِ داراً
يهزُّ قلوبهمْ جرسٌ مدوٌّ نسيماً في ذرى القصباءِ ثاراً^(٥)

ليشربَ كانَ في كُبْرَى رَجِلي وبِى فَرَحُ اللقاءِ مَعَ الخليلِ
كَأَنِّي الطيرَ قبلَ الليلِ يمضي ويَبْغِي العِشَّ في الرِّوْضِ الجميلِ

أَدَانُوا عاشقاً رَشَفَ المَدَامَا وَكَمْ لِمَحْنِكِ عَابُوا الكَلَامَا

(١) الركب: راكبو الإبل، وفي الأصل القافلة. والبيداء: الصحراء. وهام: سار على غير هدى.

(٢) السويداء: حبة القلب. استروح: استراح.

(٣) يميد: يتحرك في اضطراب.

(٤) يأسى: يحزن. الغدير: النهر.

(٥) ذرى القصباء: أعالي القصب في منبته.

عَلَى نَعَمِ الْحِجَازِ شَرِبْتُ كَأْسِي وَمَا إِنْ قَدَّمُوا مِنْ قَبْلُ جَامَا^(١)
 أَسْأَلُ عَنْ مَقَامَاتِ لِلْخَنِي وَمَاذَا يَعْرِفُ النَّدْمَانَ عَنِّي^(٢)
 لَقَدْ أَلْقَيْتُ فِي الصَّخْرَاءِ رَحْلِي وَفِيهَا أَخْتَلِي حَتَّى أُغْنِي^(٣)

وَقُلْتُ لِنَاقَتِي بِالرَّفْقِ سِيرِي بِشَيْخٍ فَازْفِقِي دَنِيفِ حَسِيرِ^(٤)
 وَسَارَتْ نَاقَتِي سَيْرًا عَنِفًا أَتَخْطُو فِي الرَّمَالِ أَمْ الْحَرِيرِ!

وَيَا جَمَالَ عَنْهَا اطْرَحْ عَقَالًا لِرُوحِي رُوحَهَا كَانَتْ مِثَالًا
 تَهَادَتْ مَوْجَةً أَيْقَنْتُ مِنْهَا بِأَنَّ عَلَى الْفَوَادِ الْأَسْرُ طَالًا
 تَرَفَّرَقَ دَمْعُهَا سُودَ الْعَيُونِ وَمِنْ زَفَرَاتِهَا كَانَتْ شُجُونِي
 مُدَامَ أَضْرِمَتْ فِي الْقَلْبِ نَارًا بِنَظَرَتِهَا كَمَوْجٍ يَخْتُونِي

وَفِي الصَّخْرَاءِ قَافِلَةٌ تَكُونُ وَفِي تَوْدِيْعِهَا حَقَقْتُ لُحُونِ^(٥)

(١) الجام : الكأس . ولأهل الحجاز منذ قديم شهرة بالميل إلى الغناء والمهارة فيه . وهذا يذكرنا بقول من قال :

رأيه في السماع رأي حجازي وفي الشراب رأي أهل العراق
 (٢) المقام : من مصطلحات الموسيقى . وللمقام معنى آخر عند الصوفية ، فهم يتمثلون التصوف طريقاً يسلكه الصوفي أو (السالك) وفي هذا الطريق مراحل ومنازل يسمونها المقامات ، وينبغي أن يمر بها حتى يصل إلى الحقيقة أي الفناء في الله ويجد البقاء في الله . والندمان : التنديم أو الندماء .

(٣) الرحل : ما تستصعبه من الأثاث .

(٤) الدنف : العليل . والحسير : المعيا والكليل .

(٥) كان هنا تامة . اللحون : الألحان .

أَلَا فَاسْجُدْ عَلَيَّ رَمَلٍ تَلْظَى عَلَيْهِ الْوَسْمُ يُخْتَرِقُ الْجِيْنَ (١)

مَسَاءٌ مِثْلُ فَجْرِ قَدْ تَبَسَّمَتْ طَمَّطَى صُبْحُهَا وَاللَّيْلُ أَظْلَمَ (٢)
تَمَهَّلْ إِنْ حَطَّوْتَ عَلَيَّ رِمَالِ كَقَلْبِي كُلُّهَا قَلْبٌ تَأَلَّمْ
أَمِيرُ الرِّكْبِ مَنْ ذَا الْأَعْجَمِيِّ بغيرِ لِسَانِنَا لَحْنٌ شَجِي
يُغْنِي وَالْغَنَاءُ لَهُ سَرَابٌ وفي الصَّحراءِ مِنْهُ القَلْبُ حَيَّ

وَمِنْ عِشْقِي وَمِنْ سُكْرِ مُقَامِهِ وَفِي مَاءٍ وَفِي طِينِ ضِرَامِهِ (٣)
لَهُ الْأَنْعَامُ تُطْرِبُ كُلَّ قَلْبٍ لَنَا قَلْبٌ يَفْلِذْتَهُ قِوَامِهِ (٤)

خَفِيَ الحَزِينِ فِي صَمْتِ تَرَاهُ لِسَانُ المَرءِ فِي خُبْرٍ رَوَاهُ
طَرِيقٌ وَغَرَّةٌ وَالنَّضْوُ فِيهَا بِلا نُورٍ لِمَصْبَاحِ هَدَاهُ (٥)
رَبِيعُ المَرَجِ مُخَمَّرُ الزَّهْوِ أَقَامَ الصَّحْبُ فِي كَنْفِ السُّرُورِ
أَتَوْقُ إِلى البَقَاءِ هُنَاكَ وَخَدِي وَفِي جَبَلٍ عَلَيَّ شَطَّ الغَدِيرِ (٦)

(١) الوسْم : أثر الكي .

(٢) يريد صبح الصحراء وليلها .

(٣) العشق والسكر هنا بالمعنى الصوفي .

(٤) الفلذة : القطعة وقوام الشيء نظامه وعماده .

(٥) النضو : المهزول الضعيف .

(٦) أتوق : أشتاق .

وَأَقْرَأُ تَارَةً شِعْرَ الْعِرَاقِيِّ (١)
وَأَخْيَاناً مِنَ الْجَامِيِ احْتِرَاقِي (٢)
أَيِّنَ لِحُونِ أَعْرَابٍ وَلِحْنِ
لِحَادِي نَاقَتِي بَعْضُ اتِّفَاقِ (٣)

أَشْبُ فَرَحاً بِأَخْزَانِ الطَّرِيقِ
طَرِيقاً طَالَ يَا حَادِي لِتَسْلُكِ
وَكُنْ مَجْنُونَهُ غَيْرَ الْمَفِيقِ
وَأَلَامَ الْمَفَارِقِ مِنْ حَارِقِ (٤)
وَقُلْ مِثْلِي «بِذِي حَسَنِ مَمَاتِي»
«بِأَجْفَانِ رِقَاقِ دَامِعَاتِ»
«لِنَمْسَخِ مَوْضِعِ الْقَدَمِينَ» فَاهِمِسْ

لَقَدْ غَضُّوا وَغَضُّوا مِنْ حَكِيمِ
وَنَخْنُ الْيَوْمَ فِي عَضْرِ سَعِيدِ
جَهُولِ كَانَ ذَا الْفَضْلِ الْعَمِيمِ (٥)
لَدَى السُّلْطَانِ دَرْوَيْشِ عَظِيمِ

بِصَدْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَعَيْتِ
وَلَمَّا جُرْتُ فِي الْعَلْيَاءِ سَقْفَاً
بِرَأْسِي «لَا مَكَاناً» قَدْ حَوَيْتِ
جَنَاحِي كُلَّ فِي أَرْضِي هَوَيْتِ

(١) هو فخر الدين العراقي المتوفى عام ٦٨٨ هجرية من شعراء التصوف في إيران . وشعره رقيق أنيق يموج بالعشق الإلهي ، وقد رحل إلى الهند وأصبح من شيوخ الطريقة القلندرية التي تلزم أتباعها بالسياحة فساح في البلاد طويلاً وعرضاً . ولما زار مصر وجد السبيل إلى سلطانها الذي أكرمه حق إكرامه وأمر بتنصيبه شيخاً لشيوخ مصر .

(٢) جامي : هو الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفى عام ٨٩٨ هجرية ويعد من أعظم شعراء الفرس وآخر فطاحلهم من القدماء . والنزعة الصوفية غالبية على شعره ، وقد نظم قصة ليلى والمجنون وطوعها لمعاني التصوف ورموزه ، كما أن له عدة منظومات قصصية ضمنها شروحاتاً لأحكامه في رمزية وروحانية دقيقة .

(٣) الحادي : من يغني للإبل .

(٤) الحريق : النار . أشب : أمزج .

(٥) غضوا منه : حقروا من شأنه .

بِوَادِينَا خُلُودٌ لِلزَّمَانِ بِإِلَّا صُورٍ نَمَتْ فِيهِ الْمَعَانِي
حَكِيمٌ دَائِمًا أَخَى كَلِيمًا لِسَانٌ سَاكِتٌ عَنِ (لَنْ تَرَانِي) (١)

وَيُنِيدِي الْمُسْلِمُ الْمَحْبُوبُ فَقَرَهُ يُصَعَّدُ مِثْلَ حَرِّ النَّارِ زَفَرَهُ
شَكَا مِنْهُ الْفُوَادُ وَلَيْسَ يَدْرِي فَهَبْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَظْرَهُ

عَذَابِكَ مِنْهُ كَمْ ذُقْتَ الْعَذَابَا بِكَ الْأَلْحَانُ لِي كَانَتْ عَذَابَا
حَزِينٌ ، مَا رَأَتْ عَيْنَايَ يَوْمًا بِأَرْضِ الْهِنْدِ قَطُّ لَكَ الصَّحَابَا
لِعَبْدِ الْهِنْدِ لَيْلٌ ضَاعَ فَجْرُهُ وَأَيْنَ الشَّمْسِ بَلْ قُلْ أَيْنَ بَدْرُهُ
أَنَا الْمِسْكِينُ فَلْتَرْفُقْ بِحَالِي أَمِثْلِي مُسْلِمٌ قَدْ عِيلَ صَبْرُهُ (٢) ؟

فَقِيرٌ ضَاقَ بِالْأَلَمِ الْمُقِيمِ بَدِينِ الْحَقِّ ذُو الْأَصْلِ الْكَرِيمِ
إِلَهِي كُنْ لِمَحْزُونٍ مُعِينًا هُوَى مِنْ صَرْحِهِ الْعَالِي الْقَدِيمِ

لِسَانِي كَيْفَ يَرُوي عَنْهُ شَيْئًا وَتَعْلَمُ مَا بَدَأَ بِلِ وَالْخَفِيَا

(١) أراد إقبال قوله تعالى سورة الأعراف ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَدَ لِرَبِّهِ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال جلال الدين الرومي في شعره : إن الله خالق الوجود من العدم والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق . وتباينت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة وفي كتاب (في السماء) يقول إقبال :

(لن تراني) إنها المعنى الدقيق ولتضع فيه فذا البحر العميق

(٢) عيل صبره : نفذ .

وما قاساه في دهر طويل طوى قلبي على الآلام طيا
جَرَى فلكٌ على غيرِ المَرَامِ شكاةَ الرِّكَبِ منْ بَعْدِ المُقَامِ
أفي هَذَا كَلَامٍ لَيْتَ شِعْرِي وَهَذَا الشَّعْبُ كَانَ بِلاَ إِمامِ

دِماءٌ فِيهِ تَخْلُو مِن لَهَابِ وَمَا زَرَعَ الأَزَاهِرَ فِي الخرابِ؟! (١)
خَلِي الغمْدِ . ما فِي الكَفِّ مَالِ وَهَذَا الرِّفُّ يَهْوِي بِالكِتَابِ (٢)

بِظَاهِرٍ ما يَرَاهُ القَلْبُ قَيَّدَ فَمِنْ ذوقِ وَمِنْ شوقِ تَجَرَّدُ (٣)
صَفِيرَ الصَّفِيرِ حَتْمًا لَيْسَ يَذْرِي عَلَي طَنِّ البَعوضَةِ مَنْ تَعَوَّدُ
لَهُ بِالقَلْبِ باباً ما فَتَخَنَّا وَذاتاً فِي ثِراهِ ما رَأَيْنَا
وَلَا التَّكْيِيرَ دَوَى فِي ضَمِيرِ وَمِنهُ الذِّكْرَ قَطْ ما سَمِعْنَا

يُقَدُّ الجِيبَ مَقْطُوعَ الرِّجاءِ لِمَذاً قَدْ تَرَدَّى فِي البِلاءِ (٤)
شِبْهَ المَوْتِ ما يَلْقَى نَصيباً إِذا ما كَفَّ عَبدٌ عَن ثِناهِ

أَنلَهُ الحِوَّ ، مِسْكِينُ أُسِيرِ فَقِيرٌ وَهُوَ فِي قَلْبِي يُشور
وَهذِي حانَةٌ قَدْ أَوْصَدُوهَا لِيظْمًا وَالرَدَى كَأْسٌ تَدُورُ (٥)
فَطَهَّرْ مَءاءَهُ وَالطِينِ نَطَهَّرْ يَدُنْيا مِنْهُ هَذَا القَلْبَ عَمَّرْ

(١) اللهب : اشتعال النار

(٢) خلي الغمد : لا سيف في غمده .

(٣) الذوق في الاصطلاح : نور يلقيه الله في قلوب أوليائه يميزون به بين الحق والباطل .

(٤) يقد : يشق . الجيب : فتحة الثوب حول العنق . وتردى : وقع .

(٥) الحانة هنا بمعناها عند الصوفية .

تَمَزَّقَ ذَيْلُهُ وَالرَّيْحُ تُسْفِي فَفِي مِضْبَاحِهِ الْمَخْطُومِ فَكَّرُ^(١)

عَرُوسٌ هَذِهِ الدُّنْيَا لِغَيْرِهِ مَقَامٌ لِلْفَنَاءِ نَهْجٌ لِسَيْرِهِ
وَقَبَلَ الْمَوْتَ آدَتُهُ الْخَطَايَا لَهُ الْمَلَكَانِ مِنْ دَبْرِ بَقْبِرِهِ^(٢)

أَفِي عَيْنَيْهِ نُورٌ أَوْ سُورُورٌ وَمَا فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ صَبُورٌ
لِهَذَا الشَّعْبِ كُنْ رَبِّي مُعِينًا قَضَى ، فَالزُّوْحُ مَا فِيهَا حُضُورٌ^(٣)
حَنِيفٌ وَالرَّدَى مَا لَيْسَ يَأْلَفُ أَيْخَلَعُ قَلْبَهُ رُغْبًا وَيَأْسَفُ^(٤)
وَيَبْنَ ضُلُوعِهِ مَا كَانَ قَلْبٌ يَقْطَعُ زَقْرَةَ حَرَى وَيَأْسَفُ !

وَحُكْمُ الْفَرْدِ شَرٌّ لِلْأَنَامِ فَمَنْ مِنْ شَرِّهِ غَيْرِ الْمَضَامِ
شَكَاةَ الْقَلْبِ لِلْخِلَآنِ فَاسْمِعْ إِذَا مَا شِئْتَ تَحْقِيقَ الْمَرَامِ

رَكِينًا كَانَ جِسْمُ الْمُسْلِمِينَا بِنَاءٌ ظَلَّ فِي آدِ مَتِينَا^(٥)
وَإِنْ نَظَرُوا فَقَدْ ظَهَرُوا بِذَاتِ لَهُمْ فِي الْحَفَقِ أَشْبَهَتِ الْوَتِينَا^(٦)

(١) تسفي : تحمل الغبار ، والمخطوم : المحطم .

(٢) آدته : أثقلته .

(٣) قضى : مات . والحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .

(٤) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .

(٥) الركين : القوي . الآد : القوة .

(٦) الوتين : عرق في القلب .

خَجُولٌ مُسْلِمٌ هَانَتْ شُؤُونُهُ لَهُ الْخَانِقَاهُ فَقَرُّ ، مَاتَ دِينُهُ (١)
بِدُنْيَانَا فَقُلْ مَاذَا وَرَثْنَا كَلِيمٌ عَنِ مُلُوكٍ نَسْتَبِينُهُ (٢)

وَعَنْ أَحْوَالِهِ لَا تَسْأَلْنِي فَقَدْ سَاءَتْ وَفِيهَا حَارَ ظَنِّي
وَهَذَا الطَّيْرُ بِالثَّمَرَاتِ يَغْذُو لَهُ فِي الْبَيْدِ نَقْرٌ بِالتَّعْنِي (٣)

لِعَيْنَيْهِ الْحَيَاةَ أَنَا فَتَخْتُ وَمَا فِي الْأَمْسِ وَالْغَدِ كَمْ شَرَحْتُ
كَشَفْتُ الرُّوحَ أَسْرَاراً فَهَلْأَ بِلَاغَةَ يَغْرُبُ يَوْمًا مَنَحْتُ
وَلَيْسَ لِمُسْلِمٍ جَيْشٌ عَرْمَرَمَ بِذَاتِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَكْرَمَ (٤)
فَلَوْ رَدُّوا إِلَيْهِ الْيَوْمَ حَقًّا لَكَانَ جَلَالُهُ لَا رَيْبَ أَعْظَمَ

أَسَاطِيرُ مَتَاعِ الشَّيْخِ حَقًّا مِنْ الْأَوْهَامِ أَقْوَالًا تَلَقَّى
لَهُ الْإِسْلَامُ بِالرُّتَارِ يَبْدُو وَذَا حَرَمٍ وَمِنْ ذَيْرٍ تَبَقَّى

وَعَالَمُنَا بِالْحَادِ تَغْيِيرُ وَأَنَّ الرُّوحَ مِنْ جَسَدٍ تَقَرَّرُ

-
- (١) خانقاه : كلمة فارسية الأصل بمعنى المبنى الذي يقيم فيه الصوفية . ويقال : إن الشاعر الفارسي أبا سعيد بن أبي الخير وهو من صوفية القرن الخامس الهجري هو مؤسس أول خانقاه في إيران . ومعلوم أن كل مدينة وكل ناحية في إيران كان بها خانقاه حين الغزو المغولي . وكانت كل خانقاه تابعة لشيخ أو لفرقة خاصة من فرق الصوفية . وقد تنافس المتنافسون من العظماء في بناء الخوانقاهات ووقف الأموال عليها .
- (٢) الكليم : البساط وتأتي كذلك بمعنى الثوب الخلق . نستبينه : نعرفه ونميزه .
- (٣) التعني : الشدة والصعوبة .
- (٤) الجيش العرمرم : الشديد .

بِفَقْرٍ كُنْتَ لِلصَّدِيقِ تُعْطِي
لَنَا حَرَمٌ فَمَاذَا يَسْتَعِيرُ !
وَأَظْلَمَ حَظُّنَا نَحْنُ الحَيَارَى
أَنْزِ رُوحاً تَسَامَى أَوْ تَطْوِزُ^(١)
بِهِ صَنَمٌ هُوَ الشَّيْخُ الكَبِيرُ
وَمَا فِي القَلْبِ لِأَمَالِ نُورِ

فَقِيرٌ رَكَعَةً لِهَلِ صَلَّي
وَتِلْكَ النَّارُ إِنْ خَمَدَتْ بِصَدْرِ
طُغَاةٌ أَوْ بُغَاةٌ مَنَ أَدْلَا
إِلَى عَتَبَاتٍ مَنَ ظَلَمُوا تَوَلَّى^(٢)

(١) يضرب إقبال على قالب شعراء التصوف الذين ألفوا أن يتهكموا بالشيخ أو الزاهد .
والشيخ عندهم رمز لغير المتصوف . وقد اتسعت شقة الخلاف بين المتصوفة
والفقهاء ، ولا غرو فالتصوفة يجنحون إلى التأويل والتمثيل والتخييل ويصدون عن
الظاهر للغوص في أعماق الباطن . أما الفقهاء فوقافون عند حرفية النصوص لا يمعنون
في الاجتهاد بالرأي . ولا يكاد يخلو شعر صوفي من هذا التهكم التقليدي بالزهاد
والشيوخ . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي ما ترجمته :
(امض عنا أيها الزاهد وكف الملام عن شاربِي المدام ، فما منحونا سوى تلك التحفة
يوم أَلَسْتَ) والإشارة في يوم أَلَسْتَ إلى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ
مِنَ ابْنِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ والشاعر يريد ليقول
إن الصوفية أتشفوا بعشق الذات الإلهية منذ أن عرفوا ربهم . الزنار : ما يشده النصراني
على وسطه .

يريد الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان واسع الثراء غير أنه أنفق ماله على
رسول الله ﷺ وفي سبيل الله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن أبا بكر أنفق على النبي
أربعين ألفاً . وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل
ماله كله معه . وقال لها جدّها أبو قحافة وقد ذهب بصره : إن أباهما قد فجعهما بماله
فردت عليه بقولها إنه ترك خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً وضعتها في كوة البيت الذي كان
أبوها يضع المال فيه ثم غطتها بثوب وقادت إليها جدّها الضرير ووضعت يده عليها
فقال : إنه أحسن بترك هذا وفيه الكفاية . وقد أرادت أسماء أن تسكن جدّها وتوهمه بأن
أباهما ترك شيئاً ، ولم يترك لعياله أي شيء .
(٢) تولى : مضى وأدبر .

يَعَادِي الْمَسْلُومُونَ الْأَقْرَبِينََا وَظَلُّوا فِي شِقَاقٍ رَاغِبِينََا
تَدَاعَى مَسْجِدٌ يَزُومًا لِيَأْسُوا وَكَانُوا مِنْهُ دَوْمًا هَارِبِينََا (١)
لِغَيْرِ اللَّهِ عَقَّبْنَا الْجَبِينَا وَكُنَّا كَالْمَجُوسِ مُهَلِّلِينََا
فَأَنْفُسَنَا شَكُونًا لَا سِوَانَا لِمِثْلِ عُلَاكَ لَسْنَا لَا يُقِينَا

خَلَّتْ مِنْ رَاحِهَا كَأْسُ التُّدَامَى إِلَامَ الصَّمْتِ لِلْسَاقِي إِيَامَا
عَلَى الزَّفَرَاتِ مِنْي الْقَلْبَ أَطْوِي دُخَانًا لِلسَّرَاجِ مَحَا الظَّلَامَا (٢)

لَدَى الصُّوفِيِّ دِنَ مَا رَوَاهُ وَيَطْوِي مَكْتَبًا نَهَجًا طَوَاهُ (٣)
أَعَادَرَ مَجْلِسَ الشَّعْرَاءِ كَرَاهًا وَمَاتَ اللَّحْنُ فِي نَائِي حَوَاهُ
غَرِيبٌ ، مُسْلِمٌ ، عَن كُلِّ دَارِ وَلِي دُنْيَا أَعَافُ ، مِنَ العُبَارِ
وَهَذِي لَوْعَتِي مِنْ فَرْطِ عَجْزِي لِغَيْرِ اللَّهِ أَبْدَيْتُ اقْتِدَارِي

وَتَمَنُّخِنِي جَنَاحًا كِي أَطِيرَا وَالْحَانِي خَفَقْتُ بِهَا سَعِيرَا (٤)
فَهَلْ مِنْ مُسْلِمٍ يَخْشَاهُ مَوْتُ؟ أَطَلْتُ ، وَمَا وَجَدْتُ ، أَنَا الْمَسِيرَا

سَأَلْتُ اللَّهَ بِالدَّمْعِ السُّكُوبِ أَحَانَ لِمُسْلِمٍ رَفَعَ الكُرُوبِ؟

(١) يأسى : يحزن . يعجب لمن يحزنهم ضياع حجر من مسجدهم وهم الذين لا يدخلون للصلاة فيه .

(٢) يشبه الزفرات بالدخان . والزفرة في الفارسية تسمى دخان القلب .

(٣) يصطنع إقبال طريقة الصوفية في التعبير ، غير أنه يخالفهم في التفكير ويتناول أعمالهم وأقوالهم بالتنديد والتنديد . المكتب : المدرسة . والنهج : الطريق .

(٤) السعير : النار .

نِدَاءٌ ظَلَّ فِي سَمْعِي يُدَوِّي
لِمَاذَا أَدُّكُرُ الْمَاضِي الْمَجِيدَا
بِصَدْرِي قَدْ حَوَيْتُ أَنَا سِرَاجَا
« لَهُ قَلْبٌ وَأَقْفَرٌ مِنْ حَيْبٍ »
فَهَذَا الذُّكْرُ مَا كَانَ الْمَفِيدَا
وَفِي قَرْنَيْنِ أَنْسْتُ الْخُمُودَا^(١)

وَيَخْرُسُ كَعَبَّةً بِنَاءٍ دِير
وَتَقْضُرُ نَظْرَةً مِنْهُ وَفِيهَا
يَقِينُ مَاتَ فِيهِ رَنَا لِغَيْرِ^(٢)
تَجَلَّى يَأْسُهُ مِنْ كُلِّ خَيْر

وَتَشْرِيدٌ وَنَارٌ لِلْفَقِير
وَفِيهِ الْقَلْبُ ثَبَتَ أَوْ أَنْزَهُ
وَلِي مِنْ نَشْوَتِي^(٣) قَدْ تَرَنَّخَ
فَهَيَّبِي نَظْرَةً وَازَافَ بِحَالِي
مِنَ الْحَرْقَاتِ هَبْ نَارَ الضَّمِير
بِأَمَالِ الْيَقِينِ كَفَيْضِ نُور
بِلَا سَيْفِ دِمَاءٍ كُنْتُ أَسْفَخَ
فَلِي عَضْرٌ أَجَاهِدُهُ وَأَكْذَخَ

لَقَدْ آتَزْتُ أَنْ أَشْكَوَ وَجِيدَا
أَطْلُبُ مَكْتَبِي أَمْ هَانَ شَوْقِي
وَيَتْرَبُ رُمْتَهَا فَاجْتَزْتُ بِيَدَا
تَحْيِزُ ، حَيْرَتِي تَأْبَى الْمَزِيدَا

أَطِيرُ بِجَوِّهِ هَذَا الْمَحَبَّبِ
وَبَيْتُ اللَّهِ أَخْوِيهِ بِقَلْبِي
أَقُولُ السَّرَّ مِنْ مَا قُلْتُ يُفْهَمُ
أَمِيرَ الْقَوْمِ أَنْصِفْنِي فَإِنِّي
وَمِنْ عَيْمِ جَنَاحِي قَدْ تَرَطَّبِ
أُغْنِي مَا بِقَلْبِي ثُمَّ أَطْرَبِ
وَمَنْ مِنْ دَوْحَتِي الثَّمَرَاتِ يَطْعَمُ
عُرِفْتُ بِشَاعِرِ غَزَلٍ تَرْتَمُ

(١) آنس : رأى . والشاعر يشير إلى فساد حال القوم في القرنين الماضيين .

(٢) رنا : أدام النظر .

(٣) النشوة : السكر .

وَحُلَّتْ عُقْدَةُ الْمَعْنَى بِحَلِّي
فَدِرْهُمْ مُفْلِسٍ ذَهَبٍ بِصَفْلِي (١)

خِلَافَ الشُّعْرِ مَا أَبْغِي بِقَوْلِي
وَأُكْسِرَ لِعِشْقِي مَا أُرْجِي

وَمَنْ مَاتُوا حَدِيثَ الرُّوحِ ذَكَّرَ
بِمَوْتِهِمَا إِذَا مَا شِئْتَ بَشَّرَ
جَرَتْ عَيْنِي بِمِثْلِ الْأَرْجُونَ (٢)
فَهَذِي عُقْدَةٌ لِي فِي لِسَانِي

حَيَاةَ الْخُلْدِ عَنْهَا قَلْتُ خَبَّرَ
وَقَوْمٌ يَجْحَدُونَ الْحَقَّ قَالُوا
جَبِينِي مِنْ أَسَى كَالزَّعْفَرَانِ
وَحَالِي أَنْتَ تَعْلَمُ رَغَمَ صَمْتِي

وَذُو أَلَمٍ تُكَلِّمُهُ بِعَيْرِهِ
فَشَرَعِي لَا يَجِيزُ الْقَوْلَ مَرَّةً

غَرِيبٌ ، لِي لِسَانٌ وَهُوَ نَظَرَهُ
فَمِي أَوْصَدْتُ ، بِالْعَيْنِينَ أَرْنُو

وَزَمَزَمَ بَيْنَ صَلْصَالِ قَلْبِيَا (٣)
سَأْضَلِّي كُلَّ بَلْبَالٍ لَهْيَا (٤)
وَلِي أَمَلٌ وَنَبْعُكَ مَا رَوَاهُ
عَلَى مَنْ غَيْرِ ذَاتِكَ مَا طَوَاهُ

مَنْخَتُ الذَّاتِ مِنْ ذَاتِي غَرِيبَا
فَهَيِّنِي زَفْرَةَ حَرَّى وَمِنْهَا
زَفِيرٌ لَيْسَ فِي قَلْبِي سِوَاهُ
لَمَنْ أَشْكُو غَمُومًا فِي فُؤَادِي

وَنَارُ اللَّحْنِ مِنْهَا ذَابَ وَجَدًا
يُرُومُ الْقَلْبَ (٥) عَنْ دَارِينَ صَدًّا

غَرِيبٌ شَجْوَهُ بِالنَّايِ أَبْدَى
أَتَعْلَمُ مَا يَقُولُ وَمَا تَمْنَى

(١) الأكسير : ما كان يلقيه الأقدمون على الفضة ونحوها ليحيله إلى ذهب خالص .

(٢) الأرجوان : اللون الأحمر .

(٣) القلب : البئر .

(٤) البلبال : الهم .

(٥) يروم القلب : يُرِيدُ .

وما زهراً ولا قطراً أريد
وتعلو نظرتي عن كلِّ نجمٍ
ببحرٍ شَطَّه لم أدرِ بُغده
إلى البطحاء تأمرنا بسير
لتلك الريح ، شمك كم تجود
ورأيي لا أبدله سديد
دليلُ العاشقين القلبُ وحده
وإلا كنت ما وقفت عنده^(١)

أطرُد من يتوق إلى الحضور
بما أحبيت مُز إلا بصبر
ألمت ولسْتُ أعرَف بالصَّبور
عجزت أنا إليه عن المسير

دُمى الإفرنجِ قلبٌ لي تعشَّق
لقد أصبحتُ عن نفسي غريباً
ومن نارٍ لأهل الدير أحرق^(٢)
فما أذري وجوداً لي تحقَّق
يَحانِ الغربِ عاقزتُ الشَّراباً
وكم جالستُ أهلَ الحسنِ لكنْ
برُوحِي قَدْ شَرَيْتُ لي العذاباً^(٣)
بدتْ ييرانهم ثُلجاً مُذاباً

فقيراً فلتحقَّق لي رَجائي
سئمتُ الدرسَ يلقىهِ حكيماً
هشيمي اجعله قلباً في الفِضَاءِ^(٤)
فلي من نظرتي فيضُ الذكاءِ

-
- (١) البطحاء : مكة المكرمة .
(٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقوشة أو الصنم . وشعراء الفرس يشبهون الحسناء بالصنم في الحسن . والشاعر يشير من طرف آخر في تهكم وسخرية إلى التهافت على تقليد الغربيين .
(٣) عاقر الخمر : أدمن شربها . شريت : اشتريت .
(٤) الهشيم : ماتكسر من يابس النبات .

أَنَا الصُّوفِيَّ وَالْمَلَأَ أَجَافِي
عَلَى صَفْحَاتِ قَلْبِي « اللهُ » فَكَتَبْتُ
فِي قَلْبِي لَمَلَأَ الْقَمَّ حَلًّا
أَوْلَى مِنْ مَجَالِسِهِ فِرَارًا
وَتَعَلَّمْتُ مَنْ أَكُونُ بِلَا خِلَافٍ (١)
لِأَشْهَدَهُ وَذَاتِي بِالشُّغَافِ (٢)
وَهَلْ بِالدَّمْعِ بَلَّ الْعَيْنَ بَلًّا
أَزِينُ حِجَازَهُ بِالْبَثْرِ؟ كَلَّا

يَقُولُ الْقَوْلَ نَضْلًا لِلْحَرَابِ
وَتَخْجَلُنِي الصَّرَاحَةُ فِي كَلَامِي
وَفِي حِضْنِي لَهُ كَمٌ مِنْ كِتَابِ
عَنِ الذَّاتِ اخْتَفَى لَا عَنْ صِحَابِ (٣)

أَجِبْ بِاللَّهِ مِنْ مَلِكِ الْقُلُوبَا
كِلَانَا مَنْ رَمَى فِي الدِّينِ سَهْمًا
وَلَسْتُ بِمُخْفَلِي غَيْرِ الْغَرِيبِ
ذُبُوعِ السَّرِّ يَبِينُ الْقَوْمِ أَحْشَى
وَمَنْ قَدْ أَلْهَمَ الشُّوقَ الْمَذِيبَا
فَقُلْ فِي الرَّمِي مِنْ كَانَ الْمَصِيبَا
لَمَنْ فِي مُشْكِلِي شَكْوَى كُرُوبِي؟
شَكَاتِي صَنْتُ عَنْ قَلْبِي الْكَثِيبِ

وَقَلْبِي لَسْتُ أَسْلَمُهُ لِأَيْدِي
إِلَى غَيْرِ الْإِلَهِ رَفَعْتُ عَيْنِي
أَضِيقُ بِعَقْدَتِي وَأَجِلُّ وَخَيْدِي
لِذَا مِنْ قَمَّتِي كَانَ التَّرْدِي

- (١) الملا : كلمة تركية مأخوذة عن العربية (مولى) . وهي بمعنى الشيخ والمعلم والقاضي . والشاعر يطلقها على الشيخ والفقير وغير الصوفي .
- (٢) الشغاف : غلاف القلب أو حبه . وإقبال يجري على مألوف الصوفية من تجريح غير المتصوفة . غير أنه يريد ليخرج ضيقي الأفق من المسلمين المتزمتين الجامدين .
- (٣) يعبر إقبال عن نزعة الفكرية التحررية ورغبته في فهم الدين حق الفهم بنجوة عما لا يقره الدين من جمود على الأساطير والأوهام ، ويبالغ في وصف من نظروا في أحكام الدين بلا عقل ولا روح . والمبالغة تفهم على أنها مبالغة إلا أنها تؤكد المعنى وتؤيد الغرض .

بِزُّ أُمِّي جَمْرَةٌ هَذَا الْجَنُونَ بِصَدْرِي فَوْرَةٌ هَذَا الْفُتُونُ^(١)
 وَمِنْ أَمْوَاجِ طُوفَانٍ تَقْضَى بروحي الموجُ يجفوه الشُّكُونُ^(٢)
 لِهَذَا التَّرْبِ مَا زَالَ الشَّرَارُ لهذا الصدرِ زفرُ الفجرِ نَارُ
 بِمَا أَهْدَيْتَ مِنْ نُورِ التَّجَلِّي على نظيرِ لعينيَّ اقْتِدَارُ

أَشَاهِدُ غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ أَرْغَبُ وَيِنَّ جَوَانِحِي قَلْبٌ تَلَهَّبُ
 وَهَذَا الْعَضْرُ مِنْ رَوْحٍ تَخْلَى فقل ما السُّرُّ أو مثلي تَعَجَّبُ^(٣)

وَفِي عَصْرِ بَلَا لَهَبٍ خُلِقْتُ تُرَابِي فِيهِ مَا يَهْفُو مُنْخَتُ
 وَفِي عُنُقِي حَيَاتِي مِثْلُ حَبْلِ على عودِ كَأَنِّي قَدْ صُيِّبْتُ
 وَمَا لِلزَّهْرِ أَلْوَانِي وَرِيحِي يَضِيقُ الصَّدْرُ بِالْأَمْلِ الْجَرِيحِ
 وَمَا وَسِعَ الْكَلَامُ أَسَى خَفِيًّا لِمَنْ أَشْكَو بِقَوْلٍ لِي صَرِيحِ

وَفِي شَرْقٍ وَفِي غَرْبٍ غَرِيبُ فُوَادِي لَا يُوَاسِيهِ الْحَيْبُ
 هُمُومُ الْقَلْبِ أَشْكَوهَا لِقَلْبِي فَكَانَ لِغُرْبَتِي خَذَعٌ عَجِيبُ

لِعِلْمِ الْيَوْمِ أَنْبَلْتُ الطَّلَسْمَا^(٤) حَطَمْتُ حَبَائِلًا بِالْحُبِّ حَطْمًا

(١) الجنون عند المتصوفة هو جذبة العشق الإلهي .

(٢) تقضى : مضى وانتهى .

(٣) تخلى منه وعنه : تركه .

(٤) الطَّلَسْمُ وَالطَّلَسْمُ ، ج : طلاسَم وطلسمات ، يونانية معرّبة : خطوط وأعداد يزعم

كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع

أذى وهو ضرب من السحر .

وإِزَاهِيمَ مَنْ أَشْبَهْتُ حَقًّا فَمَا كَانَتْ لَدَيَّ النَّارُ هَمًّا
حَبَوْتُ الْعَيْنَ بِالْبَصْرِ الْبَصِيرِ وَقَوْلُهُ « لَا إِلَهَ » كَفَيْضِ نُورِ
وَفَجْرًا فَلْتَهَبَ مِنْ « مَنْ رَأَى » فَلَيْلِي مِنْكَ ذُو الْبَدْرِ الْمَنِيرِ^(١)

وَفِي يَوْمٍ جَذَبْتُ إِلَيَّ ذَاتِي بِأَنْوَارٍ مَقَامِي مُشْرِقَاتِ
بِهَذَا الدَّيْرِ مِنْ نَعْمَاتِ فَجْرِ خَلَقْتُ ذُنَى الْقُلُوبِ الْوَالِهَاتِ^(٢)

بِعَالَمِنَا جَنَّانٌ عَالِيَاتُ لدوحتها دموعي الجارِيَاتُ^(٣)
سَكُونٌ كَانَ حَتَّى الْيَوْمِ فِيهَا فَأَيَّامٌ لَأَدَمَ آتِيَاتُ
أَلَا هَبَهَا فَتَى يَخْتَالُ فِيهَا هَوَاهُ الْكَأْسُ دَارَتْ يَحْتَسِبُهَا
نَرَاهُ مِثْلَ حَيْدَرَ فِي قِوَاهُ مَنَى الدَّارَيْنِ مَا إِنْ يَشْتَبِهَا^(٤)

أَدِرْ يَا صَاحِبَ كَأْسَاتِ النُّدَامَى وَزِدْ فِي نَيْي أَلْحَانِي ضِرَامَا^(٥)
وَهَذَا الْقَلْبُ رُدًّا إِلَيَّ ضُلُوعِي لِأَفْضَلِ كُلِّ مَنْ مَلَكَوَا ، مَقَامَا

وَمِنْ عِشْقِ لَنَا الدُّنْيَا بِصَدْرِكَ وَتَفْرَحَ فَرَحَةً نَشْوَى بِصَدْرِكَ
فَمِنْ جِبْرِيلَ ؟ إِنِّي لَسْتُ أَدْرِي أَأَبْدَتْ جَوْهَرًا مِرْزَاةَ صَدْرِكَ

(١) إشارة إلى القول الذي جاء فيه (من رأى فقد رأى الله) كذا في الأصل .

(٢) الدنى : جمع دنيا .

(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .

(٤) حيدر : هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٥) أدار الكأس : طاف بها على الشاربين .

فُوَادِي لَمْ يُمِقْ أَحَدًا بِمَعْبَدٍ مُقَامِي أَيْنَ ؟ كُنْتُ بِهِ الْمُقَيَّدَ (١)
إِلَيْهِ يَبْتَغِي مِنِّي سُجُودًا ! لَقَدْ حَطَّمْتُهُ وَهُوَ الْمَبْدُ

وَهَذِي زَهْرَةٌ نَبَتَتْ بِتُرْبِي بَدَتْ فِي حَمْرَةٍ مِنْ ذُوبِ قَلْبِي
تَقْبَلُهَا ، بِهَذَا الْقَلْبِ رَفَقًا فَلِي قَلْبٌ ، وَهَذَا الْقَلْبُ حَسْبِي (٢)

لِهَذَا الشَّعْبِ إِنِّي قَدْ خَفَقْتُ وَلِحِنِي النَّارَ فِي رُوحِي خَلَقْتُ
وَجِزُّ الْقَوْلِ خَيْرُ الْقَوْلِ قَالُوا خَفَقْتُ ، خُلِقْتُ ، لَكِنِّي اسْتَرَحْتُ
بِفِطْرَةٍ مِنْ تَمَجَّنَ رَمْتُ صِدْقًا وَتَحْرِقُ زَفَرَتِي الْأَرْوَاحَ حَزَقًا (٣)
سَحَابًا لِلرَّبِيعِ فَهَبْ تِرَابِي وَفِيهِ الْحَبُّ أَنْشَرُهُ لِيَبْقَى

بِكَفِّي الْقَلْبُ ، مَالِي مِنْ حَبِيبِ مَتَاعٌ لِي ، فَمَنْ لَصَّ الدُّرُوبَ ؟ (٤)
وَهَذَا الصَّدْرُ فَلْتَسْكُنْهُ دَارًا وَحِيدٌ ، لَا أَشْبَهُ بِالْغَرِيبِ

بَيْتِ اللَّهِ كَالرُّومِيِّ أَذَانِي فِسْرُ الرُّوحِ أَوْضَحُ وَالْمَعَانِي (٥)
طَوَاهُ بِفِتْنَةٍ عَصْرٌ قَدِيمٌ وَلَكِن لِي الْجَدِيدُ مِنَ الزَّمَانِ
لَكَ الْبِسْتَانُ أَنْبَتْ مِنْ تِرَابِي وَلَوْنُهُ بِدَمْعِي فِي انْسِكَابِ

(١) ومق : أحب .

(٢) حسبي : كفايتي .

(٣) تمجن : تكلف المجانة وهي عدم المبالاة بالأعمال والأقوال .

(٤) الدروب : جمع درب وهو الطريق .

(٥) الرومي : هو جلال الدين الرومي .

وما أملتُ سيفَ أبي ترابٍ فهبْ عيناً كسيفِ أبي ترابٍ^(١)

على شطِّ يطولُ به الوقوفُ فعن عملٍ وعن أملٍ عزوفُ^(٢)
لمنْ غيري أنا المسكينُ حقاً على أسراره كان الوقوفُ

ومن مناهُ للمحبوبِ عطراً وهذاك الربيعُ يرفُّ زهراً^(٣)
تناسى قَوْلَةَ قِيلَتْ فمندا على قصبائه بالنارِ مراً
غديري هبْه دُرّاً مِنْ بِحَارِكُ متاعي ضَعْ بطودك أَوْ قِفَارِكُ^(٤)
بطوفانٍ فَمَا فتحتُ قَلْبِي فهَبْنِي غيرهُ طوعاً وبارِكُ

أثرتُ الوجودَ في نايي ، تأملُ بناري ذبتُ مُختلياً ، تأملُ
عرفتُ الفقرَ عن سَلْفِي قَدِيماً عن السلطانِ إحجامي ، تأملُ

(١) أبو تراب : كنية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد أطلقها عليه النبي ﷺ .
والخير في هذا أن علياً دخل على فاطمة ثم خرج فأتى ﷺ فاطمة وسألها أين ابن
عمك ؟ قالت : إنه مضطجع في المسجد . فمضى النبي إليه فوجد رداءه ساقطاً عن
ظهره ، فجعل يمسح عنه التراب ويقول اجلس أبا تراب . وفي رواية أخرى أن علياً
وعمار بن ياسر كانا رفيقين في غزاة ذي العشيرة ونزلها الرسول صلوات الله وسلامه
عليه وأقام بها . وجعل علي وعمار ينظران إلى من يعملون في نخل هناك ثم أخذتهما
سنة وتتربا وجاء النبي فحرك علياً وقال له يا أبا تراب حين رأى عليه التراب . وكان
يطيب له كرم الله وجهه أن يدعى بأبي تراب .

(٢) عزف عن الشيء : أعرض عنه .

(٣) رف الزهر : تلالاً نضرة .

(٤) الطود : الجبل . القفار : الصحارى .

كشفتُ اللبسَ عن مَعْنَى بِنِّي
بِوَافِي مَرَّةً وَيَغِيبُ عَنِّي
ضَمِيرَ العِيشِ أَفْتَحُهُ وَوَيْدًا^(١)
أَعْنِي مَا أَغْنِيهِ وَحَيْدًا

عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَالِي أَعْنِي
مَعَ المَحْبُوبِ تَسْأَلُ كَيْفَ حَالِي
لَقَدْ شَارَكْتُ فِي وَجْدٍ وَرُودًا
فَمَنْ لَقَنْتَ شَوْقِي لَيْتَ شِعْرِي؟

وَقَدْ شَاهَدْتُ أَعْمَاقَ الثَّرِيَّا
فَمُشْكَلُ (لا) أَرَى صَعْبًا عَلَيَّا^(٢)

بُنُورِكَ كُنْتُ أَفْتَحُ مُقْلَتِيَا
وَإِنِّي مُسَلِّمٌ يَالْهَيْفَ نَفْسِي

وَبَدءُ وَانْتِهَاءُ مِنْكَ ، حَسْبِي
رَسُولُ اللَّهِ يَا رَحْمَنُ ، حَسْبِي
فَلِإِنَّهَارٍ مِنْ حَجَرٍ تَفْجُزُ
يُزَيِّنُ بِالتَّلَوْنِ وَالتَّعَطَّرُ

بَارِضِكَ حَرْقَةُ الأَلْحَانِ حَسْبِي
لِرَبِّي قَلْتُ مَتَشِيئًا بِوَجْدِي
مَنْ الأَشْوَاقِ نَائِرَتِي لَتَنْظُرُ
وَلَيْتَ ابْنِي بِعَشْقِكَ فِي دَوَامٍ

بَدَا قَمْرًا لِعَيْنِ النَّاطِرِينَا
وَقَاهُ اللَّهُ عَيْنَ الكَافِرِينَا

قَتَى الإِفْرَنْجِ^(٣) فَلْتَشْهَدْهُ جِينَا
قَتَانَا سَادِجٍ مِنْ قَرْطِ ظُرْفِ

وَمَنْ لِسَوَاكَ كَانُوا نَاطِرِينَا
نَصِيبًا هَبْ جَمِيعَ المُسْلِمِينَا
لِتَسْكُنَ دَائِمًا قَلْبَ الحَيِّبِ

يَمِينِكَ مُدَّهَا لِلْعَائِرِينَا
فَمِنْ نَارٍ أَضْرَمَهَا بِرُوحِي
إِلَيْكَ الرِّاحِ مِنْ كَاسِ الحَيِّبِ

(١) وئيداً : على مهل .

(٢) في الأصل (لا إله) .

(٣) الإفرنج والإفرنجة والفرنج : اسم لسكان أوربة كلها ما عدا الأروام والأتراك .

أَيَا هَذَا (المليك) أَذَا سُجُودًا ! لَتَكْنِسَ مُقْلَتِي دَارَ الْحَيْبِ (١)

لَكَ السُّلْطَانُ لِكُنِّي فِقِيرُ لَأَرْضِ الرُّوحِ وَالْمَعْنَى أَمِيرُ (٢)
وَدُنْيَا « لَا إِلَهَ » بَدَثَ تَأْمَلُ حَوَاهَا كُلَّهَا مِنِّْي ضَمِيرُ

دَوَاءٌ لَيْسَ يَنْجَعُ فِي سَقَامِي فَإِنِّي الشَّيْخُ قَدْ وَهَنْتُ عِظَامِي
أَلَّا يُلْقَوْنِي عَنْهُمْ بَعِيدًا أَلَسْتُ لِدِينِهِمْ أَحَدَ السَّهَامِ !
تَعَالَ وَفِي اغْتِنَاقِ نَحْنُ نَرْقُصُ وَدُنْيَانَا نُجَافِيهَا ، وَنَرْقُصُ (٣)
وَعِنْدَ دِيَارِ مَنْ نَهَوَى تَوَقَّفَ دِمَاءَ الْعَيْنِ نَذْرُفُهَا ، وَنَرْقُصُ

(١) في الأصل اسم أحد الملوك .

(٢) يتردد ذكر الفقر والفقير كثيراً في هذا من شعر إقبال . والفقر من مقامات التصوف .
ويعرف بأنه ليس فقدان الشيء بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه . وشعار الصوفية (الفقر
فخري) وقال بعضهم : إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله لأنهما حالان لا يتم
أحدهما إلا بالآخر ، ويرى إقبال أن الفقر خلاص النفس من الطمع وتعفها عن ذل
الحرمان . وهذا ما يكفل لها أن تعمل وتقدم منطلقاً من كل قيد . وفي كتابه جاويدانامه
الذي ترجمناه بعنوان (في السماء) يبذل النصح لولده قائلاً :

إن رأست القوم أو صرت الغنيا فعلى الفقير احرصن يا بنيا
(٣) يتلو إقبال تلو المتصوفة من أتباع جلال الدين الرومي الذين كانوا يستعينون بالرقص
والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . ففي رأيهم أن الرقص ينتزع
نفوسهم من عالم الثرى ليمسوا بها إلى العالم العلوي . كما يثير الطرب والخوف عند
التائبين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي ما ترجمته :
(إذا ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيتين متباينين فما أمواج البحر إلا البحر نفسه
ولكن في ارتفاع وانخفاض . والموج بعد هبوطه إلى البحر يؤوب . وما مثل البحر إلا
مثل بني الإنسان لأنهم أمواج الله وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .

بِصَخْرَاءَ لَكَ اخْتَرْتَ الْمَقَامَا
فَفِي أَيِّ الْبَقَاعِ خِيَامَكَ انْضُبْ
وَبَشِيرُهُ لَيْلَهَا الصَّبْحَ ابْتِسَامَا
وَكَانَ الْجَبَلُ مِنْ أَحَدِ حَرَامَا^(١)

بِأَرْضٍ تَخْتَوِينَا الْيَوْمَ ضِيقَنَا
أَرَاهُمْ سَجْدَةً قَدْ عَلَّمُونَا
وَمِنْ كِلِّ السَّمَوَاتِ انْطَلَقْنَا
لَقَدْ كَذَبُوا وَإِنْ بَدَلُوا وَعُودَا
وَكُنْهَ الْحَاكِمِينَ بِهَا عَرَفْنَا
وَشَكَّلَ عَالَمًا حُرًّا جَدِيدًا^(٢)
عَنِ الْإِفْرَنْجِ فَلْتَكُنِ الْبَعِيدَا
لَكَ النُّظْرَاتُ خُذَهَا عَنِ «مَلِيكَ»

(١) يقول : إن اقتراض جبل الخيمة من أحد حرام .
(٢) في الأصل اسم أحد الملوك .

القسم الثالث

المُجْتَمَع

عَدِمْتُ أَنَا كَلَامَ الْعَارِفِينََا فَطَبِعِي كَانَ طَبَعَ الْعَاشِقِينََا
 بِدَمْعٍ مِنْ دَمٍ فِي الرُّوضِ هَذَا لِفَرْطِ الْوَجْدِ أَفَعَمْتُ الْعِيُونََا^(١)
 وَدَارَكَ تَشْبَهُ الْقَمَرِ الْجَدِيدَا بِأَوْجِ سَمَاكَ حَاوِلَ أَنْ تَزِيدَا
 سَتَسْمُو إِنْ وَهَبْتَ اللَّهُ قَلْبَا طَرِيقَ الْمُصْطَفَى فَاسْلُكْ رَشِيدَا

عَلَوْتُ كَمَوْجَةٍ مِنْ بَحْرِ دَاتِي كَمَنْتُ كَجَوْهَرٍ تَحْتَ الصَّفَاةِ^(٢)
 وَكَانَتْ غَضَبَةُ النَّمْرُودِ مِنِّي أَعْمُرُ بَيْتَ رَبِّي فِي حَيَاتِي

بِجَامِكَ سَاقِي الْجُلَاسِ أَقْبَلُ عَلَى الدَّارَيْنِ هَذَا الذُّبُلِ أَسْبَلُ^(٣)
 حَقِيقَتَنَا لَنَا الْخُمَيْرُ أُنْدَى لِمَلَا لَا تَقُلْ « ذَا الدِّينِ قَاعِقِلُ »^(٤)
 تَعَالَ عَنِ الْجَبِينِ اطْرَحْ نِقَابَا فَدَمْعِي يَخْتَوِي قَلْبِي الْمَذَابَا
 يَلْخُنْ لَيْسَ مِنْ شَرْقٍ وَعَرْبٍ لَتَعْرِفَ (لَا تَخَفْ) تُطْرِبُ صِحَابَا^(٥)

وَمِنْ صَدْرِ لَكَ التَّكْبِيرَ صَعَّدُ وَبِالْأَكْسِيرِ تُزْبِكُ فَلْتَجِدُدُ
 وَذَاتِكَ فَاْمَلِكَنَّ تَعِشْ سَعِيدَا لِنَفْسِكَ هَذِهِ الْأَقْدَارَ حَدُدُ

(١) أفعم : ملاً .

(٢) الصفاة : الصخرة .

(٣) أسبل ذيله على الشيء : أهمله وتناساه .

(٤) الخمير : السكر . ويطلق على الصوفي الذي انتشى بالعشق الإلهي .

(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ قَلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ والخطاب من

الله تعالى إلى موسى حين تفوق على السحرة وأبطل كيدهم .

يَبْلُكَ الذَّاتِ شَارَفَتِ الْكَمَالَ
 إِذَا مَا قُلْتَ ذَاتِي لِي مَتَاعٌ
 وَأَنْتَ الذَّاتُ يَوْمًا إِنْ تُشَاهِدُ
 وَتِلْكَ الذَّاتُ إِنْ غَرَبْتَ عَنْهَا
 وَإِلَّا كُنْتَ لِلْعَبْدِ الْمِثَالًا
 فَنَسِيَانٌ لَهَا لَيْسَ الْحَلَالًا^(١)
 تَقَرُّ كَجَوْهَرٍ فِي الْبَحْرِ رَاقِدٌ
 فَأَنْتَ لِأَجْلِ هَلِكِكَ مَنْ تُجَاهِدُ

كَشَفْتَ السُّتْرَ عَنْ وَجْهِ الْمَصَائِرِ
 وَمِمَّا قُلْتَ إِنْ أَضْمَرْتَ شِكَاً
 يَنْهَجُ الْمُضْطَفَى سِرَّ يَا مُسَافِرُ^(٢)
 فَمَتَّ يَا مَنْ شَكَّكَ وَأَنْتَ كَافِرُ

لِتُرْكَ فَتُحُوا مَا أَوْصَدُوهُ
 تَمَسَّكَ إِنْ ظَفِرْتَ بِذَيْلِ ذَاتِ
 إِذَا قَوْمٌ رَيْبُهُمْ تَوَلَّى
 وَتُبِّتَ أَرْضُهُمْ زَهْرًا وَلَكِنْ
 وَفِي مِضْرَ أَسَاسٍ وَطَدُوهُ
 يَغْيِرِ الذَّاتِ ذَا لَمْ يَغْهَدُوهُ
 فَعِطْرُهُمُ التَّوَهُُّمُ لَيْسَ إِلَّا
 تُشَاهِدُ لِلذُّبُولِ عَلَيْهِ ظِلًّا

وَلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ رَبِّي لِشَغْبِ
 وَلَكِنْ لَا يُحِبُّ اللَّهُ شَغْبًا
 زِمَامًا يَمْلِكُونَ لِكُلِّ أَمْرٍ
 بِهِ الْفَلَاحُ يَزْرَعُ كَيْ يُلْبِي

مِنَ الرَّازِي كِتَابَ اللَّهِ فَافْهَمْ
 وَلَكِنْ لِي كَلَامٌ فِيهِ فَاَنْظُرْ
 وَمِنْهُ الثُّورُ خُذْ فَاللَّيْلُ أَظْلَمُ
 أَنْخِيَا بِالْفُؤَادِ وَمَا تَضَرَّمُ^(٣) ؟

(١) يوجه الخطاب إلى المسلم .
 (٢) النهج : الطريق . وإن أريد بالكلام خلاف ظاهره ، فالمسافر في الاصطلاح هو من سافر بفكره في المعقولات والاعتبارات فعبّر من الدنيا إلى الآخرة .
 (٣) تَضَرَّمُ : احتدم غيظاً .

الذاتية

لِذَاتِكَ لَا إِلَهَ فَضَمَّ مَرَّهٗ لَتَخْرُجَ مِنْ تُرَابٍ مَاتَ نَظَرَهُ
وَلَا تَقْبِضُ يَمِينِكَ عَنِ صُيُودِ لَهُ الْقَمَرَانِ فِي وَهَقٍ بِجُرَّهٗ^(١)

جَهْوٌ ، عِلْمٌ هَذَا الْقَلْبِ ، فَاعْلَمْ طَرِيقَكَ مِثْلَ مَنْ سَبَقُوكَ ، فَاعْلَمْ
تَمَكَّنَ مُؤْمِنٌ مِنْ كَشْفِ سِرِّ بِلَا مَوْجُودٍ إِلَّا اللَّهُ ، فَاعْلَمْ^(٢)

بِقَلْبِكَ مَا اخْتَفَى هَذَا اللَّهَابِ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا لِلنُّورِ بَابِ
طَرِيقِ الذَّاتِ فَاَنْضَحْهَا بِمَاءِ لِبَحْرِ لَا يَرَى فِيهِ الْعِبَابِ^(٣)

(١) لإقبال فرط اهتمام بالذات أو الذاتية ويجعلها من أهم مقومات فلسفته ، فعنده أن الذاتية جوهر الحياة وأساس نظامها وهي تستمد كيانها من تحديد الرغائب وتخليق الأماني . وهذا باعث على العمل في دوام . وينبغي للإنسان أن يعرف مواهبه الكامنة في فطرته ويعتمد على ذاته وحدها . وقوة الذات هي معنى الحياة والغاية منها وبها جمالها وجلالها . الصيود : الكثير الصيد . القمران : الشمس والقمر . الوهق : حبل يطرح في عنق الدابة لصيدها به .

(٢) يلمح إقبال إلى وحدة الوجود وهي أنه لا وجود في هذا الكون إلا لله وكل ما فيه صورة منه ، وذلك كالماء الذي يتشكل في صور شتى كالندى والثلج والبرد وهو ماء واحد لا وجود لسواه .

(٣) نضح بالماء : رش وبل . والعباب : الموج .

أنا الحق

(أنا الحق) ذِي مَقَامِ الْكِبَرِيَاءِ أَكَانَ لَهَا الصَّليبُ مِنَ الْجَزَاءِ!؟
فَهَذَا جَائِزٌ فِي رَأْيِ فَرِيدٍ وَيَبْطُلُ عِنْدَ قَوْمٍ بِالْإِبَاءِ^(١)

أَلَيْسَتْ قَوْلَةٌ لَأَقْتِ بِشَغَبٍ يَجُودُ دَمًا لِعُضَنِ فِيهِ رَطْبٌ
جَلَالٌ فِيهِ قَدْ أَخْفَى جَمَالًا تَجَلَّى فِي سَمَوَاتِ لِقَلْبِ

وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ سَمَا مَقَامَا فَلِلدَّارَيْنِ قَدْ كَانَ الْإِمَامَا
وَلَمْ يَمْسُسْهُ فِي خَلْقِ لُغُوبٍ عَلَيْهِ النَّوْمُ يَجْعَلُهُ حَرَامَا^(٢)
سَعِيرُ الْقَلْبِ تَشْهَدُهُ الْعُيُونُ وَدُنْيَاهُ الْهَشِيمُ وَكَمْ يَهُونُ
يُبِينُ بِهِمَّةٍ مَعْنَى أَنَا الْحَقُّ وَتَأْتِي بَعْدَ كُنْ دَوْمًا يَكُونُ^(٣)

جَنَاحٌ مِنْهُ يَخْفِقُ فِي الْفَضَاءِ وَيَزُمُّقُ عِشَّهُ وَالْعُشُّ نَاءٌ

(١) الحلاج : هو الحسين بن منصور ذلك الصوفي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بشططه وغلوه في تصوفه ، وكان شديد الحرص على نشر تعاليمه بين سواد الناس وهو في ذلك يختلف عن الكثرة الكاثرة من شيوخ المتصوفة الذين كانوا يميلون إلى الكتمان والظن بعلمهم على غير أهله . وقد قال الحلاج بالاتحاد ولكن مع بقاء كل عنصر من عنصريه على حاله ، واتهم بالكفر لقوله (أنا الحق) وصلب عام ٣٠٩ هجرية . وقد أوردنا قوله بسكون القاف كما ينطق في الفارسية ، وفي رأي أن الحلاج حين قال (أنا الحق) كان مؤمناً بأن الله في قلب المؤمنين الذين يتخلقون بأخلاقه وبفضل من ذلك يصبح المؤمن (هو هو) .

(٢) اللغوب : التعب يقول إن رغبته في التخليق تحرم عليه أن ينام .

(٣) السعير : النار .

وَفِي وَهْتٍ لَهُ الْقَمَرَانِ صَيْدٌ وَطَوْعٌ يَمِينِهِ كُلُّ الرَّجَاءِ (١)

بِشْتَانٍ تَرَاهُ الْعُنْدَلِيَّيَا وَصَفْرَاءَ كَانَ فِي مَزَجٍ مَهِيَّيَا
أَمِيرٌ فِيهِ قَدْ يَبْدُو فَقِيرًا فَقِيرٌ مِنْ غَنَى نَالَ النَّصِيَّيَا
إِلَيْكَ الْكَأْسَ أَفْعَمُهَا بِخَمْرٍ وَنُورَكَ صَبَّ فِي جُحْرِ وَقَضْرٍ
وَنَلَّ مِنْ غُضْنٍ مَنْصُورٍ ثَمَارًا وَقَلْبُكَ فِيهِ (إِلَّا اللَّهُ) تَسْرِي (٢)

الصوفيُّ والمُلاّ

هُوَ الْمَلَأُ ، عَبُوسٌ وَالْكَتَابُ وَقَشْرًا لَا يَمِيزُ مِنْ لُبَابِ
بَيَّتَ اللَّهُ يَطْرُدُنِي لِديني وَذَلِكَ لَيْسَ بِالشَّيْءِ الْعُجَابِ (٣)

بَيَّتَ اللَّهُ صَيَّادٌ وَدَيْزُ وَلِلصُّوفِيِّ لَمْ يَكُ أَيُّ صَيْرُ (٤)
عَلَى الْمَلَأُ قَصَصْتُ الْآنَ هَذَا جَوَابًا لَمْ يَحِزْ وَدَعَا بِخَيْرِ !
تَحَدَّثَ وَاعْظُ لِي عَنْ جَهَنَّمَ وَمِنْهُ كَافِرٌ فِي الْقَوْلِ أَحْزَمُ
غُلَامٌ حَالُهُ مَا إِنْ ذَرَاهَا وَقَالَ « جَهَنَّمُ لِسِوَايَ فَاعْلَمُ »

-
- (١) الوهق : حبل يطرحه الصياد في عنق الدابة لصيدها .
(٢) منصور : الحلاج وفي الأصل (لا غالب إلا الله) .
(٣) يريد ليقول إن المتزمتين الجامدين لا يفقهون قوله ويتمونه بركة الدين .
(٤) يريد الغريبي . ويشير إلى الصوفي في تجادله وعجزه عن دفع عادية الأجانب ، كما يعيب على الشيخ رضاه بالأمر الواقع وعدم الوقوف في وجه المعتدين على حرمة الدين وكرامة المسلمين .

مَرِيدٌ كَانَ ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ لِشَيْخٍ فَاهٍ بِالْقَوْلِ الشَّدِيدِ
« وَجَنَى الرُّزْقِ مَوْتُ ، مِنْ تُرَابٍ تَكْوَمٌ فَوْقَ هَاتِيكَ اللُّحُودِ »

لِشَيْخٍ كَانَ ذَا قَوْلٍ الْغَلَامِ « تَأَمَّلْ وَاسْتَمِعْ لِي بِإِهْتِمَامٍ
لِهَذَا الْعَضْرِ نَمْرُودٌ جَدِيدٌ فَمِنْهُ اخْلُقْ خَلِيلاً لِالْأَنَامِ »
لِمَلَأَ أَوْ لِصُوفِيٍّ أَسِيرًا وَفِي الْقُرْآنِ لِلْعَيْشِ الْكَثِيرِ
مِنَ الْآيَاتِ مَا أَدْرَكْتَ شَيْئاً وَمِنْ ﴿ يَاسِينَ ﴾ بُغَيْتِكَ الْحَفِيرِ ^(١) !

لَكَ الْقُرْآنُ كَالْمِزَاقِ فَانْضُبْ وَنَفْسَكَ دَعْ إِذَا غُيِّرَتْ وَاهْرُبْ
لِمَا قَدَّمْتَ مِيزَاناً لِتَضْنَعُ وَفِي الْمَاضِي قِيَامَاتٍ لِتَطْلُبْ

عَلَى الصُّوفِيِّ وَالْمَلَأَ سَلَامِي كَلَامُ اللَّهِ قَالَا بِالْتَّمَامِ
وَلَكِنَّ أَوْلَا مَا أَوْلَاهُ فَحَارَ الرُّوحُ بِلْ خَيْرِ الْأَنَامِ ^(٢) !

جَلَالُ الدِّينِ الرَّؤْمِيِّ

تَرَشَّفَ يَا نَدِيمَ الرُّوحِ خَمْرًا لَهَا كَأْسٌ تُسَاوِي مُلْكَ كِسْرَى

(١) يدعو إقبال إلى النظر في القرآن الكريم وتدبر آياته البينات التي تهيب بالناس ليحيوا حياة حرة كريمة وتهدى إلى ما تصلح به الدنيا والدين ، وفيها الوزع عن حياة الخمول والجمود ويسخر ممن لا هم له إلا سورة ﴿ يس ﴾ فقد جرت العادة بقراءتها في المقابر . والحفير : القبر .

(٢) الروح : سيدنا جبريل . وخير الأنام : هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وإقبال لا يرتضي تفسير القرآن تفسيراً سطحياً .

وَلِلرُّومِ أَشْعَارُ رِقَاقٍ فَلَذِ بِحِمَى فُؤَادِكْ حِينِ تَقْرَأُ

وَفِي كَاسَاتِهَا لَوْنٌ تَوَرَّدُ بِهِ الْيَاقُوتُ يُضِيحُ كُلَّ جَلْمَدٍ^(١)
وَقَلْبُ الْأَسَدِ تَمَنُّحُهُ غَزَالًا وَمِنْهَا الْوَسْمُ عَنِ نَمْرِ تَبَدَّدُ

وَفِيهَا سَوْرَةٌ مِنْهَا نَصِيبِي دُجَايَ سَنَا يَكُوكِبُهَا الْعَجِيبِ^(٢)
فَشَاهِدْ فِي الْحِمَى إِنْ شِئْتَ ظَنِيًّا بَدَا فِي بَسْمَةِ الْأَسَدِ الْغَضُوبِ^(٣)
حَيِّبٌ حُبُّهُ كَانَ اخْتِرَاقِي وَمِنْهُ الْوَضْلُ يَنْطِقُ عَنِ فِرَاقِ
جَمَالُ الْعِشْقِ مِنْ نَائِي لَدَيْهِ تَزْيِينِ مِنْ عِلَاءٍ بِائِتِلَاقِ

وَلِي عُقْدِي ، فَحَلَّ بِمَا يَشَاءُ عُبَارٌ فِي طَرِيقِي الْكِيمِيَاءِ^(٤)
وَأَسْمَعَنِي لَهُ أَنْغَامَ نَائِي فَفِي سُكْرِي وَفِي عِشْقِي رَجَاءُ

وَهَا قَدْ فَتَحُوا بَاباً لِقَلْبِي كَمَا خَلَقُوا لَهُمْ دُنْيَا يَتْرَبِي^(٥)
وَمِنْ قَيْضٍ لَهُ نِلْتٌ اعْتِيَارًا فَبِي مَا حَقَّقُوا مِنْ صُنْعِ شُهْبِ
نُجُومِ الْأَفْقِ جَالِسٌ بِالْحَيَالِ وَرَاءَ الْبَذْرِ يَنْظُرُ فِي مَجَالِ
فَقَدَّمَ قَلْبَهُ الضَّاوِي إِلَيْهِ لَهُ الْأَنْفَاسُ تَخْفِقُ فِي اتِّصَالِ^(٦)

(١) الجلمد : الحجر . والوسم : أثر الكي .

(٢) سورة الخمر : شدتها . الدجى : الظلام . السنا : الضوء .

(٣) الحمى : هنا حرم بيت الله .

(٤) الكيمياء : ما كان يضعه القدماء على المعادن لتحويلها إلى ذهب .

(٥) الترب : التراب .

(٦) الضاوي : المنهوك الضعيف .

عَنِ الرُّومِيِّ خُذْ سِرَّ الْفَقِيرِ يُثِيرُ بِفَقْرِهِ حَدَّ الْأَمِيرِ
وَقَفِّرْ ذَلِكَ لَكِنْ مِنْهُ فَاخْذُزْ مَقَاماً نَلْتَ يُذْنِي مِنْ حَفِيرِ^(١)

وَعَنْ ذَاتِ إِلَهِي وَهُوَ نَاءٌ تُمَدُّ الْكَسْفَ فِي طَلَبِ الْعَطَاءِ
وَلِلرُّومِيِّ عَيْنٌ حَقَّقَتْ لِي سُرُوراً مِنْ مَقَامِ الْكِبْرِيَاءِ
رَجِيحٌ طَابَ مِنْ كَرَمِي تَدَقُّ وَيَسْعَدُ مَنْ بِذَنَلِي قَدْ تَعَلَّقُ^(٢)
نَصِيبِي كَانَ مِنْ لَهَبٍ قَدِيمَا سَنَائِي نَالَ وَالرُّومِي يُخْرَقُ

إلى مصر

رِيَّاحِ الْبَيْدِ وَافِينِي وَسِيرِي عُبَابَ النَّيْلِ فِي خَفَقِ أُثِيرِي^(٣)
وَأَدِي الْقَوْلَ عَنْ عَمْرِ فَقُولِي « كُنِ السُّلْطَانَ يُعْرِفُ بِالْفَقِيرِ »

وَمَا تِلْكَ الْخِلَافَةُ غَيْرَ فَقْرٍ لَهُ تَاجٌ ، فَكَانَ دَوَامَ أَمْرٍ
تَمَسَّكَ يَا فَتَى دَوْماً بِفَقْرٍ بِغَيْرِ الْفَقْرِ مُلْكُكَ عِنْدَ قَبْرِ

(١) يتلاعب الشاعر بالكلمة الفارسية (سربز برى) وتحمل معنيين : الطاعة والخضوع ،
والنكس أي القلب على الرأس وجعل الأسفل الأعلى . فكأنه يريد ليقول : أن تلقي
الفقر بالمعنى الصوفي المطلق يعرض للتهلكة . والحفير : القبر .

(٢) الرحيح : الخمر . والكرم : العنب .

(٣) العباب : الموج . وعنوان هذا القدر من الرباعيات في الأصل باسم أحد الملوك .

وَتِلْكَ الذَّاتُ يَوْمًا مَن يُشَاهِدُ
وَمَا قَدْ طَافَ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ
لِعَقْلِكَ أَوْ لِقَلْبِكَ فَابْغِ بَابًا
إِلَى الْحَاجَاتِ فَلتَسْلُكُ سَبِيلًا
يُقِمُّ فِي الْعَدِّ لِلدُّنْيَا الْقَوَاعِدُ
بِخُلُوتِهِ بِذَاتٍ ، وَهُوَ قَاعِدُ
وَخَذَ مِنْ شَيْخِ حَانَاتِ شَرَابًا
لِتَطْرُخَ مَظْهَرًا وَاطْهَرُ لِبَابَا

وتسعدُ أمةً للذاتِ عادتُ
سيلمعُ نورُها في الأفقِ شرقاً
وفي عملٍ وفي نصبٍ تَمَادَتْ (١)
إذا بسيفِها ضرباً أرادتُ

وَمَلَّاحُ مِنَ الْأَتْرَاكِ طَرَّبَ
إِذَا لَمْ أَسْتَطِعْ فِي الْبَحْرِ سِيرًا
بِذُوبِ الْوَرْدِ مِنْهُ الْخَدَّ رَطَّبَ (٢)
بِمَلِكِ الْأَرْضِ قَدْ مَزَجُوا ثَرَانَا
بِآيَاتِ الْإِمَامَةِ هَلْ تَرَانَا (٣)
لِنَادِينَا بَعْمَقِ الذَّاتِ شَاهِدُ
بِهَذَا الْقَلْبِ حَبًّا مِنْ ذُرَانَا (٤)؟

وَأَسْرَارَ الْيَقِينِ إِذْ نُ عَرَفْتَا
لِمَصْبَاحِينَ نَوْرٌ لَيْسَ إِلَّا
عَنِ الْاِثْنَيْنِ عَيْنِكَ هَلْ كَفَفْتَا
بِغَيْرِ الدِّينِ مُلْكَأ هَلْ أَلْفَتَا

(١) النصب : الإعياء .

(٢) يضرب شعراء الفرس بالترك المثل في الحسن . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي :

(لو اكثرث هذا التركي الشيرازي لحالنا ورعى جامينا لوهبت خاله الأسود بخاري وسمرقند) .

(٣) الآيات : العلامات .

(٤) ذرى الحب : نثره . وفي الأصل ذرى الدنيا حباً في قلب المليك .

وإن عرّضتَ ذاكَ لاختبارِ
شرازُ الشوقِ طيِّ القلبِ منه
خلقتُ لكَ السماءَ من الغبارِ
تُضيءُ الشمسَ في وضحِ النهارِ^(١)

شعراء العرب

وقل للشاعرِ العربيِّ عني
قبستُ النورَ بالقرآنِ حتّى
لياقوتِ الشفاهِ البخسِ مني^(٢)
جعلتُ الليلَ لي فجرًا يغني

وفي الأرواحِ قد أذكىتَ جمراً
غديرٌ ساكنٌ حركتَ فيه
ترابي ما يراهُ الناسُ قصرًا^(٣)
عباباً ، ثارَ في النكباءِ بخرًا^(٤)

أترسمُ صورةً ؟ لا يا غريز
وروضتُنا خفقت بها جناحاً
لتعلمُ ما يجبُّذهُ الضميرُ^(٥)
حينفأُخصَّ بالقبسِ المنيرُ^(٦)
وطلُّ ظلِّ في الغصنِ الرطيبِ
وهذا النبعُ فجَّره بسحرِ
جوانحُ مسلمِ حرمِ القليبِ^(٧)

(١) الخطاب إلى المسلم .

(٢) بخسه حقه : نقصه إياه . يقول : إنه لم يقل شعراً في الغزل ، فما تغزل في الشفاه ولا شبيهها بالياقوت .

(٣) أذكى النار : أضرّمها .

(٤) النكباء : الريح بين الريحين .

(٥) الغريز : الناقص التجربة .

(٦) القبس : شعلة تؤخذ من معظم النار .

(٧) القليب : البئر . والمقصود بها بئر زمزم .

وَيَحْوِي قَلْبُهُ أَسْرَارَ ذَاتِ
بَنُورِ اللَّهِ تَشْهَدُ فِيهِ حَسَنًا

لَتَمْنَحَ ذَاتَهُ نُورًا وَنَارًا
وَذَاكَ اللَّحْنَ فَلَتَعَزِفُ بِفِيضٍ
لِغَيْرِكَ يَنْبَغِي لِلْقَلْبِ حَزَقُ
وَذَاتُ أَنْتَ تَنْكُرُهَا لِشَعْبِ
لِيَصْبِحَ لَيْلُهُ الدَّاجِي نَهَارًا
فَذَلِكَ ذَوْقُ تَبْدِيلِ أَثَارًا
وَمِثْلُ خَفُوقِ قَلْبِ سِوَاكَ خَفُوقُ
« وَنَحْنُ الشَّعْبُ » قَوْلُ مَنْكَ حَقُّ

وَلِلْأَرْوَاحِ أَسْرَارٌ دَرَاهِمًا
لَتَعَزِفَ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ لِحْنًا
بِعَيْنِ الذَّاتِ مِنْ دُنْيَا رَأَاهَا
حَيَاةً مِنْ ذَبُولٍ قَدْ بَرَاهَا

لَتَحْفَظَ مَا بِصِلْصَالٍ لَدَيْكَ
لِهَذَا أَوْ لَذَاكَ الدَّنَّ خَلُوقُ
وَهَذَا اللَّيْلُ يُوجِشُنَا بِفَدْفَدُ
وَلَيْسَ يَضِيءُ رَهْبَانَ سِرَاجًا
فَكَمْ مِنْ نَشْوَةِ حَامَتْ عَلَيْكَ
وَقَلْبُكَ قَدَّمَ الصَّهْبَا إِلَيْكَ^(١)
فَأَيْنَ الْمَاءِ وَالشَّحْرُورُ غَرْدُ^(٢)
فَشَمْسُ الصَّبْحِ حَتْمًا سَوْفَ تَشْهَدُ

وَفِي سِيْمَاكَ ذِي نَظْرًا فَكَّرُزُ
وَسِزْ مِثْلِي بِصَحْرَاءِ الْحَمَى سِزُ
وَفِيمَا تُخَيِّئُ الْأَيَّامُ فَكَّرُزُ
لَأَنَّكَ عَمَقَ ذَاتِكَ قَدْ تُقَدِّرُ

(١) الدن : جرة الخمر . والصهباء : الخمر .
(٢) الفدقد : الصحراء . الشحرور : طائر حسن التغريد .

يا بن الصحراء

تيزُّ البيدَ بالفجرِ الجميلِ وَيَصْدُحُ طَائِرٌ بَيْنَ النَّخِيلِ^(١)
« خيامك يا فتى الصحراءِ دغها أَيْمَكُنْ أَنْ تَعِيشَ بِلَا رَحِيلِ ؟ »

وَلِلرُّكْبَانِ مِنْ عَرَبٍ دَلِيلُ فَمَحْنَةُ رَبِّهِمْ فَقَرُّ طَوِيلُ^(٢)
وَهَذَا الْفَقْرُ إِنْ أَمَسَى غَيُورًا تَرْجَفَ كُونَنَا وَهُوَ الذَّلِيلُ

شَهَدْنَا الصَّبْحَ فِي لَيْلٍ مَبِينَا تَجَلَّتْ فِيهِ أَنْوَارُ لَسِينَا^(٣)
صَحَحْنَا مِنْ رِيَاحِ الْبَيْدِ رُوحًا فَمَنْهَا الْقَوْمُ كَانُوا الْقَادِمِينَ

وما يدريك أن المغوارَ في هذا الغبارِ

رِضَاكَ وَذَلِكَ التَّسْلِيمُ مَذْهَبٌ وَعَنْ نَهْجٍ لَصَدَقِ أَيْنَ تَذْهَبُ
وَشِعْرِي لَا تَفْسُرْ بِاجْتِهَادِ جَنُونِي فِي حِجَايِ لَدَيْكَ مَكْتَبُ^(٤)

(١) الكلام منسوب إلى الطائر .

(٢) في الأصل أن الله جعل العربي دليل القافلة .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠٠﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
أَمْكُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ ويقول الشاعر : إن الأمم
ظهرت من سينا .

(٤) الحجى : العقل . المكتب : المدرسة .

وهذا المرجُ أَفْقَرُ من جنوبي
وفي بلدٍ أصيخُ ومن صياحي
وأصبح كالغريبٍ بلا خدين
جنونٌ ظلَّ كالعقلِ الوزين

ربيعي منبتٌ في الفجرِ زهري
أتحسبُ أنني أبقَى وحيداً
وإنني مُخْرِقُ زَهْرِي بِجَمْرِي
على النسماتِ مسلوبِ القرارِ
فطوبى لي ويا بُشْرَى فُوَادِي
فمنني فارسٌ يبدو بغارٍ^(١)

يسودُ القومَ في زمنٍ يضيّرُ
لديه السرُّ من أسرارِ غيبِ
ويظهرُ فيهمُ البطلُ الشهيرُ^(٢)
أكلُ ثرى به بطلٌ جَسُورُ

خفقتُ كموجةٍ في موجِ ذاتي
ومأشاهدتُ لوناً مثلَ هذا
إلى الطوفانِ أدتُ سافياتي^(٣)
وإلا من دمي رُسمتُ شياتي^(٤)
وإن الخمرِ بالنظراتِ أفعمُ
ومن طوفانِهِ أمسى غديرُ
صغيرٌ من بحارِ البحرِ أعظمُ

زَمَامَ الركبِ يوماً إن تسلمَ
وأظهرَ من بأفلاكِ جهاراً
فقد كشفتُ الخفا عن كلِّ مبهَمِ
سمواتٍ بها ما كان يهتَمُ

(١) طوبى له : الخير والحسنى له . الغار : ما يكلل به رأس المنتصر من ورق الكرم .

(٢) يضيّر : يؤذي .

(٣) السافيات : الرياح .

(٤) الدمى : الصور والتمثيل . الشيات : الألوان .

وَزُفَّ لِهَذِهِ الرُّوحِ التَّهَانِي
 أَلُوذُ بِحَضْنِهَا أَمَّا رُؤُومًا
 يَقُولُ الصَّدْرُ فِي قَلْبِي حَبِيبُ
 وَعِنْدَ الْمَوْتِ فِي سَمْعِي يَدْوِي
 أَلَمْ تَلِدِ الْأَمِيرَ رَفِيعَ شَانٍ
 وَأَخْجَلُ مِنْهُ حُورًا فِي الْجَنَانِ
 مَغِيرٌ جَاءَ هِيَءَ مَا يَصِيبُ
 « بِسُقْطَةِ زَهْرَةٍ ثَمَرٌ يَطِيبُ »

الْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ

بَنُورٍ لِلنَّبِيِّ الْقَلْبُ أَضْرَمَ
 وَلَكِنَّ الْخِلَافَةَ وَسَطَ تَبِيهِ
 أَنَارَ بِشَرْقِهِ مَا كَانَ أَظْلَمَ^(١)
 فَهَذَا الْمُؤْمِنِينَ الْمَلِكُ عَلَّمَ^(٢)

وَنَشْهَدُ أَنَّنَا نَسْمُو مَقَامًا
 خِدَاعٌ كُلُّهُ ، بَلْ كُلُّ مَكْرٍ
 وَهَذَا الْمَلِكُ قَدْ كَانَ الْحَرَامًا^(٣)
 وَتَرَعَىٰ عَهْدَ رَبِّي وَالذَّمَامَا^(٤)

نِزَاعٌ فِيهِ مَلِكٌ وَالْكَلِيمُ
 هِيَ الْأَقْدَارُ تَجْرِي كَيْفَ شَاءَتْ
 وَمَنْ أَكْدَىٰ وَأَعْوَزَهُ كَلِيمٌ^(٥)
 فَعَصْفُ الرِّيحِ مَا وَهَبَ النَّسِيمُ !
 هُوَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا غَلَامٌ
 لِفَقْرِ عَظِيمٍ قَوْمٍ كُنْتُ عَبْدًا
 وَلَيْسَ لِمَا يَزَاوُلُهُ تَمَامٌ
 لَدَيْهِ الْمَلِكُ فِي دِينٍ حَرَامٌ

-
- (١) يقصد العربي .
 (٢) إقبال لا يرتضي الخلافة إذا كانت كالملك .
 (٣) الخلافة هي التي تشهد .
 (٤) الذمام : الحرمة والحق .
 (٥) أكدي : افتقر . والكليم : البساط أو الثوب الخلق في الفارسية .

بنظرتِه المحبَّةُ ما يدومُ ومنهُ السكرُ تفديراً يرؤمُ
وهذي « عبدهُ » كانت مَقَاماً بتزيبٍ لأشواقٍ يُقومُ^(١)

التركي العثماني

بملكٍ واسعٍ أضحى أميراً بقلبٍ قد وعى أمسى بصيراً
يظلُّ منَ الفرنجةِ في قيودِ لسحرٍ طَلَسَهمُ بقي الأسيِّراً

لمنْ قد أبطلوا ذا السحرَ طوبى وما شغلوا بعهدِهِمُ قلوباً^(٢)
بذاتِكَ فاعترفِ واليأسَ جانبِ تحدى قبلَهُمُ قومٌ خطوباً

بهمْ قد حَقَّقَ التركُ الرغائبِ ونالوا بغتةً أعلى المراتبِ
أليسَ لمسلمٍ عيناً بصيراً لقد كشفَ المصيرَ له الأجانِبِ

(١) تردد ذكر « عبده » في ديوان « رسالة الخلود » لمحمد إقبال وهو القائل تحت عنوان « الحلاج » :

عفر العالم خدأ عنده نفسه سمى النبي عبده
عبده فهمنا لستك تبهر إنه الإنسان وهو الجوهر
عبده قد شكلت هذا القدر بالفيافي الخصب منها قد ظهر
غير عبد عبده فلتعتبر عبده فيها انتظار المنتظر
عبده كنه جميع الكائنات عبده فيها معان مغلقات

(ص ٢٠١-٢٠٢)

(٢) طوبى لهم : الخير والحسنى لهم .

فتاة المجتمع

فتاتي دعك من هذا التجمل من الكفار تزيين أيجمل؟^(١)
 وصدّي القلب عن توريد خد فإن الغزو من عين التأمل^(٢)

لك النظرات من ربي حسام لروح من جراحات قوام^(٣)
 ومنها يستمد القلب شيئا فمأء للحياء هو المرام

ضميرُ العصر ليس له نقاب على حسن تفتح منه باب
 بنور الله دنيًا فلتنييري عليه في تجليه الحجاب
 ويصلح عيشنا بالأمهات أمين قلبه من لممكناات
 وهذا إن يغب عن فكر قوم فليس لأي أمر من ثبات

أصبنا العقل من ذاك الجنون بنظرة هذه الأم الحنون
 وما في مكتب عين وقلب وهل من مكتب غير الفنون

ويسعد من رأوا بالواردات قيامات بتلك الكائنات^(٤)

(١) يجمل : يحسن .

(٢) يقول : إن الحسناء تغزو قلب العاشق بعينها .

(٣) قوام الشيء : نظامه وأساسه .

(٤) الوردات : حلول المعاني بالقلب ، وما يخطر عليه بلا تفكر ولا تدبر .

وما قذفات أو ما سوف يأتي لهم أبدى جبينَ الأمهات
 ونُصحي فاجعليه ملاء أذنك ليفنى الناس طراً قبلَ دفنك^(١)
 عن العصرِ اختفى ، كوني بتولاً ليقى شبرٌ في دفءِ حضنك^(٢)

ومن ليلٍ لنا فجرأ أنيري إلى القرآن عودي بالبصير^(٣)
 (قرأت) وتعلمين لها أواز بها عمراً تغير في كثير^(٤)

العصرُ الحاضرُ

وعصرٌ منه للدينِ الشكأة وحزباته وأذ الطغاة
 وجوة فيه للإنسانِ شاهت وأفسدَ نقشه حتى الهواة^(٥)

ونظرته بها تصويرُ كفرٍ وليسَ كمالٌ فنٌ غيرَ جمرٍ

- (١) طراً : جميعاً . يقول إذا انتصحت بقولي فإن أمة تموت وأنت لا تموتين .
 (٢) البتول : العذراء وتطلق على السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وشبر أو شبير : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .
 (٣) أي اطلبي إلى أهل النظر أن يعودوا إلى كتاب الله الكريم لتدبره .
 (٤) يلمح إقبال إلى سبب وقوع الإسلام بقلب عمر بن الخطاب وذلك أنه دخل على أخته وزوجها فوجدهما يقرآن سورة طه . وقالت له أخته (إن كان الحق في غير دينك فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ودفعت إليه الكتاب فقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ﴾ ثم أسلم .
 (٥) في الأصل أن بهزاد هذا العصر أفسد نقشه . وبهزاد : اسم أشهر رسام إيراني في العصر الصفوي .

ومن تُجاره في السوقِ فاحذُرْ فهذا ميسّرٌ في كلِّ أمرٍ

شبابَ القومِ هذا العصرُ أفسدُ لإبليسَ دُجَاهَ الصبحِ فاشهدُ
لَهُ الأذيالُ تطوينَا كَنَارِ فكلُّ شُعاعِ نورٍ فيه يُخمدُ
جَمَعْنَا بينَ سلطانٍ وفَقْرٍ وما يغني وما يبقى لدهرٍ
عِاذاً منه بالباري عِاذاً دمُ الشيطانِ في السلطانِ يجري !

أرقصُ ذاكَ ؟ إنني لستُ أدري أنشوهُ فرحةً أم سكرُ خمري
لتقليدِ الفرنجةِ كانَ رقصُ وليسَ دماً بعريقك وهو يجري

البرهَمِيّ

فتحْتُ لفتنةِ باباً وباباً مشيتُ ، سقطتُ ، لاقيتُ الصعابا
دُمى للبرهَمِيّ تزيّنُ طاقاً برأسِ الطاقِ علقْتُ الكتابا؟^(١)

أفي عملٍ ونى ؟ لا بلْ أطالاً له الأحجارُ يكسوها الصقالاً^(٢)
بقوةِ ساعديه برى إلهاً صلودَ الصخرِ قذِ يزُنُ الجبالاً^(٣)

(١) الطاق : ما جعل كالقوس من الأبنية .

(٢) ونى : أبطأ .

(٣) برأ : خلق .

ويحفظُ بزهمي كُلَّ أمرٍ
وهذي سبحةً قالَ اطرحها
وقالَ لتبتعدُ عن بابٍ غيرِ
ومَا تسعُ المساجدُ غيرَ مُلأً
ولا يفضي إلى أحدٍ يسرُّ
بزُنارٍ على كتفيه يجري^(١)
فمن أهلٍ لنا نحظى بخيرِ
ومن سحرِ الدُمى كأننا بدئيرِ

التعليم

يدومُ لقلبنا هذا اللهبُ
فعلُّمُ ذاكَ أبناءَ فعلُّمُ
كسوطٍ ، والحياةُ هي النجيبُ^(٢)
لأنَّ كتابهم سخرٌ يخيبُ

ومن علمٍ بقلبٍ ليس حرقاً
وأضفى من عيونِ الصقرِ قلبُ
تأملُ متوقٍ خيرٌ وأبقى
هو المزورُّ عن دارِيه حَقاً^(٣)

إلهي مؤمناً لا ريبَ يسألو
لذا عن مكتبِ الخلانِ أمضى
من الروحِ الرقيقةِ وهو يخلو
إلا يا حبذا هذا الضريزُ
فما صادفتُ من بالذاتِ يعلو^(٤)
أفضلُ جاهلاً ورعاً تقياً
إذا ما أخطأ النظرَ البصيرُ
بعلمٍ ليس يخدعني الكفورُ

(١) اطرحها : ألغها . الزنار : ما يشد به النصراني وسطه .

(٢) النجيب : الفرس الكريم .

(٣) ازورُّ : مال وحاد .

(٤) يعاود إقبال ذكره للذات على أنها أهم ما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام به في تعليم
النشء .

أَيْجِدِي الْفِكْرُ فِي أَوْجِ السَّمَاءِ يَحُومُ عَلَى النُّجُومِ بِلَا انْتِهَاءِ
كَأَنَّ الرِّيحَ تَزْجِيهِ سَحَابًا فَتَاهُ مَمْرَقًا وَسَطَ الْفَضَاءِ^(١)

عَلِيمٌ زَانَهُ أَدَبٌ وَجَاهِلٌ كَرِيمٌ مِنْهُ مَنْ يَحْظَى بِحَاصِلِ^(٢)
وَمَا أَحْبَبْتُ إِنْسَانًا عَلِيمًا وَمِنْ أَدَبٍ نَصِيبٌ غَيْرُ كَامِلِ
لَمَّاذَا الْيَأْسُ مِنْ طِفْلِ صَغِيرِ إِذَا مَا شِئْتَ فَانَعَتْ بِالْغَرِيرِ
وَلَكِنْ مَنْ يَعْلَمُهُ لَتَسْأَلُ أَلِاطْفَالِ قَلْبٌ فِي الصُّدُورِ؟

صَغِيرَكَ لَقَنَّ الدِّينَ عِلْمًا لِيَشْرِقَ سَعْدُهُ بَدْرًا وَنَجْمًا
وَلَوْ قَدَّمْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَضْلًا لَزَيْنَ بِالْيَدِ الْبِيضَاءِ كَمَا^(٣)

غِنَاءٌ مِنْ بَلَابِلِ مَا أَصَابَا أَوْاژُ بِالْوَرُودِ لَدَيْهِ طَابَا^(٤)
يَعْلَمُ لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ فُخْرٍ فَعَنْ رُوحٍ لِأَجْلِ الْخَبْزِ غَابَا
إِلَهِي حَيٌّ لِلدَّرْوِيشِ ذِكْرِي يَفْتَحُ قَلْبِنَا عِطْرًا وَزَهْرًا
وَيَنْصَحُ طِفْلِنَا نَصْحًا حَكِيمًا « لَخَبْرَكَ لَا تَذِلُّ النَّفْسَ أَسْرًا »

و « إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ دُومًا تَذَكَّرْ مِنْ الْمَلَأِ وَمِنْ دَرَسٍ تَحَرَّرْ^(٥) »

(١) تزجيه : تدفعه .

(٢) يقول : إن الأدب زينة للعالم والجاهل على السواء ، ويكرم من ينال من الأدب نصيباً .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَأَضْمَمْ يَدَكَ لِإِنْ جَنَاحَكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾

وبيضاء بمعنى مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة .

(٤) الأوار : لهيب النار .

(٥) في الأصل (لا إله) .

بِهَذَا الْعِلْمِ لَا تَبْسُطُ جَنَاحَا بِهِ الْإِنْسَانُ فِي عَجْزٍ تَحْيِيزٍ^(١)

وَأِنْ لَصُرُّ عَلَى رَكْبٍ أَغَارَا أَتَسْأَلُ كَيْفَ أَوْرَدَهُمْ بَوَارَا^(٢)
فَلَا تَأْمَنُ إِذَا حَصَلَتْ عِلْمَا فَمَنْهُ الرُّوحُ يُمْكِنُ أَنْ تُضَارَا^(٣)
فَتَى رَاقَتْ فَصَاحَتَهُ وَسِيمُ وَنَظَرْتُهُ كَلَيْثٍ لَا تُقِيمُ^(٤)
وَفِي دَرَسٍ تَلْقَنُ عِلْمَ شَاةٍ وَمَا إِنْ يَسَّرَ الْوَرَقَ الْجَمِيمُ^(٥)

وَسَقَبَ أَي شَيْءٍ مَا دَرَاهُ إِلَهِي قَالَ إِنِّي لَا أَرَاهُ^(٦)
فَقَالَ أَبُوهُ قَدْ يُمْنَى بَعِيرُ بَعَثَرْتَهُ لِيُشْهَدَ مَنْ بَرَاهُ^(٧)

السَّعْيُ فِي الرَّزْقِ

أَمِنْ سَطْحٍ إِلَى سَطْحٍ تَطْيِيزُ بِهَذَا مَا سَمَتْ قَطُّ الصَّقُوزُ
إِذَا مَا كَانَ صَيْدُكَ بَغَضَ رِيَشٍ فَخَيْرٌ مِنْهُ مَوْتُ فِي الْوُكُوزِ^(٨)

-
- (١) فِي الْأَصْلِ : هَذَا الْعِلْمُ يَسْلُبُنَا عَيْنَنَا وَقَلْبَنَا وَيَدُنَا .
 - (٢) الْبَوَارُ : الْهَلَاكُ .
 - (٣) تَضَارُ : تَصَابُ بِالضَّرَرِ وَالْأَذَى .
 - (٤) يُشْبِهُ نَظَرْتَهُ فِي دَوَامِ حَرَكَتِهَا بِأَسَدِ جَوَالٍ لَا عَرِينَ لَهُ .
 - (٥) الْجَمِيمُ : النَّبَاتُ .
 - (٦) السَّقَبُ : وَالدُّ النَّاقَةُ .
 - (٧) يُعْنَى : يَيْتَلَى . بَرَاهُ : خَلَقَهُ .
 - (٨) الصَّيْدُ : الْفَرِيْسَةُ . الْوُكُورُ وَالْأُوْكَارُ : جَمْعُ وَكَرٍ وَهُوَ الْعَشُ .

لذاتك نظرة في كلِّ أمرٍ لنا من نظرة سوطٍ لنجري
وما نسعى وراء الذكر إلا لكي نغلو ونغلو مثل طير

التمساح وصغيره

وللتمساح هذاك الكلام لزوم الشط في ديني حرام
عن الشط ابتعد موجاً تسلق فعش بحرنا وبه نام

وهذا البحر في صدر حملته وذا الطوفان في حرب غلبته^(١)
ولو في بزيمة أغيا وأغفى لكان مقاتلاً ما إن قتلته

خاتمة

عن الساقى وعن كأس المدام سكت وكان عن عشق كلامي
من الأخيار في قوم حديثاً سمعت لكي أبلغ بالتمام

بقلبك أمسكن وعدد لنفسك وصدرك فليكن داراً لحبسك
لتسقى الحقل دمعاً من دماء نثرت الحب فلتعمل بفأسك

(١) طوفان في الفارسية بمعنى العاصفة ومعنى الطوفان في العربية . ونحن نشير إلى المعنيين تمهيداً لفهم التورية الممكنة .

بِقَلْبٍ حَوْلَ هَذَا الْبَيْتِ طُفْنَا وَمَا كَمْطُوفٍ بِالْبَابِ كُنَّا^(١)
وَيَكْمُنُ بَيْنَنَا سِرٌّ عَجِيبٌ وَهَذَا الرَّمْزُ عَنْ جِبْرِيلَ عَنَّا^(٢)

العالمُ الإنسانيُّ^(٣)

كَانَ حُبُّ الْخَيْرِ لِلْمَرْءِ احْتِرَامًا كَيْفَ تَنْسَى أَنَّهُ يَسْمُو مَقَامًا
جاويدنامه^(٤)

تمهيد

عَلَيْنَا فَلْتُدِرْ كَأْسَ الشُّمُولِ وَنَضَّرْ لِي رَيْعًا فِي ذُبُولِ^(٥)
وَأَنْفَاسًا مِنَ الْأَنْعَامِ هَبْنِي أَضْرَمْ نَارَ نَائِي بِالْأَلِيلِ^(٦)

بَقِيَّتَ بَخْلُوةٍ فَلتَأْتِ مَرَّةً وَصَدْرُكَ فِي الصَّبَا فَتُحُّ بِخَطَرِهِ

(١) طوف : طاف .

(٢) عن عنه : بعد .

(٣) في الأصل أن الإنسانية هي احترام الإنسان . ومفهوم الإنسانية : حب الخير للإنسان ورقة الشعور نحوه .

(٤) وهذا البيت في ديوان « جاويدنامه » لمحمد إقبال الذي ترجمة الدكتور مجيب المصري بعنوان « في السماء » وهو الديوان السابع من مجموعة هذه الدواوين باسم « رسالة الخلود » .

(٥) دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . والشمول : الخمر أو الباردة منها .

(٦) الأليل : الأنين .

مَقَامَ الرِّيحِ وَالْأَلْوَانِ دَوَى فَرَزْدَ فِيهِ لِهَذَا الطَّيْرِ تَبْرَهُ

أَنَارَ الدَّهْرُ فِتْنَتَهُ ، وَوَلَّى
بِلَادَ اللَّهِ بَعْدَاداً مَحَاهَا
بِهَذَا الْغَدِ كَمْ شَغَلُوا الْقُلُوبَا
فَمَنْ فِي يَوْمِهِ أَحْيَا دَوِيّاً
لِنَامِ النَّاسِ مَنْ رَبَّى ، وَوَلَّى
عَلَى عَجَلٍ كَجَنَكِيْزِ ، وَوَلَّى
فَهُمْ فِي أَمْسِهِمْ ذَاقُوا شَعُوبَا^(١)
لَيْسَعُدْ أَوْ لَيْسَمَعُهُ الطَّرُوبَا؟

أُنْخَتَ كَمَا يُنُوحُ الْعَنْدَلِيْبُ
بِهَذَا الرُّوضِ قَطْفُ الزَّهْرِ حَلَّ
فَمَا لِلرُّوحِ مِنْ نَوْمٍ هُبُوبُ
وَلَيْسَ لَدَيْكَ مِنْ شَوْكٍ نُدُوبُ^(٢)

عَلَى الذَّاتِ انْطِوَاءً ، فَلْتَعْلَمُ
تَرْجِي رُؤْيَةَ الْمَوْلَى عَيَاناً
بِظْفَرِكَ حَفْرُ صَدْرِكَ ، فَلْتَعْلَمُ
عَنِ الشُّكُوى مِنْ الْأَيَامِ أَقْصَرَ
فَرُؤْيَةُ عَمِقِ ذَاتِكَ ، فَلْتَعْلَمُ
يَطِيبُ الْمَاءُ فِي نَهْرِ بَصْخِرِ
فَمَنْ لَمْ يَنْصَهْزْ كَالْتَّبْرِ يُخْسِرُ^(٣)
يَشْتَتُ مِنْهُ أَمْوَجاً وَيَكْبِسِرُ

عَنِ الْوَرَقَاءِ لِلْفَرْخِ الصَّغِيرِ
فَقُلْ فِي نَشْوَةِ الْأَشْوَاقِ يَا هُوَ
« بَطْبَعُ كَيْفَ نَخْيَا كَالْحَرِيرِ^(٤) »
وَخُذْ مَا زَانَ هَامَاتِ الصُّقُورِ «

-
- (١) شعوب : الموت .
(٢) الندوب : جمع ندب وهو أثر الجرح .
(٣) أقصر عن الكلام : سكت .
(٤) الورقاء : الحمامة التي يضرب لونها إلى الخضرة .

هُوَئِكَ مِنْ مَقَامِ الْكِبْرِيَاءِ وَعَقَّرْتَ الْجَبِينِ لِأَذْنِيَاءِ (١)
 وَشَاهِينَا أَرَاكَ تَصِيدُ ذَاتَا وَلَكِنْ فِي شِبَاكِكَ بِأَرْتَمَاءِ
 لَكَ الْبَشْرَى فَذَاتَكَ تَسْتَرُدُّ وَمِنْ فَقْرِ غِنَى مَا تَسْتَمِدُّ
 حَيَاةَ الْخُلْدِ هَذَا فِي يَقِينِ وَفِي حَدْسٍ لِمَوْتٍ تَسْتَعِدُّ (٢)

أَعَنْ ذَاتٍ تَحْجَبُ بِالْحِجَابِ إِلَيْهَا حَبَّذَا يَوْمُ الْإِيَابِ
 وَفِي رِزْقِي لِي التَّفَكِيرُ كَفَرُ وَأَنْتَ كَفَرْتَ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ (٣)

لَسَقِبِ قَالَ هَذَاكَ الْبَعِيرُ « تَأْمَلُ أَنْتَ لِي نِعْمَ النَّظِيرُ
 لَتَعْمَلُ مِثْلَنَا ، جِنَا الصَّحَارَى بِأَحْمَالٍ لَنَا كُنَّا نَسِيرُ » (٤)
 كَلَامُ جَهْبُذِ الْإِفْرَنْجِ قَالَا وَفِي كَوْنٍ وَفِي عَدَمٍ أَطَالَا (٥)
 مَنْ الْأَعْجَامِ شَيْخٌ قَالَ قَوْلَا أَبْلُغُهُ ، فَأَلْقَ إِلَيْهِ بَالَا

غَرِيبٌ عَنْكَ يَجْعَلُكَ الْقَتِيلَا لِقَلْبٍ تَشْتَرِي الْحَزْنَ الْوَيْلَا (٦)

(١) عفر الجبين : مرغه في التراب .

(٢) الحدس : الظن والتخمين .

(٣) يذهب إقبال مذهب المتصوفة الذين لا يرون أن النظر في الكتب وسيلة إلى العلم ، فهم على أن القلب هو مصدر المعرفة وليس العقل الذي يعد وحده مصدرها عند غيرهم . ويروي أن بعض الصوفية طرحوا كتبهم في النهر . ومنهم من دفنوها في جوف الثرى رغبة في الخلاص منها لعدم جدواها . وفي هذا المعنى قال شاعر فارسي ما ترجمته :
 (اغسل الأوراق إن كنت في الدرس زميلنا ، فليس لعلم العشق دفتر عندنا) .

(٤) جاب الصحراء : اجتازها .

(٥) الجهبذ : الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء .

(٦) الويل : الشديد .

وَيَفْضُلُ كُلَّ تَأْوِيلٍ لِشَيْخٍ مَعَ الذَّاتِ الْجَلُوسِ وَلَوْ قَلِيلًا

وَجُودُ ذَاكَ أَمْ هَذَاكَ مَظْهَرُ
وَعَلْمُ الْغَوْصِ ضَمَّنَهُ كِتَابًا
إِلَيْكَ الْفَأْسَ ، هَذَا بَيِّسْتُونُ
شَرَّازَ الْفَأْسِ دَعِ مَنْ قَالَ عَنْهُ
حَكِيمٌ عِنْدَنَا الْإِشْكَالَ فَسَزْ
وَلَكِنْ لَيْتَهُ فِي الْعُمْرِ أَنْحَزَ^(١) !
وَبَادِزْ ، دَهْرَكَ الْعَاثِي خَوْوُنُ^(٢)
أَمِنْ فَأْسٍ ؟ أَمِنْ حَجَرٍ يَكُونُ ؟

سِرَاجُ مُنَاكَ فِي كَفِّكَ أَبْوِ
وَفِي دُنْيَاكَ فَاحْذَرْ مِنْ ضَيَاعِ
مَقَامَ الْهَاتِفِينَ فَنَلَّ بِحَقِّ
بِذَاتِكَ خُذْ ، دَعِ الدُّنْيَا لِمَخْوِ^(٣)

وَهَذَا الْقَلْبُ بَخْرٌ مِنْكَ يَسْكُنُ
فَتَرْ يَا مَوْجُ وَاحْذَرْ مِنْ سُكُونِ
إِلَى ذَاتِ لِكَ الدَّارَيْنِ فَاجْذِبْ
وَيَوْمَكَ مِنْهُمَا نُورًا لَتُبْصِرْ
وَمِنْ جَرَكَ فِيهِ الدُّرُّ يَكْمُنُ^(٤)
فَهَذَا الْبَخْرُ دَارًا مِنْكَ يَخْسُنُ
أَعَنْ ذَاتِ تَشْرِقُ أَوْ تَغْرُبُ
وَهَذَا الثُّورُ يَوْمَكَ لَا تُجْنِبُ

-
- (١) يتهكم الشاعر مرير التهكم بمن يدعي بالوجود علماً ، فيقول إنه يخرج الكتاب ليعلم الناس الغوص في البحر وهو لم يركب البحر في العمر مرة .
- (٢) إليك الفأس : بمعنى خذ الفأس . وبيستون : اسم جبل في إيران جاء في القصص الفارسي أن من يسمى فرهاد شق في صخره طريفاً ، وكان في ذلك صادعاً بأمر الملك برويز في خبر أسلفنا الإشارة إليه . والشاعر يدعو إلى الإقبال على العمل وإنجازه بقطع النظر عما يتكشف عنه من نتيجة وعدم المبالاة بالمادحين والقادحين .
- (٣) محقه محقاً : أهلكه .
- (٤) من جراك : من أجلك .

لَنَا يَا زَهْرَةَ هَا قَدْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِ الْحَسَنِ دُنْيَانَا أَنْزَتْ
وَهَذِي زَهْرَةُ الْبِسْتَانِ قَالُوا بَغْضِنِكَ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ صُرْتَ ؟

مَنْ التَّبْرِيحِ لَا يَبْكِي الرَّجَالُ بِصَرْفِ الدَّهْرِ يَوْمًا لَمْ يُبَالُوا^(١)
وَقَدْ تَبْكِي وَلَكِنْ لَسْتَ مِنْهُمْ لِدَمْعٍ مِنْ لَطْفِ الشُّوقِ انْهَمَالُ^(٢)
وَمَنْ فِي مِخْنَةِ نَسِيِّ الْفَنَاءِ وَلَوْ شَهِدَتْهُ فِي الْمَوْتِ السَّمَاءُ^(٣)
وَأَنْتَ بِمَوْتِهِ هَذَا جَدِيدٌ وَإِلَّا فَلْتَمُتْ مَوْتًا تَشَاءُ

تُرَابُكَ وَهُوَ عَنْ رُوحٍ غَرِيبٍ غَصُونُكَ لَيْسَ يَرُوبِهَا صَيِّبُ^(٤)
عَلَيْكَ بِحَرَقَةِ الْأَنْفَاسِ وَاسْعُدْ فَمْتَهِجْ بِهَا الصَّدْرُ الْكَنِيبُ

عَلَيْنَا قَدْ تَكَاثَرَتِ الْغُمُومُ غَرِيبًا مُسْعِدًا كُنَّا نَرُومُ^(٥)
فَهَيْئَةٌ فِي غَدٍ مَا أَنْتَ تَبْغِي وَلَكِنْ إِنْ عَرَفْتَ بَكُمْ يَقُومُ^(٦)
كَرِيمٌ ذَاتَهُ وَالْقَلْبَ ضَمًّا بِرَمِي الشُّصْرِ لَا يُؤْذِي الْخِصْمًا^(٧)
تَجَلِّي السُّكْرِ لِلنَّظَرَاتِ حِلٌّ بَغْلُ الْقَلْبِ وَالْكَفَّيْنِ حَتْمًا

-
- (١) التبريح : من برح به الأمر : إذا أجهده وآذاه .
(٢) انهمل الدمع : سال .
(٣) المحنة : بمعنى الامتحان والشدة . وفي هذا احتمال التلميح إلى من يموتون من أجل رأي يرونه وعقيدة يعتقدونها ومن يصيبهم الله بالبلاء ليلوهم به .
(٤) الصبيب : المصبوب . والمقصود به هنا الماء .
(٥) المسعد : المواسي المشارك في الحزن .
(٦) قامت السلعة بالثمن : تعدلت به .
(٧) الكريم : خير الناس . والشص : حديدة معقوفة يصاد بها السمك .

هُمُومٌ قَلْبُنَا مِنْهَا تَفْطَّرُ تَرَابٌ أَضْلُهَا وَضُرٌّ وَأَكْدَرُ^(١)
وَلَكِنْ مَا عَرَفْنَا الِهِمَّ يَخْلُو بِأَصْلِ الْفِكْرِ فِي عَقْلِ تَفَكَّرُ^(٢)

إِلَى الْأَقْدَارِ لَا تَنْسِبُ أُمُورًا وَكَانَ اللَّهُ وَهَّابًا عَفُورًا
وَلَكِنْ قَلْبِ الدُّنْيَا فِيهَا حَقِيرُ النَّاسِ مَنْ قَمَرَ الْأَمِيرَا^(٣)
مَرِيرَ الْحَقْدِ فَلْيَلْفُظْ جَنَانُ مِنَ الشُّبَّانِكِ فليُخْرِجْ دُخَانَ^(٤)
وَلَيْسَ لِحَقْلِ قَلْبِكَ مِنْ خِرَاجِ فَيَا دُهْقَانَ هَلْ مِنْكَ الْأَمَانُ؟^(٥)

لِفَجْرِ مِنْ لِيَالِيهِ الظُّهُورُ لِكَوْكَبِهِ عَلَى الدَّارِينَ نَوْرُ
وَأَعْجَزُ عَنْ كَلَامٍ فِيهِ عَجْزًا فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَغْشَاهُ السَّرُورُ

وَقَالَتْ لِلصَّبَا فِي الطَّلِّ قَطْرَةٌ مُنَايَ إِلَيَّ مِنْ عَيْنِكَ نَظْرَةٌ
مَنْ الْأَزْهَارِ فِي قَلْبِي مَلَالٌ فَهَبِّي كَيْ أَوَافِي الْعِشْبَ مَرَّةً^(٦)

-
- (١) الوضر : القدر .
(٢) يقول : إن الهم الحلو المناقض للهم المر الذي تتأذى به هو هم العقل المفكر .
(٣) قمره : غلبه في القمار .
(٤) لفظ الشيء : ألقاه من فمه . والجنان : القلب . يشبه خروج الحقد من القلب بخروج الدخان الذي لم يكن مستحب البقاء في الدار .
(٥) الدهقان : رئيس الإقليم .
(٦) وافى : أتى .

القلب

يَلَا شَطَطٌ خِضْمٌ كَانَ قَلْبًا يثِيرُ بِهِيَّةَ الْأَمْوَاجِ رُغْبَا
بَسِيلٍ مَغْرَقٍ سَهْبًا وَسَهْبَا حَبَابٌ فِيهِ بِالْأَفْلَاكِ يَعْبَا؟^(١)

لَهَيْبٌ ، جَسْمُنَا مَوْجُ الدِّخَانِ وَمِنْ خَفَقَاتِهِ رَجَعُ الْأَغَانِي
وَمَجْلِسُهُ بِذِكْرِ الْوَهْنِ أَمْسَى كَقَطْرَةِ زَبْتٍ تَبْدُو لِرَانَ^(٢)

وَيَنْجِحُ سَعْيُهُ دَهْرَ مُثَابِرٍ بِصَوْنِ الذَّاتِ دَرُوشٍ يُجَاهِرُ
وَصُنِّ لِلْقَلْبِ سُلْطَانًا وَقَفْرًا فَهَذَا الْبَحْرُ قَدْ صَانَ الْجَوَاهِرُ^(٣)
قَوَى لِلذَّاتِ يَوْمًا مَا بَلَوْتَا وَقَيْدًا بَعْدَ قَيْدٍ مَا حَطَمْتَا^(٤)
يَدُومُ الْعَقْلُ لِلْإِنْسَانِ قَيْدًا إِذَا فِي صَدْرِهِ الْقَلْبُ افْتَقَدْتَا^(٥)

تَقُولُ الْقَلْبُ مِنْ تَرْبٍ مَهِينٍ يَذُوقُ الْأَسْرَ مِنْ كَافٍ وَنُونٍ

-
- (١) الخضم : البحر . السهب : الأرض المنبسطة . والحجاب : الفقايع التي تعلق الماء والخمر . والشاعر يريد ليقول إن الأفلاك كلها لا تساوي فقاعة واحدة في هذا السيل .
(٢) يقول : إن هذا القلب نار والجسم موج دخانها ، وهو بخفقه أشبه شيء بالقيثارة .
الوهن : نصف الليل . ويشبه من يطربون لذكر الله ليلاً في هزتهم وحركتهم بالزئبق الرجراج .
(٣) أنجحه : جملة ناجحاً . وإقبال يجري على مألوف عاداته في الربط بين فقر النفس وعظمة السلطان .
(٤) بلوت : اختبرت . حطم : مثل حطم بتشديد الطاء .
(٥) افتقد : فقد .

وَفِي صَدْرِ لِقَلْبٍ مَسْتَقَرٍّ هُنَا مَا كَانَ يَوْمًا بِالقَطِينِ^(١)

وَدُنْيَا النَّيِّرَيْنِ بِهَا تَمَنُّطُقُ وَكَمْ عَقْدٍ يَحِلُّ إِذَا تَحَرَّقُ^(٢)
فَقُلْ لِلْهِنْدِ هَذَا مِنْ كَلَامِي بِصُخُوتِهِ غُلَامُ الْهِنْدِ يُغْتَقُ
وَكُنَّا حَقْلَ رَبِّي وَهُوَ حَاصِلُ لِعَالِمِنَا عَرُوسٌ وَهُوَ مُحَمَّلُ
غِبَارَ مَنْ دَرَى سِرًّا بِدَرْبِ وَلَمْ يَكُ غَيْرَ هَذَا الْقَلْبِ ، فَاعْقِلْ^(٣)

دُؤُوبٌ يَطْلُبُ الْحَسْنَ الْغَرِيبَا وَخَطِيبٌ كَانَ مِنْبَرُهُ صَلِيبَا^(٤)
وَسُلْطَانٌ لَهُ خَيْلٌ وَجَيْشٌ وَيَعْدَمُ عِنْدَ دَوْلَتِهِ نَصِيبَا

وَدُنْيَا الْقَلْبِ مَا اتَّسَمَتْ بِرَوْنَقُ وَمَا يَبْدُو بِهَا حِجْرٌ وَجَوْسَقُ^(٥)
وَمِنْ أَرْضٍ خَلَّتْ بِلْ مِنْ سَمَاءٍ وَ « اللهُ هُوَ » تَغْشِيهَا فَتَغْرَقُ
رَأَتْ عَيْنٌ ، أَتَى قَلْبٌ سَرِيعَا أَرَادَ يَقِيسُ عَالِمِنَا الْوَسِيعَا
وَهَذَا الْقَلْبُ سِكِّيرًا يَسْمَى تَحْسَى مَا بِهِ حُسْنًا بَدِيعَا

سَهَامُ الْعَشَقِ مِنْ عَيْنِ تَصِيبُ يَطِيبُ الْجِرْحُ وَالرَّامِي حَيْبُ
بِصَيْدِ الْقَلْبِ سَهْمُكَ فَلَتَدْعُهُ بِكُلِّ الصَّيْدِ ، مَنْ نَظَرَ تَوْوَبُ^(٦)

(١) المراد بـ « هنا » : هذه الدنيا . والقطين : الساكن والمقيم

(٢) تمنطق : شد وسطه بالمنطقة .

(٣) الدرب : الطريق .

(٤) الصليب : من معاني الصليب العود الذي يصلب عليه من يقتل .

(٥) الجوسق : القصر .

(٦) الصيد : اسم من صاد وبمعنى ما يصيد .

الذاتية

بنور الكبرياء لها اشتعال ومن نقصي لها كل الكمال
مقامات الوصال لها فراق كما أن الفراق لها وصال

ومن جدل لقوم أن يريحوها ليزهر عندهم أمل نجيح^(١)
بدت ذاتية سيفاً حساماً ويعرف حده لون وريح

وجود الله أكسبها الوجوداً فكانت مظهراً جاز الحدوداً
أزاهها جوهراً من جوف بحر سواءه بمثله من لن يجوداً
وطين حينما يرضاه قلب يقطره لطيب النوم حُب
ومن نوم بخلق (أنا) سيضحو بجسم حين يحكمها سيخبو

لنا وصل فراق فيه يظهر وهذي عقدة للحل تنظز
تضيح جواهر من حزن بحر وليس لماء بحر ما لجوهر!

ولي من بابه هذا التراب ومن صدر له زهر عجاب
ولا أدري (أنا) أو ما عداها بصدر منه تخويني رحاب^(٢)

(١) أراح : استراح . والنجیح : الذي تنجح أموره .

(٢) يقول : إنه لا يعرف (أنا) ولا (هو) ولكن يعرف أن (أنا) في صدر (هو) .

الجبرُ والاختيارُ

سيوزنُ كُلُّ شيءٍ يَوْمَ حَشْرِ
لدى الإنسانِ مِنْ جُحْرِ وَقْضَرِ
فَمَاذَا فِي غَدٍ يَا لَيْتَ شِعْرِي
أَيَرْضَى اللهُ عَمَّا سَوْفَ يَجْرِي؟

وَلِي شَيْخٌ مِنَ الرَّهْبَانِ قَالَا
كَلَامِي ذَاكَ أَلْقَى إِلَيْهِ بَالَا
بِتَقْدِيرِ لَكُمْ عَمْرٌ سَيَفْنِي
سُنُقَلُ نَحْنُ بِالتَّذْيِيرِ طَالَا

الموت

لِرَبِّي قَالَ ذَا الْمَوْتِ الْمَرِيدُ
لَعِينِ أَصْلُهَا طِينٌ جَمُودُ^(١)
مَنْ الْإِنْسَانِ يَخْجَلُ قَبْضُ رُوحِ
أَمِنْ مَوْتٍ لَهُ الْعَارُ الْجَدِيدُ!

وَأَيْدٍ فِيهِ مَنْ مَلَكَ الْجِهَاتِ
بِمَقْوَدِهِ يَقُودُ الْكَائِنَاتِ
لِذَلِكَ الْمَوْتِ مَا أُغْضِي حَيَاءِ
غَرِيبٌ عَنْهُ نَامُوسُ الْحَيَاةِ

إِلَى إِبْلِيسَ فَلتَنْقَلُ مَقَالِي
إِلَامٌ لِي التَّمْلُؤُ فِي الْعَقَالِ^(٢)
وَلِي دُنْيَا الشَّرَى لَا أَزْطِئُهَا
فَفِيهَا الصَّبْحُ مَهْدٌ لِلْيَالِي

(١) جمود العين : انقطاع دمعها .

(٢) المقال : القول . التملؤ : التقلب على الفراش من هم أو مرض .

وَلَمَّا أَخْرَجُوا الدُّنْيَا إِلَيْنَا ضَمِيرًا خَامِدًا فِيهَا رَأَيْنَا
بِغَيْرِ الرُّوحِ أَيْنَ لَنَا لِهَيْبِ لَقَدْ خَلَقُوكَ مِنْ نَارٍ لَدَيْنَا

فِرَاقٌ يَجْعَلُ الشُّوقَ البَصِيرَا بعمقِ البَحْثِ يَجْعَلُهُ الجَدِيرَا
وَلَكِنْ كَيْفَ حَالِكَ لَسْتُ أَدْرِي وَطِينٌ قَالَ لِي «كَانَ الخَيْرَا»

لَقَدْ طَرَدُوكَ يَا مَنْ لَنْ يُعَادَا لَكَ التَّفْكِيرُ بَيْنَ الخَلْقِ زَادَا
قَضَيْتُ الدَّهْرَ فِي بُلُوَى عَذَابِي فَقَلْبِي فِيهِ كَمْ زَرَعُوا القَتَادَا^(١)
مُصِيبًا مِرْتُ مِنْ غَيْرِ المَصِيبِ عَدِمْتُ النَبْتَ فِي حَقْلِي الجَدِيدِ^(٢)
وَلَمْ تَسْجُدْ فَمَنْ أَلَمْ تَقَاسِي أَخَذْتُ إِلَيْكَ مَالِي مِنْ ذُنُوبِ

تَعَالَ النُّرْدَ فِي مَرَحٍ لِنَلْعَبِ وَدُنْيَانَا لِنَحْرِقَهَا فَتَعَطِبِ
بِسِحْرِ مَنْ هَشِيمٍ كَانَ فِيهَا لِنَصْنَعُ جَنَّةَ الأَفْلَاقِ فاعْجَبِ

إِبْلِيسُ التَّرَابِيِّ وَإِبْلِيسُ النَّارِيِّ

فَسَادُ عَصْرِنَا أَوْهَى وَأَثْقَلُ وَأَفْلَاكُ تَشَاهِدُهُ فَتَخْجَلُ
أَلَيْسَ لَدَيْكَ لِلنَّظَرَاتِ ذَوْقُ لَتُخْدَمَ عِنْدَ شَيْطَانٍ وَتُحْمَلُ

(١) القتاد : الشوك .

(٢) النبت : النبات .

وَمَنْ عَيْنَاهُ وَالْأَذْنَانِ سَارِقٌ تَرَصَّدُ فِي الظَّلَامِ لِسَلْبِ خَافِقُ
وَكَانَ السَّعْرُ فِي الْأَسْوَاقِ بِخَسَا بَفَلْسٍ تَشْتَرِي ذَنْبًا؟ تَحَامِقُ^(١)

عَجِيبُ السَّعِي شَيْطَانٌ عَجِيبُ سِخْرٍ لِلْعَمَى عَيْنًا يَصِيبُ
اسْمَى ذَلِكَ الشَّيْطَانِ مَيْتًا فَمَثَلِكَ صَيْدُهُ وَهُوَ الطَّلِيبُ^(٢)
لَهُ كَأْسٌ بِهَا سَمٌّ دَهَاكَا لِقَتْلِ الرُّوحِ ، جَسْمٌ مَا هُنَاكَ
لَكَ الْحَلَقَاتُ تَبْدِيهَا شَبَاكَ وَمَا شَاهَدْتَ فِي الْحَبِّ الشَّبَاكَ!

هُوَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَعْلَى مَقَامٍ فَضَاقَ مَجَالَهُ عِنْدَ ارْتِطَامِ^(٣)
بَلَا طَعْمٍ وَلَا لَوْنٍ ذَنْبٌ وَإِبْلِيسُ لَهُ طَبَعُ الْأَنَامِ^(٤)

وَمَنْ شَيْطَانٍ هَذَا الْعَصْرِ فَاحْذِرْ خَسِيسٌ مَنْ يَضَلُّهُ وَيَسْحَزِرْ
أَرَى إِبْلِيسَ خَيْرًا مِنْهُ حَقًّا رَأَى الرَّحْمَنَ فَهُوَ بِذَاكَ يَفْخَزِرْ
لَهُ النَّدُّ الْمَغَالِبُ مِنْ هُمَامٍ وَبِالنِّيرَانِ يعلُو فِي الْمَقَامِ
وَمَا كُلُّ التَّرَابِ رَمَاهُ صَيْدًا وَأَعْجَفَ أَنْ يَصِيدَ مِنَ الْحَرَامِ^(٥)

خَسِيسُ الطَّبَعِ هَذَا لَيْسَ يَفْهَمُ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فِيهِ قَدْ تَحْتَمُّ

-
- (١) حامقه : ساعده على الحمق ، فكان بذل الثمن السخي في الذنب يعين الحمقى الذين يبيعون بالثمن القليل .
(٢) الطليب : الكثير الطلب .
(٣) الارتطام : الوقوع في الوحل .
(٤) الأنام : الناس .
(٥) الأعجف : الهزيل .

أبالسةً بهذا العصرِ جَافَى غيورٌ وَهُوَ طُوْلُ العنمرِ يَأْتُمُ

إلى رُفقاء الطريق

تعالَ لقومِنَا أمراً نَدْبُزُ لنكسبَ إنَّ هذا العيشَ ميسرُ
نصعُدُ في مَسَاجِدِنَا أَيْنَا على إِخْرَاقِ قلبِ الشِخِّ يَقْدِرُ

وصفَرُ في السَّمَوَاتِ القَلَنْدَرُ لخفقِ جناحِهِ ذو الثقلِ أصغَرُ^(١)
وفي هذا الفِضَاءِ لَهُ مَصَادُ بعشٍّ لَمْ يَطُفْ فالعُشُّ أَغْبَرُ

ولحنُ «اللهِ» مَنْ روجِي تَرَدَّدُ متاعِ الكونِ عثيره تصعَّدُ^(٢)
ولي في معزَفِي وَتَرُّ بنارِ تقطَّعُ ، ياله دمعِي المبدَّدُ

خفقت كدمعة سالت فطره إلى عيني وصلتُ بفضلِ طَفَرِهِ^(٣)

(١) في القرن الثامن الهجري أنشأ من يدعى قلندر الأندلسي فرقة دينية من مبادئها طهارة القلب وقطع الإنسان ما بينه وبين دنياه من أسباب رغبة عنها وزهداً فيها ، ودوام الترحال . وكانوا يحلقون شعورهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم إمعاناً منهم في تشويه مظهرهم ، ورغبة في أن يعلنوا على الملأ أنهم لا يباليون إلا بما بينهم وبين ربهم ولا يكثرثون بما يشاهد الناس من ظاهريهم . ويريد إقبال بالقلندر من تخلى عن دنياه وكان اهتمامه ببواطن الأمور لا ظواهرها .

(٢) العثير : الغبار .

(٣) الطفرة : الوثبة .

ولي إشراقه في الهذب تبذو على هذا الهشيم نثرت قطره^(١)
ولم يف منطق لي بالمرام دليل فيه خلو من تمام
سيفتح كل باب أو صدوه بيت قاله الرومي وجامي^(٢)

تعال إليك مني بنت حان تثير الروح في طين الدنان^(٣)
ومن قارورتني فلتسق غضناً لتشهد فيه إنساناً يراني^(٤)

بكفي معزفي شعري يغني أين فيه من لون ولون
عليه بمخليب الأساد عزفي به الأوتار من وجه المجن^(٥)
لكسرى العصر عني القول ينقل « كرهاد لدى الفأس تحمل ؟
بصدري شوكة أدمته وخرأ لقلب الطود منها السيف يعمل »

فقير نظرة لي كل مالي هشيم ما لصحي من جبال
على البازي أفضل زاع ميت ولو رباه كسرى في الدلال^(٦)

- (١) الهشيم : النبات اليابس المنكسر .
(٢) راجع ما مضى عن جلال الدين الرومي ، وجامي .
(٣) الدنان : جمع دن وهو جرة الخمر .
(٤) يقول : إذا سقيت غضناً من خمري أصبح هذا الغصن إنساناً .
(٥) المجن : الترس . وفي الأصل أن أوتاره من عروق الحجر .
(٦) الزاغ : الغراب . والإشارة هنا إلى جوارح الطير التي تأكل جثث الموتى . ولتفسير ذلك نقول : إن المجوس لا يدفنون جثث موتاهم في الأرض التي يعتقدون أنها من خلق إله الخير ويحرم تنجيسها . فهم يضعون جثة الميت على منصة عالية ويعرضونها لجوارح الطير حتى تأكلها . أما ما تبقى من عظامها فيلقون به في البئر .

وَلَا قَاطَعَتْ أَهْلًا أَوْ صَحَابًا
فَجَزَتْ بِمَجْلِسِي هَذَا السَّحَابًا^(١)
نَصِييَ أَيُّ شَيْءٍ كُنِيَ أَبَاهِي ؟
بِعَيْنِ نَرْجَسٍ جَذَبَ انْتِبَاهِي^(٢)

لِقَلْبِي قَطُّ مَا أَوْصَدْتُ بَابًا
قَبَعْتُ بِمَجْلِسِي فِي عَقْرِ صَدْرِي
عَدَمْتُ بِرَوْضَةِ عَزِّي وَجَاهِي
وَصَاحِبُهَا يَسْمِينِي وَقَاحًا

كَلَامٌ رَقٌّ مِثْلُ الْيَاسْمِينِ
لَوْصَفِ الرُّوضِ بِالْقَوْلِ الْيَقِينِ ؟

وَلِلْعَلْمَاءِ فِي الْحَفْلِ الْمَزِينِ
وَلَكِنْ مَنْ رَأَى فِي الرُّوضِ شَوْكًا

مَقَامٌ آخِرٌ فِيهِ كَلَامِي
خَفِيفَ الْخَطْوِ يَعْدُو فِي الْأَمَامِ
وَحَسْبِي الرُّوضَ أَفْعُمُهُ نَجِيًّا
بِعُشِّي كُنْتَ تَخْشَى أَنْ يَغِيًّا

بِعَلْمٍ أَوْ يَفْنُ مَا اهْتَمَامِي
ضَعِيفَ الرُّكْبِ يَجْعَلُهُ لِهَيْبِي
أَتَحْسِنِي لِفَجْرِ عِنْدَلِيَّا
تَمَسَّكَ بِي تَجِدُ مِفْتَاحَ رَوْضِ

رَفِيقٌ لَيْسَ لِي وَالْكَلُّ سَفْرٌ^(٣)
غَرِيبٌ وَهُوَ لِي هَمٌّ وَشَرٌّ

هِيَ الدُّنْيَا لِعَيْنِي الْمَمْرُ
نَفَارِي مَنْ قَوِيْبٍ كَانَ خَيْرًا

وَزِدْ ذَاتًا مِنْ التَّقْدِيرِ هَيَّا

وَفِي عَدَمِ تَعَلُّمٍ كَيْفَ تَحِيَّا

= والمراد بالبازي هنا : ذلك البازي الذي يريه الملوك في قصورهم لاستخدامه في صيدهم .

(١) قبع : أدخل رأسه في فتحة ثوبه . وعقر البيت : وسطه .

(٢) الوقاح : الوقح .

(٣) السفر : المسافرون .

وفي أعماق أنغامِي تَلبُّبٌ
وتربيبِي بتلك الأرضِ كأنَا
نَبْتُ بِهَا بفيضِ من نَدَاهَا
بيخري لؤلؤ فاسكنُ ملياً^(١)
ولكن أجتوبها لي مكاناً^(٢)
سماءَ لي أشهدُها عياناً

إلى نفسِ الرجالِ كِنِ القَرِيبَا
شكَاةَ الذَّاتِ هُمُّهُمُ يَجَافِي
لهم أنفاسهم تحيي القلوبا
فما عن ذاته كان الغريبَا

لتخلقَ نظرةَ والروحِ أبصرُ
ولأَ فلتكُنْ سهماً لقوسِ
تغربَ عقلنا ذَا عن يقينِ
جهولٌ كان خيراً من حَكِيمِ
تجد زهراً بغصنِ غير مزهرُ
ومن يزمي له هدفاً يُقَدِّزُ^(٣)
بداً كمقامِ العلمِ المشينِ^(٤)
بنظرتِه إلى الحقِّ الميسينِ

ومن ذهبٍ ودُرٍّ ما المرامِ
من الدارينِ شيءٌ لا يرجي
ومَا سرجُ المطهَّمِ والغلامِ^(٥)
وذاك لمالِ ذي الفضلِ القوامِ

وسكرُ أنا لتلكِ الذاتِ عقلِ
شرابي ما صفَا ، لكن ترشَّفِ
وإن الصمتَ في حاني لفضلِ
ففي يومِ مضى للذنِّ بزلِ^(٦)

(١) ملياً : زماناً طويلاً .

(٢) التريب : التربية .

(٣) يشبهه بالسهم الذي يحدد راميهِ الهدف ولا يحدد هو هدفه بنفسه .

(٤) المشين : المعيب .

(٥) الجواد المطهَّم : التام الحسن .

(٦) بزل الدن : ثقبه لأخذ الخمر منه .

لَدَيْكَ بِخَرْقَةٍ أَوْ فِي نَصِيبٍ وَمَنْ ذَاتِي وَجَدْتُ شَذَا الْحَبِيبِ^(١)
لَدَيَّ الْمَالُ مِنْ خَشَبٍ لِنَاءٍ وَلَيْسَ لِمَنْبِرٍ أَوْ لِلصَّلِيبِ^(٢)

بِمَزَاةٍ لِدَايِي قَدْ بَصُرْتُ بَصَدْرِي خُلُوةً فِيهَا قَرَرْتُ
مَنْ الْعِمْيَانِ فِي عِلْمٍ وَفَنٍّ بِلِبَالٍ قَدِيمٍ لِي فَرَرْتُ

رَجِيلِي حَانَ عَنْ هَذَا التَّرَابِ فَقَالَ الْكَلْبُ « كَانَتْ مِنَ الصَّحَابِ »
فَمَنْ هَذَا الْمَسَافِرُ لَيْتَ شِعْرِي وَمَنْ قَدْ خُصَّ بِالْقَوْلِ الْعَجَابِ
عَلِمَ الْقَلْبِ رَفْرَاقُ الضَّمِيرِ أَمِيرٌ وَهُوَ يُعْرَفُ بِالْفَقِيرِ
وَلَيْسَ لِمَعْدَمِ دِينًا وَعِلْمًا قِبَاءً بَلْ لَهُ سِرْجُ الْحَرِيرِ

لَجَمِّ أَنْتَ تَسْجُدُ أَوْ لِدَارَا فَلَا تُلْحِقْ بَيْتَ اللَّهِ عَارَا^(٣)
وَلَا تَطْلُبْ إِلَى الْغَزْبِيِّ شَيْئًا بِقَلْبِكَ حَطْمَ الصَّنَمِ الْمَعَارَا

بِسْمِعِي طَافَ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ لَهُ عَقْلٌ وَإِشْرَاقُ الضَّمِيرِ
« فَقِيرٌ إِنْ يَصُنُّ بِالْفَقْرِ ذَاتًا فَمَلِكُ الْعَالَمِينَ لَذَا الْفَقِيرِ »
وَفِي حَرْفَيْنِ هَذَا السَّرُّ يَسْتَرُ مَقَامَ الْعَشْقِ لَا يَبْدُو كَمَنْبَرِ
وَإِبْرَاهِيمُ نَمْرُودًا أَيَخْشَى لِعُودِ نَفْحَةٍ بِالنَّارِ تَنْشَرُ

-
- (١) الخرفة : الثوب الخشن البالي الذي يلبسه الصوفي .
(٢) الصليب : من معانيه العود يصلب عليه من يقتل .
(٣) جم : هو الملك جمشيد من ملوك الأساطير عند الفرس وهو مذكور بمعظمة الملك .

ألا يا زهراً ما طلب العزاء ؟
وَصَدْرَكَ افْتَحَنْ لِكُلِّ رِيحٍ
بذاتك فالتزم خَلَّ الوفاء
وَصُنْ وَشَمًا قَدِيمًا فِي الخفاء^(١)

يدوي النضج في سمعي دويًا
لتحذر من أضاع الروح رهناً
لشط قال موج وهو يهدز
على ذاتي التفافي مثل أفعى
« برؤحك وحدها عش يا بنيًا
بجسم لا بروح وهو يحيا »
بفرعونية ذاتي أقدر
وأرقص بانتظار فيه أصير

بجاء الغزب إن كنت القمينًا
أدز لعصاه عند الضرب ظهراً
على عباته عفر جينًا^(٢)
كعير سيق فلتكن المهينا!^(٣)

وأين فؤاده طوع اليمين
شياطين تطوف له بيت
ومن قلب ومن دين يثننا
ومات الدين من موت لقلب
خلاء ملكه من كل دين^(٤)
وتوحش غيبة الروح الأمين^(٥)
كعطر الورد من أصل هربنا
لنا موتين نحن قد اشتربنا!

حنيف كان يعرف قدر دين
بما لا يشتهي الأفلاك دارت
لربي منه تعفير الجين
أدار الأرض منه باليمين

(١) الوسم : أثر الكي .

(٢) القمين : الجدير .

(٣) العير : الحمار .

(٤) يريد الرجل من الفرنجة .

(٥) الروح الأمين : سيدنا جبريل .

من دُنِيَا لَنَا قَلْبٌ غَرِيبٌ لَهُ الْأَيَّامُ مِنْ فَلَكٍ نَصِيبٌ^(١)
صَلَاةَ الْعَشَقِ مَيِّزَهَا بِوَقْتِ فَلَيْسَ لَهَا الْمَوْذُنُ وَالْخَطِيبُ
مَقَامُ الْعَشَقِ يَفْعَمُهُ الْيَقِينُ يَقِينًا يَصْحَبُ الرُّوحَ الْأَمِينُ
إِذَا حَصَلَتْ مِنْ هَذَا نَصِيبًا فَسِرْ قُدَمَا ، فَمَا اعْتَرَضَ الْكَمِينُ

وَعِزْفَانٌ وَإِذْرَاكٌ لِمَسْلِمٍ وَعَيْنِيهِ « بَلَوْلَا » الذَّاتِ يَفْعَمُ^(٢)
سَمَا رَبِّي سُمُوًّا عَنِ قِيَاسِ بِقَائِلِ « مَا عَرَفْنَا » النَّفْسِ أَكْثَرَمُ^(٣)

وَأَضْنَامَ الْفَرَنْجَةِ مَا عِبَدْنَا بِمَعْبِدِهِمْ فَبُئْسَ الْمَوْتُ مِتْمَا
وَعَقْلُكَ كَانَ عَنِ قَلْبِ غَرِيبًا فَمَا بَسْلَافٍ مِنْ سَلَفُوا سَكِرْتَا^(٤)
أَكَلُ النَّاسِ مِنْ نَفْسًا يُسِيلُ وَمِنْ سُكْرِ التَّدَلُّلِ مَنْ يَمِيلُ
قَبَاءٌ « لَا إِلَهَ » بِهِ دِمَاءٌ عَلَى قَدِّ الْخِسَاسِ هُوَ الطَّوِيلُ

وَيَحْرِقُ مُؤْمِنًا حَرُّ الْوَقِيدِ مِنْ الْأَبْوَابِ يَفْتَحُ مَا يَرِيدُ^(٥)
جَلَالُ الْكِبْرِيَاءِ لَهُ قِيَامٌ جَمَالُ الصَّبْرِ يَظْهَرُهُ الشُّجُودُ

أَتَسْأَلُ عَنِ صَلَاةِ الْعَاشِقِينَ وَفِيهَا حُفِيَّةٌ هُمْ سَاجِدُونَ
أَرَى « اللَّهُ أَكْبَرُ » مِثْلَ نَارِ أَفِي خَمْسِ بَدَتْ لِلنَّاطِرِينَ

- (١) يريد ليقول إن القلب الغريب الطبع ليس من دنيانا .
(٢) التلميح إلى (لولاك لما خلقت الأفلاك) هكذا في الأصل .
(٣) الإشارة إلى (ما عرفناك حق معرفتك) هكذا في الأصل .
(٤) السلاف : الخمر .
(٥) الوقيد : الوقود .

نِدَاءُ الْعَالَمِينَ بِهَا يَدُومُ وَمِنْهَا مُسْلِمٌ خَلَدًا يَرُومُ
صَرِيحُ الْعَصْرِ فِينَا لَيْسَ يَدْرِي قِيَامَاتٍ « لَقَدْ قَامَتْ » تَقُومُ

رَأَى مَتَفَزَّجٌ لِّلَّهِ حُكْمًا فِيرْزُقُ وَهُوَ يَطْلُبُ مِنْهُ دَوْمًا
عَلَى الشَّيْطَانِ أَغْدَقَ أَيَّ رِزْقٍ ! إِلَى أَنْ حَارَ فِيهِ اللَّهُ يَوْمًا

وَفِي قَوْلِي لِمَ الْإِسْهَابُ كَانَا أَقُولُ الْحَرْفَ عَنْ سِرِّ أَبَانَا^(١)
وَعَالِمُهُ لِمَتَجْرِيْنَ أُعْطَى مَكَانَ كَيْفَ يَدْرِي الْإِلْمَ كَانَا
لِمَنْ تَضْفُو قُلُوبُهُمْ نَعِيمٌ وَأَخْرُ فِيهِ ذُو هَمَمٍ يُقِيمُ
فَبَلِّغْ مُسْلِمًا فِي الْهِنْدِ بُشْرَى « نَعِيمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ شِيمُوا »^(٢)

إِلَى التَّقْرِيرِ مَا مَالَ الْقَلَنْدَرُ كَأَكْسِيرٍ لَهُ رَأْيٍ يَقْدَرُ
وَهَذَا الْحَقْلُ أَفْقَرُ مِنْ حَصَادٍ فَمَا يَرُوي ثِرَاهُ دَمٌّ لَشَبْرٍ^(٣)

(١) أبان عنه : فسرہ .

(٢) شيموا : انظروا .

(٣) الحصاد . الزرع . شبر : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .

القسم الرابع

قَمَائِد

(١) من هُنَا القسم الرابع والخامس لهذا الديوان نقلها من الأردوية إلى العربية نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم .

برلمان إبليس

هذه قصيدةٌ بديعةٌ لمحمد إقبال ، وصف فيها وصوّر جلسةً برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدّد مهمّتهم في العالم وتُحبطُ مساعيهم ، أو تعرقلُ سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ، ووجهات نظرهم ، وترأسَ هذه الجلسة ، وأشرف عليها « إبليس » فحكّم على هذه الآراء والدراسات ، وعارضَ أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، ويُعِدُّ نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه ، وأدلى برأيه الحصيفِ المؤسّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخّص في : أنّ المسلم هو المنافسُ الوحيدُ ، والمصارغُ الكفءُ لنظامه ، وهو الشرارةُ التي تتحوّل ناراً بسرعة ، فالمصلحةُ والرأي أن يركّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادقِ الدقيقِ للمسلم ، ومن الملاحظات الصّائبة الدّقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ما يفيدُ الاطلاعُ عليه ، وإليك محضر الجلسة :

« إنّ الشياطينَ وزملاءَ إبليس وأعوّانه اجتمعوا في مجلسٍ شوري ، وتباحثوا في سيرِ العالم ، وأخطار الغدِ ، وفتنه ، وما يتوجّسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ، ومهمّتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتنٍ وأخطارٍ قد أهدقت بهم ، وهدّدت نظامهم ، وجلّكوا خطبها ، وتناذروا شرّها ، فذكرَ أحدُهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنك أمرها ، فإنّها ليست إلا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ؛ إذ

رأينا الإنسان بدأ يتبهُ ويفيُقُ ، ويشعُرُ بكرامته ، وخفنا ثورةً على نظامنا قد لا تُحمدُ عاقبتُها ألهيانه بلعبةِ الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تنحصر في وجودِ شخصٍ تتركز فيه الملوكية ، وفردٍ يستبدُّ بالسلطان ، إنَّما الملوكية أن يعيشَ الإنسانُ عيالاً على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواءً في ذلك الشعبُ والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجههُ مشرقٌ وصَّاحٌ ، وباطنُهُ أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأسَ إذا بقيت روحُ الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الذَّهماء التي أثارها هذا اليهوديُّ الذي يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنَّهُ يحملُ عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأٌ أنَّه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السَّادة ، حتى تزعزعت مباني الإمارة والسِّيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحبَ الفخامة ! إنَّ سحرة أوربة ، وإن كانوا يريدك المخلصين ، ولكنَّ لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامريُّ اليهوديُّ الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسي الاشتراكي) ، قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسرَ البُغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالزَّاح (أعلامُ أرضٍ جُعِلتْ بطانحاً) إنا قد استهتأ بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرُّها ، وهاهي الأرضُ ترتجفُ بهولٍ فتنة الغد ، يا سيدي ! إنَّ العالمَ الذي كنتَ تحكمه سينقضُّ عليك ، وينقلبُ نظامُ العالم ظهرأ لبطن .

فتكلم رئيسُ المجلسِ « إبليس » وقال : إنِّي أملك زمام العالم ، وأتصرَّف به كيف أشاء ، وسيرى العالمُ عجباً إذا حرَّشت بين الأمم ، فتهاارشت الكلابُ ، وافترسَ بعضها بعضاً فِعْلُ الذئاب ، وإذا همَّستُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رُشدَهم ، وجُنَّ جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقةٍ أنَّ الخرقَ الذي أحدثته

الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطقُ المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية)
لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليك الشفهاء .

إن كنتُ خائفاً ، فأني أخافُ أمةً لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في
رمادها ، ولا يزال فيها رجالٌ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيلُ دموعهم
على خدودهم سَحَرًا ، لا يخفى على الخبير المتفرّس : أنَّ الإسلام هو فتنةُ الغد ،
وداهيةُ المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهلُ أنَّ هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فتنتُ بالمال ،
وشغفتُ بجمعه ، وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خيرٌ بأنَّ ليل الشرق داج
مكفهرٌ ، وأنَّ علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق
لها الظلماتُ ويضيء لها العالمُ ، ولكني أخافُ أنَّ قوارع هذا العصر وهزاتِهِ
ستقتضُ مضجعها ، وتوقظ هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة محمد (ﷺ) ، وإني
أحذركم وأندركم من دين محمد (ﷺ) ، حامي الدِّمار ، حارسِ الدِّم
والأعراض ، دينِ الكرامة والشرف ، دينِ الأمانة والعفاف ، دينِ المروءة ،
والبطولة ، دينِ الكفاح والجهاد ، يلغي كلَّ نوع من أنواع الرِّقِّ ، ويمحو كلَّ أثرٍ
من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرِّقُ بين مالكٍ ومملوك ، ولا يؤثرُ سلطاناً على
صعلوك ، يزغّي المال من كلِّ دنسٍ ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعلُ
أصحابَ الثروة والملاكِ مستخلفين في أموالهم ، أمناء الله ، وكلاء على
الأموال ، وأيُّ ثورةٍ أعظمُ ، وأيُّ انقلابٍ أشدَّ خطراً مما أحدثه هذا الدِّينُ في عالم
الفكر والعمل ، يومَ صرخَ : إنَّ الأرضَ لله لا للملوك والسلاطين .

فابدلوا جهدكم أن يظلَّ هذا الدِّينُ متوارياً عن أعين الناس ، وليهنكم أن
المسلم بنفسه هو ضعيفُ الثقة بربه ، قليلُ الإيمان بدينه ، فخيرٌ لنا أن يظلَّ مشتغلاً
بمسائل علم الكلام ، والإلهيات ، وتأويل كتاب الله ، والآيات ، اضربوا على
أذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسرَ طلاسَمَ العالم ، ويبطلَ سحرنا بأذانه
وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطِئَ سَحْرَهُ ، اشغلوهُ يا إخوتي !

عن الجدِّ والعمل ، حتى يخسر الرّهان في العالم ، خيرٌ لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجّر هذا العالم ، ويعتزلّه ، ويتنازلَ عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا ! لو انتبهت هذه الأُمَّة ، التي يَغزِمُ عليها دينها أن تراقب العالم وتعمّسه ،^(١) .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلًا نجحَ شياطينُ الإنس والجنِّ في مهمّتهم ، وكانت مؤامرةً مبيتةً ضدَّ الإسلام ، وخطةً منظمةً ضدَّ أجياله القادمة ، فأكبر ما اهتموا به هو إطفاءُ الجمرَةِ الإيمانيّة ، التي لا تزالُ كامنةً في الرّماد ، وتجريدُ المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحميّة الدّينية ، والعاطفة الإسلاميّة ، التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحملُ الشدائدِ والمكاره في سبيل الله ، والثورة على الباطل ، وقد أوصى بذلك إبليسُ أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) :

« إنَّ المجاهدَ الذي يصبرُ على الجوع ، ولا يحسبُ للموتِ حساباً ، أخرجوا روحَ محمد (ﷺ) من جسمه ، فيصبحُ قليلَ الصّبر ، جزوعاً من الفقر ، شديدَ الخوف من الموت ، وأشغولوا العرب بالأفكار الغربيّة ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الدّينيّ تمكّنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن ، إنّ في الأفغان غيرةً دينية ، وعلاجُها أن يُقصى العالمُ الدّينيُّ من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطّرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليمُ الذي يجردُ الشباب المسلم من الروح الدّيني والعواطف الإسلاميّة والعقلية الإسلاميّة ، وينشئُ فيه طبيعةً النفعيّة والأبيقورية ، وطبيعةً التهام الحياة ، وانتهاجِ

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٣٦م ، كما هو مكتوب تحت عنوان القصيدة في الأصل .

المسرات ، وتقديس المادّة ورجالها ، وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشكّ في الدّين ، لذلك يرى شاعرٌ هنديٌّ آخر اسمه : أكبر الإله آبادي : أنّ فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرقٍ سافرة ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللّعنات ، فكان يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنّه رُزقَ شيئاً من الابتكار ، وبُعدِ النظر ، ودقّة التفكير ، لاكتفى بتأسيس كلية لبني إسرائيل ، ينشئُ الجيل الإسرائيليّ الجديد كما يشاء ، ويسبكُ العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع مكاناً لنشأة شاب مثقف يشعر الشعور الدّينيّ ، ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية ، ويهتم بشيءٍ آخر غير الوظائف ، والمناصب ، والمراتب ، والدرجات ، لو أنّ فرعون وُفقَ لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوء الأحدوث ، ووصلَ إلى غايته في سهولة ويسرٍ ، وهدوء وسلام ، وزيادةً على ذلك اشتهرَ في الناس بلقب « حامي العلم » و« مربّي الجيل » وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصارَ الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم ، وجهودهم ، فضعفَ الشعورُ الدّينيُّ في بلاد الإسلام ، وخمدتْ جذوةُ الإيمان ، وفقدتْ البطولةُ الإسلاميّةُ وروح الجهاد ، وفشتْ النّفعيةُ ، وجمّحتْ المادّيّةُ ، يقول الشاعر ؛ وقد ساح في كثيرٍ من البلاد الإسلاميّة والعربية : « لقد تجوّلت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيضُ بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر ، وعنقاء المغرب » ، ويقول في قصيدةٍ قالها في فلسطين : « لا أرى في بلاد العرب تلك اللّوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السموّ الفكريّ الذي كان يمتازُ به العجم ، لا تزال دجلةُ والفراتُ متعطشين إلى بطلٍ من أبطال

الإسلام ، ولكنني لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعرُ محمد إقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألم لذلك أشدَّ الألم ، ويبكي دماً ، وشعره يفيض بهذه الأناتِ والدموع ، يقول في أبيات : « يا وارثَ التوحيد الإسلاميِّ لقد فَقَدَتِ الكلامَ الجذابَ السَّاحرَ ، والعملَ المسخرَ القاهرَ ، لقد كنتَ يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحدٍ ارتعدتَ فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس ، لا تحملُ روحاً ولا تجذبُ نفوساً » . ويقول في موضعٍ آخر : « إنَّ السجدة التي كانت تهتزُّ لها روحُ الأرض ، لقد طال عهدُ المحرابِ بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشتاق الأرضُ الجديدة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع في مصر ، ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس » . ويقول في بيتٍ : « لقد فقد المسلمُ لوعةَ القلبِ ، وانطفأت نازُ الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب » . ويقول : « لم أر في محيطك أيُّها المسلم لؤلؤة الحياة ، قد بحثتُ عنها موجةً موجةً ، وتفقدتها صدفةً صدفةً » .

ويرى محمد إقبال أنَّ مصدر هذا التدهور هو القلبُ الذي خوى من الإيمانِ وشعلة الحياة ، يقول : « لقد فقدَ المسلمون سَوْرَةَ الحبِّ الصادق ، ونزَفَ منهم دمُ الحياة ، أصبحوا هيكلاً من عظام ، لا روحَ فيه ولا دم ، الصفوفُ زائغة ، والقلوبُ مضطربةٌ ، والسَّجدةُ لا لذةَ فيها ، ذلكَ لأنَّ القلبَ خالٍ من الحنان » .

اليقظة الإسلامية :

هذا ، ولكنَّ محمَّد إقبال يعتقدُ أنَّ الصَّدَماتِ السياسية التي أصيب بها العالم الإسلاميُّ أفضتْ مضجع المسلمين وأيقظتهم ، ودبَّ فيه ديببُ الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » : « إذا رأيت النُّجومَ شاحبةً منكدرَةً تخفق ؛ فاعلم أنَّ الفجر قريب ، هاهي الشمس قد ذرَّ قرنُها من الأفق ، وولَّى الليلُ على أدبارهِ ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنَّما تتكوَّن اللآلئ »

في البحر المتلاطم الهائج ، ولقد دبَّ ديب الحياة في الشرق ، وجرى الدَّمُ الفائت في عروقه الميتة ، وذلك سرًّا لا يفهمه ابنُ سينا ، والفارابي ، إنَّ المسلم سيُمنحُ من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي ، ويقول في بيت :
« إنَّ إقبالاً ليس يائساً من تربته الحقيرة ، فإنَّها إذا سقيت أتت بحاصلٍ كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أنَّ الحضارة الغربية قد مثَّلت دورها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخَتْ وهَرِمَتْ ، وأينعتْ كالفاكهة ، وحانَ قطافها ، وأنَّ العالمَ القديمَ الذي حوَّله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهاز قريباً ، والإنسانية تتمخَّضُ بعالمٍ جديد ، ويعتقد محمد إقبال أنَّ هذا العالم الجديد لا يُحسنُ تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيتَ الحرامَ بالأمس ، وورثَ إبراهيم ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشاده ، فيهبُ محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشدهُ بالله أن يقومَ ويمسحَ النَّومَ من عينيه ، فقد ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر ، وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها ، وخربوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوتِ الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذنَ أن تُرفَعَ ويذكر فيها اسمه ، ولكنَّ الأوربيين قد حوَّلوها إلى خمارة ، وبيتِ فسقٍ ودعارة ، ومكانٍ نهبٍ وغارة ، وقد آن لباني البيت الحرام وحاملِ رسالة الإسلام أن يقومَ ، ويُصلِحَ ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيتَ إلى قواعدِ إبراهيمَ ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالمَ من جديد^(١) .

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ٢٣٠ - ٢٣٣ نقلًا عن «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، ص ١١٤ - ١٢٣ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

وإليك الآن هذه القصيدة المترجمة في النثر :

إبليس

- ١ - هذه الألاعيبُ القديمةُ للعناصر^(١) ، وهذه الدُّنيا الوضيعة
كانت سبباً في قتلِ أُمْنِياتِ ساكني العرشِ الأعظم^(٢) .
- ٢ - الخالقُ الذي سمّاها دنيا الكافِ والنون^(٣)
مُتَهَيِّئاً اليومَ لتدميرِها .
- ٣ - عَرَضْتُ على الإفرنجِ حُلْمَ المُلوكِيَّةِ
وحطَّمتُ سِخَرَ المَسجِدِ والمعبدِ والكنيسة .
- ٤ - عَلَّمْتُ الجهلاءَ درسَ القَدَرِ
وأعْطَيْتُ الغنيَّ جنونَ الرأسمالية .
- ٥ - من يستطيعُ أن يطفئ نازَهَ المتأججة^(٤) .
إنَّ في هيجانها الحُرْقَةَ الإبليسيَّةَ .
- ٦ - أغصانه^(٥) تنمو وترتفعُ من ماءِ سُقيانا
فَمَنْ يستطيعُ أن يُنكسَ أغصانَ هذا النَّخلِ القديمِ !؟

(١) أي : الإنسان والعناصر المكونة له ، وهي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار .

(٢) أي : الملائكة .

(٣) حيث قال تعالى ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

(٤) يقصد نار الإنسان الذي يحمل الملكية ، وجنون الرأسمالية .

(٥) أي : أعماله ، وما يقوم به من أفعال .

المُستشارُ الأول

- ٧ - لا شكَّ أنَّ هذا النظام الإِبليسيَّ مُحكَّمٌ
ففي ظلِّه أَلِفَ الشَّعْبِ طَنَعَ العُبودية .
- ٨ - الخضوعُ والمذلةُ على جبينِ هؤلاءِ المساكينِ
فنظرتُهم تقتضي منهم صلاةً بلا قيام
- ٩ - لا تَنبُتُ لديهم الأمانةُ أساساً
فهي إن تَظَهَرَ تَمَّتْ أو تَبَقَّ كشيءٍ خاملٍ لا يَنْضَجُ أبداً .
- ١٠ - وهذه هي معجزةُ جهدينا المتواصلِ
فاليومَ صارَ الصُّوفيُّ والملاً عبداً - بشكْلِ تامٍّ - للملكيةِ .
- ١١ - هذا الأفيونُ - الملكيةُ - كانَ مناسباً تماماً لِطَبْعِ الشَّرْقِ .
مع أنَّ عِلْمَ الكلامِ ليس بأقلَّ من « الغناء الصُّوفي »^(١) .
- ١٢ - لو بَقِيَتْ لهم مناسكُ الحجِّ والطَّوافِ ، فلا ضَيْرَ
فإنَّ سيفَ المؤمنِ المسلولِ صارَ كالألأ .
- ١٣ - إنَّ هذا الأملَ الجديدَ بأنَّ الجهادَ حرامٌ على المسلمِ
دليلٌ على اليأسِ ؛ فَمَنْ ذا الذي أصابه اليأسُ ؟

المُستشارُ الثاني

- ١٤ - هلْ غوغاءُ الحُكْمِ الجُمهوريِّ خيرٌ أم شرٌّ ؟
أنت لا تدري شيئاً عن الفتنِ الجديدةِ في العالمِ !

(١) هو « القوالي » وهو ما يتغنَّى به الصُّوفيةُ .

المُستشار الأول

- ١٥ - نَعَمْ ، ولكن بصيرتي تخبرني :
- لو تبقى المَلَكِيَّةُ كالسُّتار فلا خطر !
- ١٦ - فحينَ صارَ الإنسانُ مدبِّراً ومفكِّراً إلى حدِّ ما
ألبسنا المَلَكِيَّةَ لباسَ الجُمهوريَّةِ .
- ١٧ - شؤونُ الحُكْمِ شيءٌ آخر
لا يَنحصِرُ في وجودِ الأميرِ والسُّلْطَنَةِ .
- ١٨ - وسواءٌ يكونُ مجلسُ الأُمَّةِ - أو يكونُ بلاطُ برويز
فالحقيقةُ أنَّ السلطانَ هو من تكون عيونُهُ على زرعِ الغَيرِ .
- ١٩ - أما رأيتَ أنَّ النِّظامَ الجُمهوريَّ الغربيَّ
له وجهٌ مضيءٌ لكنَّهُ من الدَّاخِلِ أحلكُ من جنكيز^(١) .

المُستشارُ الثالث

- ٢٠ - رُوِحُ السُّلْطَنَةِ باديةٌ فأبى اضطرابٍ بعدَ ذلك
لكن ما هو الرُّدُّ على شقاوةِ ذلكَ اليهوديِّ^(٢) .
- ٢١ - هو الكليْمُ بغيرِ تجلُّ ، هو المسيحُ بغيرِ صليب
« ليس رسولاً ولكن في حِضْنِهِ كتاب » .
- ٢٢ - ماذا أقولُ ؟ كيف يكونُ نظْرُ هذا الكافرِ الذي يخترقُ السُّتائرَ ؟
هذا النِّظْرُ صارَ كيومِ حسابٍ لأقوامِ الشَّرْقِ والغربِ .

(١) مثلاً لظلم جنكيز وقهره ، ثم التعبير عن مدى ظلم النظام الجمهوري الغربي نفسه .

(٢) هو كارل ماركس .

٢٣ - لا يوجد للطبيعة فسادٌ أعظمُ من هذا
فقد حطّم العبيدُ أطنبةَ خيامِ السّادة .

المُستشار الرابع

٢٤ - انظر ردّ هذه الشقاوة في إيواناتِ روما الكبرى^(١)
فقد أعدنا على آلِ قَيْصَرَ حُلْمَ قَيْصَرَ مرّةً ثانية^(٢) .
٢٥ - من الذي يتلوّى بأمواجِ بحر الروم
ويرتفعُ أحياناً كالصّنوبرِ - وأحياناً يبكي كالزّباب ؟

المُستشار الثالث

٢٦ - الرّجلُ الذي فضح سياسةَ الإفرنج ، هكذا
لا اعترفُ أبداً بدرايته للأمر .

المُستشار الخامس

(يُخاطبُ إبليس)

٢٧ - يا من أمورُ العالمِ قائمةٌ بأنفاسِكِ المحترقة !
أنتَ الذي أظهرتَ كلَّ مختفٍ حينَ شئتَ .
٢٨ - صارَ الماءُ والطّينُ من حرارتك عالماً مليئاً بالحرقَةِ والغِناءِ
وصارَ أبْلَهُ الجنّةِ^(٣) بتعليمك عالماً بالأمر .

(١) أي : الإمبراطورية الرّومانية .

(٢) هذا هو ردّ شقاوة اليهودي .

(٣) أبله الجنّة : هو « آدم » .

٢٩ - هو ليس أعرف منك بسرّ الفِطْرة

ذلك الذي اشتهر بين العباد البسطاء باسم الرّب .

٣٠ - أولئك الذين لم يكن لهم عملٌ سوى التقديس والتسبيح والطّواف^(١)

هم بسبب غَيْرَتِكَ سيقون أذلاءً خجلين إلى الأبد .

٣١ - ومع أنّ سَحْرَةَ الإفرنج جميعاً من مرديدك

لكن لا أعتدّ على فراستهم .

٣٢ - ذلك اليهودي^(٢) المثير للفتن الذي هو ظهورٌ لروح مَزْدَك

والذي كاد كلُّ قباء أن يكون فتاناً بسبب جنونه .

٣٣ - غرابُ الصّحراء صارَ نداءً للشّاهين والعقاب

كيف يتغيّر بسرعة طبعُ الزّمان^(٣) .

٣٤ - إنّ ما اعتقدناه قبضةً غبارٍ بسبب الجهل

انتشرَ فاغبرّت سعةُ الأفلاك .

٣٥ - إنّ هيبةَ فتنةِ الغدِ قد وصلت إلى درجةٍ أنّ

الجبالَ والسهولَ والهضابَ والأنهارَ كلّها ترتعد .

٣٦ - وهذا العالمُ الذي لم يكن يدارُ إلا بسيطرتك

أوشك - يا مولاي ! - أن يضطربَ فيصبحَ أعلاه سُفلاه .

(١) أي : الملائكة .

(٢) كارل ماركس .

(٣) الغراب لم يكن أبداً نداءً للعقاب ، والمعروف أنّه من أحسن الطيور ، وهو رمزُ الجاهل

الخبِيثِ النفس .

(إبليس إلى مشيريه)

٣٧ - عالمُ اللّونِ والرائحة^(١) هذا^(٢) في قبضتي المتصرّفة
سواءً هذه الأرض ، أو هذه السّماء ، أو كلّها جميعاً .

٣٨ - وسوف يرى أهلُ الشّرقِ والغربِ بأعينهم
حينَ أثيرُ دماءِ أقوامِ أوربة .

٣٩ - ما قيمةُ أئمةِ السّياسة ، وما قيمةُ شيوخِ الكنيسة
إنّ صيحةً واحدةً منّي تُذهلهم وتذهبُ بعقولهم .

٤٠ - الجاهلُ الَّذي يعتبرُ هذا العملَ بيتاً من الرُّجاج
عليه أن يحاولَ أن يحطّمَ كأسَ وأباريقَ هذه المدينة

٤١ - الجيوبُ التي مرّقتها يدُ الفِطْرة
أصبحَ من المُحالِ رتّقها بإبرةٍ منطوقٍ مزدك^(٣) .

٤٢ - كيفَ يستطيعُ هؤلاءِ المتشرّدونِ الاشتراكيّون
أن يخيفونني ، المخبولون ، منفوشي الشعر ، مضطربي الأيام .

٤٣ - إنّ ما بين جنباتي من خطرٍ ليس إلّا من هذه الأئمة^(٤)
ففي رمادها حتى الآنَ شرارةُ الأمل .

٤٤ - فحتّى الآنَ يوجدُ في هذه الأئمة قليلٌ من النّاس
يتوضّؤون بدموعِ الأسحارِ .

(١) أي : العالم المحسوس .

(٢) أصلها في النص « هو » .

(٣) جاء بعد زردشت ومانوي وأدعى النبوة ، وهو أوّل من نادى بالاشتراكية الشيوعية .

(٤) الأئمة الإسلاميّة .

٤٥ - إِنَّ مِنْ كُشْفَ لَهُ بَاطِنُ الْأَيَّامِ يَعْرِفُ
أَنَّ فِتْنَةَ الْغَدِ لَيْسَتْ مَزْدَكِيَّةً لَكِنَّهَا الْإِسْلَامُ .

(٢)

٤٦ - أَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا تَحْمِلُ الْقُرْآنَ
وَأَنَّ الرَّأْسَمَالِيَّةَ هِيَ دِينُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ .

٤٧ - أَعْرِفُ أَنَّهُ فِي ظَلْمَةِ دَجَائِلِ الشَّرْقِ
فَإِنَّ أَكْبَامَ شَيْوِخِ الْحَرَمِ خَالِيَةٌ مِنَ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ (١) .

٤٨ - لَكِنَّ الْخَوْفَ مِنْ مَطَالِبِ الْعَصْرِ الْحَاضِرِ ،
أَلَا يَظْهَرُ شَرْعُ النَّبِيِّ .

٤٩ - الْحَذَرُ ، الْحَذَرُ مِثَّةً مَرَّةً بِنِظَامِ الرَّسُولِ فَهُوَ
حَافِظٌ لِكِرَامَةِ الْمَرْأَةِ ، وَمَخْتَبِرُ الْمَرْءِ ، وَيَخْلُقُ الرَّجَالَ .

٥٠ - هَذَا النِّظَامُ كِرْسَالَةُ الْمَوْتِ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْعِبَادِيَّةِ
لَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ مَلِكِ الصِّينِ ، أَوْ فَارِسِ ، أَوْ مُسْكِينِ ذِي مَتْرَبَةِ .

٥١ - إِنَّهُ يُطَهِّرُ الثَّرْوَةَ وَيَخْلِيهَا مِنْ كُلِّ قَذَارَةٍ
وَيَجْعَلُ الْأَغْنِيَاءَ أَمْنَاءَ عَلَى الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ (٢) .

٥٢ - لَا يُوْجَدُ فِي الْفِكْرِ وَالْعَمَلِ ثَوْرَةٌ أَعْظَمُ مِنْ :
« هَذِهِ الْأَرْضُ لِلَّهِ وَلَيْسَتْ لِلْمَلُوكِ » (٣) .

٥٣ - يَا حَبِذَا لَوْ بَقِيَ هَذَا النِّظَامُ مَخْتَفِيًّا عَنْ عَيْنِ الْعَالَمِ

(١) إشارة إلى قصة موسى ، انظر [الشعراء : ٣٣] و[التَّحَلُّل : ١٢] و[القصص :
٣٢] .

(٢) إشارة إلى النظام الإسلامي .

(٣) له في جناح جبريل قطعة بعنوان « الأرض لله » ، في القسم الثاني .

فهذا مغتنمٌ أن يبقى المؤمنُ محروماً من اليقين .

٥٤ - وهذا أحسنُ أن يبقى في شِرْكِ الإلهيات

ويبقى منهمكاً في تأويلاتِ كتابِ الله .

(٣)

٥٥ - الإنسانُ الَّذِي حَطَّمَتْ تهليلاته سِخْرَ الجهاتِ السَّتِّ (١)

كيفَ لا يضيءُ الليلَ الحالكَ لهذا الورعِ التَّقِيِّ .

٥٦ - أماتَ ابنُ مريمَ ؟ أم هو حيٌّ باقٍ ؟ هذه صفاتُ ذاتِ الحقِّ

هل صفاتُ الذاتِ منفصلةٌ عنه أم عَيْنُ الدَّاتِ ؟

٥٧ - هل يقصِّدونَ بالقادمِ المسيحِ ابنِ مريمَ أم هو المجددُ

الَّذِي تكمنُ فيه صفاتُ ابنِ مريمَ ؟

٥٨ - هل ألفاظُ كتابِ الله قديمةٌ أم حادثةٌ ؟

وفي أيِّ عقيدةٍ منها تكمنُ نجاةُ الأمةِ المَرْخُومَةِ ؟

٥٩ - ألا يكفي المسلمين في هذه الأيام

هذه الأصنامُ (٢) المنحوتةُ من الإلهيات ؟

٦٠ - اجعلوه غريباً عن عالمِ العَمَلِ لكي

تنهزمَ جميعُ قطعهِ الشُّطرنجِيَّةِ على بساطِ الحياة .

٦١ - فهذا خيرٌ أن يبقى المؤمنُ عبداً حتى يومِ القيامةِ

ويتركَ هذه الدُّنيا الفانيةَ للآخرين .

(١) يقصد : الشمالية ، والجنوبية ، والغربية ، والشرقية ، والفوقانية ، والتحتانية . ويمكن أن يكون المقصد منها أن تكون رمزاً للحواس الخمس ، والحس المشترك ،

وأسير الحواس عند الصُّوفية هو إبليس .

(٢) في الأصل (اللات ومناة) .

٦٢ - الشَّعْرُ والتَّصَوُّفُ اللذان يغطيانِ عن عُيونه مَنظَرَ الحياة
أحسنُ بالنِّسبةِ له .

٦٣ - إنِّي أخافُ مع كلِّ نفسٍ من يقظةِ الأُمَّةِ
فحقيقةُ دينها هي احتسابُ الكائناتِ .

٦٤ - أسكِّروهُ واجعلوه ينتشي بالذِّكر والتفكُّر في الأسحار
وأنضِّجُوا فيه طَبَعِ الخانقاهاتِ .

نصيحة بلوش عجوز لابنه^(١)

لِيُنْعَشِكَ هواءُ صحرائك

فليستِ دهلي ولا بخاري بأروع من هذه الصَّحراءِ .

إنَّكَ تستطيعُ أن تسيِّرَ كالسَّيلِ الجارِفِ حينما تريد

فهذا وادينا وهذه صحراؤنا

الاعتزازُ بالنفسِ له قَدْرٌ عظيمٌ في دنيا الكَدِّ والجُهدِ

فهو يلبسُ الدرّوشَ تاجَ دارا^(٢) .

عليك أن تنالَ هذا الفَرْقَ الخفيَّ من كاملٍ ، إذ إنَّهم يقولون :

إنَّهم يستطيعونَ أن يجعلوا من الرُّجاجِ صخرًا جلموداً .

إنَّ تقديرَ الأممِ بيدِ الأفرادِ

(١) في الأصل : بلوج ، هو اسم لقبيلة تسكن منطقة بلوجستان في باكستان الغربية على

الحدود بين إيران والسند وهي بلادٌ صحراوية ، وهم الذين كتب عنهم أولُ فاتحِ
إسلامي دخل في بلاد الهند ، فقال : إنَّهم أشداءُ أقوياء .

(٢) ملكٌ من ملوك إيران .

ومع كل فردٍ نجمٌ تقديرِ الأُمَّة .
هذا الغوّاصُ الذي لا يتركُ صُخْبَةَ السَّاحِلِ
ظلَّ محروماً من ثورةِ البَحْرِ .
لو ضاعَ الدِّينُ من يدِ الأُمَّةِ الحرَّةِ
فهذه التُّجَارَةُ خسارةٌ للمُسلم .
إنَّ العالمَ يواجهُ معركةَ الرُّوحِ والجَسَدِ مرَّةً ثانيةً
فإنَّ المدنيَّةِ قد هيَّجتُ وحوشها .
اللهُ يعتمدُ على ثباتِ المسلمِ
وإبليسُ يعتمدُ على آلاتِ أوربة .
ما هو تقديرُ الأممِ ، لا أحدٌ يستطيعُ أن يقول
لكن لو تجدُ فِراسةَ المؤمنِ ، فالإشارةُ كافية .
اطلبِ الإخلاصَ في العملِ من الأسلافِ القُدَماءِ
أيُّ عَجَبٍ لو يعطفُ الملوكُ على الشَّحاذينِ !

الصُّورَةُ والمصوِّرُ

الصورةُ :

قالتِ الصُّورَةُ للمصوِّرِ :
سببُ ظهوري من إبداعكِ وفنِّكِ (١) ،
كم من الظُّلمِ أن تُكوِّنَ

(١) يوضح أنَّ الإنسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساساً لإدراك حقيقة الخالق لا بدَّ من وقوعه في الخطأ لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلاً خاطئاً ، وعلى الإنسان أن يتحرَّر من سيطرة الحواسِّ قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق .

محجوباً عن نظري .

المصوّر :

صَغَبْتُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْبَصِيرِ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَيْنٌ تَنْظُرُ

مَاذَا حَلَّ بِالشَّرِّ مِنْ رُؤْيَةِ الْعَالَمِ .

فَلتَقْتَنِعِي أَيُّهَا الْجَاهِلَةُ بِهَذَا الْخَبْرِ - إِنَّ النِّظْرَ لَيْسَ إِلَّا

الْغَمَّ وَالْأَلَمَ وَالْحَمِيَّةَ وَالنَّشَاطَ .

الصُّورَةُ :

الْخَبِيرُ عَجَزُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ

النَّظْرُ حَيَاةُ الْقَلْبِ الْخَالِدَةُ

لَيْسَ جَدُّ وَجُهْدُ هَذَا الزَّمَانِ

لَا نَفَقًا بِحَدِيثِ ﴿ كُنْ تَرَبِّئِي ﴾

المصوّر :

أَنْتِ مِنْ رَوَائِعِ فَنِّي

وَلِذَلِكَ فَلَا تَبْأَسِي مِنْ مُبْدِعِكَ .

لَيْسَ هُنَاكَ شَرْطٌ لِرُؤْيِي

سِوَى أَلَا تَخْتَفِي أَنْتِ عَنِ نَظْرِكَ .

عَالَمُ الْبَرِزْخِ

الْمَيِّتُ (يَخَاطَبُ قَبْرَهُ) :

مَا هَذَا ؟ وَأَيُّ يَوْمٍ تَكُونُ الْقِيَامَةُ غَدَهُ ؟

يا بيتي القديم : ما القيامة ؟

القبر :

ألا تعرفُ بعدُ ، يا ميّتَ المئة عام ؟
بأنّ القيامة هي المطلبُ الخفيُّ لكلِّ موت .

الميّت :

أنا لستُ أسيراً في شَرِكِ ذلكِ المَوْتِ
الذي يخفي بداخله القيامة .

فمع أنّي ميّتٌ منذ مئة سنةٍ
إلا أنّي لستُ متضايقاً من هذا البيتِ الأرضيِّ المُظلم .
آه لو تلبسُ الرُّوحُ هذا الجسمَ الهزيلَ مرّةً أخرى
فإنّني لستُ راغباً في شراءِ هذه القيامة .

نداء من الغيب :

ليسَ الموتُ من نصيبِ الثُّعبانِ والعقربِ أو الغزالِ والوَحشِ
فإنّ الموتَ الأبديَّ ليسَ إلّا للأممِ المستعبدة .

صوتُ إسرافيل^(١) لا يستطيعُ أن يبعثَ أولئك
الذينَ كانتْ أجسادُهم خاليةً مِنَ الرُّوحِ في دنياهم .

ولو أنّ مُستَقَرَّ كلِّ ذي روحٍ هو حِضْنُ اللّحدِ
إلا أنّ القيامَ بعدَ الموتِ ليسَ إلا شأنُ الأحرار .

القبرُ (يخاطبُ ميته) :

آه أيّها الظالمُ ، أكنتَ عبداً محكوماً في الدُّنيا ؟

(١) إسرافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة ، فيبعث الموتى .

لم ترابي ملتهب هكذا ؟

ازدادت ظلماتي بجسدك ظلمة

وتمزقت ستارة ناموس الأرض بجسدك .

الحذر من جسد الميت المحكوم ، الحذر مئة مرة

يا إسرافيل ! يا رب الكائنات ! النجدة أيتها الروح الطاهرة .

نداء من الغيب :

مع أنّ النظام الكوني مضطرب بسبب القيامة

إلا أنّ هذا الاضطراب يكشف أسرار الوجود .

بالرّلازل تطير الجبال كالسحاب

وتظهر في الوديان عيون جديدة .

لا بدّ لكلّ تعمير جديد من تخريب كامل

ففي هذا حلّ لكلّ مشكلات الحياة .

الأرض :

آه من هذا الموت الدائم ، آه من معركة الحياة

هل ينتهي صراع الكائنات إلى الأبد ؟

لا يجد العقل النجاة من أصناميه

العارف ، العالم ، العاقبة ، جميعهم صاروا عبيداً للآت ومناة .

كم صار خاضعاً ذليلاً هذا الأدمي المتمثل لصفات الله

فبقاء هذا العالم ثقيل على هذا القلب والنظر .

فلماذا لا يكون ليل هذا الإنسان العظيم سحراً ؟

المَلِكُ المعزول^(١)

فلنبارك هذا الملك الطَّيِّب
الذي فَصَّحَتْ تضحيتُهُ أسرارَ المُلوكية .
المَلِكُ في المعبد البريطانيّ ليس إلا صنماً من التُّراب
يمكنُ أن يحطِّمه العبادُ حينما يشاؤون .
هذا المِسْكُ ممزوجٌ بالأفيون لنا نحنُ العبيد
أيُّها السَّاحِرُ الإنجليزيُّ انحنُ لنا سيِّداً آخر !

مُنَاجاةُ جهنميِّ

العبادُ في هذا الدَّير القديم ذوو احتياجٍ
يذكرون الله حين يتألَّمون من الأصنام .
ولا تفيدهم الصَّلَاةُ ، ولا تفيدهم عبادةُ الأصنام
فحظُّ هؤلاء المساكينِ ليس إلا التُّواخُّ والعويلُ .
مع أن العماراتِ تطاولُ القَلَكُ رفعةً
لكنَّ الحقيقة أن كلَّ مدينةٍ كخرابيةٍ عامرة .
انظُرْ إلى تقلُّباتِ خطِّ الفاسِ
فبرويز مزتوي ، وفرهاد ظمَّانُ كبده^(٢) .
هذا العِلْمُ ، هذه الحِكْمَةُ ، هذه السِّيَاسةُ ، هذه التَّجَارَةُ

(١) أنشد هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند ، وأعتقد أنه يشير إلى : Edward Assamen .

(٢) انظر خطِّ الفاسِ كيف كان حين استعملها برويز ، وكيف كان حين استعملها فرهاد .

جميعها أشياء من إبداع المَلَكِيَّة .
شكراً لك يا إلهي ، فإنَّ هذه القطعة من الأرضِ الملتهية^(١)
حرّة من عبوديّة التّاجر الأوربيّ .

مسعود المرحوم^(٢)

هذه الشَّمْسُ ، هذا القَمَرُ ، هذه النُّجُومُ ، وهذه السَّمَاءُ الزُّرْقَاءُ
من يدري أهذا عالمُ الوجودِ أم الفناء ؟
التّفكيرُ في الرّحلةِ والهدفِ ما هو إلا خُرَافَةٌ
فالحياةُ كلّها رحيلٌ دون هدف .
وأسفاهُ لم يَبْقَ في يدِ الرِّمَانِ تَذْكَارُ
كمالاتِ أحمدٍ ومحمود^(٣) .

تأسَّفَ العِلْمُ والفنُّ لموته المفاجيء
فقد كان متاعاً غالياً للقافلة .

تُبْكيني جفوةُ أهلِ الدُّنيا
فإنهم يعتقدون أن بكاء طيورِ السَّحْرِ نغماتُ .
لا تَقُلْ : إنَّ علاجَ حزنِ الصّديقِ يمكنُ بالصَّبْرِ
لا تَقُلْ : إنَّ حلَّ لُغزِ الموتِ كامنٌ في الصَّبْرِ .

(١) جهنم .

(٢) هو صديق محمد إقبال ، وحفيد السر سيد أحمد خان ، وكان زميلاً لإقبال في
الدراسة ، وأشرت إلى هذه القصيدة في الفصول السابقة .

(٣) أحمد هو سرسيد أحمد خان ، ومحمود هو ابنه ، ووالد مسعود . وكان مسعود هو
ذكرى كمالاتهم .

القلب الذي يَعشَقُ وَيَضْبِرُ ليس سوى حجر
 فبين العَشَقِ والصَّبْرِ ألفُ فرسخٍ (١) .
 لا تسلني عن العُمُرِ الذي يمرُّ بسرعة
 فلا أحد يدري ما هذا التغيُّرُ والجازبية .
 كلُّ من خُلِقَ من التُّرابِ سيوارى فيه
 أهذه هي الغيبةُ الصُّغرى أم هذا هو الفناء ؟ ماذا ؟
 وهبْ لغبارِ الطَّرِيقِ ذوقَ الجمالِ
 والعقلُ لم يستطع أن يكشفَ المعنى الخفيَّ .
 اليسَ القلبُ والنظَرُ من إعجازِ هذا الماءِ والطينِ (٢) ؟ وإن لم يَكُنْ
 فما نهايةُ حضرةِ الإنسانِ إذا ؟
 إنَّ « لا إلهَ إلا هو » هي روحُ الدُّنيا الخالدة
 فما معنى المسيحِ والمسمارِ والصليبِ ؟
 ممَّن نطلبُ القِصاصَ لدمِ الآمالِ
 من المُنذِبِ ؟ وما هي الفِديةُ ؟
 لا تَحزَنُ فنحنُ مكبَّلونَ بقيدِ الدُّنيا
 فالقلبُ الذي نملكُ يحطِّمُ الطلاسمَ (٣) .
 لو أنَّ معرفةَ الذاتِ حيةٌ ، فالموتُ مقامٌ في الحياة ،
 لأنَّ العَشَقَ يختبرُ ثباتها بالموتِ .

(١) هذا البيت من شعر سعدي وقد ضمنه إقبال قصيدته .

(٢) الإنسان نفسه .

(٣) هذا البيت بالفارسية :

غمين مشوکه به بند جهان گرتاریم طلسمها بشکند آن ولی که ماداریم

لو تَكُنِ الذَّاتُ حَيَّةً ، فَبَخْرُوكَ لَا شَاطِئَةَ لَهُ
وَمَوْجُ النَّيْلِ وَالْفِرَاتِ يَتَوَقُّ لِأَن يَنْدَمِجَ مَعَكَ .
لو تَكُنِ الذَّاتُ مَيِّتَةً فَهِيَ كَأَعْوَادِ الْقَشِّ أَمَامَ النَّسِيمِ ؛
لو تَكُنِ الذَّاتُ حَيَّةً فَهِيَ سُلْطَانُ كُلِّ الْمَوْجُودَاتِ .
لو أَنَّ الْبَصِيرَةَ حُرِّمَتْ مِنْ تَجَلُّ وَاحِدٍ
فَإِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى مِثَّتِي تَجَلُّ لَتَعْوِضَ مَا فَاتَ .
اللَّاتُ وَمَنَاةُ مُنْتَشِرَةٌ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى الثَّرِيَا
بَيْنَمَا مَقَامُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَرَاءَ الْفَلَكَ .
مَقَامُهُ الْأَبَدِيُّ هُوَ حَرَمُ الذَّاتِ
وَلَيْسَ مَكَانَهُ الْقَبْرِ الْمَظْلَمُ وَلَا مَكَانَ تَجَلِّي الصِّفَاتِ .
أُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَكَوا مَعْرِفَةَ الذَّاتِ وَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا .
قَدْ حَطَّمُوا طِلْسَمَ الشَّمْسِ وَالْفَلَكَ وَالنُّجُومِ (١) .

صوت من الغيب

يأتي صوت من العرش الأعلى ذات صباح ، يهتفُ :
« كَيْفَ ضَاعَ جَوْهَرُ إِدْرَاكِكَ ، ؟
كَيْفَ أَصْبَحَ مِشْرَطُ التَّحْقِيقِ لَدَيْكَ كَالْأُ ؟
لِمَاذَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمزَّقَ أَكْبَادَ النُّجُومِ !
لَقَدْ كُنْتَ جَدِيرًا بِخِلَافَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ

(١) أصله فارسي .

هل تكون الشعلة أسيرة للأعشاب الجافة^(١) ؟

لماذا لا تخضع لك الشمس والقمر ؟

لماذا لا ترتجف الأفلاك من أنظارك ؟

مع أن الدّم يجري في عروقك

لكنك لا تملك حمية الأفكار ، ولا الفكر الجريء .

العين التي لا يوجد في ثناياها النظر الطاهر

تكون مضيئة لكنها لا ترى العالم .

لم يبق في أحضانك صفاء مرآة ضميرك

يا قتيل السلطنة والملأ والمشيمة !

(١) حرفياً : التبنُّ والنشارة .

القسم الخامس

رَبَائِعَات

(١)

١ - لا أدري ما هي ثَمرةُ غُضنِ أُملي
فأني درايةٌ لي بتقديرِك
بُزْعُمُ الزَّهْرَةِ يحتاجُ اليومَ إلى التفتح
فما فائدة انتظار نسيمِ صُبْحِ الغدِ !

٢ - حَزْرُهُ من عَمَلِ الدُّنْيَا
حَتَّى يتحرَّرَ من امتحانِ كُلِّ نفس
صَارَ تفكيرُ الشَّيْطَانِ بسببِ الكِبَرِ تفكيراً قديماً
فمن أين يأتي بإثمِ جديدٍ؟^(١)

٣ - غَيَّرَ وبدَّلَ عالمَ الماءِ والسَّخْرِ
أقْلِبْ هذه الدُّنْيَا الجافَةَ والطرِيَّةَ
ولتبقِ الوهَيْتُكَ طاهرةً من الوصمةِ
واخذِزْ من السُّجودِ الخالي من أيِّ ذوقِ .

(٢)

٤ - أنا في حالةِ الفَقْرِ محسودُ الغِنَى
لأنَّ فقري ذو غيرةِ

(١) المفروض أن تكون أثامه قديمةً قدَّمَ تفكيره ، وهنا استفهامٌ استنكاري .

الحدَرَ من ذلكَ الفقيرِ والتصوِّفِ
الذي علَّمَ المسلمينَ الذلَّ والخُضوعَ .

٥ - الغوثُ الغوثُ من ضيقِ ذيلِ العقلِ !!
الغوثُ الغوثُ من زيادةِ التَّجَلِّي !!
إِنَّ النَّظَرَ يُفْضَلُ النَّظَرَ فِي غَيْرِ اللَّهِ
الغوثُ الغوثُ من كُفْرِ النَّظَرِ .

٦ - قال إقبالٌ لشيخِ الحَرَمِ :
مِنَ الَّذِي نَامَ تَحْتَ مَحْرَابِ الْمَسْجِدِ ؟
أجابتُ جدرانُ الْمَسْجِدِ :
هو الَّذِي تاهَ فِي بَيْتِ أوثانِ الإفرنجِ .

٧ - صارتِ الهيجاناتُ القديمةُ رغبةً باردةً سقيمةً
دماءُ المُسلمِ أصبحتُ باردةً
فلتباركُ للأصنامِ كفري
إذ إنَّ نارَ « الله هو » أصبحتِ اليومَ باردةً .

٨ - حديثُ العبيدِ المؤمنِ يتعلَّقُ بالقلبِ
الكَبِيدِ مليءٌ بالدمِّ ، النَّفْسُ مضيئةٌ ، النَّظْرَةُ حادَّةٌ
كيفَ تتيسرُ رؤيةُ المؤمنِ الَّذِي يضيءُ المَحْفَلَ
فهو لا يختلطُ بنا إلا قليلاً .

٩ - صفاء ضمير الصُّبْحِ المنير
يعرفُ التمييزَ بين الشُّوكِ والرَّهْرِ
حمايةً للرَّهْرِ غيرُ ممكنة
لو أنَّ في الشُّوكَةِ طَبِيعَ الحريرِ .

١٠ - لا تذكِرِ الفراقَ واللُّقاءَ
لأنَّ أصلَ الحياةِ نفسه هو الظُّهورُ
إنَّ انفصالَ اللؤلؤِ من قَلْبِ البَحْرِ
ليسَ فيه أيُّ ضررٍ للبحرِ ولا لِلؤلؤِ .

١١ - لماذا لا يجتأحُ الطُّوفانُ بَحْرَكَ ؟
لماذا لا تكونُ ذاتكُ مسلمةً ؟
عَبثُ تلك الشُّكوى من تقديرِ الله
لماذا لا تكونُ أنتُ قَدَرَ الله ؟

١٢ - لو يَنْظُرُ العقلُ بعينِ القلبِ
يرى العالمَ مُضاءً بنورِ « لا إله »
ولو يَنْظُرُ إلى نورِ الشَّمْسِ والقَمَرِ
لا يَحْسِبُهُ إلا دورانَ الليلِ والنَّهارِ^(١) .

١٣ - أحياناً ترتفعُ من البحرِ كالمَوْجِ

(١) أي : العالم .

وأحياناً تنزلُ إلى صَدْرِ البَحْرِ
وأحياناً تمرُّ على ساحلِ البَحْرِ
فأظهز لنا سرَّ مقامِ ذَاتِكَ واضحاً .

مُذَاكِرَاتٌ مُلًّا زَادَهُ ضَيْغَمُ اللُّوَلَابِيِّ^(١) الكَشْمِيرِيِّ

(١)

ماءُ عيونِكَ كالزُّنْبُقِ الرَّجْرَجِ
طَيورُ السَّحْرِ قَلَقَةٌ فِي أجْوَانِكَ
يا واديَ اللُّوَلَابِ .

لو لم يكنْ خطيبُ المنبرِ والمحرابِ ذا همّةٍ ونشاطٍ
فالدِّينُ للعبيدِ المؤمنِ إمَّا الموتُ ، وإمَّا الحُلمُ
يا واديَ اللُّوَلَابِ .

النعَمَاتُ المُخْرِقَةُ للقلبِ إنَّمَا تنبُعُ من الآلةِ الموسيقيَّةِ
فلو كانت أسلاكُها رِخْوَةً فلا فائدةٌ تُرْجى من مِضْرَابِهَا
يا واديَ اللُّوَلَابِ .

بصيرةُ المؤمنِ خاليةٌ من نُورِ الفِرَاسَةِ^(٢)
والخمرُ الصَّافِيَةُ في حانةِ الصُّوفِيَةِ خاليةٌ من الحُرْزَةِ
يا واديَ اللُّوَلَابِ .

(١) ضيغم هو الأسد ، لولاب : اسم وادي في كشمير . والواقع أنَّ إقبال كتب هذا الشعر إلى أهل كشمير .

(٢) تلميح إلى الحديث : « اتقوا فِرَاسَةَ المؤمنِ فَإِنَّهُ يرى بنورِ الله » .

إنَّ الفقير^(١) الذي تستيقظُ القلوبُ من آهته السَّحرية
لا يوجدُ في هذه الأُمَّة منذُ زمانٍ
يا وادي اللُّولاب .

(٢)

الموتُ الصَّعبُ اسمه العبوديَّةُ
ألا ليتَ العبدَ يفهمُ مَكْرَ وخِدَاعِ السَّادةِ .
انظرُ تنوعَ الأحكامِ في شَرعِ المُلكيَّةِ
غوغاءُ الصُّورِ حلالٌ ، لذَّةُ الحَشْرِ حرامٌ .
يا مَنْ ذُبِلَتْ^(٢) رُوْحُكُ من العبوديَّةِ
أتبحثُ عن مقامِ الذَّاتيةِ في الصِّدرِ الخالي من الحُرقةِ ١٩

(٣)

كشميرُ التي سمَّاها أهلُ النَّظرِ بالأمسِ إیرانَ الصَّغيرِ
هو اليومُ بلدٌ خاضعٌ وفقيرٌ .
حينَ يخافُ رجلُ الحقِّ السُّلطانَ والأميرَ
تخرجُ آهاتٌ مُخرقةٌ من صَدْرِ الأفلاكِ .
منزلُ الحزينِ لفلاحِ عجوزٍ على سفحِ الجبلِ
يحكي لنا حكايةَ قَسوةِ الأيامِ :
وأسفاهُ على هؤلاءِ القومِ النَّجباءِ ذي الأيدي النَّشيطةِ والدِّماغِ الخلاقِ^(٣) .

(١) استخدم كلمة « درويش » بمعناها الصوفي .

(٢) استخدم اللفظ العربي « مضمحل » مع الروح . وقد استبدلتها في الترجمة بكلمة « ذبلت » .

(٣) في الأصل : (تردماغ) أي : الدماغ الندي .

أيها الإله يا من تمهل الناس^(١) . أين يوم الجزاء ؟

(٤)

حين تنورُ الشعوبُ المغلوبةُ على أمرها
يضطربُ هذا العالمُ ذو الأطرافِ الأربعةِ ، واللونِ والرَّائحةِ^(٢) .
ضميرُ الإنسانِ يتطهَّرُ من الظنِّ والتَّخمينِ
ويجعلُ مصباحَ الأملِ يضيءُ كلَّ طريقٍ .
ذلكَ الفَتقُ القديمُ الذي لم يستطعَ العقلُ رتقَهُ
يُخيطُهُ العِشقُ دونَ حاجةٍ إلى إبرةٍ أو خيطِ الرِّقَاءِ .
صنمُ الحُكْمِ له قلبٌ حجريٌّ ووجهٌ من زجاجٍ
وهو يصبحُ في النهايةِ قطعاً مبعثرةً من الدَّقِّ المُستمرِّ .

(٥)

عظمةُ الشَّاهينِ وشوكتُهُ توجدُ في طيرانِ الدَّرَاجِ
والصَّيَادُ في حيرةِ شاهينٍ هذا أم درَّاجٍ .
تلاطمتْ أفكارُ كلِّ قومٍ
فاليومَ مُظهرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرْقِ .
الميتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُورِ إسرائفيلِ
اضطرَّ للقيامِ ثانيةً استجابةً لمطالبِ الفطرةِ !

(١) أصله « خدا ديركي » أي الرب الذي يقبض ويحاسب الإنسان في النهاية وبعد تمهل شديد .

(٢) في الأصل : جهان جار سو ، عالم رنگ و بو ، وهو تعبير أدبي يعبر عن العالم المحسوس الذي نعيش فيه .

(٦)

حتى السُّكَّيرون^(١) أيضاً يعرفونَ كِمالاتِ الصُّوفية
مع أن كراماتهم غيرُ معروفة ، وغيرُ مشهورة .
حين يكونُ السَّالِكُ حُرّاً فهذه هي مقاماته :
عزّةُ النَّفس وثباتها والصَّوْتُ الحسنُ القائلُ « أنا الحق »^(٢) .
حينَ يكونُ السَّالِكُ محكوماً فالعبوديّة هي كلُّ شيءٍ له
فهو نفسه ميّتٌ ، وهو المریدُ ، وهو الموتُ المفاجيء نفسه .

(٧)

أخْرُجْ من الخانقاهات ، وقم بتقليدِ شبير
فليسَ فقرُ الخانقاهات إلاّ الهَمُّ .
من دينك وأدبك تَهَبُ رائحةُ الرُّهبان
إنّ هذا عالمُ الشيخوخةِ للأمم التي حان موتها .
في عيونِ شياطينِ المَلَكِيَّةِ يوجدُ السَّحْرُ
الذي يخلُقُ في قلبِ الصَّيَادِ طَنَعِ المَصِيدِ
كيف مَضَوْا غيرَ مكترئين بأهاتي السَّحْرِيَّةِ
ومن الذي ذهب بالنَّشوةِ والنَّشاطِ مِنَ العيونِ الكشميريَّةِ السَّوداءِ^(٣) ؟

(٨)

إذا اعتقدتَ أنّ هذا القلبَ قطرةً من دمٍ فهو كذلك
فقلبُ الإنسانِ إنّما هو - فقط - جذبةٌ عالية .

-
- (١) أصله : « رند » وهو من لا يهتم بالأحكام الدينية الظاهرة ولا يتمسك بها .
(٢) إشارة إلى قول الحلاج « أنا الحق وما في الجبة غيرُ الله » .
(٣) « تمتاز العيون الكشميرية بسوادها وكثيراً ما تغنى بها الشعراء » .

لا يُعجبه دوران القمر والنجوم
فهو الذي يخططُ سَحْرَهُ ومساءه .
لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ
الذي تَكْمُنُ في ضميرِ ترابه نارُ چنار^(١) .

(٩)

حين انفتحت في الرّوضة مكتبة الورود
فإنّ العِلْمَ الكتابيّ لم ينفع المُلأ .
كان هواء الرّبيع محطماً للجديّة
فبدأ شيخ « أندراب »^(٢) يُنشدُ الغزل .
قالت زهرة شقائق النُّعمانِ ذاتُ القميصِ الأحمر
إنني مظهره لأسرار الرُّوح^(٣) .
من الذي يعتقدُ أنّ النّومَ في القبر هو الموتُ
إن سرّ تعميرِ كلِّ شيءٍ يَكْمُنُ في تخريبه^(٤) ؟
ليستِ الحياةُ سلسلة الأيّام والليالي
ليستِ الحياةُ نشوةٌ وغفوة .
الحياةُ والاحتراقُ في نارك
فما أسعدَ اللحظاتِ حينما تستعيدُ هذه الحِكْمَةَ :

-
- (١) چنار : شجرة ذات أوراق كثيرة ، تشبه كف اليد ، وتكون خضراء في الصيف ، بينما تحمر جداً في الخريف وتصنع في لون النار الملتهبة خاصة في الأصل .
(٢) أندراب : اسم مكان بكشمير .
(٣) لأنها مفتحة في الوسط .
(٤) أشار إلى هذه الفكرة جلال الدين الرومي بأبيات متوالية في أنشودة الناي - انظر المشنوي .

« لو تأخذُ شرارةً من نار القلب
فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمساً تحت الفلِّكِ » .

(١٠)

شِزْيَانُ الحَرِّ صُلْبٌ كَشِزْيَانِ الحَجَرِ
شِزْيَانُ المَحْكُومِ رَقِيقٌ كَشِزْيَانِ الكَرَمِ .
قَلْبُ المَحْكُومِ مَيْتٌ سَقِيمٌ يَأْسُ
قَلْبُ الحُرِّ حَيٌّ مَفْعَمٌ بِالحَرَارَةِ يَبْعَثُ الطَّرْبَ .
ثِرْوَةُ الحُرِّ قَلْبٌ مُضِيءٌ وَنَفْسٌ حَامِيَةٌ
ثِرْوَةُ المَحْكُومِ لَيْسَتْ إِلَّا عَيْنًا دَامِعَةٌ .
المَحْكُومُ غَرِيبٌ عَنِ الإِخْلَاصِ وَالمَرُوءَةِ
مَعَ أَنَّهُ بَارِعٌ فِي البَرَاهِينِ المُنطِقِيَّةِ .
لَيْسَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ المَحْكُومُ نَدَاءً لِلحُرِّ
فَهُوَ عِبْدٌ لِلأَفْلَاقِ وَالحُرُّ سَيِّدُهَا .

(١١)

جَمِيعُ العَارِفِينَ وَالعَامَّةِ غَرِيبَاءُ عَنِ الذَّاتِ
فَلْيَقُلْ أَحَدٌ إِنْ اسْتَطَاعَ : أَهَذَا مَسْجِدٌ أَمْ خَمَّارَةٌ ؟
لَقَدْ أَخْفَى هَذَا السِّرَّ عَنَّا « مِيرِ وَاعِظُ » ^(١)
إِنَّ الفَرَاشَةَ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ مِصْبَاحِ الحَرَمِ هِيَ الحَرَمُ .
طَلَّسُمُ الجَهْلِ هُوَ الكُفْرُ وَالتَّدْبِيرُ

(١) شخصية سياسية في كشمير واسمه محمد يوسف مير واعظ كشميري ، مات في باكستان
حوالي عام ١٩٦٦ م .

وحديثُ الشَّيْخِ والبرهمن ليس إلا سِحْرٌ وخرافة .
 فليكنْ ذلكَ العبدُ الدَّرْويشُ نصيبَ هذه الأرض
 ففي فقرِه تكْمُنُ طرقُ الكليم .
 إلى متى تبقى لآلِء بحيرةٍ وُلَّر^(١) الفريدةُ من نوعها .
 مختفيةً عن أعينِ الزَّمان .

(١٢)

العالمُ مضطربٌ من قوَّة عملهم
 فالأممُ الحيَّة خاضت معاركَ كبيرةً .
 إنَّ تقويمَ المُنجَم للغدِ باطلٌ
 فالنُّجومُ القديمةُ سقطت من السَّماء .
 ضميرُ العالمِ ملتهبٌ بدرجةٍ عظيمةٍ
 حتى أنَّ أمواجَ البحرِ كَسَرَتِ النُّجوم .
 الأرضُ لم تُعُدْ خاليةً من الزَّلَازل
 فالدَّلَائلُ الدَّقِيقَةُ لِلْفِطْرَةِ ظاهرةٌ .
 إنَّ الخضرَ - قابِغ - يفكِّرُ على شاطئِ بحيرةٍ وُلَّر^(٢)
 إلى متى تفورُ عيونُ الهملايا !!

(١٣)

هذا هو دليلُ الشُّعوبِ الخالدةِ على مرِّ الزمان :
 أنَّ تقديريهم يتغيَّرُ صباحَ مساء .

(١) بحيرة ولر : بحيرة رائعة في كشمير يذهب إليها الأثرياء للاستمتاع بالتجديف ، وكانوا من المسلمين .

(٢) وردت قصة الخضر في سورة الكهف الآيات (٦٥ - ٨٢) .

حياتهم هي كمالُ الصّدقِ والمروءةِ
حتى الفطرةُ أيضاً تعفو عن تقصيرِهم .
أعمالُهم كأعمالِ القَلندرِ ، وجلالُهم كالجلالِ الإسكندري
هذه الأُمَّةُ في العالمِ كالسُّيوفِ المسلولةِ .
إنَّ جمالَ وجمالَ الرَّجلِ العارفِ يَكُمُنُ في معرفةِ ذاتيته
هذا هو الكتابُ ، وما تبقى كلُّه تفاسيرُ له .

أنا لا أنكرُ عظمةَ العيدِ
لكنَّ ما يُقبَلُ هو تكبيراتُ الحرِّ .
كيفَ يَعْرِفُ الحكيمُ سرَّ نعماتي
وأنَّ تدابيرَ أهلِ الجنونِ فيما وراءَ العقلِ ؟

(١٤)

كيف تقامرُ - قمارِ الحياةِ - كالكافرِ ؟
ذلكَ أنكَ تسيِّرُ مع الزَّمانِ ولا تسيِّرُ مع نفسك .
لم أَر في مدارسِ الحَرَمِ مرَّةً ثانيةً
قلبَ جنيدٍ ونظرةَ الغزاليِّ والرَّازي .
في حُكْمِ الفتى الأعظمِ الذي هو نفسه حُكْمُ الفطرةِ الأزليَّةِ :
أنَّ أعمالَ الصُّقورِ حرامٌ في عقيدةِ الصَّغوةِ .
قالَ ذلكَ الفقيهُ الأزليُّ للصَّغيرِ الصَّغيرِ :
عليك أن تترتَّبَ بالسَّماءِ ولا تتعلَّقَ بالأرضِ .
أنا الذي لها أقلع عن الكلامِ الصَّريحِ
خوفاً من وشيهم بي لدى السُّلطانِ .
قدم التحياتِ ممَّا نحنُ الفقراءُ إلى تركِ شيرازَ

فليس في أيدينا سمرقند وبخارى^(١) .

(١٥)

ضميرُ الغربِ ضميرُ التُّجَّارِ ، ضميرُ الشُّرْقِ ضميرُ الرُّهبانِ
هناك التغيير المستمرُّ في كل لحظة ، وهنا لا يتغيَّر الزَّمانُ .
قال لي الخضر على شاطئ البحر وكأني محرم لأسراره :
إنَّ طرقَ الإسكندر^(٢) والقَلَنْدرَ كلُّها طرقٌ سحريةٌ .

آلهة الخانقاهات يعتبرونني نِدَاءَ لهم
ويَخشون ألا ينشَقَّ حَجَرٌ عتبتهم من نواحي
النَّصيحة الواضحة والعلامة المميَّزة لعلم ومعرفة الأمم المستعبدة :
أنَّ الأرضَ لو ضاقتَ فيها هو فضاء الفلِّكِ بلا حدود .
لا أعرفُ بماذا أسميه ، هل أسميه اختبارَ الله^(٣) ، أم خداعَ النفس ؟
إذ إنَّ المسلمَ أصبحَ خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدْرِ عُذراً له .
قال غصنُ الوردِ عن أسري قولاً أبكى الصَّياد :
إنَّ عُشَّ هذا المغرِّدِ المفعمِ بالحُرقةِ لم يكن ثقيلاً عليَّ .

(١٦)

يا أيُّها الوطن العزيزُ لا حاجةَ للشرحِ والبيانِ
عن صورةِ قلبنا المليءِ بالدَّم ، كشقاقِ النُّعمانِ .

(١) إشارة إلى شعر حافظ :

اكر اين ترك شيرازي بدست آرد دل مارا بخال هندوش بخشم سمرقند وبخارا

(٢) طرق الإسكندر هي طرق الحياة .

(٣) في الأصل المعنى (خداع الله) ، أم خداع النفس ؟

إذ إنَّ المسلمَ أصبحَ خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدْرِ عُذراً له .

التقديرُ هو اسمٌ لمكافأةِ الأعمالِ
هذه هي رسالة آلهة الهمالايا .

جسده عارٍ في ربح الشتاء
ذلك الذي يقدم للأمرء رداءً من الصوفِ بفته وإبداعه .
لا تأمل في وفاءِ دولة الدنيا
فهي كالغزالِ ، الهروبُ من طبعها .

(١٧)

حرامٌ على من علّمته معرفةُ الذاتِ نسيانَ الجسدِ
حرامٌ على هذا الرجلِ المجاهدِ أن يلبسَ الذرعَ !

(١٨)

أخيمِلْ على ذلك العزمِ الرفيعِ ، واستمع إلى عويلي
لكي تقومَ القيامةُ في صدرك أيضاً .

(١٩)

أنا غريبٌ هذه المدينة ، فاستمع إلى عويلي
لكي تقومَ القيامةُ في صدرك أيضاً .
أغنياتِي الممزوجةُ بالغمِّ والحزنِ متاعٌ عزيزٌ
ونعمةُ القلبِ الحزينِ ليست عامةً في هذه الدنيا .
أنوحٌ وأشكو من ذوقِ هذا الزمانِ الأعمى
الذي فهمَ محنتي على أنها محنةُ فرهاد .
أعرفُ أنَّ الصَّوتَ الذي ينبعثُ من ضربِ الفأسِ على الحجرِ
أعرفُ أنَّه آخرُ ، فهو صوتُ الفأسِ والكيدِ معاً .

إلى سر أكبر حيدري رئيس وزراء حيدر آباد الدكن^(١)

كَانَ هَذَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَنْ يُعْطَى الْقَلَنْدَرُ
ذُو الصِّفَاتِ الْمَلَكِيَّةِ عِظْمَةَ بَرُويز^(٢) .

قَالَ لِي : خُذْ وَصِرْ حَاكِمًا وَأَعْطِ الثَّبَاتِ
لِحَسَنِ التَّدْبِيرِ لِكُلِّ مَا هُوَ آتٍ وَلِكُلِّ مَا فَاتَ .

كُنْتُ مُسْتَعْدًّا لِأَنْ أَتَحْمَلَ عِبَاءَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ عَلَى كَتْفِي
لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مَرٌّ طَعَمَهُ بِصِيرٍ فِي حَلْقِ الدَّرْوِيشِ الشُّكْرِ .
وَلَكِنْ غَيْرَةُ فُقْرِي وَعِظْمَتُهُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقْبَلَ مَا قَدَّمَهُ
حِينَ قَالَ ، إِنَّ هَذِهِ هُوَ زَكَاةٌ لِأَلُوهُيْتِي .

حسين أحمد^(٣)

لَا يَعْزِفُ الْعَجْمُ حَتَّى الْآنَ أَسْرَارَ الدِّينِ
وَحُسَيْنَ أَحْمَدَ الدِّيُوبِنْدِي - مَا هَذَا الْعَجَبُ الْعَجَابُ .
مَنْ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنْبَرِ قَائِلًا بِأَنَّ الْمَلَّةَ قَائِمَةٌ عَلَى الْوَطَنِ
كَمْ هُوَ جَاهِلٌ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ الْعَرَبِيِّ^(٤) !
عَلَيْكَ أَنْ تَصِلَ بِنَفْسِكَ إِلَى النَّبِيِّ فَإِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ

(١) كان رئيس وزراء الهند ، وأرسل شيكاً بمبلغ ألف روبية إلى إقبال في ذكرى ميلاده .

(٢) أي : المال والدنيا .

(٣) كان من علماء الهند ويُعدُّ من مؤسسي مدرسة ديوبند ، ومن أنصار حزب المؤتمر ،
وهذا الشعر بالفارسية .

(٤) يقصد الدين .

فإن لم تصل إليه فكلُّ هذا يعدُّ من أعمالِ أبي لهب .

السَّيِّدُ الْإِنْسَانِ

وَصَلَتْ دَرَجَةُ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لشيءٍ أَنْ يَخْتَفِيَ ، فِهَذَا عَالَمٌ نُورَانِي .

لَوْ نَظَرَ أَحَدٌ لِرَأْيِ أَنْ حِجَابَ الْفِطْرَةِ رَقِيقٌ إِلَى دَرَجَةِ :
أَنَّ الْبَسْمَاتِ الْخَفِيَّةَ لِلْمَلَائِكَةِ تَظْهَرُ وَاضِحَةً .

هَذِهِ الدُّنْيَا دَعْوَةٌ لِابْنِ آدَمَ أَنْ يَشَاهِدَ وَيَنْظُرَ
فَكُلُّ مُسْتَوِرٍ قَدْ وَهَبَ ذَوْقَ التَّعْرِي .

هَذَا هُوَ ابْنُ آدَمَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ الْأَنْهَارَ
تَفِيضُ مِنْ دَمَوَعِهِ الدَّامِيَةِ .

مَاذَا يَعْرِفُ الْفَلَكَ ؟ مَقَرُّ مَنْ هَذَا الْمَسْكَنُ التُّرَابِيُّ ؟
وَالْهَدْفُ مِنْ خَلْقِ النُّجُومِ هُوَ حِرَاسَةُ بَيْتِ مَنْ ؟

لَوْ أَنَّنِي مَقْصُودُ الْكَلِّ فَمَاذَا « مَا وَرَائِي »
وَمَا هِيَ نَهَايَةُ اضْطِرَابَاتِي الْمُتَجَدِّدَةِ !!

•••

••

•

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	الديوان السادس : ضرب الكليم
٨	محتوى الديوان
١٨	إلى القارئين
١٩	تمهيد
٢١	القسم الأول : الإسلام والمسلمون
٢٣	الصبح - لا إله إلا الله
٢٤	الاستسلام للقدر - المعراج
٢٥	إلى سيد مصاب بالفلسفة
٢٦	الأرض والسماء - اضمحلال المسلمين - العلم والعشق
٢٧	اجتهاد
٢٨	شكر وشكوى - الذكر والفكر
٢٩	شبيخ الحرم - القدر - التوحيد
٣٠	العلم والدين - المسلم الهندي
٣١	على ذكر الإذن بحمل السيف - الجهاد
٣٢	القوة والدين - الفقر
٣٤	الإسلام - الحياة الأبدية
٣٥	السلطان - إلى الصوفي
٣٦	صريع الفرنج - التصوف
٣٧	الإسلام الهندي - قطعة
٣٨	الدنيا - الصلاة
٣٩	الوحي - هزيمة - العقل والقلب
٤٠	سكر العمل - القبر - همة القلندر

٤١	الفلسفة - رجال الله
٤٢	الكافر والمؤمن
٤٣	المهدي الحق - المؤمن في الدنيا - في الجنة
٤٤	محمد علي الباب - القدر - الخالق وإبليس
٤٥	أين روح محمد
٤٦	مدنية الإسلام - الإمامة
٤٧	الفقر والترهب
٤٨	قطعة - التسليم والرضا
٤٩	نكتة التوحيد - الإلهام والحرية
٥٠	الروح والجسم - لاهور وكراچي
٥١	النبوة - الإنسان - مكة وجنينا
٥٢	يا شيخ الحرم - المهدي
٥٣	المؤمن
٥٤	المسلم البنجابي - الحرية - نشر الإسلام في بلاد الإفرنج
٥٥	لا وإلا - إلى أمراء العرب
٥٦	الأحكام الإلهية - الموت
٥٧	قم بإذن الله
٥٩	القسم الثاني : التعليم والتربية
٦١	المقصود - إنسان هذا العصر
٦٢	أمم الشرق - التنبه - مصلحو الشرق
٦٣	الحضارة الغربية - أسراء ظاهرة
٦٤	وصية السلطان تيبو - قطعة
٦٥	اليقظة - تربية الذات
٦٦	حرية الفكر - حياة الذات - حكومة
٦٧	المدرسة الهندية - التربية
٦٨	الحسن والقبیح - موت الذات

٦٩	ضيف عزيز - العصر الحاضر - طالب العلم
٧٠	امتحان - المدرسة
٧١	الحكيم نيتشه - الأساتذة - قطعة
٧٢	الدين والتعليم - إلى جاويد
٧٧	القسم الثالث : المرأة
٧٩	الرجل الإفرنجي - سؤال - حجاب
٨٠	الخلوة - المرأة - حرية النساء
٨١	حصانة المرأة - المرأة والتعليم - المرأة
٨٣	القسم الرابع : الأدب والفنون
٨٥	الدين والفن - التخليق
٨٦	جنون - إلى شعره - مسجد باريس
٨٧	الأدب - البصيرة - مسجد قوة الإسلام
٨٨	مسرح
٨٩	شعاع الأمل
٩٠	أمل
٩١	البصيرة - إلى أهل الفن
٩٢	قطعة
٩٣	الوجود - الغناء
٩٤	النسيم والندى - أهرام مصر
٩٥	مخلوقات الفن - إقبال - الفنون الجميلة
٩٦	صبح المرج
٩٧	الخواقاني
٩٨	الرومي - الجدة
٩٩	مرزا بيدل - الجلال والجمال
١٠٠	المصور - الغناء الحلال
١٠١	الغناء الحرام - النافورة

الصفحة	الموضوع
١٠٢	الشاعر - شعر العجم
١٠٣	أصحاب الفن في الهند - الرجل العظيم
١٠٤	عالم جديد - خلق المعاني
١٠٥	الموسيقا - لذة النظر - الشعر
١٠٦	الرقص والموسيقا - ضبط النفس - الرقص
١٠٧	القسم الخامس : سياسات المشرق والمغرب
١٠٩	انقلاب - تملق - المناصب
١١٠	أوربة واليهود - عبودية الأنفس
١١١	الروس الشيوعيون - اليوم والغد - المشرق
١١٢	سياسة الإفرنج - العبيد - إلى أهل مصر
١١٣	الحبشة - أوامر إبليس إلى أبنائه الساسة
١١٤	جماعة الأمم الشرقية
١١٥	الملك الخالد - الجمهورية - أوربة وسورية - من موسوليني
١١٦	شكوى - انتداب
١١٧	السياسة اللادينية - شبكة التمدين
١١٨	نصيحة - قرصان وإسكندر
١١٩	عصبة الأمم - الشام وفلسطين - أئمة السياسة
١٢٠	نزعات العبودية - صلاة العبيد
١٢١	إلى عرب فلسطين - الشرق والغرب - نزعات التسلط
١٢٣	القسم السادس : أفكار محراب غل الأفغاني
١٣٣	الديوان السابع : رسالة الخلود
١٣٩	مناجاة
١٤٣	تمهيد سماوي
١٤٥	أغنية الملائكة - تمهيد أرضي
١٤٦	غزل
١٥٢	زروان (وهو روح الزمان والمكان)

الصفحة	الموضوع
١٥٤	زمزمة النجوم
١٥٧	القسم الأول - فلك القمر
١٦١	الحكيم الهندي الذي آثر الخلوة
١٦٢	الرومي
١٦٣	جهان دوست
١٦٥	تسع كلمات للعارف الهندي
١٦٧	تجلّي سروش
١٦٨	لحن سروش
١٦٩	الرحيل إلى وادي يرغميد
١٧١	طاسين جوتاما بودا
١٧٣	الراقصة - طاسين زرادشت
١٧٥	زرادشت
١٧٦	طاسين المسيح
١٧٨	طاسين محمد - ﷺ -
١٨٥	القسم الثاني - فلك عطارد
١٨٧	ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني
١٩٥	الأفغاني - زنده رود - الدين والوطن
١٩٦	الشيوعية والرأسمالية
١٩٨	سعيد حلیم باشا
١٩٩	زنده رود - الأفغاني
٢٠٠	محكمات العالم القرآني
٢٠٣	الحكم الإلهي
٢٠٤	الأرض ملك لله
٢٠٧	القسم الثالث : فلك زحل
٢٠٩	الحكمة خير كثير
٢١٠	زنده رود - سعيد حلیم باشا

الصفحة	الموضوع
٢١٢	الأفغاني
٢١٣	رسالة الأفغاني إلى شعب روسيا
٢١٦	جلال الدين الرومي
٢١٧	غزل زنده رود
٢١٩	فلك الزهرة
٢٢١	عودة الجاهلية
٢٢٥	أغنية بعل
٢٢٧	الغوص في بحر الزهرة - غزل
٢٢٩	الرومي - فرعون
٢٣٠	الرومي - اللورد كتسنر - فرعون
٢٣١	ظهور درويش السودان
٢٣٣	القسم الرابع : فلك المريخ
٢٣٥	أهل المريخ
٢٣٧	ظهور فلك المريخ من المرصد
٢٣٨	الرومي
٢٣٩	حكيم المريخ
٢٤٠	التجوال في مدينة مرغدين - حكيم المريخ
٢٤٣	قصة فتاة المريخ التي ادعت النبوة
٢٤٤	رسالة نبية المريخ
٢٤٦	الرومي
٢٤٧	القسم الخامس : فلك المشتري
٢٤٩	أرواح الحلاج وغالب وقررة العين الطاهرة
٢٥١	لحن الحلاج
٢٥٢	لحن غالب
٢٥٣	لحن الطاهرة
٢٥٤	زنده رود يعرض مشكلاته على الأرواح

الصفحة	الموضوع
٢٦٦	ظهور رأس أهل الفراق إبليس
٢٦٩	شكوى إبليس
٢٧١	القسم السادس : فلك زحل
٢٧٣	الأرواح الخبيثة التي غدرت بالوطن
٢٧٤	بحر الدماء
٢٧٥	روح الهند تظهر - روح الهند تنوح وتنتحب
٢٧٧	صيحة راكب في زورق بحر الدماء
٢٧٩	القسم السابع : ما وراء الأفلاك
١٨١	منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه
٢٨٣	الرحيل إلى جنة الفردوس
٢٨٥	قصر شرف النساء
٢٨٧	زيارة الأمير سيد علي همداني وملا طاهر غني كشميري
٢٨٨	في حضرة أمير همدان
٢٩٦	حديث مع الشاعر الهندي برتري هري
٢٩٩	السفر إلى قصر سلاطين المشرق
٣٠٣	ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها
٣١٠	رسالة السلطان الشهيد إلى نهر كاويري
٣١٣	زنده رود يغادر الجنة العالية
٣١٥	في الحضرة الإلهية
٣١٧	نداء الجمال الأبدي
٣٢٣	القسم الثامن : كلمة إلى الجيل الجديد
٣٣٧	الديوان الثامن : والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق
٣٤٢	التمهيد
٣٤٦	مناجاة الشمس
٣٤٨	حكمة الكلیم - سياسة الأنبياء
٣٥١	حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

٣٥٤	كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)
٣٥٨	فقر الصالحين
٣٦٣	الرجل الحر
٣٦٤	رباعيات
٣٦٦	في أسرار الشريعة
٣٧٠	دمعة على افتراق الشعب في شبه القارة
٣٧٤	السياسة الحاضرة
٣٧٧	إلى الأمة العربية
٣٨٩	والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق
٣٩٦	شكوى ومناجاة
٤٠٩	الديوان التاسع : هدية الحجاز
٤١٧	القسم الأول : بالفارسية - مناجاة
٤٢٣	في الحضرة الإلهية
٤٣٣	القسم الثاني : الرسالة
٤٥٧	القسم الثالث : المجتمع
٤٦١	الذاتية
٤٦٢	أنا الحق
٤٦٣	الصوفي والملا
٤٦٤	جلال الدين الرومي
٤٦٦	إلى مصر
٤٦٨	شعراء العرب
٤٧٠	يابن الصحراء
٤٧٠	وما يدريك أن المغوار في هذا الغبار
٤٧٢	الخلافة والملك
٤٧٣	التركي العثماني
٤٧٤	فتاة المجتمع

الصفحة	الموضوع
٤٧٥	العصر الحاضر
٤٧٦	البرهمي
٤٧٧	التعليم
٤٧٩	السعي في الرزق
٤٨٠	التمساح وصغيره - خاتمة
٤٨١	العالم الإنساني - تمهيد
٤٨٩	الذاتية
٤٩٠	الجد والاختيار - الموت
٤٩١	إبليس التراي وإبليس الناري
٤٩٣	إلى رفقاء الطريق
٥٠١	القسم الرابع : قصائد
٥٠٣	برلمان إبليس
٥١٨	نصيحة بلوش عجوز لابنه
٥١٩	الصورة والمصور
٥٢٠	عالم البرزخ
٥٢٣	الملك المعزول - مناجاة جهنمي
٥٢٤	مسعود المرحوم
٥٢٦	صوت من الغيب
٥٢٩	القسم الخامس : رباعيات
٥٣٤	مذكرات ملاً زاده ضيفم اللولابي الكشميري
٥٤٤	إلى سر أكبر حيدري - حسين أحمد
٥٤٥	السيد الإنسان
٥٤٦	فهرس الموضوعات
